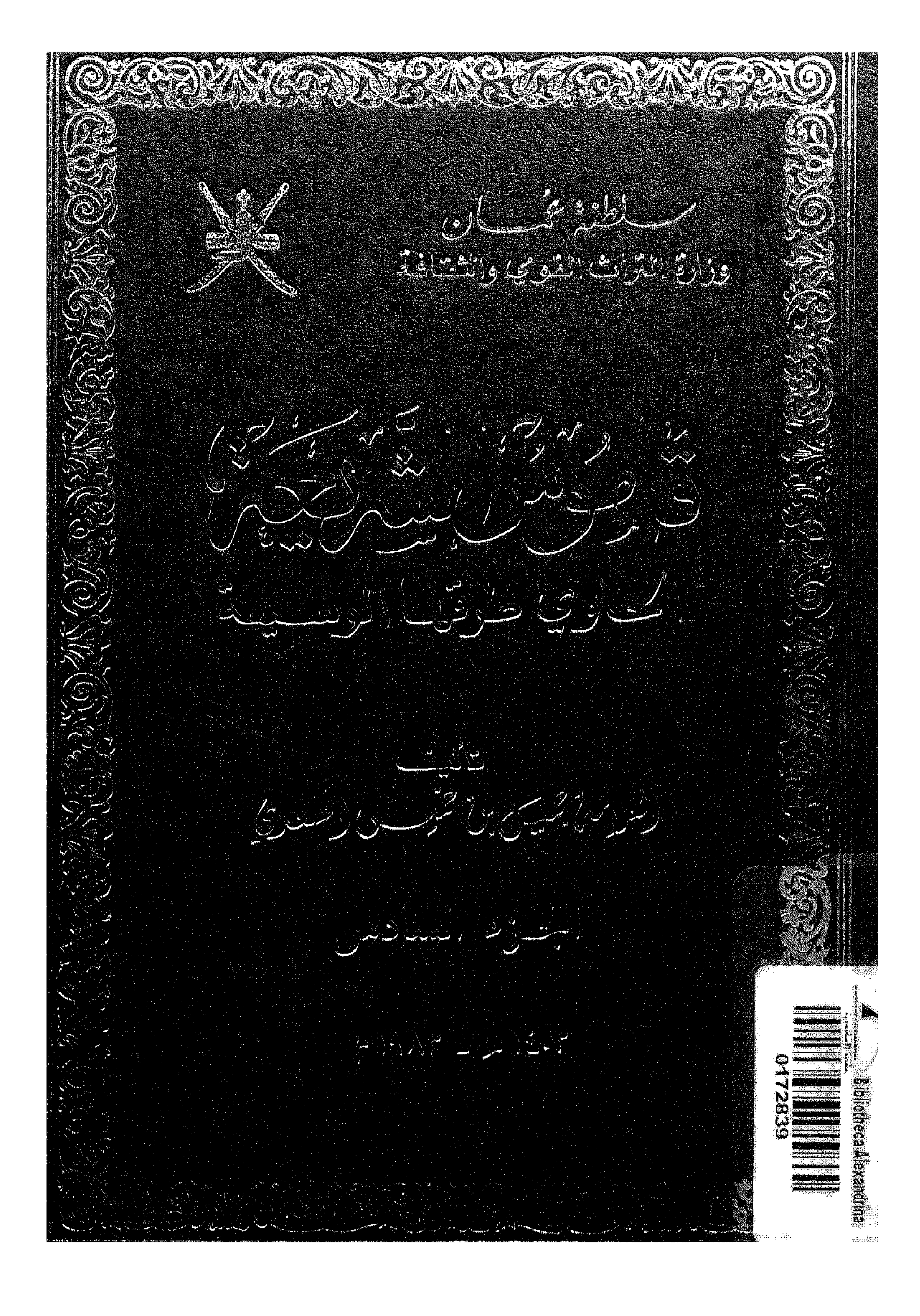


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة
قاموس الشريعة
الحاوي طرقها الوسيعة
تأليف
العلامة جميل بن خميس السعدي
الجزء السادس
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
Bibliotheca Alexandrina
0172839





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

قاموس الشريعة
الحاوي طرقها الوسيعة

تأليف
العلامة جميل بن خميس السعدي

الجزء السادس

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



بسم الله الرحمن الرحيم



الباب الأول

في الوعد والوعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن كتاب الارشاد تأليف الشيخ سالم بن سعيد بن علي الصايغي ، قال أهل الاستقامة من أمة محمد ﷺ : ان الله تعالى وعد من عمل بطاعته الجنة ولا خلف لوعده ، وأوعد من عصاه النار إذا مات غير تائب من معاصيه ، واصر عليها ، ولا خلف لوعيده ولا مبدل لقوله .

فان قال قائل : ان الله تعالى ينجز وعده ويبطل وعيده؛ قيل لهُ : إنهُ قال انه يجازي عصاة عبيده بأعمالهم السيئة اذا لم يتوبوا منها وهو يعلم انهُ يوقع بهم الجزاء ولا بد لهم من ذلك ، أو يكون قال ذلك وهو لا يدري انهُ يوقعه بهم ام لا ، أو يكون قال ذلك وهو يعلم انهُ لا يوقعه ، فان كان قاله وهو يعلم انهُ لا يوقعه بهم فهذا هو الكذب والله يتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، لأن من هذه صفته مذموم ، وقد ذم الله قومًا بقوله : ﴿لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا مالا تفعلون﴾ . فكيف يجوز أن يوصف الله تعالى ، بما لا يجوز ان يوصف بهِ الكريم من خلقه ، وهو الأعز الأكرم الذي لهُ الصفات العلا والأسماء الحسنى ، في الآخرة والدنيا وان كان قال : إني أفعل بهم وأعاقبهم على معصيتهم وهو لا يدري يعاقبهم عليها أم لا ؛ فهذه صفة الجاهل الذي لا يعلم ما يكون ، والله سبحانه عالم بما كان وما يكون .

والوعد هو ما وعد الله أهل طاعته من الثواب في الآخرة وهو حق ، والوعيد ما أوعد الله أهل الكفر والمعاصي من العقاب في الآخرة وهو حق والله اعلم .

مسألة : ومنه ؛ ومن زعم ان الله تعالى وعد قوماً النار ، ثم لا يدخلهم إياها فقد كذب على الله ، والله تعالى يقول : ﴿ما يبدّل القول لديَّ وما أنا

بظلام للعبيد﴾ وقال : ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين ﴾ فلا يجوز بطلان قول الله تعالى .

والله تعالى يقول : ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن وقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فاذن مؤ ذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين﴾ . فهذا يدل على بطلان قول من يقول : ان الله ينجز وعده ويبطل وعيده ، وكيف يسوغ هذا في عقول ذوي الألباب والله تعالى يقول : ﴿ما يبدّل القول لديَّ﴾ ، وقال : ﴿ولكن حق القول مني لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ ، وقال : ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ ، وهذا كله من الأخبار التي أخبر الله عنها ، ولا يجوز النسخ في الأخبار ، وانما النسخ في الأمر والنهي كما قال جابر بن زيد رحمه الله والله أعلم .

فصل في الوعد والوعيد واختلاف الناس فيهما من تفسير قصيدة الشيخ فتح ابن نوح المغربي

اختلف الناس في إثبات الوعد والوعيد على ثلاثة أقوال : فقالت المرجئة : كل من اثبتنا له الايمان بالقلب واللسان ، مع انهماكه في العصيان وتعطيله العمل بالأركان ، فلا بد لهُ من وعد الله وثوابه غداً في الجنان ، ولا يعرض على النيران ، ولا يجري عليه الوعيد الاَّ من قارنه الاشراك ، فان مصيره حينئذٍ الى الهلاك . فابطلت عقاب كل معصية قارنت التوحيد ، وقصرت على الشرك جميع ما جاء به القرآن من التهديد والوعيد ، كما قصرت الأمة عقاب الصغيرة على الاصرار وارتكاب الكبيرة . وقالت الحشوية وسائر الاشعرية بإثبات الوعد لمن أوفى إيمانه على الكمال ، وتوافقوا في انفاذ الوعيد على مرتكب الكبيرة غداً في المآل ، فقالوا : مرجعه الى مشيئة الله الكبير المتعال ، ان اوقع عليه العقاب فبعدله ، وان اسقطه عنه فبفضله ، وليس للوعيد تأثير على الكبير من الذنوب ولا الصغير .

وقالت الاباضية وغيرها من الصفرية والزيدية والمعتزلة ، بإنفاذ الوعيد في كل كبيرة قارنها الاصرار ، وعار منها التوبة والاستغفار ، وما شاكلها من

المصائب ، وشفاعة المصطفى ﷺ . وقطعوا انها في علم الله حتم ؛ ان العبد مأخوذ بها مع ابطال جميع طاعة راكبها ، ومخلد في النار على الدوام وانهُ لَيس في غير علم الله معنى يكفر بهِ الخطايا والعصيان ؛ الاّ ما أشار بهِ القرآن ، ودلت عليه سنة الرسول عليه السلام ، اذ لا يجوز التلبيس من جهة الرب الحكيم الذي لا يزول . كما اتفقوا مع الفرق الأولى ، وقضوا على انهُ ليس عند الله معنى يكفر بهِ الاّ أوضحه ، لهم ، ودلهم عليه ، وبالله التوفيق .

فصل في الرد على من أبطل الوعيد

ويقال للمرجئة وسائر الاشعرية في ابطالهم الوعيد اخبرونا عن قوله عزَّ وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا﴾ الى قوله : ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ ، في أمثال هذا من القرآن مما يطول ذكره . أخبرونا عن هذه الآيات وأمثالها من القرآن ؛ أهي وعيد لأهل الاقرار من هذه الأمة ، أم هي في أهل الشرك خاصة ؟ فان قالوا : في أهل الاقرار بطل ما انحلوه في الوعيد ، فان قالوا في اهل الشرك . قلنا : وكذلك النهي عنها ، انما هو في أهل الشرك خاصة ، فان حاولوا بينهما فرقاً لم يجدوه مع ما في هذا القول من الفساد أن يكون الله عزَّ وجل حرض المشركين على قتال المسلمين لانهُ قال : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ولم يقل : ﴿اشركوا﴾ ، وقال : ﴿الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ ، ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ ، فيكون المعنى على العكس ؛ ان يتواعد الله أهل الشرك الاّ يولوا أدبارهم المسلمين ، وان ينفروا الى قتالهم ، فهذا ما لا يقوله الاّ من بهِ آفة في عقله .

ولعمري ان من زعم ان الوعيد في اهل الشرك خصوصاً ، لقد أباح الدماء والحرام ، واسقط الحساب صراحاً ؛ لأن المحارم انما تتقى من اجل العقاب ؛ فمن ابطل الوعيد فقد اباحها . قال الله تعالى : ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ . وقال : ﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾ ، وقد قال الله في نساء النبي عليه السلام ؛ مع عظم اخطارهنَّ وتسميته إياهُنَّ أمهات المؤمنين : «يا نساء النبي من يأت منكنَّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين» . فقيل لجابر بن زيد رحمه الله : يا أبا الشعثاء ؛ اين يضاعف هذا

العذاب ضعفين ؟! فقال : (حيث يؤتها أجرها مرتين) لو عقلوا ما يبطل لعلة ، لأبطلوا ما نحلوه . سود الله لهم الوجوه ، لانهُ لا يمكن أن يجعلوها في أهل الشرك ، ولا ان يضاعف عليهن الحد في الدنيا مرتين .

معارضة : فان قالوا : أو ليس خلف التوعد ، مما يعد عند العرب من الجود ، ويستحق به صاحبه لعلة فاعله ، المدح وحسن الثواب ، فلم لا يكون عند الله ـ عزَّ وجل ـ بهذا اولى اذ هو غني عن تعذيب العباد ؟ قلنا : أوليس من عفا منا عن الأمر العظيم ، والذنب الجسيم ، ابلغ لهُ في المدح وحسن الثناء ؟ فان قالوا : بلى . قلنا : فلم أوجبتم الوعيد من الله ـ سبحانه ـ في اهل الشرك ؟ اذا أوليس عفوه عنهم اعظم المدح لهُ ؟ فان حاولوا فصلاً بينهما فلا يجدوه .

فلما أجمع أهل الصلاة جميعا أن الله لا يعفو عن أحد ، من أهل الشرك ، ثبت أن المدح ليس لأجل العفو عن الذنب الكبير ، أو الصغير ، لأن الواحد منا قد يعد ، ويتوعد ، ولا علم لهُ بعاقبة أمره من الوعد والوعيد ، ثم تبين لهُ بعد ذلك أن امضاء وعيده ؛ يصير الى افساد من امره فيعفو لأجل ذلك ، والله ـ سبحانه ـ لا تبدو لهُ البدوات من الأمور ، ولا يتصف بالفساد والجهل عند الجميع في شيء من الأشياء ، ولا يجتلب بالعفو لنفسه منفعةً ، ولا يدفع عنها مضرة ، وايضاً فلا يخلو القول في وعيده لأهل الكبائر من أحد ثلاثة أوجه : أما ان يتوعدهم وهو يعلم انهُ يوقعه بهم ، أو يتوعدهم وهو لا يعلم أيوقعه بهم أم لا ؟ فهذا هو الجهل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، أو يتوعدهم وهو يعلم انهُ لا يوقعه بهم ، فهذا هو الكذب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فلما ذم الله ـ سبحانه ـ من لا يفي بمواعيده قال : ﴿كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون﴾ ، وقال : ﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾ ، وقال في وعيده : ﴿لا تختصموا لديَّ وقد قدمت اليكم بالوعيد ما يبدل القول لديَّ وما انا بظلام للعبيد﴾ ، علمنا ان جميع اخباره ـ عزَّ وجل ـ من الوعد والوعيد صادقة ، وانهُ منجز وعده ووعيده ، وباتمامهما جميعاً ، فمعاذ الله أن تكون مواعده غروراً كمواعد ابليس اللعين وبالله التوفيق .

فصل : فان قالوا : قال الله تعالى : ﴿ان الله لا يغفر ان يشرك بهِ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ، فدل بهذا ان ما دون الشرك مغفور لمن ارتكبه ؛ قلنا : هذه الآية محمولة على ظاهرها . فان قالوا : نعم ؛ قلنا : وقد قال الله تعالى : ﴿ان الله يغفر الذنوب جميعا﴾ ، الشرك وغيره ، والقرآن يصدق بعضه بعضاً ، فلما اجمعوا معنا ان الله لا يغفر الشرك الاَّ بالتوبة ؛ دل على أن الغفران انما وقع على التائب ، لانهُ قال في موضع آخر : ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ الى قوله : ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ ، وقال في المنافقين : ﴿ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم﴾ ؛ فلما أجمعوا ان الله تعالى لا يغفر لأهل الشرك والنفاق الاَّ بالتوبة ؛ دل على الآية انها في التائبين ، او يغفر الصغائر للمجتنبين الكبائر ، ويقال لهم ايضاً : النفاق هو الشرك ، أو هو دونهُ فان قالوا : هو دون الشرك ، فقد زعموا انهُ مغفور دون توبة ، فان قالوا : هو فرق الشرك ، فليقروا كتاباً ناطقاً . فان قالوا : هو بعينه فقد أوجبوا أن عبدة الأوثان منافقون ، فحيثما توجهوا خوصموا ، والحمد لله رب العالمين .

ووجدت عن بعض أهل التفسير ، ان معنى الآية ، ان الله لا يتجاوز عن شرك لقيه بهِ عبدٌ ، ويغفر ما دونهُ لمن يشاء . وقالوا : ان ما دون الكبائر مغفور لأهله ، اذا هم اجتنبوا الكبائر ، فوضعوا الغفران على الصغائر التي لم يوجب الله عليها العقاب ، لقوله تعالى : ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ . (الآية) وكذلك روي عن جابر بن زيد ـ رحمه الله ـ وذلك أن رجلاً قال : يا أبا الشعثاء ؛ أرأيت قول الله تعالى : ﴿ان الله لا يغفر ان يشرك بهِ﴾ (الآية) . فقال جابر : أو انباك الله لمن يشاء ان يغفر ؟ قال : واين انباني يا أبا الشعثاء ؟ قال : ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ (الآية) . وذكر جابر ان رسول الله ﷺ إنه قال : «هلك المصرون» (ثلاثاً) فقال رجل : يا رسول الله ؛ فاين قول الله تعالى ؟ : ﴿ان الله لا يغفر ان يشرك بهِ﴾ (الآية) ، فقال رسول الله ﷺ : «افيكم احد يقرأ سورة طه» ؟ فقال ابَيّ بن كعب : أنا يا رسول الله ؛ فقال : اقرأ : ﴿واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ ؛ فقال رسول الله ﷺ : «لهؤلاء وقعت المشيئة» (ثلاثاً) وكان جابر

يذكر ان النبي ﷺ يقول : (من اطمع في الجنة من ايسه الله منها جمع الله بينهما في النار» .

فصل : وفي كتاب الضياء ؛ واخبرني ابو الحسن السلمي ، عمن اخبره ، ان ابا عمرو بن العلا النحوي المعروف بالقرآن واعرابه ، التقى مع عمرو بن عبيد المعتزلي ، فقال لهُ : يا أبا عثمان ؛ ما شيء بلغني عنك في الوعيد ؟ فقال له : يا أبا عمرو ؛ ان الله وعد وعداً وأوعد وعيداً ، فالله منجز وعده ووعيده فقال : يا ابا عثمان ؛ ان الله وعد وعداً وأوعد وعيداً فالله منجز وعده ومؤخر وعيده ، أما تعلم أن العرب لا تعد ترك الوعيد ذماً ، وانما تعده تكرماً ، وفضلاً ، أما سمعت الذي يقول :

ولا يخش ابن العم ما عشت صولتي ولا أنا اخشى صولة المتمرد
واني وان اوعدته ووعدته لمخلف ايعادي ومنجز موعدي

فقال : هؤلاء العرب يمتدحون بخلف الوعيد ، وانجاز الوعد ، ويرون ان هذا تكرم وفضل ، فقال عمرو بن عبيد : يا أبا عمر ؛ وشغلك الاعراب عن الصواب ؟ أما سمعت أن الذي يقول شعرا :

ان أبا خالد لمعتدل الرأي كريم الأفعال والبيت
لا يخلف الوعد والوعيد ولا يبيت من قراه على فوت

فهذا ممدوح على هذه الصفة ؛ اذ لا يخلف وعده ، ولا ما توعد اليه ، والله تعالى اصدق القائلين ، وقد قال : ﴿ونادى اصحاب الجنة أصحاب النار﴾ الى قوله : ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾ (الآية) . وقال تعالى : ﴿ما يبدل القول لديَّ وما أنا بظلام للعبيد﴾ . وقال : ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ . وعن عمر ـ رحمه الله ـ قال : (الشكاك في وعد الله كالشكاك في الله وما شكوا في وعد الله حتى شكوا في الله) .

فصل : ثم اختلف الناس في الوعد والوعيد ، من الجنة والنار ، من وجه آخر ، وقال اصحابنا وجميع من اثبت الوعيد من الزيدية والمعتزلة والصفرية : ان نعيم الجنة وعقاب النار لا انقطاع لهما ولا نهاية ، وان سكانها

من الابرار والفجار ، مخلدون فيهما لا يخرجون منهما ، ولا غاية لتخليدهما ودوامهما ، وقال جهم بن صفوان واشياعه : ان الجنة والنار لهما غاية ينقطعان اليها مع سكانهما ، ولا باقي الاَّ الله . وقالوا : لما وجدنا الله قديماً لا يحدث ، وباقياً لا يفنى ، ابطلنا عن الخلق ان يكون باقياً دائماً ، لئلا تثبت التسوية بين الخالق والمخلوق .

وقالت المرجئة وسائر الاشعرية بدوام الجنة والنار ، واضطربت كلمتهم في اهل الكبائر من هذه الأمة ، وتشبثت فيه امورهم ؛ فمن قائل يقول : ان أمة محمد لا تعرض على النار ؛ فمن قائل يقول : يعذب العصاة على قدر أعمالهم ، ثم يخرجون منها بشفاعة الرسول عليه السلام ، فينجز لهم ما وعد لهم من الثواب ، واحتجوا على تصويب مقالتهم زعموا من القرآن بقوله تعالى : ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والارض الاَّ ما شاء ربك﴾ . وقوله : ﴿وان منكم الاَّ واردها﴾ الى قوله : ﴿ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ . قالوا : ان الخلق يردونها جميعاً فينجو المتقون ، ويترك الظالم ، وكلهم يدخلونها ، وقال بعضهم : قد علمنا الورود ، ولم نعلم الصدر ؛ ما سيأتي في موضعه ـ ان شاء الله ـ واحتجوا على الخروج ايضاً بقوله تعالى : ﴿لابثين فيها احقابا﴾ . وقوله : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ . واحسب انهم احتجوا بقوله : ﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الاشرار﴾ (الآية) واستدلوا بهذه الآيات ؛ زعموا على خروج العصاة ، من هذه الأمة من النار ، وإنهُ تبقى في وجوههم سمة سوداء من النار ، فيعيرهم بذلك اهل الجنة . زعموا ويسمون الجهنميين ، فيشكون بذلك الى الله ـ عزَّ وجل ـ فيبعث اليهم جبرائيل عليه السلام زعموا فيمسح تلك العلامة من وجوههم ، فتستحيل نوراً يتلألأ ، حتى ان اهل الجنة يتمنون ان لو دخلوا النار فيفعل بهم ما فعل بأولئك ، في أحاديث كثيرة يرفعونها الى النبي ﷺ يطول بها الكتاب وبالله التوفيق .

وقال بعض المجبرة فيما وجدت ، ان اهل الجنة يتمتعون في الجنة ، واهل النار يتمتعون في النار ، كما ان دود الخل يتنعم في الخل ، ودود العسل يتنعم في العسل . وقالت النصارى والمنانية ـ لعنهم الله ـ : ان اهل الجنة

يدخلون الجنة ، ولا يأكلون ولا يشربون ، واهل النار يسيحون فيها كالحيتان على الماء والله اعلم .

فصل : في الرد على هؤلاء وبالله التوفيق

وأما الجهمية ؛ فالحجة عليهم قول الله تعالى في وصف الجنة : ﴿اكلها دائم﴾ (الآية) وقوله : ﴿لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾ . وقوله : ﴿خالدين فيها ابداً﴾ ، في امثالها من القرآن ، واما قولهم : وجدنا القديم لا يحدث ، والباقي لا يفنى فأبطلوا بهذه العلة البقاء عن الجنة والنار ؛ فانهُ يقال : ليست العلة في قدم الله تعالى لانهُ لا يفنى ، وانما العلة في القديم انهُ لم يحدث قط ، ولا يجري عليه الحدث ، والباقي قد يكون باقياً ولا يفنى ، ويمكن ان يجري عليه ، والقديم لا يكون قديماً الاَّ بان لم يحدث قط . واما بقاء الثواب والعقاب ودوامهما ، فانما هو بابقاء الله إياهما ، وادامته لهما ، ولو شاءَ لافناهما .

فصل : واما قول الاشعرية : وبشر المرسى وغيره من المرجئة ، في انتحالهم الخروج من النار ، فان الحجة عليهم من القرآن والسنة والعقل والقياس ؛ اما من القرآن ، فادلة كثيرة منها قول الله تعالى رداً على اليهود : ﴿وقالوا لن تمسنا النار الاَّ أياماً معدودة﴾ فرد الله عليهم فقال : قل يا محمد : ﴿اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ام تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ . ثم قال رداً عليهم : ﴿بلى من كسب سيئة واحاطت بهِ خطيئته﴾ - وهي الشرك فيما وجدت - في التفسير ، واحاطت بهِ خطيئته وهي الكبائر فيما وجدت ، ﴿فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ، وقوله : ﴿يريدون ان يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ ، وقال : ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون﴾ أي (مقيمون) . وقال : ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾ ، الى قوله : ﴿ولهم عذابٌ مقيم﴾ .

فان قال : هذه الآية في اهل الشرك خصوصاً ؛ قيل لهم : وكذلك ؛ قوله تعالى : ﴿ومن يعص الله ورسوله فان لهُ نار جهنم خالدا فيها ابداً﴾ ، انما

هي في اهل الشرك ، وقال : ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها . . ﴾ (الآية) ، وقال : ﴿لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الاّ بالحق﴾ الى قوله : ﴿ويخلد فيه مهاناً﴾ ، فان قالوا : هذه الآيات كلها في اهل الشرك ، قيل لهم : وكذلك ، النهي عن هذه الكبائر ، انما هو في اهل الشرك خصوصاً ، ولا يجدون في ذلك فرقاً ، واما من السنة فكقوله عليه السلام في حديث الربيع رضي الله عنه : «من قتل بعد العفو واخذ الدية فهو خالد مخلد في النار» ، وقوله عليه السلام : «من كذب واصرّ فهو مخلد في النار» وقوله عليه السلام : «من قتل نفسه بحد يده فهو يتوجأ بها في النار خالداً مخلداً ومن تحسى سماً فهو يتحساه في النار خالداً مخلداً ابداً ، ومن تردّى من جبل فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً ابداً» ، وفي امثال هذه الأحاديث التي هي موافقة لكتاب الله - عزَّ وجل - .

وعن الحسن ، عن كعب ، قال : وقف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على كدية من رمل ، فجلس اليها فبكى حتى بل لحيته ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ ما يبكيك ؟ قال : ذكرت اهل النار ، فقلت : لو جعل عدد كل حبة من هذا الرمل سنة يعذبون على حسابها ، ثم يخرجون من النار ، لطمعوا بالخروج يوماً من الدهر ، ولكن لم يجعل الله لهم وقتاً وما هم بخارجين منها ابداً . واما من العقل ؛ فان اهل الكبائر لا يخلون من أحد ثلاثة أوجه .

أما ان يجمع لهم الثواب والعقاب معاً ، فيكونوا معذبين في النار ، متنعمين في الجنة في حالة واحدة ، فهذا من احل المحال الذي لا يتوهم وجوده ، أو يكون يقدم احدهما على الآخر ، فيكون المقدم منقطعاً زائلاً ، والمؤخر متصلاً ، فأيها المتصل وأيها المنقطع ؟ وكل ما اثبتوا من ذلك فهو دعوى بغير دليل .

والوجه الثاني أن يكون أثابهم على وجه الطاعات ، وترك العقوبة على بعض المعاصي ، فهذا أيضا ساقط ، لأن المثاب لا يكون مثاباً حتى يسقط عنه جميع ما توعد الله عليه العقاب ، واما ان كان معه بعض الكبائر ، فلا ؛ لأن ذلك تكذيب لخبر الله عزَّ وجل .

والوجه الثالث ، أن يكون المثاب ليس معه كبيرة ؛ فيكون حينئذٍ من

المؤمنين المثابين ، وقد قال الله تعالى : ﴿بشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ ، ولم يقل : ﴿عذابا اليماً﴾ ، وقال : ﴿ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون﴾ وقال : ﴿ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ ، وان كان كافراً شقياً فقد قال الله تعالى : ﴿فأما الذين شقوا ففي النار﴾ ، وقال عنهم ربهم : ﴿غلبت علينا شقوتنا﴾ ، الى قوله : ﴿أخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ . في امثال هذا كثير من القرآن .

وأما ما احتجوا بهِ في قوله تعالى : ﴿إلاّ ما شاءَ ربك﴾ فقالوا : ان يخرج اهل الكبائر من النار ، فإن هذا تقوّل وذهاب عن الظاهر بغير دليل . وأيضا فإن اهل التفسير اختلفوا فيها ؛ فقال بعضهم : ﴿إلا ما شاء ربك﴾ أي من الزيادة في الخلود . وقيل في العذاب نظيره قوله تعالى : ﴿فلن نزيدكم الا عذابا﴾ ، وقال آخرون : ﴿الا ما شاء ربك﴾ ، من مكثهم في الدنيا ، وقيل : في (البرزخ) ، وقيل : (ما لبثوا في ظهور آبائهم) ، وقيل : (في أرحام أمهاتهم) ، وقيل (ما لبثوا في المحشر) قبل ان يدخلوها ، وايضا فانهم قد جامعونا على ان في الآخرة مواقف يسأل الناس فيها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وقفوهم انهم مسئولون﴾ ، وقيل : ﴿وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً﴾ ﴿والى الجنة زمراً﴾ ، فدل ان المجيء لا يكون الاّ بعد أوقات ، فكل ذلك ما شاء الله وهو الذي استثناه ، فمن زعم غير ذلك ، فعليه الدليل ، ولو كان في هذا ما يدل على الخروج ، لدل على خروج الأنس والجن اجمعين ، وذلك قوله تعالى : ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس﴾ الى قوله : ﴿قال النار مثواكم خالدين فيها الاّ ما شاء الله﴾ ، وبالله التوفيق .

وأما قوله : ﴿لابثين فيها أحقابا﴾ فليس فيها دليل على الخروج ايضاً ، لانهُ قال : ﴿ان جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً﴾ الى آخرها ، فهي عامة لجميع من دخلها من أهل الشرك ، ومن أهل الكبائر ، فمن ادعى التخصيص فعليه الدليل ، وان تفسيرها فيما وجدت في كتاب التفسير ﴿لابثين فيها احقاباً﴾ ، وهو جمع حقب ، اي زماناً لا غاية لهُ ، ويقال : الحقب ثمانون الف سنة ، كل يوم منه الف سنة ، كلما مضى حقب تبعه حقب ، الى ما لا غاية لهُ ، واما قوله : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ . فليس

فيها ايضاً دليل على الخروج ، وانما ذلك فيما وجدت في التفسير ، لما رأى الكفار كرامة المسلمين على الله ، تمنوا ان لو كانوا مسلمين . وكذلك ، قوله : ﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الاشرار﴾ في الدنيا ، كقوله : ﴿ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ ، فلما دخلوا النار لم يروهم معهم قالوا : (ما لنا لا نرى رجالاً) الى قوله : ﴿اتخذناهم سخريا﴾ فأخطأنا أم زاغت عنهم الابصار في الدنيا مخلوة لهم . والله اعلم ، وبغيبه ادرى وأحكم . واما قوله في الآية الأولى : ﴿ما دامت السموات والارض﴾ ، فان ذلك على قطع الرجاء ، كقوله تعالى : ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ومثله في كلام العرب : (لا أفعل ذلك حتى يؤوب القارظان) (ولا أفعله سن الحسل) ، أي لا ترجوا اتياني كما لا يرجع الموتى الى الدنيا وحتى تقع اسنان الحسل ، [وهو ولد الضب] واسنانه لا تقع ابداً فيما ذكروا ، وقال الشاعر :

وحتى يؤوب القـارظان كـلاهما ويرجع في القتـلى كليب لوائـل

وأمثال هذا مما يتكلمون بهِ على اليأس ، وقطع الطمع ، ووجدت أيضاً في التفسير ، أن الجنة في السماء ، والنار في الأرض ، وقال : ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ على هذا المعنى والله اعلم .

فصـل : وأما الأحاديث التي ذكروها فهي مخالفة لكتاب الله ـ عزَّ وجل ـ مردودة لأن الله تبارك وتعالى قال : ﴿وما ينطق عن الهوى ، ان هو إلاَّ وحي يوحى﴾ ، وجاء عنه عليه السلام انهُ قال : «وكيف أقول بخلاف القرآن وبهِ هداني ربي» ؟ وقد ذكرنا هذا المعنى فيما مضى من كتابنا ، في السفر الاول ، وبالله التوفيق . انقضى ما نقلناه من تفسير قصيدة الشيخ (فتح بن نوح المغربي) .

(**مســألة**) : عن الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي ، فانظروا اولاً الى كثرة الآيات في القرآن العظيم ، في وعيد الله بالعقاب في الآخرة بالنار ، والى كثرة أحاديث النبي ﷺ التي توعد بها فسقة المؤمنين بالعقاب في الآخرة بالنار ، تجدوها موافقة لآيات التنزيل ، وكثير منها أي الاحاديث عن الصحيحين أو في احدهما ؛ وهما عن من ابى ذلك . ثم انظروا ثانياً الى تلك الآيات المصرحة بأن الايمان وحده مع غير العمل الصالح ؛ أي الطاعة لله

بأداء ما اوجب اداءه ، وترك ارتكاب ما حرم ارتكابه ، الى احاديث الحاكمة ، بفعل بعض المعاصي للنار الدالة على ان الأيمان وحده بغير اسلام لا يصح ، ولا يتم ، ولا يكون ذلك الأيمان حكمه ايماناً ، بل يكون كذباً ، كذبه العصيان في العمل ، موافقة لاحكام التنزيل .

ثم انظروا الى هذه الآيات الدالة على تكفير فسقة المؤمنين ، وتسميتهم بالمكذبين ، لتكذيب ايمانهم بارتكاب المعاصي ، وهو الاسلام لقوله تعالى : ﴿وهل نجازي الا الكفور﴾ و﴿لا يصلاها الاّ الأشقى الذي كذب وتولى﴾ والآيات في عذاب فسقة المؤمنين ، دالة على انهم من اهل الكفر ، وانهم ممن كذب ايمانهُ بعصيانه في العمل ، وتولى عن الطاعة ، والى الاحاديث الموافقة لاحكام التنزيل .

ثم انظر رابعاً الى الله لا يخلف الميعاد ، بنظرك الى الآيات المتوعد بها عذاب فسقة المؤمنين ، والى الاحاديث الموافقة في ذلك للتنزيل .

ثم انظر خامساً في ان الله لا يبدل القول لديه بما توعد بهِ فسقة المؤمنين من العذاب في الآخرة ، بالاحاديث الموافقة للتنزيل ، الدالة على صدق ما قاله الله تعالى : ﴿ما يبدل القول لديه﴾ بما جاء في الأحاديث انهُ كذلك الحق ، في عقاب فسقة المؤمنين ، في الآخرة بالنار تارةً ، يذكره بالنار وتارةً يذكره باللعن ، وتارةً يذكره بالويل ، وتارةً بتحريم رائحة الجنة الى غير ذلك .

ثم انظر سادساً الى الاحاديث في الأمر بها ان تعرض على كتاب الله ، وهي من كتبهم ، (فما وافق الكتاب فهو مني ، وما خالفه فليسه مني) ، وقوله ﷺ : «اني تارك فيكم شيئين من اهتدى بهما لن يضل كتاب الله وسنتي لن يتفرقا الى ان يردا حوضي» ، وقوله ﷺ : «حدثوا عني بما تسمعون ولا تقولوا الاّ حقاً ومن يكذب عليَّ بشيء فله بيت في جهنم» ، كيف هؤلاء لا يبغون من الأحاديث كلها : ما وافق التنزيل ، وما خالف التنزيل ، اتخذوه مذهباً واعتقدوه هو الحق الذي لا يجوز خلافه ، مع انها أحاديث يناقض بعضها بعضاً ، متى اعتقد صدق حديث منها كان الباقي كذباً غير صحيح ، لأن كل حديث يخالف (ليت شعري) ؛ أي حديث منها هو الصحيح .

ثم انظر سابعاً الى الاحاديث المصرحة بفسق المؤمنين ، في كل زمان ،

انهُ يسمى منافقاً ، وانهم بهِ منافقون ، وانهم للنار وذلك في الصحيحين ، أو في احدهما وفي غيرهما ، وهم لا يقولون : انهُ نفاق ولا انهم منافقون فلا يعملون بقول نبيهم عليه صلوات الله وسلامه حتى فيما صح عنه في ذلك .

ثم انظر ثامناً في تسمية الله تعالى فسقة المؤمنين (بالكفار) وفسقهم (بالكفر) والتكذيب للايمان (بالعصيان) من هذه الآيات ومن هذه الاحاديث المصرحة بذلك ، وهذه الآثار المصرحة ايضاً بذلك ، وفي الصحيحين وهم - مع ذلك - لا يجوزونه في فسقة المؤمنين ؛ لانهم اذا جوزوه بطل اعتقادهم في العفو عن فساق هذه الأمة في الآخرة .

ثم انظر تاسعاً في الحديث «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وفي الحديث «بشر امتك يا محمد من مات منهم ولم يشرك فللجنة وان سرق وزنا» فإن صح هذا الحديث صارت جميع الأحاديث التي ذكر فيها «من فعل كذا فهو للنار» والتي فيها «لعنة الله والويل ولا يجد رائحة الجنة زوراً وكذباً» وان كتبهم مشحونة من الكذب ، وصح ان النبي ﷺ لم يج مصدقاً لما معه ولما بين يديه من التوراة والانجيل ، ولم يكن هذا من قول الله في الشارع بصحيح ، لانهُ جاء بما يخالف التنزيل .

وان صح قول الله انهُ جاءَ مصدقاً لذلك ، صح ان قول الله هو صحيح ، وصح ان الاحاديث الصحيحة ، هي ما وافق احكامها احكام التنزيل ، وان ما خالفه منها باطل . واذا صح هذا صح ان كتبهم مملوءة من نقل احاديث الكذب ، بدليل انها مصرحة باحكامها على خلاف صريح التنزيل ، ولا محيص لمحتج عن هذه الاحوال . واذا كانت كتبهم في الأحاديث الصحيحة معهم كذلك ولا محيص الاَّ أن تكون كذلك فلا تقوم بها الصحة في أحاديث الرؤ ية في الآخرة لذات الله تعالى بنظر العين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولا في غير ذلك مما قد خالف التنزيل ، ولا مما لا يعرف حقه ولا باطله ، وبهذا يتضح برهان الحق المبين ضلال مذهبهم ببيان اوضح من نور الشمس للناظرين ، لمن جرد عقله وفكره عن التعصب لمذهب قال بخلاف ذلك ، لان المتعصب لا ينظر الى الحق الواضح ، فهو أعمى لا ينظر بنور الشمس بعينه ، وهي اضوأ شيء حتى للعوام ولكن ﴿من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فما له من هاد﴾ .

الباب الثاني

فيما يتعلق بهِ في اسقاط العذاب على مرتكبي الكبائر

من كتاب (ركن الدين) الذي يتعلق بهِ في ذلك آيات ، فمن ذلك ، قوله تعالى : ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين﴾ قال : فاذا كانت النار اعدت للكافرين ، فكل من ليس بكافر لم تعد لهُ .

الجواب ، هو انا بينا انهُ لا يجب ان يحكم بأن المتروك حالهُ خلاف المذكور ، واذا كان كذلك لم يدل قوله (اعدت للكافرين) انها لم تعد لغيره ، وذلك يسقط التعلق . وجواب آخر وهو : ان اصحاب النار يكونون على مراتب سبعة ؛ كما قال تعالى : ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ . فأعد لكل فريق منهم ، غير ما أعد للآخر ، فيجوز ان تكون النار الموصوفة ، بان (وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين) ، خاصة وأعد لغيرهم ممن ليس بكافر ناراً ، من دون هذه ، واذا كان كذلك يسقط السؤال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فانذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها الاّ الأشقى الذي كذب وتولى﴾ ، قالوا : فحكم بأنهُ لا يصلاها الاّ المكذب المتولي ، وهو الكافر ، وذلك يوجب ان لا يصلى النار غير المكذب المتولي ، الجواب نحو ما تقدم ؛ وهو ان هذه النار الموصوفة بانها لظى لا يصلاها الاّ المكذب الاّ أنهُ ليس في الآية ، أنهُ ليس هنالك نار على غير هذه الصفة ، فيجوز ان يكون ناراً لا تتلظى لغير المكذب المتولي .

وجواب آخر وهو : ان التعليق بهذه الآية ، والتي قبلها لا يصح مع الخوارج ، لأنهم يقولون : ان الفاسق كافر فلا يصح معهم التعلق بها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين﴾ ، قالوا : فأخبر انهم كانوا يكذبون بيوم الدين ، وهذه صفة الكافر ، والفاسق خارج من جملتهم .

الجواب : ان هذه الآية مخصوصة في بعض الكفار ، يدل عليه ان من الكفار من لا يكذب بيوم الدين كاليهود والنصارى ؛ واذا كان كذلك وسائر الآيات ناطقة بعذابهم ، والأمة مجمعة على استحقاقهم العقاب فسقط التعلق بهِ . وبعد ؛ فليس في الآية أنهُ لجميع من أدخل النار ، اذ الجواب ينبىء لفريق دون جميعهم على ما لخصناه .

وجواب آخر ؛ وهو ان المعنى فيه ليس ان كلًّا منهم جمع هذه الأفعال وارتكبها ، بل قد يجوز ان يكون تفرد كل منهم بشيء منه ؛ أوَلا ترى ان من كذب بيوم الدين ، وان لم يخض مع الخائضين ، فمعذب بلا خلاف ؟ وكذلك من ترك الصلاة ، وان لم يكذب . ومثال هذا الكلام قول القائل : دخلنا بلد كذا فقتلنا وسبينا وغنمنا ، ليس يريد ان كل واحد منهم قتل وسبى وغنم ، بل يريد ان هذه الأفعال كانت منهم ؛ فمنهم من قتل ولم يسب ، ومنهم من سبى ولم يقتل ، ومنهم من غنم ولم يسب ولم يقتل ، فكذلك هؤلاء المجرمون ، انهم دخلوا النار لاجل هذه الوجوه ، ومن ترك الصلاة ، وترك اعطاء الزكاة ، والخوض مع الخائضين ، والتكذيب بيوم الدين .

قال غيره : فهذه الآية عامة لأنهُ قال : «لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين» . فالمشرك لا يخاطب بترك الصلاة ، وترك اطعام المسكين ، ويتندم على ذلك فقط ؛ بل بعدم دخوله ، وتركه الاسلام اولاً ، وان كان يمكن المعنى أنهُ لو كان من المصلين ، لكان من المسلمين ، واسمهما واحد ، ولذلك دخل المشركون في الخطاب . ولأن كل عاصٍ لله فهو غير خائف عقابه ، ومن لم يخفه فما ايمانه صادقا بالاتفاق .

(رجـــع) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الاّ في ضلال كبير﴾ ، قالوا : فأوجب ان جميع اهل النار مكذب .

الجواب ؛ هو : ان الآية في الكفار خاصة ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ (الآيات) ، الى آخرها الذي يدل على انها مخصوصة في بعض الكفار ، قوله تعالى : ﴿بلى قد جاءنا

نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ . او ليس هذا من قول جميع الكفار ؟ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وهل نجازي الاّ الكفور﴾ . قالوا : فأوجب ان لا يجازي الاّ من كان كفوراً .

الجواب : قد بينا في الفصل الرابع من باب التكفير ، وجواب آخر سوى ما ذكرنا هناك وهو ان الكفور في اللغة ، يجري مجرى الذي يتابع الكفر ، ويكثر منه ذلك ، وليس الكافر كذلك ، بل قد يلزمه اسم الكفر بكفر واحد ، فكما ان الوعيد لم يزل عن هذا الكافر ، وان كان لا يسمى كفوراً ، فكذلك لم يزل عن غيره ممن لا يسمى كافراً . ومن ذلك ، قوله تعالى : ﴿ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى﴾ ، قالوا : فأوجب أن الخزي في ذلك اليوم والسوء على الكفار ، وان العذاب على المكذب المتولي ولا عذاب على غير من ذكر .

الجواب : ان الشيء ينسب الى من لهُ معظمه واكثره فلما كان اكثر العذاب واشد الخزي على الكفار ؛ نسب اليهم الجميع ، كقولهم : (الحلم للاحنف والجود لحاتم) وكقوله تعالى : ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ، وقد يخشى من ليس بعالم . ومن ذلك قوله تعالى بعدما اخبر ان الناس صنفان مبيض الوجه ومسود الوجه : ﴿فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم﴾ (الآية) ، فذكر انهم كفار .

الجواب ؛ هو : انهُ تعالى لم يخبر انهُ ليس في الناس الاّ هذان الصنفان ، بل اخبر عن فرقتين منهم ، والذي يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿أكفرتم﴾ ، وليس كل كافر كفر بعد ايمانه ، فان منهم من لم يؤمن قط فالآية واردة في بعض الكفار ، دون جميعهم ، فلا متعلق فيه ، فان اكثر الكفار من لم يكفر بعد ايمانه ، ولا يجوز ان يتأوّل ذلك الاّ على الايمان الذي ثبت بالفطرة ، لا بالفعل ، لان ذلك ليس بحقيقة ؛ فلئن جاز لهم ان يعدلوا بهِ عن الظاهر ، ليستقيم مذهبهم ، ليجوز ان يحمل الكفر على كفر النعمة بالاقدام على الكبائر ، فيدخل الفاسق فيه حذو القذة بالقذة . ومن ذلك قوله تعالى بعدما حصل الناس ثلاثة اصناف : السابقون ، واصحاب الميمنة ، واصحاب

المشأمة ، وبين السابقين واصحاب الميمنة في الجنة ، واصحاب المشأمة في النار ، ثم بين انهم كفار بقوله تعالى : كانوا يقولون : ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً انا لمبعوثون﴾ .

الجواب : ان الآية لم تشتمل على جميع الناس ، لان الانبياء عليهم السلام ، غير داخلين في الفرق الثلاث : اذ السابق من سبق الى تصديقهم ، وكذلك الاطفال والمجانين ، على ان الآية ، وردت مخصوصة في بعض الكفار ، الَّا انهُ اخبر عن نُفاة البعث ، وليس جميع الكفار ينفون البعث ، بل اكثرهم يثبتون البعث كاليهود ، والنصارى وغيرهم ، واذا كان كذلك فلا متعلق فيه . وبعد : فان الفاسق غير داخل في الفرق الثلاث ، لان وصفه خلاف وصف هؤلاء الفرق الثلاث ، واذا كان كذلك لم يجب الحكم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾ (الآيات) الى آخرها قالوا : فقد حكم للفرق الثلاث بدخول الجنة .

الجواب : ان هذا غلط وذلك ؛ ان قوله : «فمنهم» راجعة الى عبادنا دون المصطفين انهُ قال : ﴿ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فمن عبادنا ظالم لنفسه لانهُ جرى للعباد ذكر وهو قوله : ﴿انهُ بعباده لخبير بصير﴾ .

(مسـألة) : لغيره من بعض اصحابنا ، في قوله تعالى : ﴿وهل نجازي الَّا الكفور﴾ .

الجواب : قد سمى الله تعالى الفاسق باسم الكفر ، في مواضع من التنزيل .

احدها : في آية الحج قوله : ﴿ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾ .

والثاني قوله : ﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون﴾ .

والثالث قوله تعالى في النساء : ﴿واللاتي يأتينَ الفاحشة من نسائكم﴾ الى قوله : ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ اي لم يتوبوا .

والكلام كله في المؤمنين ، وان امكن دخول غيرهم مع آخر اللفظ في هذه الآية وفي سورة (عبس) في موضعين : ﴿قتل الانسان ما اكفره﴾ ﴿واولئك هم

الكفرة الفجرة﴾ وفي سورة هل أتى قوله : ﴿اما شاكرا واما كفورا﴾ ، فان احتج مخالفنا انهُ لم يرد بهذه الآيات فسقة المؤمنين ؛ قلنا : فاللفظ عام وذكرهم بهذا الاسم في موضع آية الحج .

وان احتج انهُ كذلك على من انكر فريضة الحج ، قلنا : لا ينكر فريضة الحج الاَّ من انكر فرائض الله تعالى ، وهو المشرك فلا يخص ذكره في انكاره فرض الحج ، وهو منكر لنبوة الرسول ورسالته لتنزيل الله تعالى ، وقد سمى النبي تارك الصلاة متعمداً كافراً . وسمى الامام علي من ترك واجباً عليهِ كافراً ، وسمى الشافعي من قال القرآن مخلوق كافراً ، وسمى العلماء الاوائل منهم المفسرون لكلامه ، انهُ اراد كفر النعمة لا كفر خروج من الملة ، وكل ذلك في كتبهم . فماذا علينا من انكارهم للحق بعد ما شاهدناه في كتبهم هو الحجة الكبرى قولهُ تعالى : ﴿وهل نجازي الاَّ الكفور﴾ ؟ .

فان كان الفاسق من المؤمنين لم يدخل في هذا الاسم ، وصفتم الله بغير الصدق لانهُ اتى في آيات مفردة في وعيده لفسقة المؤمنين صريحاً فصح ان اسم الكفر ، يطلق على الشرك ، وعلى الفسق في الشكر ، واسم الكافر يطلق على المشرك ، والفاسق من المؤمنين ؛ ويكون معناه في المشركين فسق شرك ، وفي المؤمنين فسق الشكر ، وكذلك الظلم ، ولم يبقَ غير اسمين لا يصح ان يسمى بهِ الاَّ قسمان منهما .

احدهما ؛ الشرك فلا يكون في المؤمنين الاَّ ان يشركوا بهِ ، وكذلك الشرك لا يسمى بهِ المؤمن الفاسق .

والثاني ؛ النفاق الانكاري ، والنفاق في الشكر لا يسمى بهِ المشرك واهل خلافنا المتأخرون منهم ، لا يجيزون اسم المنافق الاَّ في النفاق الانكاري ، والذي كان في زمن النبي ﷺ ، وفي كتبهم كثير ، انهُ يطلق على جميع فسقة المؤمنين بروايات عن النبي ﷺ ، وعن الحسن البصري ، ومن كان من اصحابه في عصره ، وغيره ، وماذا علينا منهم مما قد كفونا عن الاحتجاج عليهم بما هو موجود عنهم في كتبهم ؟ كذلك ، فصح ان هؤلاء المتأخرين ليسوا على مذهب علمائهم الأوائل والله اعلم ، وبالله التوفيق .

فصل : من كتاب (الحق المبين)

عن الشيخ ناصر بن ابي نبهان قال الله تعالى في البقرة : ﴿يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ الى قوله : ﴿الظالمين﴾ ، فانظر كيف جعل المن والأذى ، يبطلان ثواب الصدقات ، ومثلهم بمن ينفق مالهُ رياء الناس ، ولا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ، فان كان المراد بهِ المشرك ؛ فهو اشد مثلاً في كفر فاعل ذلك كفر نعمة . وان كان المراد انهُ صار المرائي في الحكم ، غير مؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، لانهُ كذب ايمانه بخلاف العمل بما يصدقه ، صار حكم من تبع صدقاته بالمن والأذى ، كحكم المصدق برياء الناس ، كل منهما لم يصدق ايمانه بعمله ، فهو في الحكم غير مؤمن بالايمان النافع لهُ .

وقال تعالى : ﴿ان الذين يأكلون الربا لا يقومون الاَّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ الى قوله ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ ؛ فقال اهل خلافنا : المعنى ، ومن عاد الى القول (انما البيع مثل الربا) فالوعيد يتوجه اليهم لا الى فاعلي الربا مع الاقرار بانهُ حرام . وحرف (من) يدل على ان المراد بهِ المؤمنين ، والمؤمن لا يعود الى ما يشرك بهِ ، لانهُ متى سمع الآية وهومؤمن لا يعود ينكر ما انزل الله ، فاذا انكر بعد ذلك صار مشركاً ، والمشرك الذي لا يؤمن ، وان عاد قال ذلك فلا يؤثر ذلك الوعيد عليه انهُ في خلوده في النار ، لان الخلود لهُ حاصل بشركه بالله وبقوله ذلك من قبل .

وان امتنع عن الاعادة فلا ينجيه امتناعه عن الخلود في النار ، فصح ان المعنى في المؤمنين من عاد منهم بالقول : صار كافراً كفر شرك يقتل ان لم يتب ، وان عاد الى الفعل دون القول ، صار كافراً كفر نعمة ولا حجة لمخصص على هذا ، على القول دون الفعل بغير دليل ولفظ الاعادة يعمهما . فان كان لما قد جاء في علم الفقه ان الحكم على الترتيب المناسب ففي الآيات ذكر القول وذكر النهي عن الفعل ، وقوله : ﴿فاذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ ، بعد ذكر المعنيين .

وما منع اهل خلافنا من منع منهم عن اجراء الوعيد على العموم ، الاَّ نفيهم انجاز الوعيد على فسقة المؤمنين ، وتارةً يقولون : بحمده العفو بعد

الوعيد . وقد وجدت تفسيراً طويلاً للتنزيل منسوبا للرازي : وهو ينقل فيه عن الرازي غيره قبله وعن صاحب (الكشاف) فدل بذلك على انهُ من المتأخرين ، وابدى فيه من غرائب المعاني ما لم ار كذلك في تفسير للتنزيل ؛ وهو شديد التعصب لتصويب مذهبه في العفو عن عقاب فسقة المؤمنين ، وفي منع جواز تكفيرهم ، وفي ثوابهم بمجرد الايمان من غير عمل صالح بأداء اللازم ، وترك المحرم ، كثير الاحتجاج على المعتزلة في ذلك ، ولكن قد يخالف اصحابه في تفسير بعض الآيات وسنورد عنه بعضاً في ذلك .

واتفق اهل المذاهب الاربعة الاّ من شاء الله تعالى منهم ، على ان خلف الله لوعيده لفسقة المؤمنين من هذه الأمة ، من الصفات المحمودة في الله تعالى ، لانها صفة في الناس ، وفي الملوك من احمد الصفات ، والله تعالى احق بها ، ولم يفصلوه على ما في عقولهم من معرفتهم بهِ انهُ لا على الاطلاق هو محمود في الناس ، وفي الملوك ، بل في مواضع هو من الصفات الذميمة ، لانهُ يكون على وجوه .

الوجه الأول : عفو السلطان عن من يظلم من رعيته في رعيته ، القادر على زجره وادبه ، فتركه ذلك من اذم الصفات فيه .

الوجه الثاني : فيما بين الملك وبين العاصي لهُ من رعاياه ، ثم يتعدى بهِ الى غير الملك ، او بين المرء وبين ظالم له ، فالعفو لهُ في هذا ، يكون على قسمين :

أما انهُ قد يوعده بالجزاء وهو حاضر أو غائب عنه ، عن غضب حل بقلبه في حين ذلك ، فان كان قاصداً ذلك فيه حين نطق بالتوعد عليه فهو صادق ، ثم بدا لهُ من بعد أن يعفو عنه لأمر رآه ، اصلح لهُ أي العافي ؛ فالله تعالى لا تجوز لذاته هذه الصفة ، وليس هي من الصفات المحمودة لذات الله ، لانهُ يصير محلاً وظرفاً للاعراض ، ووصفه بهذا كفر عظيم .

والقسم الآخر ، انهُ يوعده على غضب حل بهِ فيه ، اي ثم زال عنه فأهمله عفواً ، فهذا في وصف الله تعالى بهِ كفر .

الوجه الثالث : فيما بينه ، أي السلطان ، وبين الرعية حدود حددها عليهم في طاعته لهم مما لا يليق من الرعية الاّ طاعته فيها ، وتوعد بالجزاء على من خالفه فيها ، وان ترك جزاءه فيهم وقع ما لا يليق بهم ، ولا بالملك ، فمن

عصاه في ذلك منهم ، فالعفو في ذلك على قسمين :

أحدهما ؛ اذا كان حدد ذلك ، وفي نفسه انهُ لا ليجازي من عصاه فيه ، وانما اراد اظهار عفوه لهم ، واظهار كرامته فيهم ، بالعفو فهذا مما لا يعد من الصفات المحمودة ، لا سيما فيما هو قبيح في ظاهر الأمر مما عصوه فيه وحدده ، ان لا يعصوه فيه ، لانهُ نوع من اللعب واللهو ، واظهار الاستخفاف ، وتضعيف هيبته ، ويدعو الى الجرأة في كل فعل غير لائق ، والى ظلم الرعية بعضها لبعض .

والقسم الثاني ، انهُ حدد تلك الحدود ، وتوعد بذلك الجزاء ، وفي نفسه انهُ ليفعل بجزائهم ذلك ، ثم عصاه من عصاه ؛ فعفوه عنه ان لم يكن الأمر نظره بعد ذلك ، وهو باق على عصيانه متمرداً غير مذعن اليه بالرجوع عن ذلك ، فليس ذلك من الصفات المحمودة في العافي ، بل لا يفعلهُ أي العفو الاَّ العاجز عن ادب العاصي ، وانهُ يكون ذلك سبباً لفتح ابواب الجراءَة على عصيانه ، والاستخفاف بهِ ، ويدل ذلك على كذبه فيما يتوعد بهِ من ادب المستحقين الأدب .

وان كان لضعف الهمة ؛ فليس ضعف الهمة عن ادب من يستحق الادب ، من الصفات المحمودة ، فان قلت : ومن آذاني بشيء وكففت نفسي عن مجازاته ، أليس هذه لي من الصفات المحمودة ؟ قلت : لا عارضك قول النبي ﷺ : «وأن تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك» قلت : فالصحيح ما قاله النبي ﷺ ، وهو الحق ولكن لا ينافي شيئاً مما ذكرناه ؛ لان لهُ خصوصاً وعموماً اذ قوله ﷺ لا ينافي احكام التنزيل وقد قال الله تعالى : ﴿ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ ، وقال تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ ، وقال تعالى : ﴿وان تعفوا اقرب للتقوى وان تعفوا فهو خير لكم﴾ والمراد لمن جاء طالباً للعفو والمعتدى عليه قادر للزجر والادب ، والاَّ كان ذلك مما يؤدي للسفهاء الجراءَة ، والظلم للنبلاء ، والعافي على هذا ليس من الصفات المحمودة ، بل هي من اشد صفات الذم ، فصح ان هذه الصفة لذات الله ليست من الصفات المحمودة ، وانهُ ـ تعالى ـ منزه عن ذلك ، ومنزه عن خلف الوعيد لكل من توعده ، لانهُ مما يؤدي الى فتح ابواب الجراءَة على عصيانه ، وعصيان اولي الأمر من أوليائه من العلماء ، والامراء والقضاة ، فيجوز ابطال وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لمحمدة العفو عن الآتين المنكر التاركين الواجب من المعروف اذا كان العفو محموداً على الاطلاق

في صفات الله وصفات الناس ، وهذا باطل لا يقول بهِ الاّ ممسوخ العقل .

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق﴾ (الآية) ؛ ومن التفسير روي عن أبي عبيدة بن الجراح ، قال : قلت يا رسول الله ؛ من أشد الناس عذاباً يوم القيامة ؟ قال : «رجل قتل نبياً أو رجل امر بالمنكر ونهى عن المعروف» وقرأ ، (هذه الآية) ثم قال : «يا أبا عبيدة ؛ قتلت بنو اسرائيل ثلاثة واربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ثم قامَ مائة رجل ، واثنا عشر رجلاً من عباد بني اسرائيل ، فأمروا من قتلهم بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم» ، الى تمام تفسيره .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : وكلام النبي ﷺ ، هذا مجمل على كل من قتل نبياً وعلى كل من نهى عن المعروف وامر بالمنكر لانهُ لم يقل : أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين قتلوا هؤلاء الانبياء ، وهؤلاء الآمرين والناهين ، وهذه حجة على الرازي في ابطال العقاب لفسقة المؤمنين بآيات الوعيد .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ ؛ من التفسير ، اعلم انهُ لما بين تعالى ان الانفاق لا ينفع الكافرين البتة ، علّم المؤمنين كيفية الانفاق الذي ينتفعون بهِ في الآخرة ، فبين في هذه الآية ان من انفق مما احب ، كان من جملة الابرار . وقال في آية اخرى : ﴿ان الأبرار لفي نعيم﴾ ، وقال : ﴿ان الابرار يشربون من كأس﴾ (الآية) ، وقال : ﴿ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل﴾ (الآية) فذكر في هذه اكبر اعمال الخير وسماه بالبر ، ثم قال في هذه الآية : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ ، وهذا يدل على ان الانسان اذا أنفق مما يحبه ، كان ذلك أفضل الطاعات ، وهاهنا بحث وهو ان لقائل ان يقول كلمة حتى لانتهاء الغاية ، فقوله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ ، يقتضي ان من انفق مما أحب فقد نال البر ، ومن نال البر دخل تحت الآيات الدالة على عظم الثواب للابرار ، فهذا ينبغي ان من انفق ما أحب ، وصل الى الثواب العظيم ، وان لم يأت بسائر الطاعات ، وهو باطل .

وجواب هذا الاشكال ؛ ان الانسان لا يمكنه ان ينفق محبوبه ، الاّ اذا توسل بانفاق ذلك المحبوب ، الى وجدان محبوب اشرف من الأول ، فعلى هذا ؛ فالانسان لا يمكنه ان ينفق الدنيا في الدنيا ، الاّ اذا تيقن سعادة

الآخرة ، ولا يمكنه ان يعترف بسعادة الآخرة ، ويمكنه الّا اذا أقر بوجود الصانع العالم القادر ، واقر بانهُ يجب عليه الانقياد لتكاليفه ، واوامره ونواهيه . فاذا تأملت علمت ان الانسان لا يمكنه انفاق الدنيا في الدنيا ، الا اذا كان مستجمعاً لجميع الخصال المحمودة في الدين . وللمفسرين في البر قولان :

أحدهما : ما يصيرون بهِ ابراراً ، حتى يدخلوا في قوله تعالى : ﴿ان الابرار لفي نعيم﴾ فيكون المراد بالبر ما يحصل منهم من الاعمال المقبولة .

والثاني : الثواب والجنة .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي : وهذا كله حجة على الرازي لا لهُ ؛ لانهُ يوجب وجود الثواب لفسقة المؤمنين ، بنفس الايمان بغير عمل الصالحات الذي هو نفس الاسلام ، وحقيقته ، وذاته وعينه ومعناه ، وهاهنا قال بخلاف ذلك ؛ لان الايمان في أعمال البر مذكور بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وجميع ما ذكره بعد ذلك ، قال : لم يكفه ليكون من الابرار الذين لهم النعيم في الآخرة ، حتى ينفقوا مما يحبون ، أي حتى يستكملوا اداء جميع الخصال الواجبة عليهم ، وترك المحجور عليهم والله اعلم .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾ ، أي ولله على الناس حج البيت ؛ يعم المؤمن والكافر وعدم الايمان لا يصلح معارضاً ومخصصاً لهذا العموم ، لأن الدهري مكلف بالايمان بمحمد ﷺ ، وقال : وروي انهُ لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله ؛ اكتب علينا الحج في كل عام ، ذكروا لهُ ذلك (ثلاثاً) والنبي ﷺ ساكت ، ثم قيل لهُ ذلك فقال في الرابعة : «لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما قمتم بها ، ولو لم تقوموا بها لكفرتم ، الا فوادعوني ما ودعتكم ، واذا امرتكم بأمر فافعلوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن أمر فانتهوا عنه ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة اخلافهم على أنبيائهم» ، وقوله : ﴿ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾ ، في هذه الآية قولان :

احدهما : انهُ كلام مستقل بنفسه ، ووعيد عام في وعيد كل من كفر بالله ، ولا تعلق لهُ بما قبله .

والقول الثاني : انهُ متعلق بما قبله ، والقائلون بهذا القول : منهم من حمله على تارك الحج ، ومنهم من حمله على من يعتقد وجوب الحج .

اما الذين حملوه على من ترك الحج ، فقد عدلوا فيه على ظاهر الآية ، وانهُ لما تقدم الأمر بالحج ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ومن كفر﴾ ، فهم منه ان هذا الكفر ليس الاَّ ترك ما تقدم الأمر بهِ ، ثم انهم اكدوا هذا الوجه بالاخبار . روي عن النبي ﷺ ، انهُ قال : «من مات ولم يحج فليمت ان شاءَ يهودياً وان شاءَ نصرانياً» . وعن أبي امامة قال النبي ﷺ : «من مات ولم يحج حج الاسلام ولم تمنعه حاجة ظاهرة او من مرض حابس او سلطان جائر فليمت على اي حال شاء يهودياً أو نصرانياً» قال : قيل : كيف يجوز الحكم عليه بالكفر بسبب ترك الحج ؟ أجاب القفال ـ رحمه الله ـ ان يكون المراد منه التغليظ اي قد قارب الكفر ، وعمله ما يعمله من كفر بالحج ونظيره قوله : ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي كادت تبلغ . ونظيره قوله ﷺ : «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر» ، وقوله عليه الصلاة والسلام : «من أتى امرأة حائضا أو في دبرها فقد كفر» .

وقال الرازي بعد كلام طويل ، قوله : «ومن كفر» مكان ولم يحج وهذا تغليظ وتشديد في حق تارك الحج .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : وكل ما اورده هنا من الأحاديث حجة على الرازي ، وعلى القفال ان كان على مذهبه ، وعلى كل من كان على مذهبهما ، في تكفير من لم يؤد ما أوجبه الله على المرء ، بغير عذر يسعه ، وهم يقولون على معنى التغليظ ؛ فلو كان كما قالوا لكان وجهاً ثابتاً في جواز تكفيرهم وثبوت اسم الكفر لهم ، ويكون على معنى التغليظ ونحن نسميه كفر نعمة ، والمعنى واحد . ولكن هم يقصدون بهِ معنى التشديد ، أي المبالغة في وصفه ، اي كاد ان يكون كفراً أي شركاً ولم يبلغ بهِ الى الكفر ، أي الشرك .

وأما نحن وعلماؤهم الأوائل لا يقصدون بهِ كذلك ، بل معنا ومعهم ان الكفر اصله كفران .

كفر شرك يوصف ، ويسمى بهِ المشركون .

وكفر نعمة يوصف ، ويسمى بهِ فسقة المؤمنين . كما جاء في تفسير العقيدة التي اولها (ساحمد ربي طاعة وتعبداً) فقد جاء في تفسيرها عن

الشافعي ، انهُ قال : من قال ان القرآن مخلوق ، فهو كافر ، ففسره علماؤ هم انهُ يريد بذلك كفر نعمة لا كفر خروج من الملة ، فانظر كيف ثم يقولون انهُ اراد على معنى التشديد ؛ واما هؤلاء المتأخرون منهم ففي الحقيقة ليسوا على مذهب احد من الأئمة الاربعة ، لانهم في كثير على خلافهم كذلك ، ذكرهم الغزالي في آخر كتابه (كيمياء السعادة) فانظر في ذلك .

وقال تعالى : ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ولهُ عذاب مهين﴾ . ففي هذه الآية بيان ان من لم يحكم بما انزل الله ، ولم يحكم بالسنة ، بل عمل بخلافهما ، على وجه لا يسعه أنهُ تعدى حدود الله ، ولم يطع الله ورسوله ، وأنهُ عاصٍ لله ولرسوله ، اذ ليس في هذه الآيات خطاب الّا لأهل الاقرار ، وان كانَ في نفس الايجاب لجميع المتعبدين بالعمل بهِ ، ولا خلاف في أن من امره الله تعالى بأمر ، او نهاه عن شيء أو أمره أو نهاه النبي ﷺ كذلك فخالف امرهما ، وارتكب نهيهما على وجه ، واصر على ذلك انهُ في الحكم عاصٍ لهما ، واذا كان كذلك ولا يصح الّا كذلك ، فقوله تعالى : ﴿ومن يعصِ الله ورسوله فان لهُ نار جهنم خالدا فيها ابداً﴾ ، فعم كل من عصاهما في كل أمر ، لا فرق في شيء ، ولو كان الذكر اولاً في اهل الجحود ، لأن (مَنْ) تعم اهل الجنس المذكورين ، والمراد اهل المعاصي على الاطلاق .

وقال تعالى في النساء يتلو هذه الآية : ﴿واللاتي يأتينَ الفاحشة من نسائكم﴾ الى قوله : ﴿عذاباً أليماً﴾ ، وكفى بهذه الآية دليلاً على انهُ لا يغفر ذنب بغير توبة ، فلا يصح أن يقول النبي ﷺ : «لو لم تتوبوا فلا يعذبكم الله» كما أخبركم ، والحاصل ان الصحيح غير ما أخبركم ، وجميع ما حكيناه من وعيد العقاب في هذه الآيات ، ليس بصحيح . انما الصحيح «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» ويضادد روايتهم هذه «ان أشد أمتي عذاباً يوم القيامة علماء السوء» وفي تسمية من مات منهم فاسقاً انهم كفار لانها آيات كلهنَّ في المؤمنين .

وقال الله تعالى في النساء : ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الآ﴾ الى قوله : ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ ؛ فشرط غفران صغار السيئات باجتناب الكبائر فمتى يكون صحيحاً ما يخالفه وغير ما قاله جل وعلا ؟ ! .

وقال تعالى في النساء : ﴿وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً الّا خطأ﴾ ، الى قوله : ﴿ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد لهُ عذاباً عظيماً﴾ . فقال بعض أهل خلافنا : ان المعنى من يقتل مؤمناً لأجل انهُ مؤمن ، فانظروا معاشر المسلمين ؛ الى هذا الضلال المبين ، ان هذا الخطاب كله للمؤمنين فأحلوه في التعمد الى من يقتل مؤمناً لاجل انهُ مؤمن ، وهل يقتل المؤمنين انهم مؤمنون الّا أهل الشرك ، كل ذلك يحيلون ان أهل المعاصي من المؤمنين لا عقاب عليهم ، وان ما ذكره الله حاصله غير صحيح ، وان الصدق خلافه تعالى الله عن ذلك .

وقال الرازي في تفسيره لهذه الآية : اعلم أن الله تعالى لما ذكر حكم القتل الخطأ ؛ ذكر بعده حكم القتل العمد ، ولهُ احكام مثل القصاص ، والدية وقد قال الله تعالى : ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ . فلا جرم اقصر هاهنا على بيان ما فيه الاثم والوعيد ، وفي هذه الآية مسائل .

المسألة الاولى : استدلت المعتزلة في الوعيد بهِ بهذه الآية ، في أمرين .

احدهما : على القطع بوعيد الفاسق .

والثاني : على خلوده في النار .

ووجه الاستدلال ؛ ان كلمة (من) في معرض الشرط تفيد الاستغراق ، وقد استقصينا في تقدير كلامهم في سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿من كسب سيئة واحاطت بهِ خطيئته (الآية) وبالغنا في الجواب عنها .

ويزعم الواحدي ان الاصحاب سلكوا في الجواب عن هذه الآية طرقاً كثيرة ؛ وانا لا ارتضي شيئا منها لأن التي ذكروها ؛ اما تخصيص ، واما معارضة ، واما اضمار ، واللفظ لا يدل على شيء من ذلك ، قال : والذي اعتمده وجهان .

الأول ؛ اجماع المفسرين ان الآية نزلت في كافر قتل مؤمناً ثم ذكر تلك القصة .

والثاني ان قوله : ﴿فجزاؤه جهنم﴾ معناه الاستقبال الى ان يخلص الله

وعيد المؤمنين ؛ فهذا حاصل كلامه الذي زعم انهُ خبر مما قاله غيره .

قال الشيخ ناصر بن أبي نبهان وأقول :

أما الوجه الأول فضعيف ، وذلك لانهُ ثبت في اصول الفقه ان العبرة بعموم اللفظ ، لا تخصيص السبب . فاذا ثبت ان اللفظ الدال على الاستغراق حاصل ، فنزوله في حق الكبائر لا يقدح في ذلك العموم ، فسقط هذا الكلام بالكلية . ثم نقول : كما ان عموم اللفظ يقتضي كونهُ عاماً في كل قاتل موصوف بالصفة المذكورة ، فكذلك هاهنا وجوه اخرى تمنع من تخصيص هذه الآية بالكافر ، وبيانه من وجوه :

الأول ؛ انهُ تعالى أمر المؤمنين بالمجاهدة مع الكفار ، مع علمهم ما يحتاجون اليه عند اشتغالهم بالجهاد ، فابتدأ بقوله : ﴿وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً الَّا خطأ﴾ ، فذكر في هذه الآية ثلاث كفارات : كفارة قتل المسلم في دار الاسلام ، وكفارة قتل المسلم عند سكونه مع اهل الحرب ، وكفارة المسلم عند سكونه من اهل الذمة واهل العهد . ثم ذكر عقيبه قتل العمد مقروناً بالوعيد ، فلو كان بيان حكم قتل الخطأ بياناً اختص بالمسلمين ، كان بيان حكم القتل العمد ، الذي هو كالضد لقتل الخطأ ، وجب ايضاً ان يكون مختصاً بالمؤمنين ، فان لم يختص بهم ، فلا أقل من دخولهم فيه .

الثاني : انه تعالى قال بعد هذه الآية : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مؤمناً﴾ ، واجمع المفسرون ؛ ان هذه الآيات انما نزلت في حق جماعة من المسلمين ، لقوا قوماً فاسلموا ، فقتلوهم ، وزعموا انما اسلموا من قبل الخوف ، وعلى هذا التقدير ؛ فهذه الآيات وردت في نهي المؤمنين الذين يظهرون الأيمان ، وهذا أيضاً يقتضي ان يكون قوله : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ نازلاً في نهي المؤمنين عن قتل المؤمنين ، حتى يحصل التناسب فيثبت ما ذكرناه ، أن هذه الآية وما بعدها ، يمتنع من كونها مخصوصة للكفار .

الثالث ؛ ثبت في أصول الفقه ، أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب

لهُ ، يدل على كون ذلك الوصف لهُ علة ، لذلك الحكم ، وبهذا الطريق عرفنا ان قوله : ﴿السارق والسارقة فاقطعوا﴾ . ﴿الزاني والزانية فاجلدوا﴾ الموجب للقطع هو السرقة ، والموجب للجلد هو الزنا ، فكذلك هاهنا وجب ان يكون الموجب لهذا الوعيد هو هذا القتل العمد، لأن هذا الوصف مناسب لذلك الحكم فيلزم كون ذلك الحكم معللاً بشيء ، اذا كان الأمر كذلك اينما ثبت هذا المعنى ، فانهُ يحصل هذا الحكم ، وبهذا لا يبقى لقولهم : ان الآيةمخصوصة بالكافر معنى .

الوجه الرابع أن المنشأ لاستحقاق هذا الوعيد ؛ أما أن يكون هو الكفر ، وعيد القتل المخصوص ، فان كان منشأ هذا الوعيد والكفر ثم كان الكفر حاصلاً قل : هذا القتل فحينئذ لا يكون لهذا القتل أثر البتة في هذا الوعيد ، وعلى هذا التقدير تكون الآية جارية مجرى ما يقال : أن من قتل نفساً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ، لأن القتل العمد لما لم يكن لهُ تأثير في هذا الوعيد ، جرى مجرى النفس ومجرى سائر الأصحاب التي لا أثر لها في هذا الوعيد . ومعلوم أن ذلك باطل . وأن كان منشأ بهذا الوعيد يكون قتلاً عمداً فحينئذ ، يلزم أن يقال : أينما حصل القتل أن يجعل هذا الوعيد ، حينئذٍ ؛ سقط هذا السؤال فثبت بما ذكرنا أن هذا الوجه ليس بشيء .

وأما الوجه الثاني من الوجهين اللذين اختارهما ؛ فهو في غاية الفساد لأن الوعيد قسم من أقسام الخبر ، فاذا جوز على الله الخلف فيه ، فقد جوز الكذب على الله ، وهذا خطأ عظيم ، بل أقرب من أن يكون كفراً . فان العقلاء أجمعوا على انهُ تعالى منزه عن الكذب ، ولانه اذا جوز الكذب على الله في الوعيد لأجل بما قال من أن الخلف في الوعيد كرم فلمَ لا يجوز الخلف أيضاً في وعيد الكفار ؟ وأيضاً اذا جاز الخلف في الوعيد لغرض الكرم فلمَ لا يجوز الخلف في القصص والأخبار لغرض المصلحة؟ .

ومعلوم أن فتح هذا الباب يفضي الى الطعن في القرآن ، وكل الشريعة فثبت أن كل واحد من هذين الوجهين ليس بشيء .

وحكى القفال في تفسيره وجهاً آخر في الجواب ؛ فيقال : الآية تدل على

اجراء القتل العمد ، ما ذكر ، ولكن ليس فيها انهُ تعالى يوصل الجزاء اليه ، أم لا وقد يقول الرجل لعبده : جزاك أن أفعل بك كذا ، وكذا ، الاَّ اني لا أفعله . . وهذا الجواب ضعيف لانهُ ثبت بهذه الآية أن جزاء القتل العمد هو ما ذكره ، وثبت سائر الآيات ، بانهُ تعالى يوصل الجزاء الى المستحقين . قال الله تعالى : ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ ، وقال : ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ وقال : ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ ، بل انهُ تعالى ذكر في هذه الآية ، ما يدل على انهُ يوصل اليهم هذا الجزاء ، وهو قوله : ﴿وأعد لهم عذاباً اليماً﴾ . فان بياناً ان هذا جزاؤه حصل بقوله : ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها﴾ فلو كان قوله : ﴿وأعد لهم عذاباً عظيماً﴾ ، اخبار عن الاستحقاق كان تكراراً ، فلو حملناه على الاخبار ، عسى انهُ تعالى سيفعل لم يلزم التكرار ، وكان ذلك اولى .

واعلم انا نقول هذه الآية مخصوصة في موضعين :

احدهما : أن يكون القتل العمد غير عدوان ؛ كما في القصاص ، فانهُ لا يحصل فيه هذا الوعيد البتة .

والثاني : القتل العمد العدوان ، اذا تاب عنه لا يحصل فيه هذا الوعيد ، واذا ثبت دخول التخصيص فيه ، في هاتين الصورتين ، فيجوز تخصيص هذا العموم ، فيما حصل العفو بدليل قوله تعالى : ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ، وأيضاً هذه الآية احدى عمومات الوعيد ، وعمومات الوعيد اكثر من عمومات الوعد ، وما ذكروه في ترجيح عمومات الوعيد ، فقد اجبنا عنه وبينا أن عمومات الوعد ، راجحة كل ذلك قد ذكرنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿بلى من كسب سيئة واحاطت بهِ خطيئته أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ والله أعلم .

المسألة الثانية : نقل عن ابن عباس انه قال : توبة من اقدم على القتل العمد (العدوان) غير مقبولة .

وقال جمهور العلماء انها مقبولة ، ويدل على وجوه .

الحجة الاولى ؛ ان الكفر اعظم من هذا القتل فاذا قبلت التوبة من الكفرة ، فالتوبة من هذا القتل اولى بالقبول .

الحجة الثانية قوله تعالى في آخر الفرقان : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الاّ بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاماً ، يضاعف لهُ العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا﴾ ، واذا كانت توبة الآتي بالقتل العمد مع سائر الكبائر في هذه الآية مقبولة فبأن يكون توبة الآتي بالقتل العمد وحده مقبولة كان اولى الحجة .

الثالثة قوله : ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وعدنا العفو ما سوى الكفر فبان يعفو عنه بعد التوبة انتهى كلامه .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : وقد أتى الرازي في تفسيره هذا ، لهذه الآية ، فوائد خالف فيها أهل مذاهبه الأربعة .

الفائدة الأولى : ان اهل الكلام في العقائد من علماء مذاهبه ، لا يجوزون ان يقال : الثواب والعقاب باستحقاق ؛ لان الاستحقاق لا يكون الاّ بحق واجب لمستوجبه ، على واجب وجب على من وجب عليه لهُ ، وذلك من الله تعالى محال ، ولا يجوز ان يكون شيء واجباً على الله لأحد من خلقه ، كما زعمت المعتزلة انهُ واجب على الله ، فان كان المعنى واجباً في صفاته حين أخبر عن نفسه بكذلك ، فهو صحيح ؛ لان الصدق من صفاته تعالى ، وان كان على معنى انهُ واجب عليه ، وان لم يفعل ذلك ، كان غير عادل ، ولزمه صفة الظلم ، فهذا باطل ، والحق ما قاله أهل المذاهب الأربعة . ولكن اطلاق القول : انهم مستحقون ذلك المعنى انهم اهل لذلك ، لا انهُ حق لهم ، واجب على الله أداؤه اليهم ، فجائز على معنى التساهل والتوسع بسعة معاني اللغة على ما جاز ولا سيما ممن عرف مذهبه انهُ على معنى الاهلية لهُ .

الفائدة الثانية : أذعن ان لفظ العموم اذا ترتب على العموم في المشركين ، وفسقة المؤمنين ، وجاءَ الوعيد كذلك على العموم ، لم يحمل على

الخصوص في المشركين ، وثبت في فسقة المؤمنين على اصول اهل الفقه ، فاثبت الوعيد لقاتل النفس عمداً بغير حق ، وعلى اهل الكبائر الوارد فيهم بالوعيد عليها .

الفائدة الثالثة : اثبت انهُ لا يجوز ان يخلف الله وعيده بالعفو لفسقة المؤمنين .

الفائدة الرابعة : اثبت انهُ تعالى لا يبدل القول لديه .

الفائدة الخامسة : انكر ان العفو ليس في كل موضع محمود اذا كان مما يكون داعياً الى جرأة أهل المعاصي .

الفائدة السادسة : اثبت انهُ لو صح العفو ، وخلف الوعيد ، لفسقة المؤمنين ثبت وصف الله تعالى بجواز الكذب ، وانهُ يقول : ما هو غير صدق ولا حق .

الفائدة السابعة : أثبت أن ذلك باطل في صفات الله تعالى ، ويكاد أن يكون كفراً أي شركا .

الفائدة الثامنة : أثبت ان لو جاز وصف الله بذلك جاز في المشركين أي العفو .

والفائدة التاسعة : أن لو جاز خلفه الوعيد ، جاز وصفه تعالى في جميع ما يخبر بِهِ ان يكون غير صدق ، وتعالى الله عن ذلك .

الفائدة العاشرة : اذا جاز ذلك ؛ جاز في القرآن والشريعة .

والفائدة الحادية عشرة : ان الله يغفر لِمن يشاء من أهل الكبائر بعد التوبة .

والفائدة الثانية عشرة : أجاز اسم الكفر على فسقة المؤمنين في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ (الآية) ، بافعالهم الكبائر ، وتركهم الواجبات عليهم .

الفائدة الثالثة عشرة : اذعن انهُ لا ينال الثواب ، الاّ بأداء اللازم ، وترك المحرم في تفسيره لقوله : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ . واتى تفسير قوله تعالى : ﴿ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ الى اتمام الآية .

والفائدة الرابعة عشرة : قال ان المشرك ان قبل او فعل شيئا من الباطل ممن يكن مؤثر الوجوب حكم العذاب في النار وخلوده فيه بذلك الفعل ، لأن ذلك حاصل لهُ بالشرك الذي هو اعظم الكبائر ، والمعنى وان كان لا بد من مضاعفة العذاب عليه بما يفعله من أنواع المعاصي لله تعالى ، ولكن هو حاصل لهُ العذاب ، والخلود بشركه ، وعلى هذا يلزمه انهُ اذا جاء وعيد على من فعل معصية ، من معاصي اهل الاسلام ، من ترك واجب ، او ارتكاب محرم ، وفيه وعيد وذكر انهُ للكافر ، او لمن كذب وتولى ، او كذب بيوم الدين ، انهُ يكون ذلك في فسقة المؤمنين ، وان انكر جواز ذلك ، فقد ابطل حجته التي اثبتها كذلك ، واحتج بها في القتل غير موثر للوعيد من المشرك .

والفائدة الخامسة عشرة : اوردها في تفسير : ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة الى ربها ناظرة﴾ اذعن على أن النظر هو شيء غير الرؤ ية ، انهُ قد يطلق النظر على غير نظر العين ، اذ يجوز ان يقال في الأعمى : انهُ كثير النظر الى فلان ، او هو ناظر اليه بالاحسان ، والمراعاة ، والمودة ، والغضب ، أو الحسد ، ويجوز ان يقال : ان الله لا ينظر الى الكافر في الدنيا ، ولا ينظر اليه يوم القيامة ، ولا يجوز ان يقال : ان الله لا يرى الكافر في الدنيا ، ولا يراه يوم القيامة لانهُ يوجب ان يكون قد اختفى شخصه عنه ، فلا يعلم بهِ ، فلا يعلم بهِ في أي موضع هو ، وذلك كفر عظيم ، فعلى هذه ، فليس هذه الآية بحجة لهم على صحة ثبوت النظر الى ذات الله في الجنة بالعين ، واذا كان كذلك ، فالرؤ ية بالعين كذلك لأن الرؤ ية يشترك معناها برؤ ية العين ، ورؤ ية القلب ، ورؤ ية السمع ، ويكون معناها العلم كما قال تعالى : ﴿ألم تر الى ربك كيف مد الظل﴾ ، ونحن نرى الله يمد الظل ، بل نرى الظل يمده الله تعالى ، فجعل رؤ يتنا مد الظل هي رؤ يتنا الى الله . ويقال رأيت الله تعالى يقول في تنزيله

كذا ، وما كان مشترك المعنى فلا حجة لمن حمله على معنى واحد فان كان لاجل موافقة الرواية فجميع فرق الأمة لم تصح معهم ، فلا يمكن ان لا نشهر الاَّ معهم .

وقد صح في آيات الوعيد لفسقة المؤمنين روايات معهم موافقة على ثبوته فيهم ، وروايات على العفو عنهم ، وروايات بالشفاعة ، وروايات تعذيبهم على قدر أعمالهم . فصح ان روايات كثيرة معهم غير صحيحة ؛ لأنها روايات تناقض بعضها بعضاً ، متى صحت واحدة صح كذب ما خالفها ولا محالة . وصح ان رواية الرؤ ية لاعلى ما فسروها ، ولم نرَ نفسيره في الرؤ ية في حكاية موسى وقومه . واما هاهنا ، فقد خالف اهل مذهبه اذا كان خلافه لأحد منهم في خمس عشرة خصلة ، وكان كثير التعصب لمذهبه في هذه الخصال في كثير من الآيات ، كثير الاحتجاج على المعتزلة ، فلا ندري لعله ممن لم يتخذ مذهباً ، اذ كثير منهم كذلك ؛ كالغزالي يلتمس الحق حيث ما رآه دار دار معه هكذا في قوله . والله أعلم .

الباب الثالث

ذكر ثبوت الأيمان بالجملة بالتصديق باليقين ، دون الاقرار باللسان من كتاب المعتبر

فان قال قائل : فلم قلتم في الجملة : انهُ يجزي فيها التصديق بالقلب ، والشهادة ، واليقين بالقلب ، دون القول باللسان ، والمجتمع على الجملة انها اصل الاسلام ، والايمان والاسلام والمجتمع عليه مع المؤمنين ان الايمان : قول ، وعمل ، ونية ، وانتم تقولون : انهُ تجزىء فيه النية دون القول ، فما دليلكم على ذلك ؟ قيل لهُ : دليلنا على ذلك ؛ انا وجدنا الله تبارك وتعالى يقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي انزل على رسوله والكتاب الذي انزل من قبل﴾ . وكذلك في كل موضع وجدنا تأكيد الايمان ، من كتاب الله انما وجدناه ايمان التصديق ، واليقين والمعرفة ، وانما يخاطب بذلك المؤمنين المقرّين بالجملة ، الثابت لهم اسم الاقرار والايمان بالجملة في ظاهر الحكم ، فلم يجد اقرار المقرّين بألسنتهم بالجملة ، من اقرارهما لله ، وبرسوله ، وبكتابه ، وبالكتب الخالية ، فما كانوا ينكرونه ، فدعوا الى الاقرار به ، فقروا بهِ كاف لهم ذلك الاقرار باللسان والقول باللسان عن الاقرار بالقلب من التصديق واليقين .

وانما وجب عليهم عندنا الدعاء بالجملة ، وكان حقاً عليهم ان يقروها ، اذا كان حكم دارهم وحكم عامة الدور ، ولعله كلها ثابت عليها حكم الانكار والشرك في الظاهر ، وكانوا لا يسلمون في حكم الظاهر ، عند النبي ﷺ ، وعند سراياه الباعث بها ، وعند قواده وعماله ، الاّ بإقرار الجملة التي ظاهر عليهم حكم الانكار بها ، واذ لا يسلمون من السباء والغنيمة في أموالهم ، وفي انفسهم ، وفي ذراريهم ، ممن يجوز فيه السباء الاّ بالاقرار في ذلك ، واظهاره باللسان ، والاّ حل دمه ، وماله ، فكان لا يصح لأحد الاسلام في الظاهر ؛ حتى يصح منهُ التحول في الظاهر عن الشرك الذي عليه حكمه ظاهر ، فهذا في حكم الظاهر ، وكذلك عليه عندنا في حكم السرائر ؛

ان يقر بالجملة بلسانه ، اذا كان جاحدا بها بلسانه ، ولو لم يدعه الى ذلك احد ، ولا حكم عليه بهِ أحد ، لثبوت الجحود منهُ بها بلسانه ، وقد مضى في متقدم القول بيان ذلك ؛ ان من ثبت منهُ انكار لشيء بلسانه ، لم يخرجه منهُ الاَّ باقرار منهُ بلسانه ، لثبوت السريرة بالسريرة ، والعلانية بالعلانية في احكام التوبة . وفيما مضى كفاية .

والايمان كله ؛ انما هو تصديق ويقين بالقلب بالشيء الذي وجب بهِ الايمان ، وليس الايمان الاقرار باللسان الاَّ على ما وصفنا من ثبوت الاقرار باللسان في موضعه ، ثم اذا لم يصدقه باقرار القلب بالتصديق لهُ ، والايمان بقلبه لم ينفعهُ الاقرار بلسانه ، وكان كاذباً منافقاً ، ولو كان على ما اقرّ بهِ صادقاً . قال الله تبارك وتعالى في المنافقين : ﴿اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون﴾ . فكانوا بشهادتهم في الصدق ؛ ان رسول الله ﷺ ، رسوله اذا لم يكونوا بشهادتهم بالصدق كاذبين . وكذلك قوله : ﴿وليحلفنَّ ان اردنا الاَّ الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون﴾ ، فهم يحلفون وهم كاذبون .

الباب الرابع

ذكر معنى قولة الايمان : قول ، وعمل ، ونية ، من كتاب (المعتبر) ايضاً .
وذكر الايمان انهُ يزيد ، ولا ينقص ، وفي المنزلة بين المنزلتين

والتصديق بالايمان ايمانٌ ، والايمان : قول ، وعمل ، ونية ، والايمان به ايمان واذا قال به ، كان قوله بهِ ايماناً . ولو قال بغير ايمان من سائر القول ، يريد الايمان ، لم يكن ذلك ايماناً .

فالاسلام اسلام ، والايمان ايمان ، وهو قول كما قيل في موضع القول ، وعمل في موضع العمل ، ونية في موضع النية ، ولو ثبت هذا في الجملة ، ان الايمان : قول ، وعمل ، ونية ، انهُ كل قول ، وعمل ، ونية ، ولا يكون شيء من الايمان ايماناً ، الاَّ حتى يكون قولاً ، وعملاً ، ونية لبطل هذا . ولكن الايمان : قول ، وعمل ، ونية ، فالقول في موضع القول قولاً ، والنية في موضع النية نية ، والعمل في موضع العمل عملاً .

وانما اكد المسلمون هذا الاثر ، ان الايمان : قول ، وعمل ، ونية ، حجة على من قال : ان الايمان قول بلا عمل ، من المرجئة واشباههم ، فقالوا : ان الايمان يثبت بالقول ، ولا يبطله ترك العمل بالطاعة ، ولا يبطله العمل بالمعصية ، من آمن بالقول ، والقول معهم هو الايمان بالجملة . فمن كان مؤمناً بالجملة ، غير جاحد لها ، ولا لشيء منها بالقول ، ولا مكذباً لشيء منها بالقول ، فهو مؤمن بلسانه بالجملة ، ولا يضره ترك العمل ، ولا يضره ركوب المعاصي بالعمل ، فهو مؤمن ما لم يكذب ، ويكفر بشيء من القول .

وقال المسلمون : ايمانه بالقول ايمان ، والعمل بالطاعة الواجبة ايمان ، وترك العمل بالطاعة اللازمة كفر ، لانهُ كان عمله ايماناً وكان تركه للايمان كفراً . وكذلك ركوب المعاصي كفر ، وتركها ايمان .

وتأويل قول المسلمين : الايمان قول يخرج تأويل ذلك في التأويل ، ان القول ها هنا ماانزل الله من احكام الايمان قولاً ، ونية ، وشرحه بالقول فهو ايمان ، وهو قول ، وما جعله عملاً من الايمان فهو عمل ، وهو ايمان . وما جعله نية واعتقاداً بالقلب ، فهو ايمان وهو نية ، ممن آمن به قولاً . قبل ان يجب عليه العمل الذي هو ايمان كان قوله ايمانهُ بالقول ، وتصديقه به ايماناً بالقول والعمل ، فاذا وجب عليه الايمان الذي هو عمل ، فلم يعمل به نقض ايمانهُ الذي قد آمن بهِ قولاً ، وكان عليهِ في جملة ما آمن بهِ العمل ايماناً ، فان ترك ايمان العمل ، وآمن بهِ قولاً فلم ينكره ، ولم يشك فيه ، كان بشكه في ايمان العمل من ترك ايمان الفعل ، وركوب المعصية الذي تركه ايمان ، كان كافراً كفر نعمة منافقاً ، وان شك في ايمان القول ، من وجوب ايمان العمل ؛ مثل فرض العمل ، وفرض ترك المحارم ، او تحريم المحارم ، كان بذلك الكفر ، او بالجحد ، او بالشك ، في ايمان القول مشركاً ؛ لانهُ جحد الايمان من قول الله الذي هو قول ، وكذلك في شكه في القول من الايمان ، ان يكون جحدا ، فهذا على تأويل قول المسلمين : الايمان ، قول ، وعمل ، ونية ، اي انهُ لا يقوم الايمان بالأيمان بالقول ، دون العمل ، بالايمان الذي عمل بهِ ايمان ، اذا وجب ولا بدون ترك العصيان الذي تركه ايمان اذا وجب ، ولا يكون ذلك كله من الايمان بالقول ، ولا بالعمل ، الاّ بصدق النية في الايمان من القول والعمل ، والترك بصدق الارادة بالقصد في ذلك لله بالطاعة لهُ والعبادة ، ولا يتم ايمان من ايمان بقول ، ولا عمل ، الاّ بصدق نية لله ، خالصة لله عزَّ وجل . موافقة صادقة ، لسبيل سنة رسول الله ﷺ ، في جميع الأمور لله موافقة ، فافهم تفسير الآثار على ما يصح ويخرج من تأويل ذوي الأبصار الصادقين الاخيار ، ان شاء الله تعالى وبالله التوفيق . ومن صدق بالايمان من قول الله تعالى فقد آمن ، ولو لم يقرّ بلسانه ولو كان كما يقول ويتوهم اهل العمى والضعف : ان الايمان قول وعمل ونية ، انهُ لا يكون المؤمن مؤمناً ، حتى يقول بجميع ما كان من الايمان قولاً ، كما كان مؤمناً باداء الفرائض من الصلاة والصوم والزكاة حتى يقرّ بها قولاً وعملاً كقوله بالشهادة على ذلك ، وبذلك اذا كان فرض ذلك من دين الله .

وقوله (ايماناً) ومن الأيمان كما كانت الشهادة بالجملة من دين الله ، وقوله

(ايمانهُ) كما كان جميع الفرائض ، وجميع قوله في الحدود والمحارم واللوازم ايماناً من جملة الأيمان ، فاذا ثبت هذا في الجملة ان يكون قولاً منه ، كما هو قول في دين الله ، وفي حكم الأيمان ، لزمه ان يقرّ بجميع ذلك قولا ، كما كان عند الله قولاً ، والاّ فلا يلزمه الا التصديق والمعرفة بذلك ، واليقين به ، وهو الايمان به قولا ، فاذا وجب العمل ، كان عمله كما يجب من العمل ايماناً بهِ ، فاذا وجب الانتهاء عن المعصية التي هي ايمان ، كان تركه لذلك ايماناً به ، وهذا تفسير الايمان قولاً وعملاً ونية .

والعبد انما يكون مؤمناً لا يكون ايماناً ، وانما يكون منهُ الايمان ، فاذا آمن كان مؤمناً . وفي بعض هذا كفاية من شواهد الايمان بانهُ التصديق والمعرفة ، وانهُ لا معنى في لزوم القول الاّ لسبب يثبت ، او بدليل ، ولم نجد في هذا معنى فيثبت فيه القول ، الاّ على وجه ما جاءَ مجملاً في الاثر ، كما قد بيناه مفسرا . ويقال لمن قال هذا : ان الايمان بالجملة لا يصح ممن كان اذا قامت عليه شواهد الحجة بها الاّ بالاقرار باللسان ، ولا يجزي في ذلك التصديق الصحيح من شهادة القلب والايمان ، ما دليلك ان لا يجزي هذا الاّ على هذه الجملة الاّ الشهادة كما زعمت ، بالاقرار باللسان ، ويجزي في سائر تفسير الجملة من صفة التوحيد ، والوعد والوعيد ، والعمل بذلك ، والتصديق دون الاقرار باللسان ، وكل ذلك يجب بهِ الايمان ، وقد يثبت بالايمان .

فاذا قال : وكذلك ما وصفت من جميع صفة التوحيد ، والوعد والوعيد ، لا يجزي فيه الاّ الاقرار باللسان ، ولا يجزي فيه التصديق بالقلب والايمان ؛ قيل لهُ : قد قلت فيها لا نعلم ان احداً قاله مفسراً ، ولا جاءَ في شيء من الآثار مؤثراً بالنص فيه ، ان عليه ان يقر بذلك باللسان ، وانما جاءَ في ذلك من جمل الآثار ، ان عليه علم ذلك ، والتصديق بهِ ، وعليه نفي الجور عن الله تعالى ، وصفات الالحاد بالمعرفة ، وان يعرف ذلك ويصدقه ، وينفي خلافه في كل صفة ، فانت قد قلت في هذا ما لا نعلم ان احداً قال بهِ .

فان قال : فاذا ثبت لزوم الاقرار باللسان في الجملة ، ثبت في هذا لأنهُ مثلها ، وقد ثبت ذلك في حكم الجملة عن النبي ﷺ ، انهُ كان يدعو اليها ، وهذا من تفسيرها ، وهو لاحق بها في المثل ، ويلزمه في مثل هذا مثل ما يلزمه في الجملة ، قيل لهُ : اما انت فقد اصبت معنى الحكم بالمثل ، انهُ كما قلت انهُ اذا ثبت في الجملة ، ثبت في هذا ، وانما اردنا اثبات ذلك عليك . واما انت فما

احسنت معنى التأويل ، اذ الزمت اهل الاقرار ، من قد ثبت لهُ حكم الاقرار ، وقضي لهُ ولجميع من هو مثله ، بذلك من اهل الدار من جميع اهل الاحكام التي لا يجوز ان يثبت ، ولا يحكم بها الاَّ لاهل الاقرار من المناكحة ، والموارثة واكل الذبائح ، واجازة الشهادات على المسلمين ، بحكم جارٍ لهم وعليهم من العرب فيما بينهم ، وفي بعضهم لبعض ، ولبعضهم على بعض ، بحكم انما كان مخصوصاً بأهل الجحود والانكار ، واذا كان ذلك شاهراً عليهم في الدار ، في جميع الامصار ، ولم يكونوا ليسلموا الابد في الاحكام في الغلانية ، ولا في الاسرار ، اذا كانوا اهل الانكار . وان هذا لهو العجب العجيب ، ويلزمك في هذا اذا كانت هذه علتك ، وان يلزمهم اليوم من الدعوة ، ويجب عليهم ما كان يجب على اهل حرب النبي ﷺ من المشركين ، وكذلك ، يجب لهم عندك اذا اقروا بهذه الجملة التي اذا كانوا اذا اقروا بها ، وجب لهم الايمان والاسلام ، وكانوا اخواناً في الدين ، واولياء في الدين . وكذلك يجب عليك لهم اذا اقروا بهذه الجملة ، الولاية وثبوت الايمان ، فان قال : نعم ؛ ثبتت لهم الولاية والايمان .

قيل لهُ ما نعلم ان احداً يذهب الى هذا المذهب ، الاَّ ما يشبه اقبح مذاهب المرجئة ، فاذا بان لنا انك منهم ، فقد استرحنا منك من الكلفة لمؤونتك ، لأن عجائبهم اكثر من هذا ، ولا ينبغي ان نشتغل بالقليل من العجائب ، مما لا ينتفع بهِ مع انهُ لا نسألك دون ان تقول : ان على اهل حربنا اليوم من الأمصار ؛ ممن ثبت لهُ حكم الاقرار باستقبال القبلة في كل دار من امصار العرب ودورهم ، ان يثبت عليهم ان يدعي كل واحد منهم بعينه الى هذه الشهادة ، حتى يقربها بعينها ، ولا تثبت لهُ احكام السلامة الاَّ بالاقرار بها ، ولا الموارثة ولا المناكحة ، ولا اكل الذبيحة ولا يجوز ذلك لأحد منهم من احد على الأبـد ، الاَّ باظهـار ذلك والاَّ فمنـاكحتهم لبعضهم بعضا ، وموارثتهم ، واكل ذبائحهم ، ولا يجوز ذلك لأحد منهم ، كما كان لا يجوز في حرب النبي ﷺ ، وفي أيام دعوته إذ ألزمتهم حكمها بالاقرار باللسان ، ما كان يلزم أهل حرب النبي ﷺ ، وكان ذلك سواء ، ولا فرق فيه ، ولا بد لك من احد هذين :

اما ان تلزمهم الاقرار باللسان ، كما كان يلزم أهل الحرب ، وثبت لهم وعليهم من الأحكام ما كان ثابتاً في أهل الحرب ، من الاقرار والاحكام ، فان قلت : لا الزمهم ذلك في الأحكام ، والزمهم ذلك في الاقرار باللسان ، قيل لك : فهو قول مختلف يؤفك عنه من أفك ، وهذا اعجب ، واشنع عندنا ، من قول الخوارج ، الاَّ انهُ يواطيه في الشبه ، وذلك انهم انتحلوا الهجرة ، وشركوا اهل القبلة ، والزموهم ما كان يلزم اهل حرب النبي ﷺ من السباء ، والغنيمة ، واجازوا نكاحهم وموارثتهم ، واكل ذبائحهم ، كذلك هذا المذهب عندنا ، ان لم يكن اشنع في اصل المعنى ، لأن اولئك الزموهم شيئاً دعوهم اليه ، وساروا فيهم فيه ، وحكموا عليهم بهِ ، او ببعض احكامه ، وتأولوا فيه بعض ما تأولوا ، وانت الزمتهم الدعوة بعينها كلها ، واسقطت عنهم الحكم كله باسره ، وحكمت فيهم بحكم اهل الاقرار باسره ، فعجائبك اعجب من عجائب الخوارج ، في هذا معنا وعند من ابصر الحق ان شاء الله تعالى .

وان قال : لا يلزمهم ذلك في الدعوة في الظاهر ؛ ان ظاهر امرهم قد ثبت لهم حكم الاقرار ، وانما ذلك عليهم فيما بينهم ، وبين الله في حكم الاسرار ، لأنهم لا يسلمون عنده الاَّ بذلك ؛ قيل لهُ : فانت على جملتك ، واذا كانوا لا يسلمون عند الله الاَّ بذلك ، فكذلك لا يسلمون عند اهل دينه الاَّ بذلك ، كما كانوا لا يسلمون عند النبي ، واهل دينه الاَّ بذلك ، ولا يجوز ذلك ان نحكم فيهم بشيء من الأحكام ، ونبريهم عن شيء من الأحكام ، ولن يثبت ذلك معنا ابداً ، ولا مع أهل العلم ، فان شئت فالزمهم الأحكام والدعوة ، وان شئت فابرهم من الدعوة ، واثبت لهم الأحكام التي ثبتت لهم بثبوت حكم اهل الاقرار بالدعوة وزوال الدعوة عنهم ، وثبتت لهم على هذا فلا بد لهُ من احد هذين ؛ فان ثبت لهُ على الزامهم الحكم ، وان رجع الى ذلك فهو العدل ، وما يراد بهِ ، وان الزمهم الدعوة واجرى لهم الأحكام باحكام اهل الاسلام ؛ فهذا هو التخليط والحمد لله رب العالمين .

ويقال لهُ في قوله : انهُ يلزم كل متعبد بالغ الحلم ، صحيح العقل ،

الاقرار بهذه الدعوة لأي وجه ، الزمت المتعبد الاقرار بهذه الجملة . فان قال : لأنها جملة لجميع دينه ، وكل دينه داخل فيها اذ هي اصل لدينه ؛ قيل لهُ :

وكذلك الايمان بالله اصل لدينه كله ، واذا آمن بالله فقد ثبت لهُ الدين كله في اصل ما تعبده الله به ، فاذا ثبت لهُ اصل الدين ، اكتفى بهِ دون الايمان بغيره ، حتى تقوم عليه الحجة بغيره ، والَّا فما الدليل على انهُ لا يجزيه الايمان بشيء من ذلك ، دون شيء ، والاصل الواحد حكمه مثل الأصول كلها ؟ فان قال : لا يجوز الايمان بالأصل الواحد ، واذا كان فيه دخول الاصول الَّا بالايمان بغيره من الاصول بغير دليل ، جاز ان لا يكون ايمانه بشيء من الأصول كلها ، التي سائر الاصول ، من ايمانه داخل فيه ، حتى يؤمن بالاصول كلها بعينها التي هي داخلة كلها في اصل دينه وايمانه ، فان اجاز الايمان بشيء من الأصول ، كان الايمان بالله والتصديق بهِ ، اصلاً كافياً عن سائر الاصول ، لأن جميع الأصول من الايمان داخل فيه ، وهو اصل لجميع الأصول ، وسائر الأصول داخلة فيهِ وراجعة اليه .

فان قال بذلك واقر بهِ ، قيل لهُ : كذلك الاقرار باللسان راجع الى المعرفة والتصديق ، والايمان بالقلب ، لأن هذا اصل لهذا . وان قال : ذلك ايضاً ؛ قيل لهُ : كذلك الاقرار برسوله وبما جاء بهِ رسوله ، راجع الى الاقرار به ـ تبارك وتعالى ـ والايمان به ، وإن قال : لا يجزي ذلك ، ولا بد من الاقرار بتوحيد الله ، ـ تبارك وتعالى ـ باللسان ، والاقرار برسوله باللسان ، والاقرار بما جاء به رسوله اذ ذلك هو الاصل الداخل في جميع الاصول ؛ قيل لهُ : فاذا ثبت هذا ، ثبت ان فرائض الله المنصوصة اصول ، وكذلك جميع محارم الله المنصوصة اصول ، ولا يجوز الاقرار بها باللسان ، لأنها من الايمان ومن اصول الايمان ، فاذا ثبت انهُ لا يجزيه التصديق والمعرفة ، بشيء من الايمان ، دون الاقرار بهِ باللسان ، فاذا ثبت في شيء منه بحال من الحال ، من جميع الأصول ، وجميع الايمان ، فيلزم على قولك : انهُ لا بد لهُ من الاقرار بالأصول التي هي اصول الايمان باللسان ، كذلك يجوز عليك ويثبت ، ان تلزمه ان يقرّ بجميع الأصول ، وجميع الايمان باللسان ، وكذلك ما يلزمه ، في قوله في لزوم

الاقرار ، بالجملة باللسان ، اذ هي من القول من الايمان وانها اذا كانت من الايمان قولاً ، كان عليه الايمان بها قولاً . كذلك فرض الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وجميع اللوازم ، وتحريم جميع المحارم ، هي من الايمان قولاً ، فيلزمه ايضاً ان يلزم كل متعبد بالايمان ، يقرّ بذلك باللسان بالجملة ، اذ هي من الايمان قولاً .

فان قال لا يلزم ذلك الاّ في الجملة كان عليه الدليل يخص شيئاً من الايمان ، يحكم دون غيره من الايمان ، وكله ؛ فرض ، وقول ، من الايمان .

فان قال ان الجملة اصل لغيرها من الايمان ؛ قيل لهُ وكذلك كل فرض واصل من الايمان ، فهو اصل بغيره من الايمان ، لانهُ لا يكون الاصل الاّ لشيء يبنى عليه غيره ، ففرض الصلاة قول من الايمان اصل للعمل بها ، وفرض الحرمة للحرام من الايمان اصل للانتهاء عنه من الايمان ، ولا ثبت لك من هذا حجة ، الاّ ثبت عليك مثلها دون ان ترجع الى ان يكون حكم الايمان كله سواء بالتصديق ، والمعرفة ، واداء اللوازم ، والانتهاء عن المحارم ، وان يكون كله لازماً فيه الاقرار باللسان ، فيلزم ذلك في جميع الايمان ، والاصول ، والفرائض ، والمحارم ، ويتسع عليك الفتق ، ويلزم الناس ان يكونوا كلهم علماء كعلم الله ـ تبارك وتعالى ـ وهذا من المحال ، ولعل عامة العلماء ، من المهاجرين والانصار ، وغيرهم من التابعين ، لم يبلغوا منزلة ان يحيطوا بعلم الاقرار ، بجميع الايمان ، من القول الذي هو قول في دين الله ، من اصول الايمان ، ولا بعدم ذلك ، ومن لم يكتف بقليل الحكمة ، ضره كثيرها فيما قيل . والله الموفق للصواب بمنه وفضله .

مسألة : عن الشيخ صالح بن سعيد الزاملي ـ رحمه الله ـ وفي الرواية التي قيل فيها : (من لم يكن في زيادة في دينه فهو في نقصان) ما معنى ذلك ؟ أهو زيادة في العبادة ، ام زيادة في الخوف ، ام زيادة في اليقين ، ام زيادة في الورع ، ام كيف ذلك ؟ وكذلك ما قيل : (خلق ابن ادم احمق ولولا حمقه ما هناه عيش) كيف صفة هذا الحمق ؟ وهل هو عام ام خاص ؟

الجواب ، وبالله التوفيق عندي : ان مثل هذا واضح عند اولي

العقول ، لان المتعبدين اذا استقاموا على طريق الحق ، كل يوم على زيادة في القرب الى الله ، باستقامتهم على امره ؛ كلما طالت اعمارهم في العبادة ، زاد قربهم عند الله ؛ لأنهُ لا يظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها . ومن لم يكن على زيادة كل يوم عند الله ؛ فذلك عمله غير مقبول ، فهو على النقصان - اعاذنا الله من ذلك - .

واما حمق ابن ادم فهو غير خفي ، كان من اهل الصلاح ، او من اهل الفساد ، لأنهُ لو ابصر بعقله حقائق الأمور ، وما يجرى عليه ، لم يقدر ان يأكل أو يشرب ، ولضعفت نفسه ، ولو كان الاّ الموت وحده ، وما يعتريه بعده من القبر والبعث والحساب وغيره ، ولكن دلالة حمقه طول الأمل ، ومن علامة ذلك لا يجزع من الموت ، ولو مضت عليه السنون الكثيرة ، اكثر ما يجزع من قبل ان تمضي عليه . والله اعلم .

مسأله : قال ابو سعيد : الايمان يزيد ولا ينقص ، والكفر يزيد وينقص ، ولكنه يقال : الايمان يضعف ويتفاضل ، ولا يلحقه اسم النقصان ، هكذا في قول اصحابنا . وقيل : كل طاعة لله فهي من الايمان ، ولا يقال كل طاعة لله هي الايمان ، وليس كل طاعة ايمان ، لأن فيها الوسائل ، وترك الوسائل لا يكفر ، والايمان اذا ترك كان تركه كفراً . ويقال : كل ايمان هو طاعة الله ، ولا يقال : كل طاعة الله هي ايمان ، لأن من الطاعة ما يكون وسيلة .

(مسألة) : وقد يروي : واتفق الموسومون بالسنة ، على ان الايمان : قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية . ويروى عن سهيل : انهُ يزيد بالطاعة والعلم ، وينقص بالمعصية والجهل ، وهذا ايم والله اعلم . ورروي عن النبي ﷺ انهُ سمع رجلاً يعظ اخاه في الحياء كأنهُ ينهاه فقال : «دعه فان الحياء من الايمان» . وانما الحياء خلق فأثبته ﷺ في الايمان . وقد روي : «ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وفر في القلب ، يصدقه الغمل ، والذي نفسي بيده لا يدخل احدكم الجنة ، الاّ بعمل صالح يتقنه» قالوا : وما اتقانه يا رسول الله ؟ قال :

(يحكمه) .

والمتحققون بالسنة ، يرون ان الايمان الذي في القلب يزيد بزيادة الطاعة ، وينقص بنقصها ، وهذا هو الصحيح ، ان الايمان الذي في القلب يزيد بزيادة العمل الصالح وزيادة العمل ، وينقص بنقص ذلك ، فالايمان باطن في القلب ، ولكن ظهور العمل الصالح يدل على زيادة ، ونقص العمل الصالح يدل على نقصه في القلب ، وقد رويت في ذلك اثار كثيرة .

فصل : ومن قصيدة الشيخ فتح بن نوح المنربي :

وقد هدموا للشرع منه قواعداً	وقالوا فوار الفم يقضي على الركن
فياليت ما فاهت بهِ لهواتهم	صحيح لكنا اسعد الناس بالأمن
ولكنما المغرور يرنو سرابهم	فيحسبه ماءً فوافاه لم يغن

ومن تفسير هذه الأبيات : و (الفوار) : ما يفور من القدر عند غليانها واستعاره ها هنا مكان النطق ، تشبيهاً واحتقاراً لمقالة المرجئة . و (الركن) : ارادها هنا احد اركان الدين . وقوله : (وقد هدموا قواعد الشراع) يعني المرجئة . قالوا : ان الايمان قول بلا عمل ؛ ابطلوا فائدة الخوف والرجاء ، وهدموا قواعد الشرع بذلك ، وقد مدح الله المؤمنين في كتابه ، فقال : ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ (الآية) فابطلت المرجئية بقولهم ذلك : فائدة التقوى ، واطلقوا عقال المعصية .

اذا كان من اقر بالاسلام ، وانتهك المعاصي وجميع الآثام ، وضيع الفرائض والعمل باللازم ، ان يكون هذا ومن عبد ربه بجميع حقوقه سراً وجهاراً ، واجتنب جميع المعاصي فعلاً وقولاً واعتقاداً ، وقام على ذلك حتى اتاه اليقين ان يكون هذا ، والاول سواء . وقد قال الله تعالى : ﴿ام نجعل المتقين كالفجار﴾ في امثالها من القرآن .

وقوله : (فياليت ما فاهت بهِ لهواتم) معناه يقول : يا ليت الذي قالوه حقاً فيكون ممن سعد بهِ ، ولا يضرنا خلافهم ، وبالله التوفيق .

فصـــل : في الايمان واختلاف الامة .

اختلف الناس في الايمان على اقاويل كثيرة ؛ ومحصول اختلافهم يرجع الى قولين :

فقول المرجئة على اختلاف مذاهبها : ان الايمان هوما امر الله تعالى بهِ العباد من توحيده ، وصفاته ، ونفي الاشباه والامثال عنه ، من جميع ما لا يليق بهِ ، فمن اتى بما ذكرنا ؛ فهو مؤمن مستكمل الايمان واختلفوا في تفصيل الايمان فيما بينهم على ما وجدت في كتب الأوائل .

فقالت الجهمية : ان الانسان اذا أتى بمعرفة الله - عز وجل - ، وبجميع ما جاءَ بهِ من عنده ، فقد اتى بالايمان المأمور بهِ ، وما سوى ذلك من الاقرار باللسان . والعمل بالاركان ؛ فليس هو بايمان ولا دين ولا اسلام .

وقالت طائفة اخرى : ان الايمان هو الاقرار باللسان دون المعرفة بالجنان ، وحكي هذا القول عن مروان بن غيلان .

وقال بعضهم : الايمان اقرار باللسان ، واعتقاد بالجنان ، فلا يكون الايمان الاّ باجتماعهما كالسواد والبياض اذا أجتمعا في الفرس سميا جميعاً باللون الابلق ، وحكي هذا القول عن ابي حنيفة واصحابه : ان الايمان لا يتبعض ، فلا يزداد ولا ينتقص ولا يتفاضل فيه الناس .

وحكي عن محمد بن شبيب انهُ قال : ان الايمان هو الاقرار بالله ، والمعرفة بهِ وبأنبيائهِ ، وبجميع ما جاءَ من عند الله ، مما نص عليه ونقله المسلمون عن رسول الله ﷺ ، مثل : الصلاة والزكاة والصيام ، واشباه ذلك مما لا يتنازع فيه . وزعموا عن يونس بن عون انهُ قال : الايمان في القلب واللسان ، وحقيقة المعرفة بالله ، - سبحانـه - والمحبة والخضـوع له ، والتصديق برسله وكتبه ، فمعرفة هذا في الجملة ايمان ، ومعرفة تفسيرها ليس بايمان ، وكل خصلة من الايمان ليست بايمان ولا بعضه ، وجملتها ايمان .

وزعموا عن غسان المزحي انهُ قال : الايمان اقرار بالله ، ومحبته لهُ وتعظيم لهُ ، وهو يقبل الزيادة ، ولا يقبل النقصان ، خلافا لابي حنيفة حين

قال : لا يقبل الزيادة ولا النقصان ؛ وكان يقول : ان كل خصلة من خصال الايمان بعض من الايمان ، بخلاف القول الاول .

وزعموا عن بعضهم انهُ قال : الايمان ما وقاك عن الكفر ؛ وانهُ يقع على خصال كثيرة ، وكل من ترك منها خصلة واحدة كفر ، والخصلة الواحدة لا تسمى ايماناً ، ولا بعض الايمان ، فمن ترك مما يعد في الايمان عنده فيقال لهُ فسق ، ولا يقال لهُ فاسق الاَّ التارك الجميع .

وزعموا عن ابي توبان المرجي انهُ كان يقول : الايمان اقرار بالله ومعرفة بهِ ورسله ، وبكل شيء تقرر وجوده في العقل ، فزاد القول بالواجبات العقلية ، بخلاف من ذكرناه .

وزعموا عن بشر المرسي انهُ قال : الايمان هو التصديق بالقلب واللسان ، وزعموا ايضاً عنه مثل ؛ جهم بن صفوان ؛ ان الايمان هو المعرفة بالجنان فقط . والله اعلم . اي ذلك كان ؟ .

وقال سائر الأمة على اختلاف فرقها من الازارقة والاباضية ، والزيدية ، والمعتزلة ، والحشوية ، وسائرها : ان الايمان هو جميع ما أمر الله بهِ من طاعة ، وترك جميع ما نهى عنه من معصية ، فكل ذلك ايمان ودين واسلام ، وبعضه ايمان ، فمن اتى بجميع ذلك ؛ فهو مؤمن ومسلم ، ومن اقتصر على التوحيد دون الفرائض فليس بمؤمن ولا مسلم ، وان الايمان يزداد ولا ينتقص ، واستدلوا على ذلك من القرآن والسنة :

اما القرآن فقوله : ﴿ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً﴾ . (الآية) ، وقوله : ﴿وليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً﴾ . وقوله : ﴿ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم﴾ ، وقولَه : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ . في امثالها من الآيات .

واما من السنة فقوله عليه السلام : «الايمان نيف وسبعون خصلة اعلاها شهادة ان لا اله الاَّ الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق» ، وقوله : «الحياة شعبة من الايمان وحسن العهد من الأيمان والبذادة من الايمان» ،

وقوله : «الصبر والسماحة من الايمان» ، وقوله : «الصبر نصف الايمان ، والوضوء نصف الصبر» . في امثالها من الاحاديث .

ولو كان الايمان لا يزداد ولا ينتقص ، بطل التفاضل بين المسلمين فيه . قال الله تعالى : ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ ، وقال : ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ ، وقال ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ ، وقال : ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ . في أمثالها من القرآن .

ولو كان الايمان يكمل بالقول وبالاقرار دون العمل بالاركان ؛ لم يكن لقول الله تعالى : ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾ معنى ؛ لان رسول الله ﷺ واصحابه ، قد اتوا بالاسلام كاملاً في بدء امرهم ، فكيف يكمل بشيء قد استوعب واوتي على آخره .

مما يدل على ان الافعال من الايمان ؛ قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع ايمانكم﴾ ، يريد ﴿صلاتكم الى بيت المقدس﴾ في قول اهل التفسير .

ومما يدل ايضاً على ان للنية عملاً ؛ قوله تعالى : ﴿الاَّ من أكره وقلبه مطمئن بالايمان﴾ ، وقوله : ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ ، وقوله عليه السلام : «في الجسد بضعة اذا صلحت صلح سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد وهي القلب» . واذا كان القلب يطمئن مرة ويصغي اخرى ، ويوجل ويكون منه الصلاح والفساد ، واي عمل اكثر من هذا .

ومما يدل على نطق اللسان انهُ عمل ايضاً ، قوله تعالى : ﴿اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما تعملون محيطاً﴾ . فذكر القول ، وسماه عملاً عند احاطته بهِ ، وكذلك قوله : ﴿وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ (الآية) . فهل كان عمل رسول الله ﷺ مع الكفار ، الاَّ دعاؤه اياهم الى الله ، وعملهم معه ردهم . قوله بالتكذيب فسماه عملا ؟! وكذلك في الحديث المأثور : «من عد كلامه من عمله قل كلامه الاَّ فيما يعنيه» .

وفي مستغمض كلام العرب ، وسائر الناس سمى الكلام عملا ايضاً

وذلك قول القائل : (فعل فلان اليوم عملاً كثيراً) ، اذا نطق بحق ، او قام بشهادة ، وكذلك اذا سمع صاحبه قيل : فعل بهِ الافاعيل ، ونحو هذا من القرآن يسمونه عملاً ، فدل هذا على الايمان يكون عملاً من جميع الوجوه من اعتقاد الجنان ، والقول باللسان والعمل بالاركان .

فصـــل : وذهبت المرجئة فيما وجدت ؛ ان الزيادة المذكورة في الآيات والاحاديث المتقدمة الاّ انها ليست عندهم ، وافترقوا فيها على اربعة اقوال :

احدهما : انهم قالوا : اصل الايمان الاقرار بجملة الفرائض ، من الصلاة والزكاة وامثالها . قالوا : فالزيادة هي الاقرار بعد هذه الجملة ، ان الصلاة خمس وان للظهر منها اربعاً ، والعصر اربعاً في امثالها من تبين الفرائض .

والقول الثاني ؛ انهم قالوا : اصل الايمان الاقرار ، والزيادة تكوين ذلك الاقرار .

والقول الثالث ؛ انهم قالوا : الزيادة في الايمان هي ازدياد اليقين .

والقول الرابع ؛ انهم قالوا : الايمان لا يزداد ابداً ولكن الناس يزدادون منه .

فصـــل : في اعتراضهم . .

ويقال لمن قال ان الزيادة في الايمان هي الاقرار بجملة الفرائض : هذا غلط منك على لغة الناس ؛ وذلك لو ان رجلاً اقر لرجل بألف درهم ثم بينها ، فقال : مائة من جهة كذا ، ومائتان من جهة كذا ، حتى استوعب الفاً ، ما كان يسمى هذا زيادة ، وانما يقال لهُ : تلخيص وتفصيل تلخيص ، وكذلك يقال لمن قال : ان الزيادة هي تكرار لو لم يفصل هذا الألف الذي اقر بهِ ، ولكنه رد ذلك الاقرار مراراً لما قيل لهُ زيادة وانما يقال : هو تكرار واعادة ؛ لأنهُ لم يعن المعنى الاول ، ولم يزد فيه شيئاً .

وأما الذين قالوا : ان الزيادة هي الازدياد من اليقين ، فانهُ يقال لهم :

ان اليقين هو من الايمان أيضاً ، لانهُ لو كان اليقين ليس من الايمان ، لم يكن لذكر الزيادة والاقرار بها معنى ، لأن المعرفة استكمل الايمان باقراره أول مرة ، فكيف يزداد من شيء قد احاط بهِ قلبه واستقصاه ؟ أولا ترى لو أن رجلاً نظر الى النهار فاتضح ، حتى اذا أتاه علمه كله بصره ، هل يستطيع ان يزداد يقيناً بانه نهار ؟ هذا من المستحيل في العقل .

وأما قول من قال : ان الايمان لا يزداد والناس يزدادون منه ، فهو أيضاً غير الموجود في لغة الناس ، ألا ترى لو أن رجلاً وصف لهُ ماله فقيل لهُ : هو ألف ثم قيل لهُ : قد ازداد مائة بعدها ، لما كان لهذا الاّ ان المعنى ، ان يكون المائة هي الزائدة على الألف ؟ وكذلك سائر الاشياء في الايمان مثله ، لا يزداد الناس منه شيئاً ابداً الاّ ان كان ذلك الشيء هو الزائد في الايمان ، وبالله التوفيق .

فصـــل : ويقال للمرجئة : اخبرونا عن الايمان ، ما هو ؟ فان قالوا : هو الاقرار بالله انهُ واحد ، وان محمداً عبده ورسوله ، وما جاء بهِ حق ؛ قيل لهم : هذه ثلاث خصال بعضها غير بعض : الاقرار بالله ، غير الاقرار برسوله ، والاقرار برسوله غير الاقرار بما جاء بهِ ، لانهُ لا يكون موحداً لمن أنكر خصلة منها ، حتى يقرّ بجميعها ، فاذا جاز لكم ان تجمعوا الايمان ثلاث خصال ؛ فلم لا يجوز لغيركم ان يجعلها عشراً أو أكثر ؟ فيجعل الصلاة والزكاة وغيرهما من جميع الفرائض ايماناً ، ويقول لهم أيضاً : المعرفة بالله هي الاقرار بهِ أو غيره ، فان قالوا : المعرفة غير الاقرار ، لزمهم ان يكون من أخرس الله لسانه ، وعرف الله بقلبه ان يكون غير مؤمن .

فان زعموا ، ان الاقرار هو المعرفة ، قيل لهم : فان كان انما كانت المعرفة ايماناً بالله من أجل انها معرفة ، بطل ان يكون الاقرار ايماناً ، الاّ لعلة وجوب الثواب عليه ، فثبت بهذا ؛ ان جميع ما قارنه الثواب من طاعة الله - عز وجل - ، أن يكون ايماناً لأن الله يقول : ﴿وما أمروا الاّ ليعبدوا الله مخلصين لهُ الدين حنفاء ويقيموا الصلوٰة ويؤتوا الزكوٰة وذلك دين القيمة﴾ . فسمى

صلاتهم وزكاتهم ديناً ، وقال : ﴿وما كان الله ليضيع ايمانكم﴾ ، يريد (صلاتكم) نحو بيت المقدس وأنتم تزعمون : ان من صلى اليها اليوم كافر ، فأنزل الله : ﴿وما كان الله ليضيع ايمانكم﴾ ، فسمى صلاتهم (ايماناً) . وقال : ﴿وأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ ، أي (يعملون) بما في السورة من الفرائض ، فيزدادون بذلك ايماناً . وقال : ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم﴾ ، فهؤلاء قوم مؤمنون ، مستكملو الايمان أخبر عنهم : ﴿يزدادون ايماناً مع ايمانهم﴾ ، فدل ان للايمان خصالا كثيرة يزداد ولا ينتقص ، وبالله التوفيق ومنه .

فصــل : اختلف الناس في اسم المرتكب الكبيرة ، المضيع الفريضة ، من هذه الأمة ؟

فقال المرجئة : هو مؤمن مسلم .

وقال الحشوية واصناف الاشعرية : هو مؤمن مسلم عاصٍ مذنب ، أمره الى الله ان شاء عذبه ، وان شاء رحمه .

وقالت المعتزلة : هو ضال فاسق ، واتفقت هذه الفرق على نفي اسم الكفر والنفاق عنه .

وقالت الصفرية : هو كافر مشرك كأهل حرب نبي الله عليه السلام ، مباح الدم والسباء والغنيمة ، حلال المناكحة والارث ، واكل الذبيحة .

وقالت الاباضية والزيدية : هو منافق كافر كفر نعمة ، لا كفر جحود .

فصــل : أما المرجئة ؛ فسموه باسم الايمان والاسلام على أصلهم في أن الايمان قول بلا عمل ، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿آمنا بالله وما أنزل الينا﴾ ، الى قوله : ﴿فان آمنوا بمثل ما آمنتم بهِ فقد اهتدوا﴾ ، وقولهُ : ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ ، وقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في أمثالها من القرآن .

واحتجوا من السنة بقول الرسول عليه السلام حين سئل عن الايمان فقال :

«ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» ، الى آخر الحديث ، وقوله للذي سأله عن عتق العجمية فقال لها : «من ربك» ؟ فأشارت الى السماء ، فقال : «من نبيك» ؟ فأشارت اليه فقال : «اعتقها فهي مؤمنة» ، في امثالها من الاحاديث .

وقالوا ان كل اسم من لغة العرب مشتق من فعله ، فزعموا من هذا : ان من أتى بصفة الايمان على ما ذكروا قولاً ، فهو مؤمن مسلم حقاً ، ثابتة لهُ الولاية في الدنيا ، ولا يعرض على النار في العقبى ، ليس بكافر ولا منافق ، ولا ضال ولا عاصٍ ولا مشرك ، وبالله التوفيق .

فصــل : وأما الحشوية ، واصناف الاشعرية ، فوافقوا المسلمين وسائر الأمة في قولهم : ان الايمان قول ، وعمل ، بخلاف المرجئة ، وأثبتوا لصاحب الكبيرة الايمان والاسلام ، ونفوا عنه اسم الكفر والنفاق ، واحتجوا على اثبات الايمان لهُ ، بقول الله عزّ وجل : ﴿انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم﴾ ، وقوله : ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ (الآية) فقالوا : هو داخل في الايمان بالاسم ، والمعاصي التي ارتكبها انما تنفي عنه حقيقة الايمان واخلاصه التى وصف الله بها المؤمنين في قوله : ﴿انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله اذا ذكر الله﴾ (الآية) ، وقوله : ﴿قد افلح المؤمنون﴾ ، ثم وصفهم في أمثالها من القرآن .

فصــل : وأما المعتزلة فوافقوا المسلمين في جميع ما قالوا في مركتب الكبيرة ، من اثبات الوعيد والتخليد في النار ، وجميع اسماء الضلال ، ونفي التسمية بالايمان ، وخالفوهم في عبارة التسمية بالكفر دون معانيه ، وسموه فاسقاً ، منزلة بين المنزلتين .

وقالوا فيما وجدت عنهم : وجدنا الكافرين هم الذين قال الله عزَّ وجل فيهم : ﴿فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ الى آخر الآية ، قالوا : فوجدنا الكفر على وجهين : إما صاحب جزية ليس بمقتول ، وإما مقتول

بالحكم ، قالوا : فوجدنا أهل الكبائر ليسوا من واحد من الضربين ، وليست احكامهم كأحكامهم ، علمنا انهم ليسوا بكفار ؛ لانهم لو سموا بذلك لحكم عليهم بحكم الكفار ، ولو سموا مؤمنين لثبت لهم ثواب المؤمنين ، فلما زال هذان الحكمان عنهم ، ازلنا عنهم الايمان والكفر ، وسميناهم فساقاً ليسوا بمؤمنين ولا كافرين ، وزعموا هذا القول عن ابي الهذيل ، وبشير واصحابهما ، والله أعلم .

فصــل : وقال سائر الخوارج على اختلافها : بتشريك أهل الكبائر ، وسبيهم وغنيمة اموالهم كما قدمنا ، وجوزوا مع ذلك توريثهم ، ونكاح نسائهم ، واكل ذبائحهم ، وقسمت الازراقة ، فأخذوا ما أحبوا ، وتركوا ما كرهوا ، واحتجوا بتشريك أهل القبلة ، بقول الله تعالى : ﴿وان أطعتموهم انكم لمشركون﴾ ، واستدلوا على سبيهم ، وانهم انما عرفوه من قبل اهل دبا ، وبني ناجية واشباه ذلك ، فعمدوا الى زلات المسلمين فاتخذوها ديناً ، فعموا ، وصموا ، وضلوا عن سواء السبيل ، مع انتحالهم الهجرة وغيرها من البدع ، والله أعلم .

وأما الأباضية بأصنافها ، والزيدية من الشيعة على اختلافها ، فصاحب الكبيرة عندهم بريء من الشرك والايمان ، موسوم بالكفر والنفاق ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء﴾ ، لا من المسلمين في الاسم والثواب ، ولا الى المشركين في الحكم والسيرة . وقال في موضع آخر : ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ ، نفاهم من المؤمنين ان يكونوا معهم في التسمية والايمان والمودة في الدين ، ونفاهم من المشركين ان يكونوا معهم في التسمية بالشرك واحكامه ، فهذه ثلاث منازل : القتل في اهل الشرك ، والسباء والغنيمة ، وتحريم الذبائح والمناكحة والموارثة والمدافنة معهم ، وغير ذلك من احكامهم ، وتحريم القتل للمنافقين ، اذا لم يظهروا نفاقهم ، وتحريم السباء والغنيمة منهم ، واجراء سائر الحقوق عليهم من المناكحة ، والموارثة والمدافنة ، وغير ذلك من احكامهم ، مع تحريم عدالتهم ، وابطال ولايتهم ،

واقامة الحدود عليهم ، وللمؤمنين وجوب الولاية والمودة في الدين ، واثبات عدالتهم ، وجواز شهادتهم ، وغير ذلك من احكامهم .

فهذه احكام ثلاثة لثلاثة أسماء كما قال الله تعالى : ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ الى قوله : ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ، وقال أيضا : ﴿يحلفون بالله انهم لمنكم﴾ ، أي في النظر والتسمية بالايمان والوفاء ، فكذبهم الله فقال : ﴿وما هم منكم﴾ ، أي ليسوا منكم في التسمية والوفاء ، ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي يجبنون عن لقاء العدو . فبهذا وأمثاله من أفعالهم ليسوا من المؤمنين ، في أمثال ما قدمنا ذكره كثيراً في القرآن .

ومن مستفيض الحديث كقوله عليه السلام : «أربع من كنّ فيه أو واحدة منهنّ فهو منافق حقاً وان صلى وصام وزعم انهُ مسلم ، من اذا حدث كذب واذا اؤ تمن خان واذا وعد اخلف واذا خاصم فجر» ، في أمثال هذا من الاحاديث كقوله عليه السلام ، للسائل يا رسول الله ان الناس قالوا : لا إله إلاّ الله فخفي علينا بهِ المؤمن من المنافق ، فقال عليه السلام : «ألا أخبركم بفصل ما بينهما ؛ ان المؤمن اذا قال لا إله إلاّ الله فهمه الله والجنة والنار ، والمنافق اذا قال لا إله إلاّ الله فهمه بطنه وفرجه ودنياه» . رواه (جابر بن زيد) عنه عليه السلام في أمثال هذه الأحاديث كثيرة يطول الكتاب لاستقصائها .

فصــل : وما إثبات كفر صاحب الكبيرة من القرآن ، فكقوله تعالى حكاية عن نبيه عليه السلام : ﴿ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ ، وكقوله تعالى في الحج : ﴿ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾ ، يعني ومن ترك الحج رغبةً عنه .

ومن مستفيض الأحاديث عنه عليه السلام كقوله : «ليس بين العبد والكفر الاّ تركه الصلاة» ، وقوله للسائل عن الحج : «لو قلت نعم ؛ لوجب ، ولو وجب لم تفعلوا ، ولو لم تفعلوا لكفرتم» ، وقوله : «من أتى امرأة في دبرها أو حائضا فقد كفر» ، في أمثالها من الأحاديث .

وذهب مخالفونا فيما وجدتُ عنهم في هذه الأحاديث ، وأمثالها من

الأحاديث المذكورات فيها البراءة ، كقوله عليه السلام : «ليس منا من غشنا» ، وقوله في نفيه الايمان عن الزاني والسارق : «ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق ، وهو مؤمن» وقوله : «اذا زنا الزاني سلب الايمان» في امثالها ذهبوا في هذه الاحاديث وامثالها اربعة مذاهب :

طائفة حملتها على التغليظ والترهيب ، واظنهم المرجئة .

وطائفة حملتها على الكفر والشرك ، مثل شرك اهل الردة وهم الخوارج والصفرية .

وطائفة حملتها على انها من سنن الكفار ، وافعالهم واخلاقهم وشرائعهم ، وهم الحشوية .

وفرقة رابعة فيما وجدتُ ذهبت الى توهين هذه الأحاديث وردها ، وكل هذه الأقوال ساقطة واهية .

أما المرجئة الذين حملوها على التغليظ والترهيب قبول مذهبهم الى ابطال العقاب كله ؛ لانهُ اذا أمكن في واحدة ، أمكن في جميع العقوبات ، فما معنى الاكثار في الرد عليهم في هذا الموضع ؟ وسنشير ان شاء الله الى ذلك في موضعه .

وأما الأشعرية الذين حملوها على النهي بالتشبيه بأفعال الكفار واخلاقهم ، فهو ذهاب عن الظاهر بغير دليل ولا برهان ، ألا ترى الى قوله عليه السلام : «اذا قال الرجل لصاحبه يا كافر فقد باء احدهما بالكفر» أي (استوجبه) كما قال تعالى : ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ ، أي احتمل ذلك واستوجبه . وقال : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ و (الفاسقون والظالمون) ولم يقل : فأولئك هم المشبهون بهؤلاء ، وكذلك قوله عليه السلام في حديث فيه طول : «الا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ، وقوله : «ومن ترك الصلاة فقد كفر» ، ولم يقل لا تشبهوا

بأفعال الكفار وكذلك سائر الاحاديث على هذا الحال ، وبالله التوفيق . وأما الصفرية سنشير اليهم بعد ان شاء الله .

فصــل : وأما تسمية المرجئة ، واضاف الأشعرية صاحب الكبيرة باسم الايمان ، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ، وقوله : ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ ، في أمثالها من القرآن والسنة بأن لفظة (المؤمن) ، والتسمية (بالايمان) جاءت في القرآن والسنة ، على وجهين :

أحدهما للمقر كقوله تعالى : ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ اي (مقرّ) ، وقوله : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ دخل فيه البار والفاجر في أمثالها من القرآن . واما قوله : ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ فمعناه من المقرين لانهُ لم يقل الذين هم المؤمنون ، نظيره قوله تعالى : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ، فهو مؤمن ، صادق بالاقرار والفعل جميعاً ، والاّ فهو مقر كاذب .

والوجه الآخر المؤمن الموفي كقوله تعالى : ﴿انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ الى قوله : ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ في أمثالها من القرآن . فهؤلاء المؤمنون حقاً ، وغيرهم المؤمنون باطلاً ، فماذا بعد الحق الاّ الضلال ؟! وأما من السنة فكقوله عليه السلام : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» ، وقوله : «ليس المؤمن من بات شبعاناً وجاره جائعاً» ، في امثالها مما يطول ذكره .

وأما احتجاج المرجئة في تسميتهم المنافق مؤمناً ، وزعموا : أن كل اسم مشتق من فعله فيقال لهم : ان في لغة العرب من لا يفعل الشر الاّ نادراً لا يسمى بهِ ؛ كمن يبني بيتاً واحداً في عمره ، أو يصوغ خاتماً ، أو يخيط ثوباً ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يسمى بانياً ، ولا صائغاً ، ولا خائطاً ، لقلة استمراره على ذلك الفعل ، وانما الاسم للغالب من افعاله ، وانما يقال لهذا بنى وصاغ وخاط في امثالها ، كما يقال لمن اقر بالله وارتكب ما نهاه عنه ، ابر واصلح في امثالها ولا يقال لهُ مؤمن ، ولا بار ، ولا صالح ، لان هذا اسماء

البدن وامن في امثالها اسم فعل كما قال الله تعالى : ﴿ان الذين آمنوا ثم كفروا﴾ ، ولم يقل : ان الذين هم المؤمنون والكافرون . فان قال قائل : أوليس قد قلت : ان المؤمن على وجهين : احدهما بمعنى (المقرّ) فلم لا تسمون صاحب الكبيرة مؤمناً أي «مقراً» ؟ قيل لهُ : ان التسمية بالايمان متعلقة باستكماله ، فلما وجدنا الله سمى الوليد بن عقبة فاسقاً وان كان مقراً وقال : ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾ .

قلنا : لا يخلو صاحب الكبيرة يسمى مؤمناً بما معه من الايمان ، أو فاسقاً كافراً بما معه من الكفر والفسق ، أو يسمى بهما جميعاً ، فبطلت التسمية لهما جميعاً لما في ذلك من اجتماع الاضداد ، فيكون مؤمناً متولياً من أهل المودة والعدالة والثواب ، ثم هو كافر فاسق من اهل العداوة والبغضاء واللعنة ، ووجوب العذاب ، فلما استحال هذا ان يوصف بهِ في حالة واحدة ، وبطل ايضاً ان يسمى مؤمناً من اجل ما معه من الفعل الذي يستحق بهِ العداوة واللعنة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، لأن الله تعالى قال : ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ فليس هذا منهم حتى يستحق اسمهم ، فلما بطل هذان الوجهان لم يبق الاّ أن يسمى كافراً ، لأن رسول الله ﷺ ، قال : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» ، فنفى عنهُ أن يسمى مؤمناً في تلك الحالة ، وخاطب المنافقين فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الايمان من قلبه «الا لا تؤذوا المؤمنين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، ومن يتبع عورة أخيه المسلم ، تبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته فضحه» ، أو كلام هذا معناه الى تمام الحديث ولم يقل : (يا ايها المؤمنون) فلا يجوز لأحد ان يسمى مؤمناً من سماه الله فاسقاً ، ونفى عنه رسول الله ﷺ الايمان ، ألا ترى الى من أتى بالتوحيد بجميعه ؛ الاّ انهُ انكر خصلة واحدة فلا يسمى مؤمناً ولا موحداً عند الجميع حتى يستكمله ، وكذلك الايمان عندنا ، وأيضاً فان المرجئة وأصناف الاشعرية ، يسمون من خالفهم من الخوارج والقدرية وغيرهم ضالين مبتدعين ، ولم يعتبروا ما معهم من الايمان وشروطه ، من الصلاة والزكاة ، وغير ذلك ، ولم ينقموا عليهم الاّ ما خالفوهم فيه ، ولهذا وامثاله لعن رسول الله ﷺ المرجئة على لسان سبعين نبياً حين لا شوا قواعد الشرع وابطلوا فائدة

التقوى وبالله التوفيق .

فصــــل : وأما الحجة عليهم في نفيهم الكفر عن صاحب الكبيرة هم والمعتزلة ، أما الأشعرية فقد اوردنا من الحجة عليهم من القرآن والسنة ما يغني عن اعادته ، ولأن الكفر في لغة العرب الستر والتغطية ، فكل من ستر جميلك ومعروفك فقد كفر ، حتى قالوا : [من استنجى بيمينه فقد كفر نعمة اليمين] .

وأما المعتزلة الذين وافقوا المسلمين في اثبات التوحيد ، وجميع معاني الكفر ، وقالوا : ان الفساق ـ اعداء الله ـ فجار ضالون في جميع اسماء الضلال ، ما خلا الكفر والنفاق ، فقد علمنا جميعاً ان الله تعالى انما أوعد النار للكافرين ، وان الله عدو للكافرين ، وان المنافقين هم الفاسقون ، وان الناس يوم القيامة صنفان ، كما قال الله تعالى : ﴿وجوه يومئذٍ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ الى آخر السورة . وقال : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ الى آخر الآية ، وقال : ﴿خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ، وقال : ﴿اما شاكراً واما كفوراً﴾ ، في أمثال هذا من القرآن ، فاثبتوا منزلة ثالثة بين الكفر والايمان ، بخلاف سائر الأمة ؛ فقد تجاهلوا فحسبهم ، وبالله التوفيق .

فصــــل : في الرد على الصفرية .

أما الصفرية الذين جعلوا المعاصي كلها كفراً ، أو شركاً ، فأكفروا الأمة بصغائر الذنوب وكبارها ، وشركوهم بذلك وان الله حكم في أهل الكبائر بغير ذلك ، واكذب مقالتهم ، وذلك ، انهُ حكم على السارق بقطع يده ، وعلى الزاني والقاذف بالجلد في امثاله من احكام الله تعالى ، فلو كانت ذنوب هؤلاء شركاً لحكم عليهم بالقتل كما قال رسول الله ﷺ : «من بدل دينه فاقتلوه» ؛ في أمثال هذا مما يطول بهِ الكتاب ، واما ما احتجوا بهِ في قول الله تعالى : ﴿وان اطعتموهم انكم لمشركون﴾ ، فانما ذلك فيما فسره العلماء ، وان ﴿اطعتموهم﴾ في استحلال الميتة ، لا في اكلها ، لا من استحل الميتة مكذب لله ، راد عليه وذلك ؛ ان المشركين قالوا للمؤمنين لم تأكلون ما قتلتم ؟ يعنون [ما ذبحتم] ولم تأكلون ما قتل الله ؟ يعنون [الميتة] فأنزل الله هذه الآية ، واما

ما اعتلوا بهِ في السباء ؛ فانهم انما عرفوا ذلك من قبل اهل دبا وهي قرية من قرى عمان ، فانهُ انما فعل ذلك فيها وجدت ، رجل ضعيف الرأي ، بعثه ابو بكر ـ رضي الله عنه ـ ليأخذ صدقة تلك القرية فكانت منه معهم منازعة ، فاقتتلوا فظهر عليهم المصدق ، فسباهم فوافق ذلك خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة ابي بكر ـ رضي الله عنه ـ فسبه عمر فيها بلغنا ثم قال : والذي نفس عمر بيده ولو علمت انك سبيتهم بدين لجعلتك طوائف ، ورد ذلك عمر ـ رضي الله عنه ـ فانما كانت زلة من ذلك الرجل من غير محضر أحد من أهل الفقه ، فعمدت الخوارج الى ذلك فاتخذوه ديناً ـ قاتلهم الله وأضلهم وأعمى أبصارهم ـ

(مسألة) : ويقال لهم : أخبرونا عن الشرك في اللغة ما هو المساواة بالله غيره ؛ لعلة ؟ فان قالوا : نعم فقد ابطلوا ان يكون ترك الفرائض وارتكاب الكبائر شركاً ، لأن أهلها لم يساووا بالله أحداً من خلقه ، وانما أتوا ما أتوا شهوة ولذة وهم مقرون بتحريمه . فان قالوا : ان المعصية لله انما كانت شركاً لانها طاعة لإبليس ؛ والطاعة هي العبادة وهم عابدون لابليس ؛ قيل لهم : اتكون عبادة بغير تقرب ؟ فان قالوا نعم ؛ فقد زعموا ان من اطاع الله ولم يتقرب اليه انهُ مطيع لله عابد لهُ ، فان قالوا : لا تكون الطاعة لله الاّ بالتقرب ؛ قيل : وكذلك العاصي لا يكون عابداً للشيطان وهو غير متقرب اليه يلعنه ويشتمه فلا تكون متقرباً اليه بذلك ، ويدخل عليهم أيضاً ؛ ان آدم عليه السلام وغيره من الأنبياء حين أكل من الشجرة ، كما قال الله تعالى فيه : ﴿وعصىٰ آدم ربه فغوى﴾ ، ان يكونوا عابدين للشيطان ـ حاشا أولياء الله وصفوته من خلقه ـ أن يكون ذلك منهم والله أعلم وأحكم ، وبالله التوفيق .

(مسألة) : ومنه قال الله تعالى : ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾ ، وقال : ﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منهُ وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ، والدين ، والايمان ، والاسلام أسماء مختلفة لمسمى واحد ، وهو طاعة الله تعالى ، وان الايمان اصله التصديق . والاسلام أصله الاستسلام والخضوع . والدين أصله الطاعة والايمان . والاسلام كله من قبل

التصديق ايمان ، والايمان من قبل الخضوع اسلام ، والدين من قبل الدين طاعة ، وكل خصلة من الدين فهي إيمان واسلام ، وكل خصلة من الاسلام فهي دين وايمان ؛ لانهُ لا يسع احداً ان ينفي الايمان عن الصلاة وأخواتها ، ولا ينفي الاسلام عن الايمان الذي هو الاعتقاد ، فيكون الواحد مؤمناً غير مسلم ، لأن الله تعالى قال : ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ ؛ فالذي وجد هو الذي اخرج وجميع الأمة فيها وجدت الاسلام عندهم هو الايمان ما خلا الرافضة ، فانهم زعموا فيما وجدت عنهم : ان الايمان اقرار بالله ، ورسله ، وبالامام ، وبما جاءَ من عندهم ، واما المعرفة بذلك فضرورة عندهم ، فاذا أقر وعرف فهو مؤمن مسلم ، وان أقر ولم يعرف فهو مسلم وليس بمؤمن ، واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا﴾ (الآية) .

فصــــل : أعلم أن للشيطان ديناً وهو طاعته ، ولكن لا يذكر دين الشيطان الاّ مقروناً بالمضاف اليه .

(مسألة) قال الله تعالى : ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ ، وقال : ﴿ولهُ الدين واصباً﴾ ، وقال : ﴿وذلك دين القيمة﴾ ، وقال : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى بهِ نوحاً﴾ (الآية) . فشرع الله الاسلام ديناً فيما لا عوج فيه ، ولا شطط ، خالصاً صافياً ليس فيه ظلم ، ولا كدر ، ولا رجس ، ولا قذر ، ولا منكر ولا معصية ، ولا محاباة ، ولا عصبية ، لا يدان بعصيانه ولا يتولى فيه أهل عدواته ، ولا يبرأ فيه من أهل ولايته ، ولا يرضى عن العباد الاّ بهِ ، ولا يغفر الذنوب فيه الاّ بالتوبة . فربما فرقه في آيات من كتابه ، وربما جمعه في بعضها ، فمن اخذ بما أمر بهِ في كتابه ، كان حنيفاً مسلماً ، ومن ترك بعضه لم يقبل منه ما أخذ حتى يأتي بجميعه ، واذا أصر ولم يتب ، ضل وغوى ، وولاه الله ما تولى وأصلاهُ جهنم وساءت مصيراً .

وهو المراد بقوله : ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ . فالوفاء بعهده هو الاتيان بأوامره ، والاجتناب لمناهيه ، فمهما فعلوا أوفى لهم بعهده إياهم من الثواب والغفران ، ومن لم يوف بعهد الله فلا عهد لهُ ؛ ألا ترى الى الناس

يقولون : الكراء موصل لان صاحبه لا يستحق الأجرة الاّ بإيصال الحمل الى موضع الاتفاق والاّ فلا كراء لهُ ؟ وبالله التوفيق .

فصــــل : وذهبت المرجئة الى أن التوحيد لا تضر معه معصية ، كما لا تنفع مع الشرك طاعة ، وذهبت الأشعرية ؛ انهُ توزن حسناته وسيئاته ، فأيهما أكثر جوزيَ بهِ ، فالصواب ما قدمناه أولاً ؛ لأن الاصرار على الذنوب وارتكاب الكبائر يحبطان أعمال العبد ويصيرانه هباءً منثوراً ، لا كما قال أهل الشك : ان من أقر بالله والنبي ، ثم صلى وصام وحج وغزا ، وجاهد وقام في أمثال ذلك من الطاعات ، وركب الفواحش في أثناء ذلك من الزنى والسرقة وشرب الخمر ، ونحو ذلك من المعاصي وقالوا : خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وغلبت حسناته سيئاته ، لأن السيئة واحدة ، والحسنة عشر أمثالها ، والآحاد لا تغلب العشرات ، فبلغ ذلك من افكهم حتى قالوا : ان الله لا يعذب أحداً من أهل المعاصي بسيئة عملها ، وهو مقيم عليها فلما نظروا الى قولهم قد تفاحش ؛ تكعكعوا واستخرقوا طريقاً من الوبال ، ومخرجاً من الفساد والخبال ، فأوجبوا الخروج من النيران بعد الخزي والهوان . وما يغني عنهم بعد ان ابطلوا زواجر القرآن ، واطلقوا لأهل الغباوة عقال الفسق والعصيان ـ قاتلهم الله وأعمى ابصارهم ـ فلو صح ما انتحلوه في الأعمال ، واثبات الحسنات مع الكفر والاسرار ، لكان الفاسق لا يقلع عن الكبائر ابداً ؛ لانهُ اذا زنى واغتسل من ذلك ، فالزنى سيئة والاغتسال منه حسنة ، والسيئة واحدة والحسنة بعشر أمثالها ، فالحسنة الواحدة تقابل السيئة والتسع قد بقيت معه زائدة ، ويؤ ول قولهم هذا : ان الله يعذب التائب من الذنوب ، المقلع عنها ، ويثيب المصر عليها ؛ لانهُ اذا تاب قبل موته بشهر وارتكب الكبائر قبل موته بشهر فمات على ذلك ، فسيئات التائب أكثر من حسناته ، وحسنات المصر على الكبائر قبل اصراره اكثر من سيئاته التي مات عليها . وقد قال الله تعالى خلافاً لهذا القول في التائب : ﴿إلاَّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يدخلون الجنة﴾ ، وقال : ﴿فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ ، وقال في المصر الظالم : ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ .

ونحن نعلم - بحمد الله - أن المعاصي تسقط بالتوبة ، وأعمال الحسنات ، والمصيبات وشفاعة الرسول عليه السلام ، وعفو الله أكبر من ذلك ، لكن ليس ذلك للمصر الخائب ، ولا المبتدع الكاذب ، وانما ذلك للنادم التائب ، وكذلك علمنا احباط الطاعات بما جعل الله على مركتب الكبيرة من الأحكام في الدنيا ، وقضائه عليه بالنار في العقبى ، فيما اوردنا من الأدلة قبل هذا من القرآن ، والسنة ، وما سنذكره بعد هذا في موضعه ان شاء الله .

فصــل : وأما الآية التي احتجوا بها في قوله تعالى : ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ ، وقد وجدت في التفسير ؛ انها نزلت في لبانة بن عبدالمنذر وأويس بن ثعلبة ؛ هذا عن الكلبي ؛ وكان الحسن لا يسميهم ويقول : عرض لهم شيء في وجوههم ثم تابوا منهُ ، وجاءوا الى النبي عليه السلام فاعترفوا بذنوبهم .

ووجدت أيضاً انها في بني لبابة ، حين قالا لبني قريظة أرادوا ان ينزلوهم على حكم النبي عليه السلام فقال لهم : واشار الى حلقهِ - انهُ الذبح - ورأى انهُ قد خان الله ورسوله ، فندم ، وتاب ، وربط نفسه الى سارية المسجد حتى تاب الله عليهِ وعلى الذين خلفوا ، والله أعلم وأحكم . انقضى الذي نقلناه من تفسير قصيدة الشيخ فتح بن نوح المغربي .

(مسألة) من كتاب (الارشاد)

وأما الاسلام ؛ فمعناه في اللغة الخضوع والاستسلام والانقياد . قال الله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ ، استسلاماً لا إسلاما ، فكان الاسلام على هذا المعنى عبارة عن التسليم والاستسلام لله تعالى . وقال الله تعالى : ﴿ومن يبتغ ، غير الاسلام ديناً فلن يقبل منهُ﴾ ، وقال النبي ﷺ : «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه والمهاجر من هجر السيئات والله اعلم» .

(مسألة) : سئل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال ، فقال : «الاسلام»

قيل لهُ : أي الاسلام أفضل ؟ قال : «الايمان» .

واختلف الناس في الايمان ، والاسلام فقال بعضهم : انهما شيء واحد . وقال بعضهم : انهما شيئان . وقال بعضهم : انهما شيئان ولكن يرتبط احدهما بالآخر . ولكل قول أصل يبنى عليه والله أعلم .

وقيل : الاسلام القول ، والايمان العمل ، فمن لم يصدق القول بالعمل ، فليس بمؤمن لأن الله يقول : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ ، صدقوا ايمانهم بأعمالهم والله أعلم .

روي ان النبي ﷺ ، قال : «لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب للناس ما يحب لنفسه» ، من العافية في الدنيا ، من جميع الامتحـان بالآلام ، والاسقام ، والهموم ، والأحزان ، والفقر ، والشدائد ، وان يموتوا تائبين مقبولين عند الله ؛ لأن المؤمن رحيم القلب ، والله أعلم .

(مسألة) : من كتاب (بيان الشرع) : اذا سأل فقال : ما الاسلام في كلمة واحدة ؟ فقل : الطاعة . قال أبو سعيد : هكذا عندي أن الطاعة طاعة الله . وان قال ما الاسلام في كلمتين ؟ فقل : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . قال ابو سعيد : معي ان المعروف ، وترك المنكر ، هو الاسلام في كلمتين ، معي كان علماً ، أو قولاً ، أو أمراً أو نهياً . فاذا قال : ما الاسلام في ثلاث كلمات ؟ فقل : العلم ، والايمان ، والعمل . قال أبو سعيد : حسن عندي . فاذا قال : فما الاسلام في أربع كلمات ؟ فقل : ندين بدين الله ، ونتولى أولياء الله ، ونعادي أعداء الله ، ونقر بحكم القرآن في أموالنا وأنفسنا . قال أبو سعيد : هكذا عندي . فان قال : فما الاسلام في خمس كلمات ؟ فقل : الايمان ، والعمل ، والولاية ، والبراءة ، والشهادة ، قال ابو سعيد : هكذا عندي . فاذا قال : فما الاسلام في عشر كلمات ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلاّ الله وحدهُ لا شريك لهُ ، وان محمداً عبده ورسوله ﷺ ، والاقرار بما جاء بهِ من الله ، واقام الصلاة ، وإتاء الزكاة ، وصوم شهر

رمضان ، وحج بيت الله الحرام اذا استطاع اليه سبيلاً ، وولاية المؤمنين ، والبراءة من أهل الضلالة على ضلالتهم ، والوقوف عن الشبهات .

قال أبو سعيد حسن : قال غيره : اذا أقر بالجملة وهي شهادة أن لا إله إلّا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وان جميع ما جاء بهِ محمد هو الحق المبين ، فقد ثبت لهُ جميع دين الله ، ثم يضيف بعد هذا ما أراد من فرائضه على نحو ما ذكر ، حتى يتم عشرة على نحو ما ذكر ، ولو انهُ جعل مكان حج بيت الله ، وصوم شهر رمضان ، وغير ذلك ، مما ذكره من فرائض الله غير ما ذكر ، فقال : الغسل من الجنابة ، والوضوء للصلاة ، وما أشبه هذا من الفرائض ، قام مقام ما ذكره ، مما عده من فرائض الله ، وعلى هذا المعنى ؛ فان قال : فما الاسلام في احدى عشرة كلمة ، أو عشرين كلمة ، أو أقل من هذا أو أكثر ؟ فأتى بالجملة التي ذكرناها ، ثم اضاف اليها غير ذلك من الفرائض ، حتى يبلغ عدد ما اشترطهُ كان قد وافق ما ذهبوا اليه من المعنى ، ووافق في ذلك وجه الصواب ـ إن شاء الله ـ والله اعلم . انظر في ذلك ولا تأخذ من قولي الآ بما وافق الحق والصواب .

ومن قصيدة الشيخ فتح بن نوح المغربي :

ومن ظن بـالايمان ينجيـهِ راجيـاً ولم يوف بالأعمال خاب بذا الظن
ومن مـات من غير الـوفاء فـانهُ يكبكب في ذات السعير على الذقن

فصـــل : من تفسير هذه القصيدة تأليف عمنا اسماعيل الحكالي النفوسي :

والايمان على وجهين : ايمان توحيد ، وايمان الفرائض ، وكذلك ترك جميع المحارم ايمان ، كما أن أحدها كفر . والايمان والاسلام معناه واحد من جهة الطاعة ، كما قدمنا قبل هذا ، ويقال : كل خصلة من طاعة الله ايمان ، واسلام ودين ، ولا يقال لهما : الايمان بالتعريف ، ولا الاسلام ، ولا الدين

لأن ذلك اسم للوفاء بجميع الدين . والبر ، والتقوى ، والصلاح ، والهدى ، والاحسان ، أيضاً اسماء لدين الله عز وجل . يقال لكل خصلة منها : انها طاعة وايمان وعبادة وبر وتقوى واحسان وهدى . واسماء أهله مسلم ، ومؤمن ، وبار ومتق ، وصالح ، ومهتد ، ومحسن ويقال للمسلمين : خرجوا من الكفر والضلال والفسق ، وخرجوا من دين الشيطان وطاعته وعبادته وملته ، ودخلوا في طاعة الله ـ عز وجل ـ وعبادته ، وملته ، ودينه ، وشريعته ، ودخلوا في أسماء دين الله من مسلم وبار وصالح ، وخرجوا من جميع أسماء أهل دين الشيطان . ويقال لكل خصلة من خصال الكفر : انها كفر ، وفسق ، وضلال ، وجور ومنكر ، وظلم كما انهُ يقال لفاعلها : كافر ، وفاسق ، وظالم ، وجائر ، وعاص ، وضال ، والكفر يستحق بخصلة واحدة ، والايمان لا يستحق الاّ بجميعه ؛ لانهُ خلاف الكفر وضده ، فما جاز في شيء جاز في ضده خلافه . الصغائر ايضاً عصيان ومنكر ، وجور وخطأ ولا يقال لها : كفر ، ولا ضلال ، ولا يقال لصاحبها : عاص ، ولا كافر ، وأمثاله ، فبفضل الله ورحمته جعل طاعته كلها ايماناً ، ولم يجعل معصيته كلها كفراً كما انهُ جعل ترك كل معصية ايماناً ، ولم يجعل ترك كل طاعة كفراً .

(مسألة) : والنوافل ايضاً من دين الله ، وطاعته ، وعبادته ، واختلفوا فيها هل هي مأمور بها أم لا ؟ فقال بعضهم : انها مأمور بها ؛ وهو أمر تخصيص وترغيب ، لا إيجاب والزام ، والأمر بها مستخرج من النص ، كقوله تعالى : ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ ، من أمثاله من القرآن . فاقتضى مدحه إياهم الأمر بها . وقال آخرون : انها مندوب اليها ، وليست بمأمور بها لقوله عليه السلام : «لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة وعند كل وضوء» ، فصح لهذا انهُ أندبهم اليه ، ولم يأمرهم بهِ ، لأن التخلف عن أوامر الله ـ عزّ وجل ـ يقتضي إيجاب عقابه . والنوافل ليست كذلك ، ولكنها ايمان وطاعة وتقوى .

(مسألة) : في معنى البيتين يقال : ان من ظن ان الايمان الذي هو

التوحيد ، ينجيه من عذاب الله ـ عزَّ وجل ـ من غير أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، فقد خاب ظنه ، وخسر سعيه ، وهو قول المرجئة الذين يزعمون : ان الايمان قول بلا عمل ، وانما خلا التوحيد عندهم ليس بايمان ، ولا دين ، ولا اسلام ، وانما هو تقوى وبر واحسان وطاعة ، في أمثال ما قدمنا ذكره .

(مسألة) : البيت الثاني يقول : من مات على غير الوفاء بجميع الفرائض ، وترك جميع الكبائر ، فمصيره الى النار والبوار ، فان قال قائل : كيف ابطلتم جميع طاعات العبد بترك خصلة واحدة ؟ قيل لهُ اوف بعهدكم أن الثواب متعلق بالوفاء بجميع الدين ، كما قال الله تعالى : ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ ، فمن لم يوف بعهد الله فلا عهد لهُ ؛ ولأن الثواب فضل من الله تعالى من غير وجوب ولا إيجاب عليه ؛ لانه المالك القاهر .

وأما في جوده وكرمه فنعم ؛ فكما قال الله تعالى : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ، ولهُ على عباده الأمر والنهي ؛ فان انزجروا عن محارمه ، وامتثلوا أوامره ، كان لهم عليه الوفاء فضلاً وكرماً ، فان تركوا خصلة منها ، كان عليهم العقاب فضلاً عن الثواب ، وقد ذكرنا هذا المعنى فيما تقدم من كتابنا وبالله التوفيق .

فصــل : في المنزلة بين المنزلتين من كتاب (النور) .

قال المؤلف : أعلم أن الكافرين ، والمنافقين ، والفاسقين ، والظالمين ، والجائرين ، كل هؤلاء لاحق بهم اسم الكفر ؛ فكل من مات على ما هم عليه مصراً مات كافراً على كفره . وقول المعتزلة : ان الفاسق لا مؤمن ولا كافر ، فعلى قياد قولهم : انهُ لا موحد ولا ملحد ، ولا ولي ولا عدو ، ولا شقي ولا سعيد ، فهذا خلاف كتاب الله ؛ لأن الله يقول : ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ فكيف لا يلحق بهم اسم الكفر وقد جعل الله لهُ النار ؟ لأن الناس اما طائع ، واما عاصٍ واما مؤمن ، واما كافر ، واما مهتدٍ واما ضال ، لقوله تعالى : ﴿انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه

سميعاً بصيراً انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً﴾ . والشاكر الطائع واما كفوراً فمن لم يكن طائعاً كان كافراً .

(مسألة) : ومن كتاب (الاستقامة) ؛ ومما يعذر الناس بجهله ، من الأحكام في البراءة ، بعد هذه الأصول التي بها تجب معرفة احداث المحدثين ، وتخرج منها أحداث المحدثين عند وقوف الضعيف على معرفته عند المحنة بهِ ، بعد معرفة الأسماء الواقعة بالمحدثين المستحق المحدث لها عند الله في دينه ، وعند العلماء بدينه ، وهما اسمان يجمعان جميع أهل الأحداث ، ولا يخرج أحد من جميع هذه الأحداث منها وهما : الشرك والنفاق .

فجميع المحدثين لا تخرج أسماؤ هم من أحد أهل هذين الأسمين ، ولا معداً لهم عنهما ، ولا يجوز أن يسمى احدٌ من أهل هذين الاسمين بالآخر بجهل ، ولا بعلم ، ولا برأي ، ولا بدين ، وهما مما يسع جهله ما لم يبلغ الى علم ذلك ، أو تقوم عليه الحجة ، أو يسمى أهل النفاق بالشرك من طريق الجحود ، أو يسمى أهل الشرك من أهل الجحود بالنفاق ، فاذا فعل ذلك لم يسعه ذلك ، وضاق عليه جهل ذلك .

وجميع أهل الاسمين يلحقهما جميع الأسماء القبيحة من الكفر ، والضلال ، والفسق ، والظلم ، والعدوان . وجميع الأسماء القبيحة ما سوى الأسماء المفردة بالشيء ، من أجل الفعل بعينه مثل السرق والزنى ، والقذف ، وأشباه هذه الأسماء التي تخص فاعلها باسم فعله ؛ فانها من الأسماء القبيحة ، ولا يجوز أن تلحق الاّ بأهلها الفاعلين لها .

وجميع هذه الأسماء راجعة كلها الى أحد اسمين : اما شرك ، واما نفاق . والاسمان ، فيلحقهما جميعاً الكفر والضلال ، والفسق والظلم والعدوان ، وجميع الأسماء القبيحة التي غير مشتقة من الافعال ، لأن الأسماء المشتقة من الأفعال ، لا يجوز ان تلحق بغير أهلها من أهل الشرك ، ولا من أهل النفاق ، وكل اسم لهُ حكم مفرد بهِ من جميع الأشياء دون غيره ، فلا

يجوز ان يسمى بهِ غيره ، ولو كان من اهل اسمه الجامع له في الشرك والنفاق ، ومن أجل هذا لم يجز ان يسمى أهل الشرك بالنفاق ، ولا أهل النفاق بالشرك ، لأن في كل واحد منهما حكما في دين الله ، لا يجوز في الآخر من السباء ، والغنيمة ، والمناكحة ، والموارثة والشهادات ، والذبائح ، وغير ذلك مما يجوز من أحدهما وفي احدهما ما لا يجوز في الآخر ، ولا منهُ ، وان كانا جميعاً يلحقهما السخط من الله ، والغضب والعداوة ، والعقوبة ، بجميع الفعلين والقولين ، والتبيين فانهما غير مستحقين لجميع الأشياء كلها التي لا تجوز في أحدهما من الأحكام ، ولا يجوز أن تختلف الأحكام في شيء تتفق فيه الأسماء كلها ؛ وان كان كذلك وجاز ذلك فلا فرق بين الكفر والنفاق ، بل انما اختلف الاسمان معنى من أجل اختلاف الاحكام مما وصفنا وغير ذلك ، فلما كانت الأحكام مختلفة لم يجز أن يكون الحكم يخص الاّ بمخصوص الاسم الذي بهِ خص الحكم في ذلك المسمى والمحكوم فيه ، ولو كان لا فرق بين الشرك من الجحود والنفاق ، ما كان هنالك فرق في هذه الأحكام ومحال ان تختلف الأحكام وتفترق ، الاّ وخصها الأسماء التي بها يستدل على المحكوم عليه ، وفيه الذي قد ثبت فيه الحكم في دين الله ، ولم يجز أن يسمى المنافق مشركاً ، ولا المشرك منافقاً ، من أجل تبطيل الأحكام الثابتة في الاسلام ، في كل أهل اسم منها دون الآخر ووجب أن يسمى كل منهما باسمه ، ويحكم في كل اسم منهما بحكمه الذي قد خص بهِ دون غيره من الاسمين ؛ فان جهل ذلك جاهل فسماهما بغير اسمائهما ، ونقلهما عن مواضعهما التي بهما ثابتان فيها ، فغير معذور بذلك ، من أجل هذه المعاني ، وهذه الأحكام التي يثبتها بإثبات الاسم بمخالفة دين الله فيهما فيما يدين بهِ ، وهو في جملته وكان بذلك ناقضاً لما أقر بهِ من الجملة التي تثبت فيها خلاف ما ركب بجهله .

فان جهل جاهل مواضع هذين الاسمين من المحدثين ، وقصر علمه عن ذلك ، وعن تفسيره ، ووصفه ، ومواضعه ، فعلم ضلالة المحدثين من جميع المنزلتين ، أو كفر المحدثين ، أو فسق المحدثين ، أو ظلم المحدثين أو عداوتهم ، أو سمى أهل الأحداث بشيء من الأسماء الجامعة ، غير المشتقة من الأفعال ، كان ذلك كافياً لهُ ولو علم مخالفة المحدث لدين الله ، غير انهُ لم

يعلم معاني الظلم ، والكفر ، والفسق ، وهذه الأسماء التي وصفناها ، فعلم خلاف المحدثين لدين الله ، ولطاعة الله ، وانهم قد خرجوا من حال رضى الله الى سخطه ، أو من حال ولايته الى عداوته ، أو من حال موافقة دين الله الى مخالفته ، جاز ذلك لهُ ، ووسعه ذلك ، ولو لم يسمِّ المحدث بشيء من الأسماء اذا جهل ذلك ، وقصر علمه عن ذلك ، فاذا علم ذلك ووضعه في مواضعه ، وعرف معاني ذلك لم يسعه الاّ اثبات ما اثبته الله على أهله ، من الأسماء ، والأحكام ، وعلم ذلك ووضعه في مواضعه اذا بلغ علم ذلك ، وكذلك لو برىء من أهل الأحداث كلها ، وجهل الأسماء اللاحقة بأهلها ، فبرىء من أهلها أو فارقهم أو خلعهم عن الدين الذي بِهِ يكونون مطيعين مؤمنين مستحقين لولاية الله ورضاه ، كان قد اتى ما يجزيه في دين الله ما لم يبلغ الى علم ذلك .

فصــــل : وكذلك لو جهل معنى البراءة ، والخلع ، والفراق ، وعلم معنى الخلاف ، والعداوة ، والسخط من الله ، ولم يثبت على جهله بجميع الأحكام لأهل الأحداث اسم الايمان ولا الطاعة ، ولا الرضاء من الله ، ولا الموافقة لدين الله ، بقول ، أو نية ، أو اعتقاد ، فاذا لم يثبت الضعيف لأهل الأحداث ، كائناً ما كانت الأحداث أسماء الايمان ، أو الطاعة ، أو الرضاء من الله ، وسماهم بشيء من الأسماء التي تقع عليهم في جملة الأسماء ، أو علم خلافهم لدين الله ، أو مفارقتهم لدين الله ، أو خروجهم من دين الله ، أو براءتهم من دين الله ، فبأي ذلك اخرجهم من جملة الايمان ، أو من جملة طاعة الله ، أو من جملة الاسلام ، أو الاحسان ، فقد أتى بما يجزيه ، ودان بما يلزمه ، ما لم يعلم غير ذلك من الأحكام ، أو سمى أهل الأحداث بشيء من أسماء اهل الطاعة ، والايمان ، والولاية ، أو بشيء من جميع الاسماء التي يستحقها أهل الطاعة ، ولا يستحقها أهل المعصية ، أو يسمي أهل الشرك بالنفاق ، وأهل النفاق بالشرك ، أو أهل الزنى ممن كان من اهل الشرك أو النفاق بالسرق أو أهل السرق ممن كان بالزنى أو يخالف شيئاً من دين الله بجهل ، أو بعلم أو يثبت أسماء لا تثبت أو يحكم حكماً لا يلزم . فاذا فعل ذلك

لم يسعه وما سلم من هذه الأشياء التي وصفناها في جميع أهل الأحداث ، واثبت فيهم بعض ما قد وصفنا أو غير ذلك ما لم يحضرنا من الأسماء ، والصفات وسعه ذلك ، وجاز لهُ وكان مسلماً بذلك .

فصـــل : وقد قيل : انهُ لا يسعه جهل علم الشرك من النفاق ، ولا يسعه جهل ذلك ، والمعنى معنا في ذلك على التأويل : انهُ لا يسعه تسمية أحدهما بالأخرى ؛ فركوب ذلك لا يسعه كما وسعه مع الجهل ، ان يسمي الظالم فاسقاً ، والفاسق ظالماً ، وما اجتمع من الأسماء كلها ، فذلك يسعه جميعه على الجهل ، ولا يسعه جهل جميع هذين الاسمين .

فعلى هذا يخرج تأويل قوله : لا يسع جهل الكفر من النفاق لانهما ضدان . ولا يجوز الجمع للأضداد بجهل ولا بعلم ، وسائر الأسماء متفقة غير متضادة ، فيسع جهلها وتفريقها ، وجمعها في أهلها ، وان كثرت في الأسماء والألفاظ فانها متفقة في الأصل ، وتفسير هذا القول : انهُ لا يسع جهل الشرك والنفاق وانما هو على الركوب لذلك على الجهل ، كما جاء في الأثر انه (كل ما جاء في كتاب الله فلا يسع جهله) والمعنى في ذلك انهُ لا يسع جهل ركوبه على خلاف ما فيه الحكم من كتاب الله ، كذلك لا يسع جهل ما جاءت بِهِ السنة والاجماع ، انما هو لا يسع جهل ركوبه على خلاف ما جاء في دين الله ، ولو كان ذلك كذلك . ولا يسع جهل علم أهل الشرك ، من أهل النفاق ، لما كان يجوز ان يكون مسلماً مؤمناً الاّ من عرف أحكام ذلك ، ولعل ذلك من أدق الأشياء حكماً ، واخفاها اسماً ، وهذا ما لا يجوز ان يكلفه الله العباد .

فصـــل : فان قال قائل : ليس عليه ان يعلم دقائق ذلك ؛ وانما عليه ان يعلم أن النفاق غير الشرك ، والشرك غير النفاق ، قلنا لهُ : لا معنى لذلك في حكم دين الله ، ان يضيق على من جهله ؛ لأن ذلك مما لا يبلغ الى علمه من حجة العقل ، وانما يبلغ الى علمه من السماع والعبارة ، فهو من جملة ما يسع جهله أبداً ما لم يركبه على خلافه ، أو يتولى راكبه أو يبرأ من العلماء اذا برىء من راكبه أو يقف عنهم برأي أو بدين أو يبرأ أو يقف بدين عن ضعيف من ضعفاء

المسلمين .

ولو قال قائل : لا يسع جهل شيء من دين الله لكان ذلك صواباً ، وخاصاً من معاني ما لا يسع جهله ، لأن جميع دين الله لا يسع جهله ، ولكن تختلف معاني ذلك في وجوب ما لا يسع جهله ، وقد وقع عليه على كل حال اسم ما لا يسع جهله ، لأن جميع دين الله لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون شيء من دين الله تقوم بِهِ الحجة من العقول ، دون السماع والعبارة من صفة الله - تبارك وتعالى - وتوحيده ، ووعده ، ووعيده فاذا سمع العبد بذلك الشيء من دين الله ، أو خطر بباله أو دعي اليه ، وعرف معنى ذلك ، والمراد بِهِ فعليه علم ذلك ، وعليه لا يشك فيه ، وغير منفس في السؤال عنه ، ولا غاية لهذا الشيء من دين الله ، الّا أن يخطر بباله ذلك الشيء ، ببال العبد أو يسمع بذكره ، أو يدعى اليه ، ويعرف معناه ، فاذا كان ذلك فقد نزلت بليته ، ووقعت محنته ، وقد كان قبل ذلك سالماً منهُ في الكلفة لعلمه قبل أن يخطر بباله ، أو يسمع بذكره ، أو يدعى اليه ويعرف معناه .

وهذا الأصل ، هو جميع ما كان من صفة الله - تبارك وتعالى - وتوحيده ووعده ووعيده ، فهو وان كان قد لحقه اسم ما لا يسع جهله من حين خطور البال ، أو سماع الاذان ، أو الدعاء اليه ، فقد كان قبل معذوراً بذلك الذي قد امتحن بِهِ ، ونزلت بِهِ بليته من جميع دين الله ، فقد أتى على العبد حال في جميع هذا الشيء من أصل دين الله وهو يسعه جهله في حال ما لم يمتحن بِهِ العبد ويتعبد بِهِ في حال الخلاص من التعبد ، وان كان أصل ما تعبد الله بِهِ العبد انهُ لا يسعه جهل جميع دين الله ، فقد أتى عليه حال وقد وسعه جهل ذلك . فأصل جميع دين الله انهُ يسع جهله في حال ما لا يلزم العبد الكلفة لهُ وفيهِ .

وأصل جميع دين الله انهُ لا يسع جهله اذا أتى حال ما يكلف العبد التعبد بِهِ وفيهِ ، الّا انهُ تعبد عباده فيه بأحوال مختلفة : فمنه ما تعبد عباده فيه بالعلم لهُ والشهادة بِهِ ، فكان لزوم التعبد للمتعبد فيه مجيء تلك الحال التي ألزم الله

عبده أن يعلمه ، ويشهد بهِ ، فاذا جاءت تلك الحال التي كلف الله عبده فيها ، علم ذلك الشيء من دينه على جملة ما أخذ الله عليه من الميثاق ، ألّا يعصيه في شيء مما تعبده بهِ من دينه ، وأن لا يضيع شيئاً ألزمه الله إياه في دينه ، اذا جاء وقت المحنة فيهِ أن يعلم ويشهد بهِ ، وذلك المراد منهُ والمسئول إياه في دين الله المأخوذ عليه الميثاق ، في دين الله أن يعلمه ولا يسعه اذا جاء حال التعبد بهِ أن يجهله ، وعليه أن يعلمه يقيناً على أصل ما تعبده الله بهِ في دينه سبق اليه علمه قبل ذلك ، أو لم يسبق فهو مسئول عن علم ذلك ، ومتعبد بعلم ذلك ومن كلف العلم لم يسعه الجهل ، ولا كان لهُ عذراً في الجهل فيما كلف فيه العلم لأن أصل ما تعبده الله بهِ من هذا واراد منه أن يعلم ذلك ، لا غير ذلك من المرادات ، ولا يستدل بذلك العلم على ترك شيء من دين الله ، أو العمل لشيء من دين الله ، وانما نفس ما تعبد بهِ العبد هو العلم لذلك الشيء ، فلم يتعبده الله بعلم شيء الاّ وقد قطع عذره في جهله ، لانهُ هوالمراد منهُ المأخوذ عليه الميثاق فيه في اصل دين الله ، وكان جميع دين الله واسعاً لهذا العبد بجهله ما لم يحضر وقت التعبد لهُ فيهِ بأحد معاني التعبد لهُ في دين الله فاذا جاءَ الوقت الذي وجب فيهِ التعبد لهُ لم يسعه مخالفته على ما أخذ فيهِ من الميثاق ، ولا يسع العبد جهل ما تعبده الله بهِ في دينه ، اذا جاءَ وقته . **(انتهى الذي من كتاب [الاستقامة]** .

(مسألة) : ومن غيره عن أبي سعيد ؛ ان المشرك غير الذي عمل بالشرك ، والمشرك هو مشرك أبدا ، من أهل النار وكذلك العاصي غير الذي عصى الله ، والعاصي هو عاص أبداً من أهل النار . والذي عصى هو المواقع للمعصية ، ولا يجوز أن يسمى عاصياً الاّ على معنى مواقعته للمعصية ، من غير أن يحقق بالعصيان على الابد .

(مسألة) : أبو سعيد : لا يجوز أن يقال لكل من فعل الكفر كافر أو مخطىء أو عاص بل يقال : ان المؤمن أخطأ وعصى اذا واقع الخطية ، والمعصية ، لأن العاصي لا يرجع عن حال المعصية أبداً .

(مسألة) : ومن كتاب (المعتبر) وقيل عن النبي ﷺ انهُ قال : «النفاق في

أمتي أخفى من دبيب الذر» ، قال غيره ، وقد روي عن النبي ﷺ انهُ قال : «الشرك في أمتي أخفى من دبيب الذر على الصفاء» ، وانه قال : «المنافق بالمؤمن أشبه من الماء بالماء والغراب بالغراب» . وهذا ما لا يحس بنظر ، ولا يسمع بأذن ، لانهُ لا يقدر على تمييز معرفة الغراب من الغراب ، ولا الماء من الماء ، الاّ بالذوق والخبرة ، لا بالنظر ، والنفاق ادق واخفى من الشرك ، والشرك دقيق خفي ولن ينجو منهما الاّ من نجاه الله ، ولن يبلغ في معرفة تمييزهما الاّ من وفقه الله . ومن (الكتاب) ومثل المؤمن : كمثل الفضة الجيدة كلما أحميت ازدادت جودة ، وقلبه مثل المرآة المجلية ، لا يأتيه الشيطان من وجه الاّ أبصره . وقلب المنافق مثل المرآة الصدية ، يأتيه الشيطان من كل وجه فلا يبصره . وقد قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا﴾ ، والحكمة ها هنا (القرآن) انقضى .

(مسألة) : قيل للحسن : يقولون : لا نفاق اليوم ؛ فقال : لو ظهر لكم المنافقون لاستوحشتم الطريق ، ولو نبت للمنافقين اذناب ، ما قدر أحدكم يطأ على الارض . وقيل : سمع ابن عمر رجلًا يتعرض للحجاج ؛ فقال : أرأيت لو كان حاضراً أكنت تتكلم بهِ ؟ قال : لا . فقال ابن عمر : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ ؛ وقال عليه السلام : «من كان ذا لسانين ووجهين في الدنيا ، جعل الله لهُ لسانين ووجهين في النار ، وقال : «شر الناس ذو الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» ، وقال بن ابي مليكة ، ادركت خمسين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ ، كلهم يخافون النفاق .

وأصل النفاق تفاوت السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ، وأمور أخرى لا يسلم منها الاّ الصديقون . وقيل ان النبي ﷺ قال : اني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، أما المؤمن فيحجره إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه شركه ، ولكني أتخوف عليكم منافقاً عليم اللسان ، جاهل القلب ، يقول ما تعرفون ، ويعمل ما تنكرون . وفي ذكر النفاق أكثر من هذا نعوذ بالله من الشرك والكفر والنفاق والله أعلم .

الباب الخامس

في الرد على المرجئة في تسميتهم الفاسق مؤمناً

ومن كتاب ركن الدين ، تأليف (أبي طاهر المعتزلي) فيما تعلق بهِ المرجئة من تسميتهم الفاسق مؤمناً الذي تعلقوا بهِ في ذلك ، آيات من القرآن . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وصالح المؤمنين﴾ ، وهذا يدل على أن في المؤمنين من ليس بصالح ؛ الجواب : ان قوله تعالى : ﴿وصالح المؤمنين﴾ ، وليس هذا يدل على أن في المؤمنين ، من ليس بصالح كما أن قوله تعالى : ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ ، لا يدل على أن فيه ما ليس بحسن ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وامر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ ، لا يدل على أن فيه ما ليس بحسن ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وآصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ لا ينبىء على أن فيهم من ليس بذي عزم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿من طيبات أحلت لكم﴾ لا يدل على انهُ مما أحلت ما ليس بطيب . وكذلك قوله تعالى : ﴿واجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ ليس يدل على أن فيها ما ليس برجس .

وقد يقول القائل : اجتنب قبيح ما يصنع ؛ أي اجتنب القبيح الذي يصنع فهذا يدل على أن جميع المؤمنين صالح . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً﴾ ، والتوبة لا تكون الاّ من ذنب ، فقد بين أنهم مذنبون وقد سماهم مع ذلك مؤمنين ؟ الجواب عنه على وجوه :

أحدها ، ان التوبة تلزم من الصغيرة كلزومها من الكبيرة ، لئلا يكون مصراً عليها ، فاذا كان كذلك سقط التعلق ؛ لانهُ لو جاز أن يكون قد كلفهم أن يتوبوا من صغار ذنوبهم ، وأن لا يصروا عليها كيلا يفسقوا بإصرارهم .

وجواب آخر وهو : أن قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ليس بوصف انهم مؤمنون الايمان الشرعي بل من طريق اللغة فيكون معناه : يا أيها الذين

صدقوا واقروا توبوا .

وجواب آخر ، وهو : انه جائز أن يكون أمرهم بأن يتوبوا اذا اذنبوا ، وأن يذكر الذنب ، ولكنه لما كان معلوماً أن التوبة لا تلزم الاّ على ذنب جاز حذفه ، ويدل على ذلك انهُ معلوم ان جميع من آمن لم يكن مذنباً ، والمخاطبة في قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ مخاطبة لجميع من آمن .

وجواب آخر ؛ وهو : أن التوبة مما تعبد بها عباده المكلفون ، وان لم يكن فيهم مذنب ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ ولم يكن النبي ﷺ مذنباً ، ولا جميع المؤمنين مذنبين ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿إذا جاءَ نصر الله والفتح﴾ الى قوله : ﴿واستغفره انهُ كان توابا﴾ . وليس النصر والفتح بذنب فيستغفر لأجله لكنا مأمورون بها في جميع الأحوال ، كقول : لا إله إلاّ الله كلمة التهليل والتسبيح مأمور بها على التكرار .

وجواب آخر ، وهو : أن أصل التوبة الرجوع والانابة ، فيجوز أن يكون أمرهم بالرجوع إليه في جميع أحوالهم وأمورهم ، وإنما قال الله تعالى : ﴿توبة نصوحاً﴾ أي، ارجعوا اليه عن نية صادقة في جميع اموركم وأحوالكم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون﴾ فسماهم [مؤمنين] ، وإن ارتكبوا كبيرة حيث قالوا : ﴿ما لا يفعلون﴾ .

الجواب وهذا على أوجه ؛ أحدها : أن يكون الخطاب بقوله تعالى : ﴿آمنوا﴾ ليس من الايمان الشرعي ، وإنما هو من اللغة .

وثانيها : انهُ يجوز أن يكون خطاباً وقولهم انهم قد آمنوا اذ معلوم أن جميع المؤمنين ، لم يقولوا ما لم يفعلوا .

وثالثها : انهُ يجوز أن يكون هذا على معنى النهي في المستأنف ، ليس

انهم فعلوه ، وذلك انهُ تعالى لم يقل قلتم ما لم تفعلوا ، فقد تطلق هذه اللفظة على المستقبل ألا ترى انك تقول لمن تنهاه عن أمر يضره ولا ينفعه ، يا أخي لم تفعل ما لا ينفعك ولم تتحمل المشقة فيما لا يجدي عليك ؟ فيجوز أن يكون هذا نهياً عما عزم عليه بعضهم ، أو كان يحملهم المنافقون عليه من بدل اللسان بنصره وتركه ذلك ، فورد النهي ، والتوبيخ على ذلك ، وليس لأحد أن يقول هذه اللفظة للماضي دون المستقبل ؛ لأن حقيقة المستقبل دون الماضي . وانما يراد الواقع دون المنتظر على سبيل المجاز . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ قالوا : فقد أثبت لهم الايمان وان كانوا غير خاشعين .

الجواب : قد بيناه فيما تقدم ان قوله ﴿آمنوا﴾ مشتق من الايمان اللغوي دون الشرعي لانهُ تعالى لم يحكم انهم مؤمنون ، وانما قال : آمنوا وهذا اللفظ يطلق على كل من فعل ، ما هو إيمان لغوي تصديق واقرار . واذا كان كذلك سقط التعلق .

وجواب آخر وهو ، ان هذا اللفظ يستعمل للحث والبعث على الأمر ، وليس فيه نفي الأمر . ألا ترى الى قولهم : ألم يأن لك أن تعظني ؟ ألم يأن لك أن تفعل كذا ؟ أي أفعله فالله تعالى بعثهم على الخشوع لذكر الله .

وجواب آخر وهو انهُ يجوز أن يكون ذلك بعثاً على توكيد الخشوع ، وحثاً على أن يزدادوا خشوعاً ، كما قال تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ على توكيد الأمر في النهي عن التكذيب لهُ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فإن فاءت﴾ (الآية) . ﴿إنما المؤمنون اخوة﴾ (الآية) الى آخرها قالوا : فسماهم في أول القصة مؤمنين ، ثم كرر ذلك الايمان وأوجب المؤاخاة .

الجواب : ان نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منكم عن دينه﴾ ، ولا خلاف انهم في حال الارتداد غير مؤمنين : واذا كان كذلك جاز ان يكونوا في حال الاقتتال غير مؤمنين . والدليل على ذلك ؛ انهُ أمر بقتال الفيئة الباغية منهما وقال النبي ﷺ : «سباب المؤمن فسق وقتاله كفر» . وكيف يأمر الله تعالى بقتال الذي سماه رسوله عليه السلام كفراً ؟ وأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿انما المؤمنون اخوة﴾ فانما سماهم [مؤمنين] وأمرهم بالاصلاح بينهم بعد البغي والمراجعة ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ ففي هذه الحالة سماهم [مؤمنين] وسماهم [اخوة] . فان قيل فما هذا الاصلاح بعد الفيء والمراجعة ؛ قيل لهُ : هي النظر في الدماء والجراحات وأروشها ، والرجوع الى نفس الأمر الذي فيه اختصموا ، وأعطي كل ذي قسط قسطه ، وفي تأليف القلوب واشباه ذلك .

وقيل نزلت الآية في حيين تراميا بالحجارة وجاز أن يكونا مجتهدين في ذلك ، ولم يلزمهما فيه ما اسقط عدالتهما ، وأزال عنهما اسم الايمان . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فمن عفي لهُ من أخيهِ شيء﴾ ، قالوا : فأوجب أن يكون المقتول أخاً للقاتل ، وسماه بهِ فوجب أن يكون مؤمناً ، اذ لا يجوز أن يكون أخ المؤمن غير المؤمن ، لانهُ لم يرد بهِ أخوة النسب ، وانما أراد به أخوة الديانة .

الجواب : ان التعلق بذلك فاسد من وجهين .

أحدهما : أن الآية لم توجب أن المقتول أخاً للقاتل ، بل أراد ، أخ ولي المقتول . وقوله تعالى : ﴿فمن عفي لهُ من أخيه﴾ الذي قتل ، أي من بذل لهُ من أخيه المقتول مال واعطي أي فليأخذه ، وأخذه هو الاتباع بالمعروف .

وثانيهما : ان الاخوة لا توجب كونه مؤمناً ، لأن الله تعالى قد جعل المسلم أخا للكافر ، فقال تعالى : ﴿والى ثمود أخاهم صالحاً﴾ ، وهو نبي وقد جعله أخاً لثمود وهم كفار . واذا كان كذلك سقط التعلق .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾

وكذلك قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله﴾ واشباه ذلك من الآيات . قالوا : فاما أن يقولوا : ان هذه الفرائض لا تلزم الفاسق فهو خروج من الاجماع ، وأما أن يقولوا انهُ مؤمن فهو خلاف مذهبكم .

الجواب : انا قد بينا أن قوله : ﴿آمنوا﴾ يجوز أن يكون مشتقا من اللغوي ، دون الشرعي ، فيكون ذلك مخاطبة لكل من شهد الشهادتين ، فسقط التعلق .

وجواب آخر وهو : أنا قد بينا انهُ لا يجب الحكم بأن حال المتروك ذكر خلاف حال المذكور . الأ ترى ان الله تعالى أباح القصر عند الخوف من الكفار وهو في حال الأمن مباح .

وجواب آخر : ان المخلصين من الفقهاء وجماعة من المتكلمين ؛ ذهبوا الى أن هذه الشرائع لازمة للكفار ، وان كانت المخاطبة بها للمؤمنين ، وكذلك هي لازمة للفاسق .

وجواب آخر : وهو أنا قد عرفنا وجوبها على الفاسق ، لا بالكتاب وانما عرفناه بالاجماع ؛ واذا كان كذلك سقط السؤال .

وجواب آخر : وهو أن الله تعالى قد قال : ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المتقين﴾ ، وقال تعالى أيضا في آية أخرى : ﴿حقاً على المحسنين﴾ ، وهو أيضاً واجب على من ليس بمتق ولا محسن فكذلك هاهنا الشرائع واجبة على الفاسق ، وان كان غير مؤمن . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الأ خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة﴾ وقد جوزتم تحرير الفاسق والزمتم من قتل فاسقاً ما الزمتم من قتل مؤمناً .

الجواب : ما ذكرنا من انا عرفنا وجوب ذلك وجوازه بدليل آخر من الاجماع وغيره ، وقد بينا أن تعليق الشيء بالشيء بوصف لا يمتنع عن دخول

غيره ما ليس لهُ ، تلك الصفة في مثل حكمه . واذا كان كذلك سقط التعلق .

وجواب آخر : وهو انهُ لا خلاف أن من قتل مجنوناً ، أو صبياً ، أبواه مسلمان يلزمه في ذلك ما يلزم في البالغ ، العاقل المؤمن ، وليس الصبي والمجنون بمؤمنين في الحقيقة ؛ لانهما غير مكلفين أصلاً ، ولأنهما لا يعرفان الاقرار والتصديق ، ولا ما بِهِ يلزم التكليف ويصح الأيمان . واذا كان كذلك ؛ سقط تعلقهم من حيث لما دخل في حكم المؤمن المقتول من ليس بمؤمن ، جاز أن يدخل في باب الكفارة من ليس بمؤمن ، وان كان كونهُ مشروطاً في المعتق . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنَّ من قبل أن تمسوهنَّ فمالكم عليهنَّ من عدة تعتدونها﴾ فلو كانت الفاسقة غير مؤمنة ، لكان عليها العدة ، لأن الآية اسقطت العدة على المؤمنة .

الجواب : نحو ما ذكرناه ؛ ان تعليق الحكم بوصف لا يمتنع من دخول غيره فيه ، وان كان مخالفاً في الوصف ، ويجوز أن يتفقا في الحكم وان اختلفا في الوصف ، فلما اجتمعت الأمة على أن حكم الفاسقة حكم المؤمنة ، أجريناهما مجرىً واحداً ، فان قيل : لما اجتمعت الأمة : على أن حكم الفاسقة في ذلك حكم المؤمنة ، دل على أن الفاسقة مؤمنة ، اذ ليس ها هنا دليل آخر من نص أو أثر ، لأجله أجمعوا على الجمع بينهما في ذلك الباب ، وذلك ينبىء أنهم إنما أجروهما مجرى واحدا ، لما ذكرناه قيل لهُ : لو كان انما أجروا الفاسقة مجرى المؤمنة من حيث كانت الفاسقة مؤمنة ، لوجب أن يجمعوا على انها مؤمنة ، فلما حكموا لها بحكم المؤمنة مع قول أكثرهم بأنها غير مؤمنة صح ووضح انهم لم يجروها مجرى المؤمنة لما ذكرته ، بل لدليل آخر وليس يجوز أن يحكموا عليها لأجل كونها مؤمنة ، ثم يختلفون في كونها مؤمنة ، بل يدفع ذلك أكثرهم اذ ذلك نقض بالعلة وافسادها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (الآية) قالوا : فأخبر ان من المؤمنين من لم يصدق ما عاهدوا الله عليه

اذ قوله تعالى : ﴿من المؤمنين﴾ ؛ تبعيض .

الجواب : انه ليس في الآية ان منهم من لم يصدق ، فاما تعلقهم بقوله تعالى : ﴿من المؤمنين رجال﴾ فساقط لأن القائل يقول : من أصحابي من وفى لي قام معي ، وليس يريد أن من لم يف ولم يقم معه ايضاً من أصحابه ، بل يريد أن من لم يفعل ذلك فليس من أصحابه ، ويجوز أن يريد أن ممن كانوا يظهرون انهم أصحابي ، من وفي لي فيبين أن غيرهم ليسوا بأصحابي ، فيكون معنى الآية في ذلك ، ان منهم من يصدق ذلك فخرج بهِ من أن يكون مؤمناً .

وجواب آخر : وهو أن نظيره قول الله تعالى : ﴿واجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ ، وليس يريد أن بعضها ليس برجس ، فكذلك هاهنا ليس يريد أن بعض المؤمنين من لم يصدق ما عاهدوا الله عليه .

وبعد ؛ فليس في الآية أن جميع المؤمنين عاهدوا الله فصدق بعضهم ما عاهدوا الله عليه ، وبعضهم لم يصدق ، فيجوز أن تكون هذه المعاهدة من بعضهم ، ولذلك خص بعضهم بتصديق العهد . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ولا تقولوا لمن القى اليكم السلمٰ لست مؤمناً﴾ . والفاسق ممن يلقي الينا السلام .

الجواب : قيل لهُ : انك تعلقت ببعض الآية ولم تذكرها بتمامها ، وهو قوله تعالى : ﴿تبتغون عرض الحيوٰة الدنيا﴾ فكأنهُ قال : لا تقولوا ذلك ابتغاء عرض الدنيا وليس نهى أن يقولوه داعين الفاسق الى التوبة . وبعد ، فان النهي انما ورد فيمن كان لا يقبل اسلام من يريد أخذ مالهُ قصد الاستيلاء على مالهُ فنهى عنهُ . وبعد ؛ فانهُ لم يحكم بانهُ مؤمن ، بل نهى عن ان يحكم بانهُ غير مؤمن من غير سبب يظهر لهُ بل قصداً الى أخذ ماله . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ . فأخبر أن من المؤمنين من يكره الحق وأنتم تزعمون : أن من كره الحق ، فهو فاسق والفاسق ليس بمؤمن .

الجواب هو : اراد الله كراهة الطباع ، لا كراهة الاختيار ؛ لأن

الانسان يستثقل فراق وطنه ، وخروجه عنه ، ويكره بطبعه مفارقة وطنه ، وهو كقوله تعالى : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ . ويجوز أن يكون هذا الفريق من المؤمنين إنما كرهوا خروجه من حيث لم يكونوا يستصوبونه ، من حيث يرون الرأي ، والتدبير في غيره ، والانسان قد يكره الشيء من هذه الجهة ، فلا يكون ملوماً ، وهذا باب لا مناقشة فيه ، فأخبر الله تعالى عما كانوا يستصوبونه من المقام ، وترك الخروج بلفظ الكراهة ، فأخرجه الله ـ تعالى ـ اذا كان الخروج أصوب ، فبين لهم بعد ذلك أن الصواب كان فيما فعله النبي ـ عليه السلام ـ . وقد كانت الصحابة تشير على النبي ـ عليه السلام ـ في أمثال ذلك وفيهم نزل : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ . ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ قالوا : فكيف جاز تزويج الفاسقة بعد قوله تعالى : ﴿والمحصنات﴾ يعني بهِ العفيفات ؟ واذا كان كذلك صح أن من المؤمنات من ليست بعفيفة .

الجواب هو انهُ : انما جاز تزويجهن للاجماع ولقوله تعالى : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى﴾ ، (الآية) ، ولقوله تعالى : ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وأمائكم﴾ (الآية) .

وأما قولهم : ان المعني بالمحصنات (العفيفات) فغلط ، لأن المراد به الحرائر . وبعد ؛ فلو كان المراد به (العفيفات) فليس ذلك بتخصيص ، لأن (من) هاهنا ليس للتبعيض ـ ، وانما هو للجنس ، فيكون المعنى كأنهُ قال : والعفيفات المؤمنات ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿من جبال فيها من بردٍ﴾ أي برد بهِ وتعلق بعضهم ؛ بأن الأعمال الصالحة ليست من الايمان ، لقوله تعالى : ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قالوا : ففرق بين الايمان ، والأعمال الصالحة . ولو كانت ايماناً لم يكن لهذا الكلام معنى .

الجواب هو : أن تخصيص الشيء بالذكر من جملة لا يدل على مفارقته لهُ في الاسم ، ولا يتبين كون اسم الجملة غير واقع عليه ، فقد يذكر بعدما دخل تحت الجملة تخصيصاً ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿من كان عدواً لله وملائكته

ورسله وجبريل وميكال﴾ ، فتخصيص جبريل بالذكر ، غير مبطل كونهما من جملة الملائكة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة﴾ ، ولا خلاف ان اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من الأعمال الصالحة ، وأن خصا بالذكر من جملتها . وبعد ؛ فيجوز أن يكون قوله ﴿آمنوا﴾ بمعنى [صدقوا] ولا يكون معناه انهم صاروا مؤمنين . واذا كان كذلك سقط التعلق .

فصل : ومنهُ فيما يتعلق بهِ من ذهب الى أن الفاسق منافق ، تعلقت هذه الفرقة بقوله تعالى : ﴿ان المنافقين هم الفاسقون﴾ ، قالوا : فلما بين أن المنافق هو الفاسق ؛ صح أن كل فاسق منافق .

الجواب : هو أن اسم الفسق يشتمل على الكافر ، والمنافق ، وعلى غيرهما ، واذا كان كذلك ، لم يكن في اطلاقه على هذا الوجه حجة . ويقال لهم : أفتقولون : أن كل كافر فاسق لا بد فيهِ من نعم ؟ فيقال لهم : ان كل فاسق من الكفار وغيرهم منافق ، فان أجابوا اليه ؛ فارقوا الاجماع لانهُ لا خلاف أن اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وكل من اعلن بكفره انهُ ليس بمنافق . وانما المنافق هو : من أظهر الاسلام وأسر الكفر ، واذا كان كذلك سقط تعلقهم بالآية ، ولزمهم أن لا يسموا كل فاسق منافقاً ؛ ويقال : ان حكم الآية أن كل منافق فاسق ، وليس يقتضي أن كل فاسق منافق ؛ لانهُ قال : ﴿ان المنافقين هم الفاسقون﴾ ، ولم يقل ان الفاسق منافق . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله﴾ الى آخر الآيات قالوا : والفاسق قد أخلف الله ما أوعده ؛ فوجب أن يكون منافقاً .

الجواب : هو انهُ يلزمهم الحكم بأن لا يتوب الفاسق أبدا ، لانهُ قال : ﴿الى يوم يلقونه﴾ وهذا يوجب أن الآية نزلت في قوم بأعيانهم ؛ ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ ، واذا كان كذلك ، سقط السؤال والتعلق .

فصـــل : ومنهُ في الاسلام والأيمان ، تعلق من قال وذهب الى أن

الايمان غير الاسلام ، بقوله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ قالوا : فسماهم مسلمين ، بعد أن حكم انهم غير مؤمنين ؛ وذلك يبين انهُ قد يكون مسلماً من لا يكون مؤمناً .

الجواب : ان قوله : ﴿أسلمنا﴾ ليس معناه انا صرنا مسلمين بل المراد قولنا : [انقدنا وخضعنا] ، لانهُ من أسلم سلم ، والاسلام هو الانقياد والاستسلام ، واذا كان كذلك سقط التعلق . اذ قوله : اسلمنا هو من جهة الاسلام الذي هو الانقياد من طريق اللغة ، وليس هو من الاسلام الشرعي . انقضى ما نقلته من كتاب ركن الدين ، تأليف أبي طاهر المعتزلي فينظر فيهِ ولا يؤخذ منهُ الاّ ما وافق الحق والصواب .

البــاب السادس

في تفصيل وجوه الشرك ، والنفاق ، وفرز ما بينهما من كتاب بعض أصحابنا من أهل المغرب

وعلينا معرفة فرز ما بين كبائر الشرك ، وكبائر النفاق ، وقـال أصحابنا : من لم يفرز بين كبائر الشرك ، وكبائر النفاق فهو مشرك كافر .

والشاك في كفره مشرك ، وكثير من الناس ضلوا ، من قبل فرز ما بينهما ، فزعمت الازارقة : ان المعاصي كلها كبائر ، وشرك ، وكفر ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ . في أمثاله من القرآن .

وقالت النجدية منهم : الكبائر كلها فسق ، وشرك ، وكفر . وأما الصغائر فلا .

وزعمت المعتزلة : أن كبائر النفاق فسق وضلال ! وليست كفراً ولا شركاً .

وقالت المرجئة : بالشك في وعيد أهل الكبائر ودانوا بذلك .

وقال أصحابنا : ان الكبائر كلها كفر ؛ والعقاب عليها واجب ، فمن الكبائر شرك ، ومنها غير شرك ، وهو النفاق ، فهذا هو فرز ما بين الكبائر .

أما الازارقة الزاعمة : ان المعصية كلها شرك فيلزمهم على قياس قولهم : تشريك آدم عليه السلام لأن الله تعالى قال : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ .

وأما النجدية فقد فارقوا الآية التي احتجوا بها ، على تشريك أهل

الكبائر ، لانها جاءت على العموم ، وهو قوله : ﴿وان اطعتموهم انكم لمشركون﴾ ، وأما ما احتجت بهِ الأزارقة في قوله تعالى : ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ فزعموا : ان المعاصي كلها كبائر ، فالحجة عليهم قوله تعالى : ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ ، فالسيئات اسم عام ، والمعاصي اسم عام ، فاستثنى من الاسم العام ، فعلمت أن كل معصية ضلال ، لأن المعصية اسم عام ، ولأن بعضها أخس من بعض ، وقد اجتمعت الأمة فيما وجدت ، على أن كل كبيرة معصية ، ولم تجتمع على أن كل معصية كبيرة . وقد ذكرنا في هذا ما يغني عن اعادته .

(مسألة) : وعين الشرك هو المساواة بالله ، ومعنى المساواة : هو أن يوصف الخالق - سبحانه - بما يوصف بهِ المخلوق ، والمخلوق بصفات الخالق . والشرك والمساواة في اللغة معنى واحد . فمن أشرك بين اثنين فقد ساوى بينهما ، كما أن من سوى بينهما فقد أشرك بوجه من الوجوه كائناً ما كان ، وهو ضد التوحيد من جميع الوجوه ؛ لأن التوحيد معناه الافراد . ومعنى الافراد ترك المساواة. ومعنى ترك المساواة لا يوصف الخالق بصفات المخلوق ، ولا المخلوق بصفات الخالق ، وقد ذكرنا في هذا ما فيه كفاية .

(مسألة) : وعين النفاق : الخلف والكذب ، فيما أقروا بهِ لقوله تعالى : ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه﴾ الى ﴿يكذبون﴾ ، وقوله عليه السلام في صفة المنافق : «من اذا حدث كذب ، واذا أؤتمن خان ، واذا وعد أخلف» ، وقد الزم بعض العلماء المعرفة بالنفاق انهُ خلف ، المعنى في ذلك فيما وجدت ؛ أراد أن على الناس أن يفرقوا بين الشرك والنفاق ؛ لئلا يلتبس قول أهل الحق في ذلك ، بمقالة أهل الخطأ ، والله أعلم .

والنفاق على وجهين : نفاق تحليل وتحريم ، ونفاق خيانة . وأصل النفاق كله خيانة ، وقيل : أصله الخلف والكذب ، كما قدمنا ، ونفاق التحليل والتحريم وهو نفاق أهل الخلاف لدين المسلمين ، ونفاق خيانة هو نفاق من ضيع الفرائض ، وارتكب الكبائر بشهوة ، لا بديانة قيل هذا .

فصــــل : وذهبت المعتزلة والأشعرية فيما وجدت الى أن المنافقين مشركون وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وان النفاق ليس هو في زماننا هذا ، وأهل الكبائر عندهم ليسوا بمنافقين على ما قدمنا من اختلاف الناس فيهم قبل هذا ، والمنافقون عندنا : أهل الكبائر من أهل التوحيد ، المضيعون للفرائض .

فصــــل : في الرد عليهم ، ويقال لمن خالفنا في النفاق : اخبرونا عنه ما هو ؟ ايمان ، أو شرك ، أو ليس بواحد منهما ، فان قالوا : هو ايمان ؛ افتروا وان قالوا : هو شرك قيل لهم : وكذلك الشرك هو النفاق ، فان قالوا : نعم ؛ اثبتوا أهل الأوثان منافقين . فان قالوا : ليس بواحد منهما ، فقد صدقوا . وبالله التوفيق .

وعن الحسن قال : الحدود في المنافقين . وقيل لحذيفة ـ رحمه الله ـ ما النفاق يا أبا عبد الله ؟ قال : ان تتكلم بالاسلام ولا تعمل بهِ . وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ سئل عن النفاق ، فقال : اختلاف السريرة والعلانية ، وكذلك عن الحسن البصري . وقيل لجابر بن زيد ـ رحمه الله ـ أتخاف النفاق ؟ قال : وكيف لا أخافه وقد خافه عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ ؟ وقيل : لحذيفة يا أبا عبد الله : النفاق اليوم أكثر أم على عهد رسول الله ﷺ ، قال : سبحان الله : هو اليوم أكثر هو اليوم أشد . وعن عمر ـ رضي الله عنهُ ـ قال غلبني المنافقون خيانة ، ولولا خيانتهم ما أمرت على الناس غيرهم ، في آثار كثيرة تدل على أن النفاق موجود في كل زمان ، والدليل على أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ليسوا من المشركين ؛ قوله تعالى : ﴿فليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ ، ولو كانوا غير عارفين بالوحي لما حذروا نزوله . وقوله : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ نزلت حين همّ رسول الله ﷺ أن يصلي على عبدالله بن سلول ،رأس المنافقين ، ولو كانوا مشركين لعرفهم رسول الله ﷺ ، فكيف يسوغ على رسول الله ﷺ أن يجهل الشرك ؟ لأن من لم يعرف الشرك ، فهو مشرك وقد قال تعالى :

﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم﴾ (الآية) ، وقال ايضاً في المنافقين : ﴿ولو سئلوا الفتنة لأتوها يعني الشرك لأتوها فكيف يدعون الى الشرك وهم فيه ؟ . في أمثال هذا كثير يدل على أنهم أهل الكبائر ، مصرين عليها ليسوا بمشركين وبالله التوفيق . انقضى الذي من تفسير قصيدة الشيخ فتح بن نوح المغربي .

(مسألة) : ومن كتاب (الارشاد) : وأما النفاق فأصله في لغة العرب مأخوذ من (نافقا اليربوع) أو أحد أبواب جحره يتخذه مستخفياً يخرج منهُ عند الضرورة ، اذا خاف فأخفاه عن العيون . وفسر أهل العلم أن النفاق هو اختلاف السريرة والعلانية ، واختلاف القول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وقد ذكر الله المنافقين في آيات كثيرة من كتابه ، وقد اختلف الناس فيهم فقال قوم : هم مشركون خالف قولهم اعتقادهم . وقال آخرون : خالف قولهم فعلهم . والأصل في هذا قوله تعالى : ﴿فمالكم في المنافقين فيئتين﴾ (الآية) ؛ وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ قال بعضهم : القوم على حقيقة ما أنتم عليه ، وهم إخواننا ، وانما ثقل عليهم من الهجرة والخروج من الوطن ، فهم سالمون مؤمنون .

وقال آخرون : بل هم مشركون ؛ لتخلفهم عن الهجرة ؛ ولقعودهم بين ظهراني قوم مشركين . فأنزل الله ﴿فمالكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ ، فأخبر انهم : ليسوا بمشركين ولا مؤمنين ، ولكنهم منافقون . واخبر انهُ : ﴿أركسهم بما كسبوا﴾ ورد على من سماهم مؤمنين أو مشركين ، وسماهم الله تعالى ﴿منافقين﴾ ثم عاتب المؤمنين فيهم فقال : ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ (الآية) فوقع العتاب هاهنا على من سماهم مؤمنين . ثم قال : ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ ، وانما مودتهم ان يترك المؤمنون الهجرة ، كما تركوا هم فيكفرون كما كفروا . ثم قال : ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ ، فقد انقطعت الولاية بين المؤمنين والكفار حتى يهاجروا في سبيل الله ، ثم قال : ﴿فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ (الآية) ؛ فصح انهم قبل التولي ، لم يصدر منهم فعل

يكونون بهِ منافقين من ترك الهجرة .

فمن أثبت النفاق في الأفعال لمخالفتها الأقوال ؛ فهو أقرب الى الحجة والحجة ان شاء الله ، لأنهم استدلوا بظاهر الآية ، وقضوا بأن النفاق في الأفعال . واستدل من شركهم بقوله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ الى قوله : ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ (الآية) قالوا : فلما أخبر عن الوعد باللسان ، وعقب النفاق في القلب ، علمنا انهُ اسلبهم الأيمان الذي يكون في القلب عقوبة ، ولن يستقيم الأيمان والنفاق في قلب واحد .

وقال آخرون : قد يصح ويقاوم ايمان القلب ؛ فان هذا النفاق غل وغش في قلوبهم الى المؤمنين ، والذين قضوا بأن النفاق في الضمير يفسقون ؛ لأنهم لا يصلون الى الاعتقادات الاَّ بنصوص التنازع ، والذين قضوا بهذا فلا يعدون عن أنفسهم أسباب الشر ؛ لكنهم هدموا قاعدة الخوف ، وسهلوا الطريق الى الجنة ، والذين قالوا : انهُ في الأفعال ، عظموا أسباب المخاوف فهم أحزم . والصحيح انهُ لا يستحيل تصرفه في الوجهين جميعاً . وقد جاء الحديث بذكر النفاق في الأقوال والأفعال ، كما قال عليه السلام : «اربع من كنَّ فيه فهو منافق حقاً ؛ فان صلى وصام وزعم انهُ مسلم : من اذا حدث كذب ، واذا أؤتمن خان ، واذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» ؛ وقال عليه السلام : «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها» . وفي حديث حذيقة ، قال : كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يتكلم بكلمة يصير بها منافقاً ؛ والآن نسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات . قيل لهُ : المنافقون اليوم أكثر ، أم على عهد رسول الله ﷺ ، فقال : اليوم أكثر ؛ لانهم كانوا يخفون نفاقهم ، وهم اليوم يظهرونهُ وقد كفروا كفراً مبيناً ، والله أعلم وأحكم .

(مسألة) : ومن شرح قصيدة الشيخ فتح بن نوح المغربي ؛ فان قال قائل : اخبرني عن موضع ينفيه النافي فيشرك ، وينفيه فينافق ، وينفيه فيخطىء فقال : من قال التوحيد ليس بأفراد فهو مشرك ، ومن قال ليس بمخلوق فهو منافق متأول ، ومن قال ليس بحركة ولا سكون فقد اخطأ في صفة الفعل .

(مسألة) : وعلينا أن نعلم ؛ أن الشرك مساواة الله بغيره ، لانهُ معرفة الشرك توحيد ، وجهله شرك ، ومن عرف التوحيد عرف الشرك ، وكذلك الشرك من عرفه فقد عرف التوحيد . وعلينا أن نعلم أن الشرك كفر ومعصية ، وجور وخطأ ، ومعاقب عليه ، ومن لم يعلم ذلك الشرك ، والشرك والتوحيد ضدان لا يجتمعان في قلب واحد أبداً ، وهما فعل القلب واللسان ، وهما من خلق الله وتدبيره ، وهما فعل الانسان من جهة العقل ، والنطق والحركة والسكون ، ومن دفع خلقهما كان منافقاً متأولاً .

والتوحيد معرفة ، والجهل شرك ، وهما شيئان موجودان اذا فعل من جهل أحدهما جهل الآخر كما قدمناه ، والتوحيد ايمان لعلة وجوب الثواب عليه ، والشرك كفر لعلة الاستفساد الى الله - عزَّ وجل - والتوحيد طاعة لعلة الأمر بهِ ، والشرك معصية لعلة النهي عنهُ . والأمر بالتوحيد غيره ، وكذلك النهي عن الشرك غيره ، والأمر بالتوحيد هو النهي عن الشرك ، والنهي عن الشرك هو الأمر بالتوحيد ، وكذلك الأمر بالشيء هو نهي عن ضده في جميع الواجبات ، وكذلك الفعل والترك ، والله أعلم وأحكم .

فصــل : في تفصيل الشرك

والشرك على وجهين : جحود ، ومساواة وأصل ، الشرك كله مساواة لقوله تعالى : ﴿اذ نسويكم برب العالمين﴾ . وقال أبو عمار فيما حكي عنهُ : أصل الشرك جحد وتكذيب ، وتجويز وتسوية ، والشرك يتصرف على وجوه ؛ منها :

ان ينكر وجود الله تعالى بمقامه في الخلق ، والانشاء ، والاختراع ، كالمنانية والديصانية الذين يزعمون : ان الأشياء تكونت من أصلين قديمين ، وهما : النور والظلمة . وكالمجوس الزاعمة ان الاشياء القبيحة مخلوقة للسيان ، وما أشبه ذلك من مذاهب الملحدة !

ومنها أن يقيم الخلق في العبادة مقام الله تعالى ، كمشركي العرب الذين

يعبدون الأوثان ، ويقولون : هم شفعاؤنا مع اقرارهم بأن الخلق ، والرزق والأحياء والأمانة لله وحده .

ومنها ما يجهل وجميع ما لا يسعهُ جهله .

ومنها أن يكذِّب الله تعالى في إنكاره حرفاً من كلامه ، أو نبياً من أنبيائهِ ورسله وملائكته ، وجملة البعث والمعاد في أمثال ذلك .

ومنها أن يصف ربه بصفات الخلق من الجهل ، والعجز ، والجور ، والظلم ، والسهو ، والنوم ، والأكل ، والشرب في جميع صفاته ؛ ما لا يليق بهِ - سبحانه - أو يصف الخلق بصفاته من الأحياء ، والاماتة ، والخلق ، والارسال ، والأقوال من جميع صفاته التي لا تليق الاَّ بهِ - جل وعلا - .

ومنها أن يتقرب العبد الى الله بمعاصيه من الشرك وغيره ، ويزعم انهُ أمر بها أو يزعم انهُ نهى عن طاعته من التوحيد وغيرها .

ومنها أن يتقرب الى المخلوق بأفعاله من جميع طاعة الله - عزّ وجل - من الصلاة ، والذبح وغيرها رياءً وسمعة ، وهو الشرك الأصغر ؛ لقوله عليه السلام : «الرياء هو الشرك الأصغر» . وقال تعالى : ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ .

ومنها أن يدعو العبد الى عبادة نفسه ، كفعل إبليس اللعين ، فمهما فعل العبد ذلك فهو مشرك ، والشاك فيه مشرك ، لا يسع جهل شركه على حال من الأحوال .

ومنها : شرك الاكراه ، وهو قول المكره على القول بإلهين اثنين . قال بعضهم : لا شرك ، ولا كفر ، ولا معصية . وقال بعضهم : انهُ شرك ولا شرك ، ولا كفر ، ولا معصية . واتفق الجميع انهُ لا معصية ، ولا اثم ، ولا ذنب ولا عقاب . ويقال كذب ابيح لهُ .

ومنها : ما ركب في قلوب العباد من الجزع ، والهلع ، وقلة الثقة بموعود الله تعالى ، وثقتهم بأنفسهم وقواهم وحيلهم ؛ حتى انهم ليتقون بكلابهم فسمي هذا المعنى شركاً لقول ، ابن عباس : لا تزالون تشركون ، تقولون لولا كلبنا لسرقنا . وقال تعالى : ﴿فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾ يقولون لولا استواء الريح لهلكنا﴾ . وحكي عن عبدالله بن مسعود انهُ قال : إن التمائم والرقا والتوله من الشرك . قال الأصمعي : هي التوله (بكسر التاء) ، وهو الذي يحبب المرأة الى زوجها ، قال أبو عبيدة : إنما أراد بالتمائِم والرقا ما كان بغير لسان العربية مما لا يدري ما هو ؟ . وأما الذي يحبب المرأة الى زوجها ؛ فهو عندنا من السحر ؛ والله أعلم .

فصـــل : جامع الشرك والنفاق من خصال دين الشيطان ، من الكفر والفسق والضلال والنفاق غير الشرك .

والشرك غير النفاق ؛ ولا يقال : النفاق غير الكفر ، ولا الكفر غير النفاق ، وكذلك لا يقال : الكفر هو الشرك ولا غيره ، وانما يقال : ان من الكفر شركاً ، وغير الشرك ، ومن الكفر نفاقاً وغير نفاق . وأما النفاق فهو غير شرك والشرك غير النفاق وكل نفاق خلف نفاق وكل نفاق كبيرة ، وليس كل كفر نفاق ، وكل شرك كفر ، وليس كل كفر شرك وكل نفاق ظلم ، وليس كل ظلم نفاقاً من جهة ظلم الشرك ، وكل نفاق فسق ، وليس كل فسق نفاقاً من جهة فسق الشرك .

فصـــل : ويقال : للمشركين خرجوا من جميع دين الله ، وجميع طاعته وملته ، ولا يقال : دخلوا في جميع دينه وعبادته ولئلا يدخلوا في اسم النفاق ؛ لأن منافقاً من أسماء أهل دين الشيطان . وأما المنافقون فإنهم خرجوا من أسماء أهل دين الله ، وطاعته ، ودينه ، وعبادته ، وملته بتركهم بعض ذلك . ولا يقال : خرجوا من جميع ذلك ؛ لئلا يخرجوا من التوحيد وأسماء أهله ، ولا يقال لهم : دخلوا في طاعة الشيطان ودينه ، ودخلوا في أسماء أهل دينه . ولا

يقال : دخلوا في عبادته ، ولا في ملته ، ولا في جميع أسماء أهل دينه ؛ لئلا يدخلوا في الشرك ، وأسماء أهله ، وأسماء أهل دين الشيطان ، كل اسم تقع عليه المذمة من الله تعالى كفاسق ، وضال ، وكافر ، ومشرك ومنافق ، في أمثالهم ؛ وبالله التوفيق .

(مسألة) : من كتاب (المعتبر) واعلموا أن الشرك يتصرف على ثلاثة وجوه : فشرك جحود ، وشرك طاعة ، وشرك رياء .

فأما شرك الجحود ؛ فهو الاشراك بالله ، يعني الذي يعدل بهِ غيره ، كقوله تعالى : ﴿ومن يشرك بالله﴾ ، يعني من يعدل بهِ غيره [فقد حرم الله عليه الجنة] اذا مات على ذلك غير تائب . وقال الله تعالى : ﴿ان الله بريء من المشركين ورسوله﴾ . فكل من جحد الله ، أو عبد معهُ الهاً آخر أو شك فيه ، أو شك في رسوله محمد ﷺ ، أو جحده بما جاءَ بهِ محمد ﷺ ، فهو مشرك يلحقه اسم الشرك . وأما شرك الطاعة ؛ فهو طاعة الشيطان وهو قوله تعالى : ﴿فلما أتاهما صالحاً جعلا لهُ شركاء فيما أتاهما﴾ ، دخل عليهما في طاعة الشيطان الشرك من غير عبادة يعبد بها الشيطان من دون الله ، كذلك قوله تعالى : ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم بهِ مشركون﴾ ، وقوله : ﴿اني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾ . وقوله : ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم الَّا تعبدوا الشيطان انهُ لكم عدوٌ مبين﴾ .

فعبادته هاهنا طاعته ، فمن أطاع الشيطان فقد عبده من حيث لا يعلم . وهذا الشرك غير شرك الرياء ، ويلحقه اسم النفاق ، ولا يلحقه اسم الجحود ؛ كذلك شرك الرياء ؛ انما هو شرك يلحقه اسم النفاق ، ولا يلحقه اسم الجحود ؛ وهو قولهُ تعالى : ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ . فدخل عليه اسم المشركين حيث لا يعلم اذا أشرك في عبادة ربه غيره . واعلموا أن شرك الرياء ، وشرك الطاعة يلحقهما اسم الكفر ، والنفاق ، والضلال ، والفسق وكل اسم من الأسماء

القبيحة التي قد سمى الله بها الفساق ، ولا يلحقهما اسم الجحود ، كذلك اسم شرك الجحود يلحقه اسم الكفر ، واسم الضلال ، واسم الفسق ، وكل اسم قبيح سمى الله بهِ الفساق ، ما سوى اسم النفاق ، وكذلك النفاق يلحقه اسم الكفر ، واسم الضلال ، واسم الفسق ، وكل اسم قبيح سمى الله بهِ الفساق ما سوى اسم الشرك . واعلموا أن من جهل تسمية أهل الشرك بالشرك .؛ وسماهم بالكفر ولم يثبت لهم اسم التوحيد في الموارثة ، والمناكحة ، واكل الذبائح ، وجميع ما يحرم على المسلمين من المشركين ، ودان في ذلك بدين محمد ﷺ ، فقد أصاب الحق ، ـ إن شاء الله ـ ، وذلك أن يكون اعتقاده فيه ان كان يلحقه اسم المشرك ، فقد سماه باسم يستحقه اسم الشرك ، ويسميه هو بالاعتقاد بالشرك ، على هذا السبيل ، وان يكن لا يلحقه الشرك فقد سماه باسم يستحقه اسم النفاق ، ويدين لله انهُ منافق في اعتقاده ، ما لم يسم أهل الشرك بالنفاق أو يسم أهل الشرك بالنفاق ، ودان فيه بدين محمد ﷺ فهو سالم ـ إن شاء الله تعالى ـ ما لم يحرم من المنفاق المناكحة ، والموارثة وأكل الذبيحة ، وما أحله الله من المنافق . فتدبروا ـ رحمكم الله ـ هذا الفضل ان شاء الله .

(مسألة) : عن الشيخ سعيد بن بشير الصبحي ؛ وهل يطلق على المنافق اسم كافر نعمة أم لا ؟

قال : نعم ؛ يقال لهُ كافر نعمة .

(مسألة) : عن الشيخ ناصر بن خميس ، وهل يجوز أن يطلق على المنافق اسم كافر ، أم حتى يقيد بكفر النعم ؟ الجواب : وبالله التوفيق ان قيده بكفر النعم ، فحسن عندنا والله أعلم .

(مسألة) : ومن كتاب (الارشاد) .

وأما الكفر فهو في أصل اللغة (التغطية والستر) ، وفي مفهوم كلام العرب هو : [جحود المنعم لنعمته] . والكفر على وجهين : كفر الجحود ، وكفر النعمة .

فكفر الجحود الذي جهل ربه ، أو كفر نعمته ، أو تجاهل أو استجهل .
أما من جهل ربه ؛ فهو الذي لا يعرفه ولا يثبته ، كالدهرية ، والثنوية ، وجميع ملل أهل الشرك . وأما التجاهل ؛ فهو التقصير عما تصح المعرفة الاّ بهِ إثباتاً ونفياً ، كمن لا يعرف ما لا يسعه جهله . وأما المستجهل فهو المستعرض لا يصاف خالقه بما لا يليق بهِ .

وأما كفر النعمة ؛ فهو بالقول ، والفعل ، فهذا الكفر يكون من جهة اللغة ، ومن جهة الشريعة . وقد اجتمعت الأمة ، على أن الكافر الأصلي هو المشرك ، واختلفوا في كفر النعمة ، فنفاه القدرية ، والمرجئة والأشعرية . واثبته الأباضية ، والصفرية ، والشيعية . والكفر عند العرب [كفران النعمة] كما قال الله تعالى ، حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام :

﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ ، وقال تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني﴾ . أي ترك الحج ، وقال تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ . وقال النبي ﷺ : «ان انتفى من أبيه كفر» ، والله أعلم .

فصـــل : في الروايات التي تدل على تسمية الفاسق كافراً كفر نعمة ، من كتب قومنا من أهل المذاهب الاربعة ، فمن ذلك قوله ﷺ : «حب أبي بكر وعمر من الايمان ، وبغضهما كفر ، وحب الأنصار من الايمان وبغضهم كفر» . قال : غيره ، ومذهب أهل المذاهب الأربعة على خلاف هذا ؛ لأن اسم الكفر ، واسم النفاق ، لا يثبتونهما في فسقة المؤمنين ، وان كان قد قال ذلك النبي ﷺ ، ورواه علماؤهم فلا عمل عليه مع صحة ذلك معهم .

رجـــــع :

وروي عنهُ ﷺ انهُ قال : «الجفاء كل الجفاء والكفر والنفاق من سمع منادي الله ينادي بالصلاة ويدعو الى الفلاح فلا يجيبه» . وهم على خلاف في

حكم الكفر ؛ أي كفر نعمة وحكم النفاق ، ومعهم لا يكون منافقاً مع اقراره بفرضها ، وانما يكون فاسقاً .

رجـــــع :

وروي عنهُ ﷺ : « اذا قال الرجل لأخيهِ يا كافر فقد باء بها أحدهما» . قلت : والمراد ان كان الذي قال فيه مؤمناً فاسقاً ؛ فهو حقيق بتلك الكلمة ، وان كان تقياً كفر كفر نعمة بتكفيره للتقي ، وهذه على خلاف مذهبهم في الحالين . وروي عنهُ ﷺ انهُ قال : «من ترك الصلاة متعمداً كفر» . قال غيره : وهذا حديث هو حجة عليهم ان تركها كفر ، وهو مؤمن في الاحكام الظاهرة . وقال علي بن ابي طالب في أمر معاوية ومحاربته : قلبت ظهر هذا الأمر وبطنه ، فلم أرَ الاَّ القتال ، أو الكفر . قوله : أو (الكفر) من باب المبالغة ؛ وانما هو القتال ، أو الفسق كفراً تغليظاً ، وتشديداً .

وقال غيره : واذا سمى النبي ﷺ الفسق كفراً تغليظاً ، وسمى الامام علي كذلك الفسق كفراً تغليظاً وتشديداً أفلا يصير الفسق اسمه كفراً ؟ أي كفر نعمة ؛ ثابتاً للفسق تغليظاً لهُ وتشديداً لهُ ، ما أكبر ذلك حجة عليهم ، في ثبوت اسم الكفر كفر نعمة للفسق على جميع فرق المعتزلة ، والشيع وقد تأوّل الامام الحافظ البيهقي وغيره من أهل المذاهب الأربعة ، ما جاءَ عن الشافعي وغيره ، من أهل العلم من تكفير القائل ، بخلق القرآن على كفران النعمة ، لا كفر خروج عن الملة . وهذا من اكبر الحجج عليهم ؛ من انهم لا يجيزون اسم الكفر على الفسق لعله الفاسق من فساق المؤمنين ، اذ صح مع المفسرين منهم ؛ ان أصل الكفر كفران : كفر النعمة ، وكفر خروج من الملة ، وهو الشرك . واذا كان هؤلاء المتأخرون من أهل المذاهب الأربعة على خلاف امامهم . فمن قال : انهُ شافعي فبالحق انهُ غير شافعي على الحقيقة لانهُ على خلافه في كثير من الامور .

(مسألة) : ومن كتاب (الارشاد) ؛ وأما الشرك فمعناه في اللغة

[التسوية] ؛ قال الله تعالى : ﴿اذ نسويكم برب العالمين﴾ . ومن الشرك ؛ ان يقيم العبد معبوداً غير الله ، أو يسمي أحداً غيره بالألوهية لأهل الأوثان ، أو ينكر وجود الباري ، تعالى ، أو يجعل لهُ شريكاً في خلقه ، مما لا يتوهم للغير فيه شركة ولا صنع ، أو يضيف خلقاً الى غير الله ، أو يصفه بما يخرجه من معنى الألوهية ؛ بتكذيبه في كتبه ، أو تكذيب رسله ، أو جعله للبعث ، والمعاد ، والثواب ، والجنة ، والنار ، أو شيء مما لا يسع جهله ، أو يشرك في علمه أحداً غير الله ـ تبارك وتعالى ـ كمن يريد بعلمه رياءً ، أو سمعة .

ومن الشرك قلة الثقة بوعود الله تعالى ، والجزع والهلع ؛ حتى قيل : ان قول القائل : لولا كلبنا لسرقنا لولا فلان ، لولا الشيء الفلاني ، لهلكنا والله أعلم .

(مسألة) : والشرك يلحق العباد في أقل الحظرات ، كما قال النبي ﷺ : ﴿الشرك في أمتي أخفى من ذرة سوداء في صخرة صماء في ليلة ظلماء» ، وروي ان النبي ﷺ قال لابي بكر الصديق ـ رضي الله عنهُ ـ : ألا أدلك على كلمات إذا قلتها بريت من الشرك» ، قال : بلى ، يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ؛ قال : «قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك ، وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم» . وكل من عبد غير الله فقد أشرك بالله ما لم ينزل بهِ سلطاناً ، ومن أشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي بهِ الريح في مكان سحيق . فالمشرك بعيدٌ من الله ، خارجٌ من رحمة الله ، ومن لم يؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وأنبيائه وما جاءوا بهِ عن الله كان مشركاً ، ومن لم يصدق بالله ، وشك في نبيه محمد ﷺ ، ولم يؤمن انهُ رسول الله ، ولم يؤمن بالقرآن الذي جاءَ بهِ من عند الله ، كان مشركاً ؛ حتى يقر بالله ، وبرسوله ، وما جاءَ بهِ ، انهُ الحق ؛ لأن الله يقول : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ .

ومن آمن ببعض الأنبياء ، وكفر ببعضهم ، فهو مشرك ؛ لانهُ رد ما جاءَ

في القرآن ، ومن لم يصدق بجملة القرآن ، وأنكر شيئاً منه فهو مشرك . ومن لم يؤمن بالمعاد ، وأنكر البعث فهو مشرك . وكذلك من أنكر الجنة والنار ، لأن ذلك في القرآن ، ومن أنكر الصلاة وخطأ من أوجب فرضها ، فهو مشرك يقتل إن لم يتب ، وكذلك الصيام والزكاة والحج ، والفرائض التي في كتاب الله ، اذا لم يؤمن بها أشرك والله أعلم .

(مسألة) : ومن شك في الله انهُ ليس بخالق ، ولا رازق كفر ، ومن شك في أسماء الله بعد قيام الحجة عليه كفر . ومن شك في تفسير التوحيد بعد علمه ، وقيام الحجة عليه كفر . ومن شك في النبي محمد ﷺ انهُ ليس بنبي ، ولا رسول فقد كفر ، والله أعلم .

(مسألة) : ومن أقرّ بأن الله وحده لا شريك لهُ ، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله ، وبكل ما جاءَ بِهِ عن الله ، الاَّ انهُ قال ان الله يعجزه شيء ، أو انهُ يغفل ، أو يسهو أو ينام ، أو ليس هو بقادر ، ولا قاهر ، وأشباه هذا انهُ يكون مشركاً يقتل ان لم يتب . وكذلك ان شك في هذا بعد العلم بهِ ، أو كان جاهلاً بذلك ، فقامت عليه الحجة والله أعلم .

ومن قصيدة الشيخ فتح بن نوح المغربي :

ومن صدم المنصوص بالرد مشرك   ومن أخطأ التأويل نافق بالمين
ومن رد حرفاً أو رسولاً فانهُ   يرد جميع المرسلين كفرعون

فصـــل : في معنى الأبيات :

يقول : من انكر منصوصاً في القرآن انكاراً لا يحتمل التأويل ، فهو مشرك وان لم ينكر في التأويل بعض ما أقرّ بهِ في التنزيل ولكنه أخطأ في تأويله ذلك ؛ فهو كافر منافق ليس بمشرك ، لكنه متأول . والمتأول ليس كالمنكر والله أعلم وسنبين هذا ان شاء الله .

(مسألة) : قال أصحابنا : من أنكر نبياً من الأنبياء ، أو ملكاً من

الملائكة ، أو حرفاً من كتاب الله ، أو فريضة من المنصوصات ، فهو مشرك كمن انكر الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله لأن الله تعالى يقول : ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ (الآية) في أمثالها من القرآن . فاخبر كذبوا جميع رسله ، بتكذيبهم هوداً عليه السلام ، وكذبوا الله بذلك لأن ذلك من صفات الله ـ عزَّ وجل ـ يوصف بانهُ باعث المرسلين ، ومنزل الكتب على النبيين والمرسلين .

(مسألة) : قال أصحابنا : ومن شك فيمن دفع وجهاً مما ذكرنا من نبي ، أو رسول ، أو حرف ، أو غير ذلك من المنصوص ، فهو مسلم ما لم يعلم ما دفع من ذلك أو تقوم بهِ الحجة ، ما خلا أبانا آدم ومحمداً عليهما السلام ، وهذا اذا ذكره الدافع باسمه ، واما ان قال : انكرت نبياً هكذا ، أو رسولاً ، أو حرفاً ، أو ملكاً أو ما أشبه ذلك فعليه أن يكفره ؛ فان لم يفعل فهو مثله لانهُ قد نقض لهُ حينئذٍ ما في يده من معرفة النبي والحرف والملك . وكذلك الناقض لما في أيدينا من دين الله ، ـ عزَّ وجل ـ يجب علينا تكفيره على كل حال ، اذا عرفنا انهُ ناقض . وكذلك كل من أخذ من دين الله ـ عزَّ وجل ـ تحليل شيء ، أو تحريمه ، والزامه أو حطه واثبات نبوة نبي أو معرفة شيء ، من كتاب الله أو ملك ، أو معرفة مؤمن منصوص في كتاب الله ، ـ عزَّ وجل ـ أو معرفة شيء من دينه ، كائناً ما كان من نص ، أو تأويل ، ثم جاء من نقض لهُ ما أخذ من ذلك ، فانهُ واجب عليه أن يتبرأ من هذا الناقض ، ويعرف انه كافر فمتى لم يفعل ما ذكرنا ؛ فانهُ يكون حينئذٍ راجعاً عن علمه في ذلك شاكاً في دين الله ، وفي قول المسلمين وبالله التوفيق ؛ انقضى .

(مسألة) : ومن كتاب (الارشاد) ومن قال : ان نبياً بعد نبينا محمد ﷺ أو قال : انهُ كاذب ، أو ساحر ، أو شاعر ، ولم يصدق بهِ اشرك . ومن انكر كتب الله ، أو بعضها ، أو شيئاً منها أشرك . ومن انكر الملائكة أشرك . ومن قال : ان لله ولداً فقد أشرك . ومن وصف الله بجارحة من الجوارح ؛ فقول : يشرك وقول : يكفر . والله أعلـــم .

(مسألة) : ومن شك فقال : لا أدري هذا الذي في أيدي اليهود ؛ أهي

التوراة التي أنزلها الله على موسى أم لا ؟ وهذا الانجيل الذي في أيدي النصارى أهو الذي أنزله الله على عيسى أم لا ؟ لا ، اني أشك في التوراة انها من عند الله ، وان الله أنزلها على نبيه موسى عليه السلام ، ولا أشك في الانجيل انهُ من عند الله ، وان الله أنزله على نبيه عيسى عليه السلام ؛ فانهُ لا يكون بذلك مشركاً ولا كافراً . والله أعلـــم .

(مسألة) : ومن قال : ان نبي الله عيسى عليه السلام لهُ اب فهو مشرك يقتل ان لم يتب . ومن شك في الجنة والنار بعد علمه ، والبعث والثواب والعقاب كل هذا لا يسع الشك فيهِ بعد العلم بهِ ، ومن شك فيه بعد العلم بهِ ، وقيام الحجة ، فهو مشرك . والله أعلـــم .

(مسألة) : ومن كتب بعض أهل المغرب ؛ وسئل عمن قال لا أعرف أن محمداً رسول الله ، ولا أدري من أبوه ، ولا من قبيلته ؟ فاما من عرفه بعينه فقال : أنا أعرف ان هذا محمد رسول الله ، وهو يراه لا يدري ما قبيلته ولا نسبه فهذا ثابتة له المعرفة ، لمحمد ﷺ ولا يضره ما جهل من نسبه ، ومن قال عرفت محمداً رسول الله ، ولم أعرف انهُ ابن عبدا لله ، فاذا كان محمد رسول الله ﷺ حاضرا فلا بأس عليه ، وأما ان لم يعرفه بعينه فلا يكون عارفاً بهِ حين جهل اباه ، فاذا كان محمد ﷺ حاضراً فلا بأس عليه ، وأما جده ان لم يعرفه فانهُ يجزيه فيما حكي عن بعض المشائخ ، واظنه (أبا أيوب) . وبعض شدد في ذلك .

وان قال : لا أدري لعل محمداً من الملائكة أو الجن ، فان هذا لا يعرفه بمنزلة من قال : لا أدري أرجل هو أم امرأة ؟ فان قال : هل علينا أن نعلم انهُ من قريش أو من العرب ؟ فالذي وجدت في الأثر ؛ انما عليه أن يعلم ان محمداً رسول الله . ومن كتاب [السؤ الات] فان قال : لم أعرف محمداً عليه السلام فقد أشرك فان قال : ليس عليَّ من معرفته شيء فقد كفر ، ونافق وهو قول أحمد بن الحسين . وعلينا أن نعلم أن محمداً ﷺ آدمي ، واما ان نعلم انهُ عربي ، وانهُ ابن عبدالله قرشي فلا . وفي كتاب (الجهالات) ؛ سألت عن

رجل قال : لا علم لي بموت محمد عليه السلام ، ولا ادري أحي اليوم أو ميت ؟ قال : الجواب في ذلك ؛ انهُ مشرك ؛ لأن محمداً الذي هو رسول الله فقد مات ، فمتى ما زعم ان رسول الله حي لم يمت كان قصد الى رجل من الأحياء ، فسماه رسول الله محمداً عليه السلام فكان في هذا الوجه راداً على الله ، مكذباً لله ، في ان محمداً رسول الله وان الذي قد مات ليس هو بمحمد في زعمه ، فهذا على كل حال مشرك كافر ، وكذلك لو قال قائل : انهُ مات بمكة كان كافراً ، مشركاً ولو قال مات بالشام ، أو قال مات بالعراق ، كان بمنزلة من قال مات بمكة أو بالشام أو بالعراق . فسمى محمداً رسول الله وهو ليس بمحمد رسول الله ، وبالجملة انه متى اخطأ في وصفه محمد عليه السلام كان كافراً مشركاً .

قال : وقد سألت عن هذا أبا يحيى فقلت لهُ : كيف يكون المخطىء في صفة الله مشركاً أو منافقاً ، والمخطىء في صفة محمد لا يكون مشركاً ؟ قال : ذلك من أجل أن الله يعرف بالأدلة . هذا في كتاب (الجهالات) . وقال بعض المشائخ في كتاب (السؤالات) : علينا أن نعلم ان سبعة أسماء بالعربية الله وآدم ومحمد والجنة والنار والقرآن وجبرائيل عليه السلام .

فصل : عَن بعض أهل المغرب ؛ والكفر على وجهين : -

كفر شرك ، وكفر غير شرك ، وكفر هو النفاق ، وهو كفر ابليس اللعين في بدء الأمر كفر ؛ حين أبى من السجود فلما أمرنا بالشرك ، ودعا الى عبادة نفسه أشرك بالله تعالى ، وكان الكفر ما جمعه كفراً لعلة الاستفساد بين العبد وربه ؛ وهو المحاربة ، فمن استفسد بالمساواة كان كافراً مشركاً ، ومن استفسد بتضييع الفرائض ، وارتكاب الكبائر ، كان ناقضاً كافراً كفر نعمة ؛ وكان الكفر كفرا لوجوب العقاب اليه . وكان الشرك كفرا لعلة وجوب العقاب عليه . وقارن العقاب الكفر لعلة نفس الكفر لا لعلة غيره ، وقارن العقاب الشرك لعلة انهُ كفر ، وهي علة مشتركة بين الكفر والنفاق ولا يقال في كل واحد منهما على الانفراد ، قارنه العقاب لمعناه ، أو لمعنى غيره ، ولكن لعلة

الاشتراك ، كما ما قارنه العقاب من شرك وغيره ولا يقال كل كفر شرك ؛ لأن النفاق كفر وليس بشرك ، ويقال كل نفاق كفر ، وكل منافق كافر ، ولا يقال كل كافر منافق .

فصـــل : والطاعة كل ما قارنه الأمر من توحيد وغيره ، فكل توحيد طاعة ، وليس كل طاعة توحيدا ، وكل خصلة من خصال الدين كله كالصلاة والصوم وغيرهما هي طاعة ، لمقارنة الأمر بها والأمر بالطاعة معنى غير الطاعة كما أن النهي عن المعصية لأن الأمر والنهي فعل الأمر الناهي ، والطاعة والمعصية فعل المأمور المنهي المطيع العاصي ، فكل خصلة من الايمان كانت طاعة لعلة الأمر ، وتلك العلة هي غير الطاعة ، وقارن الأمر الطاعة لعلة انهُ طاعة ، وتلك العلة هي غير نفسها لا غيرها ، ويقال كل عبادة طاعة ، وليس كل طاعة عبادة ، وكل عبادة تقرّب وليس كل تقرّب عبـــادة .

فصـــل : والمعصية كل ما قارنه النهي من شرك وغيره ، وهي على وجهين : كبير وصغير ؛ فكان الكبير كفراً لعلة وجوب العقاب عليه ، وكان الصغير صغيراً لعلة الاستثناء الذي جاء فيه ، وكل خصلة من خصال الكفر معصية لعلة مقارنة النهي ، وتلك العلة غيرها كالشرك قارنه لعلة انهُ معصية ، وهذه العلة يدخل فيه الشرك وغيره من جميع ما يقع عليه اسم معصية ؛ لانها علة مشتركة في الجميع ، وقارن النهي المعصية لعلة المعصية نفسها ، لا لعلة غيرها ، ويقال : كل كفر معصية ، وليس كل معصية كفراً وكل كفر كبير ، وكل نفاق معصية ، وليس كل معصية نفاقاً ، وبالله التوفيـــق .

فصـــل : أعلم أن الطاعة لا تصح لعاملها الاّ بأداء الفرائض بأسرها ، واجتناب الكبائر الموبقات بجميعها ، ولو ترك فريضة واحدة ، لم تقبل منهُ سائر الفرائض ، فان أصر على تركه حتى مات أحبط الله سائر عمله ، الا ترى الى ابليس اللعين ، لما ترك السجود لآدم عليه السلام ، وأصر علي ذلك ـ لعنه الله ـ وأحبط جميع عمله قبل ذلك ، وكذلك لو ارتكب ذنباً صغيراً ، أو كبيراً ، أو أصر علي ذلك ولم يتب منهُ ، لم يقبل منهُ سائر عمله حتى يتوب من

ذلك ، ألا ترى الى آدم عليه السلام ارتكب ذنباً صغيراً فلم ينجه من الله الاّ الاعتراف والتوبة ، ولو أصر عليه ولم يتب لاستحق من الله مثل ما استحق إبليس اللعين ، وان أهل السبت نهوا عن اصطياد الحيتان يوم سبتهم ، فتعدوا فيه وتركوا أمر الله ـ عزَّ وجل ـ جعلهم قردة خاسئين ، وأصحاب طالوت نهوا عن النهر ان يشربوا منهُ ؛ إلاّ من اغترف غرفة بيده ، فلما شربوا منهُ هلكوا ، وقوم موسى عليه السلام أمروا أن يدخلوا الأرض المقدسة ، فجبنوا وتركوا أمر الله ، فسماهم موسى عليه السلام فاسقين ، فتيههم الله أربعين سنة ، وأمروا أن يدخلوا الباب سجداً ويقولوا حطة ، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم ، فارسل الله عليهم رجزاً من السماء ، بما كانوا يفسقون .

فهكذا دأب الله مع العباد من لدن آدم عليه السلام ، الى يوم القيامة ، ألا ترى الى نوح عليه السلام مع طول عمره ، وكثرة عبادته وصبره ، على اذاء قومه ، كيف اشفق على ولده حين قال : ﴿ربي ان ابني من أهلي وان وعدك الحق﴾ ، الى قوله ﴿والاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ ، ولم يعتصم الاّ بالرحمة والغفران ، دون ما قدم من الاحسان . انقضى الذي من كتب أهل المغرب .

ومن قصيدة الشيخ فتح بن نوح المغربي :

ثلاثة أسماء معانٍ تجاورت   كبيرٌ وكفرٌ والعقاب بمقرن

فصل : في معنى البيت ، وتفصيل هذه المعاني قال بعض المشائخ : ثلاثة اذا كان كلهم جميعاً (كبير وكفر ووجوب العقاب) فكل ما وجب عليه العقاب فهو كبير ، وكفر ، وكل كفر كبير ، والعقاب عليه واجب ، وكل كبيرة كفر والعقاب عليها واجب .

(**مسألة**) : وعين الكفر بأجمعه من النفاق ، وغيره بالاستفساد الى ولي النعمة ؛ فمن استفسد اليه بالمساواة كان كافراً مشركاً ، ومن استفسد اليه بتضييع

حقه ، وارتكاب محارمه كان كافراً منافقاً . ومعنى الاستفساد هو المحاربة والقطيعة ، والخلاف على الله ـ عزَّ وجل ـ فكأنه نقيض الاستسلام لأمر الله ـ عزَّ وجل ـ والخضوع لهُ مأخوذ من استلام الدرع وهو لبوسه . قال شعراً :

ان تغـد في دوني النقـاع فـانني طب بـأخـذ الفـارس المستلئم

أي لابس الآمه وهي الدرع .

فصـــل ؛ويقال : كل كفر استفساد ، وكل استفساد كفر ؛ فان قيل : كل منهي عنه استفساد ؛ قيل لهُ : ان من النهي عنه ما ليس باستفساد وهي الصغائر ، ومنه ما هو استفساد وهو الكبائر ، والعلة التي لم تكن بها الصغائر استفساد هي علة الاستثناء التي جاء فيها من الله ـ عزَّ وجل ـ في قوله : ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ (الآية) ، وكانت الكبائر استفساداً لعلة انها كفر ، وكان الكفر كبيراً لمعنى غيره وهو مقارنة العقاب لهُ ، وقد قيل : انما كان الكفر والكبير كفراً جميعاً ؛ لمقارنة العقاب اياهما ، وكان الشرك كفـراً لعلة الاستفساد . وكذلك كل كبيرة من الكبائر نفاقاً كانت أو شركاً ، انما كانت كفراً لعلة الاستفساد ، لا يقال لمعنى هؤلاء لمعنى غيرها ، وكل كبيرة من كبائر الكبائر شركاً ، كانت أو نفاقاً ، انما كانت كبيرة لمعنى غيرها وهو مقارنة العقاب لها ، وقارن العقاب الكبيرة هكذا بمعناها ، وبطل ما ليس بكبيرة ان يقارنهُ العقاب ، وان قصدت الى خصلة من خصال الكفر لا يقال فيها قارنها العقاب لمعناها ، ولا لمعنى غيرها ، وانما قارنها العقاب من جهة انها كانت كبيرة ، وتلك الجهة اشتركت فيها خصال الكفر بجميعها .

ولو قلنا في كل خصلة من خصال الكفر نحو النفاق والشرك ، انها قارنها العقاب ، لأجل انها نفاق ، لأبطلنا عن غير النفاق من كبائر الشرك ان يقارنهُ العقاب ، وبطل أيضاً ان يقال قارن العقاب الشرك بمعنى غيره ، لئلا ينفى عنه أن يكون كبيراً لانهُ انما قارن العقاب ما قارن من خصال الكفر لانهُ كبير لأنا اذا قلنا بمعنى غيره قارنه العقاب ، وذلك الغير الذي قارن العقاب ما قرن

بِهِ كبيره . وكذلك ؛ لو قلنا : كان الشرك كفراً لمعناه ؛ لأبطلنا عن النفاق أن يكون كفراً ، وبطل أيضاً أن يكون الشرك كفراً لمعنى غيره ، اذا كان هو في نفسه كفراً .

فصـــل ؛فان قال قائل : اذا زعمتم ان النفاق غير الشرك ، والشرك غير النفاق ، لم لا يكون الشرك كله نفاقاً ؟ قلنا : لم يكن الشرك نفاقاً لعلة انهُ ليس بخلف . وكذلك النفاق لم يكن شركاً لانهُ ليس بمساواة ، ولم يكن توحيداً لانهُ ليس بافراد ، وكذلك التوحيد لم يكن شركاً لانهُ ليس بمساواة ، ولم يكن الشرك ايماناً لانهُ لم يقارنه الثواب ، ولم يكن طاعة لانهُ ليس بمأمور بهِ ، ولم يكن الايمان كفراً لانهُ ليس باستفساد ، ولم يكن كبيراً لانهُ لم يقارنهُ العقاب ، ولم يكن معصية لانهُ ليس بمنهى عنهُ ، وكان طاعة لعلة الأمر وبالله التوفيق .

(مسألة) : عن الشيخ صالح بن سعيد الزاملي .

وفي العاصين من أمة محمد ﷺ ، ايقع عليهم جميعاً اسم النفاق ، أم النفاق انما هو مخصوص بهِ أهل الدغل ، والغش والمكائد أم العاصي كلهُ منهم جائز أن يسمى بهِ ؟ قال : ان الناس بعد ما أرسل اليهم النبي ﷺ ، صاروا في الدنيا على ثلاث منازل : من جحد رسالته كان مشركاً ، ومن أقر بالجملة التي دعا اليها رسول الله ﷺ بلسانه ، وخالفها في أفعاله ، كان منافقاً . ومن أقر بها بلسانه وقلبه ، واتبعها أفعاله ، كان مؤمناً . ولا أعلم منزلة للناس تزيد على هذه المنازل : ـ اما مؤمن ، واما منافق ، واما مشرك . والمنافق والمشرك يجمعهما اسم الكفر ، والفسق والظلم . والله اعلم .

قال غيرهُ قوله : (ولا اعلم منزلة للناس تزيد على هذه المنازل) الى آخره ، فالشرك على معاني قول أصحابنا : يخرج على ثلاثة اقسام راجعة الى قسمين : شرك أكبر ، وشرك أصغر . فالأول الجحود ، والثاني ينقسم الى قسمين ـ شرك طاعة ، وشرك رياء ، فالأول : يخالفون في أفعالهم وأقوالهم أمر مولاهم ، ويطيعون فيه شيطانهم وهواهم ، ويشهد لهُ قوله تعالى : ﴿وان

أطعتموهم انكم لمشركون﴾ . والثاني لم نجد تمام هذه المسألة .

(مسألة) قال السنوسي * من أهل السنة : وأنواع الشرك ستة : شرك استقلال ؛ وهو اثبات إلهين مستقلين . وشرك تبعيض وهو تركيب الاله من الهة كشرك النصارى . وشرك تقريب : وهو عبادة غير الله ؛ ليقربه الى الله زلفى ، كشرك متقدمي الجاهلية . وشرك تقليد : وهو عبادة غير الله ـ تعالى ـ تبعاً للغير ، كشرك متأخري الجاهلية . وشرك الأسباب ، وهو اسناد التأثير للاسباب العادية ، كشرك الفلاسفة والطبيعيين ومن تبعهم على ذلك . وشرك الأغراض : وهو العمل لغير الله تعالى . (من الشرح) .

أما شرك المجوس : فاعتقادهم أن فعل الخير يجب أن يكون لهُ باعث يباين الباعث على فعل الشرك ، واذا تباينا لم يمكن أن يجتمعا في ذات واحد ، فلزم اثبات الهين : أحدهما يستقل بفعل الخير ، ويسمى : (هرمز) ، والآخر يستقل بفعل الشر ويسمى : (ازداز) ، وأيضاً ففاعل الخير يسمى خيراً ، وفاعل الشر يسمى شريراً .

وأما النصارى فانهم لما رأوا توقف الفعل في الشاهد كنبات الزرع ، ووجود الثمار ، ونحوهما على تعدد المؤثر ، قالوا تعالى الله عن قولهم : الاله مركب من ثلاثة اقانيم : وهي اقنوم الوجود ، واقنوم العلم ، واقنوم الحياة ، وحكموا عليها بأنها آلهة ثلاثة مع أنها صفات ، ثم قالوا : ان مجموع الثلاثة اله واحد ثم زعموا : أن اقنوم العلم منها . ويسمى الكلمة اتحد بناسوت عيسى اي [جسده] فكان الهاً بسبب ذلك .

وأما شرك التقريب فنحو عبادة الجاهلية للملائكة ، والشمس ، والقمر وغير ذلك مما رأوه في أنفسهم انهم أقرب الى الله منهم .

وأما شرك التقليد فامتناعهم عن متابعة الرسول ، بقولهم : ﴿انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون﴾ .

وأما شرك الاسباب العادية ؛ فسببه عمى البصيرة كدوران طبخ الطعام من النار مثلاً ، وستر العورة مع لبس الثوب مثلاً ونحو ذلك مما لا ينحصر انهُ

ليس من فعل المولى تبارك وتعالى .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : ان هذا مما يجوز أن يقال بِهِ ، اذا لم يجرده ان الله ليس هو الخالق لذلك الفعل . ومن كان مذهبه ان الله تعالى خالق كل شيء ، ونسب الأشياء الى أسبابها ، ولم يجردها من أن الله تعالى غير خالق لذلك فلا يكون مشركاً ، وجائز للناس التساهل في ذلك ، فكما ان اضافة أفعال المخلوقين اليهم جائزة ، ولم يكن ذلك بمعنى انهم خلقوها ، فكذلك اضافة التأثير الى الذي وقع باقترانه ذلك الأثر ، يجوز أن يقال : هذا هو المؤثر لهذا كما يقول الطبيب : ان هذا الطعام يؤثر في المعدة كذا وكذا ، وهذا الدواء يزيل العلة الفلانية ، وهذه العلة يشفيها الوسم بالنار ، وهذه الشمس تؤثر في الثمار النضج ، وكيف يحرم القول باضافة الأشياء المؤثرة في الأشياء بتدبير الله ، الى ما أثرته هي في ظاهر الأمر ، ومن المعلوم في الاعتقاد أن لا تأثير الاَّ لله تعالى ؟ وكيف يدري هذا بمن رآه كذلك ؟ قال بلسانه أو أثره في كتبه انهُ قال كذلك على وجه يسعه ، أو على وجه لا يسعه من فلسفي أو مسلم حتى يحكم بقوله انهُ شرك .

والوجه الثاني : أن هذا القول لم يعتقده في الاسلام أحد مذهباً الاَّ المعتزلة ، ولم يخط فيه الاَّ المعتزلي ، وغالب العلماء من غيرهم اذا تكلموا في علم الطب ، لم يكن كلامهم الاَّ على هذا القانون ، ولم ينكر عليهم أحد من العلماء . وكثير في القرآن العظيم ، وفي كلام الرسول الكريم ﷺ اضافة ذلك الى تلك الأشياء . فجميع أفعال العباد اضافة اليهم ومحاسبون عليها ، ومثابون ومعاقبون ، وقال تعالى في الجدار : ﴿يريد أن ينقض فاقامه﴾ فان كان اراد بذلك في اعتقاده في الحقيقة ، لا على المجاز الذي جاز للناس التساهل فيه فالحق كما قاله ، ولكن كثيراً من الناس لا يعرفون تمييز حقيقة من مجاز ، ويجوز لهم التكلم بهذه الاضافات لأن اقرارهم بالجملة : ان الله خالق كل شيء ، كاف لهم ما لم يخطر بباله في الحقيقة ان الله تعالى ، هو المؤثر في الحقيقة أم هذا الذي ظهر منهُ أو بهِ التأثير ، فيعتقد أن الله لم يخلق هذا الأثر وانما كان من هذا الذي ظهر منهُ الأثر ، والبله غالباً لا يقدح فكرهم الى مثل هذا . وقد قال

النبي ﷺ : «أكثر أهل الجنة البله» ، فصح انهُ جائز أن تضاف التأثيرات الى مؤثرها في ظاهر الأمر ، مع الاعتقاد ان الله خالق كل شيء ، وانما لم يجز للمعتزلي الذي اعتقد انهُ لم يخلق الله تعالى افعال العباد ، فيما اعتقد أن الله لم يخلق ذلك التأثير حتى كان منه ذلك الأثر ، فاعرف ذلك .

رجـــع : الى شرحه وفي معنى شرك الأسباب العادية شرك القدرية .

فأما شرك الأغراض : فهو العمل المأمور بهِ من واجب ومندوب وترك محرم ، أو مكروه بغير امتثال أمر مولانا ـ تبارك وتعالى ـ ، بل بمجرد نيل مدح من بعض عبيده أوجب منزلة أو رياسة . قال الشيخ ناصر بن أبي نبهان : مراده عبادة الله ـ تعالى ـ لشيء من ذلك على وجه الرياء للعباد على أي وجه كان قال الله تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ والمراد هنا : هو [الرياء] وهو الشرك الخفي ، وبين النفاق الخفي ، فالشرك الخفي منهما هو : أن تعبد الله تعالى على وجه الرياء بهِ للناس ، والنفاق الخفي : ان يترك عبادة الله اردت أن تعبده بها ، فخجلت من أحد من الناس ، فتركتها خجلاً منهُ رضا لهُ على وجه التعظيم لهُ ، لا على معنى التقية لهُ ، من ضرر تظن أن يكون منهُ بذلك ، أو أذىً وانما لأجل ذلك تعرفه انهُ يجب ترك ذلك ، أو خجلت منهُ لغير عذر فهو نفاق خفي ، ومعي انهُ ان كان ذلك واجباً فعله ، ولا يمكن تأخيره ، وأخره لغير عذر ؛ فهو هالك ان مات مصراً على ذلك ولم يتب ، وان كان مما يسعه تركه فلا يهلك . وقد قال النبي ﷺ : «المنافق بالمؤمن اشبه من الغراب بالغراب ، والماء بالماء ، والنفاق في الناس اخفى من دبيب النملة السوداء ، في الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء والشرك فيهم أخفى من ذلك وادق» . واشارته هذه الى النفاق والشرك الخفي . ومعي ان كل شرك خفي فهو نفاق ، وليس كل نفاق بشرك ؛ لأن كل مؤمن عصى الله تعالى وفسق فهو منافق ؛ لأن اسم النفاق مع أصحابنا يطلق على كل مؤمن فاسق ، ولا يسمى كل فاسق مشركا ، وهذا على خلاف مذهب الجماعة ؛ لأن معهم ان المؤمن الفاسق لا يسمى منافقاً ، بل لا يسمى منافقاً ؛ لأن المنافق بالنفاق الجلي ، وهذا منهم على خلاف ما في

كتبهم عن علمائهم مما رووه ، وصح معهم ذلك عنهم وانهُ عن النبي ﷺ انهُ قال : «ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق ، من اذا حدث كذب ، واذا أؤتمن خان ، واذا عاهد أخلف» .

وقالوا : انهُ كان على مذهبنا من علمائهم في هذه المسألة (الحسن البصري) .

رجع الى قوله في المقدمات وحكم الأربعة : الأول : الكفر باجماع ، وحكم السادس : المعصية من غير كفر باجماع ، وحكم الخامس : التفصيل . فمن قال : الأسباب العادية انها تؤثر بطباعها ، فقد حكى الاجماع على كفره ، ومن قال : انها تؤثر بقوة أودعها الله تعالى فيه ، فهو فاسق مبتدع ، وفي كفره قولان :

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : أراد بالكفر : الشرك ؛ لأن الجماعة وكذلك المعتزلة ، والزيدية ، لا يجوزون اسم الكفر الاَّ على المشرك ، ومراده بتأثير الطبائع الفلاسفة ، ومراده بقوة أودعها الله تعالى في ذلك الفاعل ، وبها كان ذلك . وقد مضى القول في ذلك .

(مسألة) : ومن قال : ان النبي ﷺ ليسه من قريش ، ولكنه من الحبش ، أو ليسه من مكة ، ولكنه من الصين ، أو بلاد الزنج ، أو قال : انهُ لم يمت ولكنه رفع الى السماء ، كما رفع عيسى بن مريم ـ صلوات الله عليهما ـ ، فلا يبلغ بهِ ذلك الى الشرك اذا أقر بإثبات رسالته ، واسمه ، ونسبه ، ولكن يخلع ويبرأ منه . والله أعلم .

(مسألة) : ومن أنكر الرجم وأقر بجميع ما جاء من عند الله ، فلا يبلغ بهِ انكاره ذلك الى الشرك اذا لم يجحد التنزيل ، ولكن يكون منافقاً كافر نعمةٍ . ومن دان بدين القدرية ، أو المرجئة ، أو الأزارقة ، أو الرافضة ، وخطأ من خالفه ، واستحل دم من قال بغير قوله ، فعلى كل من علم ذلك منه ، وعلم الحكم فيه ، البراءة منه . ومن علم بحدثه ولم يعلم الحكم فيه ، فقول : لا يسعه الاَّ البراءة منه ، وقول واسع لهُ حتى تقوم عليه الحجة ،

والحجة جماعة المسلمين الذين ليس لهُ رد قولهم . وان كان حدثه على التحريم منه فوقف عنه واقف فعلم حدثه ، وجهل الحكم فيه ، وسعه الوقوف ؛ حتى تقوم عليه الحجة كما ذكرنا ، وعليه السؤال عن معرفة ما يجب عليه في الحكم ، فان أفتاه فقيه من المسلمين ان راكب ذلك يستحق البراءة ؛ فعليه الحكم . وأما المستحل ، فيبرأ منه من علم ذلك منه ، ولا يسع جهل ضلاله . وقول : يسع الوقوف عنه حتى تقوم الحجة عليه . والله أعلم .

(مسألة) : قال محمد ـ رحمهُ الله ـ : من دعا الى الاسلام وقيل لهُ : من عمل بكذا وكذا فهو مسلم ، ومن عمل بكذا وكذا فهو مسلم ، ومن عمل بكذا وكذا فهو كافر . ومن عمل بكذا وكذا فهو منافق فأقر بذلك في الجملة ، فهو مسلم يتولى ، وقد يكون من المسلمين من لا يعرف ما يكفر بهِ أهل المعاصي حتى يخبر بذلك ، وهو مسلم عند المسلمين . وقال محمد بن محبوب : تجب الولاية على الموافقة للمسلمين ، فيما دانوا بهِ من القول ، والعمل ، والله اعلـــم .

(مسألة) : ومن كتاب الارشاد ؛ ومن شك في السماء ، والارض ، والجبال ، والناس ، والدواب ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، فقال : لا أدري أهي السماء والأرض ، والجبال والناس ، والدواب والشمس ، والقمر والنجوم ، التي ذكرها الله في كتابه أم لا ؟ انهُ لا يكون مشركاً بذلك ، ولا كافراً ، اذا كان مقراً أن الله خلق هذا الذي شك فيه . ومن شك في نبوة الأنبياء بعد علمه ، وبعد قيام الحجة عليه ، فهو مشرك . والله اعلم .

(مسألة) : ومن شك في الكعبة بعد علمه بها ، فهو مشرك ، وأما من لم يعلمها فواسع لهُ جهلها ما لم يحضر وقت الصلاة ، فاذا حضر وقت الصلاة فصلى لغير القبلة ، فلا يسعه جهل ذلك . ومن شك في الجمعة بعد علمه بها ، وقامت عليه الحجة بها كان كافراً . وقال أبو زيادة : انهُ يقتل ، ونحن نقول : انهُ كافر ولا يقتل اذا كان مقراً بصلاة الظهر أربع ركعات . والله أعلم .

(مسألة) : ومن شك في الثواب والعقاب ، والبعث ، والحساب ، والوعد ، والوعيد ، والجنة ، والنار ، بعد قيام الحجة عليه ، من كتاب وحجة المسلمين كفر . ومن شك في فرائض الله التي افترضها على عباده بعد قيام الحجة عليه كفر . والله اعلـــم .

(مسألة) : ومن بعض كتب أهل المغرب ؛ قال أبو الربيع سلمان بن يخلف في كتابه : من أثبت النبوة لغير نبي ، أو الرسالة لغير رسول ، فقد أشرك بالله وقول مشايخنا فيما وجدت في الأثر عنهم : أن من أثبت النبوة لغير نبي ، أو الرسالة لغير رسول ، انهُ كاذب على الله ، منافق بقوله ذلك ، الّا انهُ لم يدفع شيئاً من كتاب الله ، ولا رسوله . فان قال قائل : فما تقولون في مسيلمة الكذاب ؟ قيل لهُ : هو مشرك بدفعه الرسول عليه السلام من الكافة ، حين قال : أنت يا محمد رسول الله ، وأنا رسول ، والأرض بيني وبينك نصفان . فاشرك بدفعه الرسول من الكافة ، فرد الله ـ عزَّ وجل ـ قوله : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً﴾ . فزعم هو : أن محمداً ﷺ ليس برسول الى الكافة ، فأشرك من هذه الجهة ، لا من جهة الكذب ، والله أعلم .

وكذلك من زعم : أن أبا بكر ، وعمر ـ رحمة الله عليهما ـ انهما رسولان على هذا القياس . وأما من نفى النبوة ، أو الرسالة عن نبي فهو مشرك ؛ لأنهُ مكذب لله ، راد عليه مواجهة ، لانهُ أنكر صفة من صفاته ـ عزَّ وجل ـ لانهُ ـ عزَّ وجل ـ موصوف بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، لأن الله يقول : ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ . يقول : ﴿وما عظموا الله حق عظمته﴾ .

(مسألة) : ومن بعض كتب أهل المغرب ، اختلف الناس فيمن أنكر نبياً من الأنبياء ، أو ملكاً من الملائكة ، أو شيئاً من القرآن ، أو فريضة من المنصوصات وما أشبهها من المحرمات ، كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أشبهها ، فحكي عن جهم بن صفوان ، ومن وافقه من المرجئة انهم قالوا :

ان ذلك كله ليس بشرك ولا كفر ، لأن الكفر عنده هو الجهل بالله وحده ، والأيمان هو المعرفة بالله عنده ، ولا الاقرار بالمنصوص ، ولا الايمان بهِ إيماناً ولا كفراً . وقال غيرهم من المرجئة فيما حكي عنهم : ان الانكار لله وما جاء من عنده كفر وشرك . وقال حفص بن ابي المقدات ، وعيسى بن عمير ليس الجحد لشيء من المنصوص ، ولا الأنبياء شركاً . ووافقهما ابن الحسين على مقالتهم هذه ، وزعموا : أن من أنكر ما سوى الله لا شرك . واعلنوا بأن الشرك هو الوصف لله بصفات الخلق ، ووصف المخلوق بصفات الخالق ، وأما غير ذلك فلا .

وقال أصحابنا وسائر الأباضية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم : ان من جحد شيئاً من المنصوص فهو مشرك ، واحتجوا على ذلك من كتاب الله - عزَّ وجل - بقوله تعالى حكاية عن الظان ، والشاك في قيام الساعة : ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً﴾ ، فرد عليه صاحبه فقال : ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾ الى قوله : ﴿ولا أشرك بربي أحدا﴾ . فأخبر انهُ بظنه في قيام الساعة كافر بالله ، ثم نفى ذلك عن نفسه ، فقال : ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ . ثم أخبر الله - تعالى - عن ذلك الكافر : ان كفره كان شركاً فاخبر انهُ قائل : ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ . فألحقهُ الله - تعالى - بشكه في البعث الى الشرك ، وهو انما شك فيها سوى الله ، فكيف من أنكره انكاراً ؟ . فثبت بهذا ان انكاره للبعث انكار لربه ؛ لانهُ موصوف بانهُ باعث من في القبور ، وبانهُ يجيء بالساعة ، وكذلك غير الساعة من جميع المنصوصات ، لانهُ تعالى موصوف بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل فمن أنكر شيئاً من ذلك فهو مشرك ؛ لانهُ إنما أنكر بذلك الصانع جل جلاله . وقال أيضاً في استحلال الميتة : ﴿وان أطعتموهم انكم لمشركون﴾ . فثبت أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى أيضاً فهو مشرك ؛ قياساً على الميتة . وقال تعالى اخباراً عن اليهود والنصارى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الى قوله : ﴿سبحانه عما يشركون﴾ . فاخبر انهم مشركون خلافاً لابن عمير وشيعته الزاعمين أن أهل الكتاب ليسوا بمشركين .

وقد اجتمعت الأمة فيما وجدت ، أن جميع الملل المخالفة للاسلام مشركون ؛ يحكم عليهم باحكام الشرك من القتل ، والسباء ، والغنيمة وأخذ الجزية من أهل العهد منهم ، وغير ذلك من أحكام المشركين . وأجمعوا أيضاً أن هذه الملل ، اذا حاربوا أو نابذوا بدارهم ان دارهم دار شرك ، وان من خرج من دينه راجعاً الى احدى هذه الملل انهُ مرتد ، وأجمعوا أن هذه الملل اذا قوتلوا سبوا ، وغنموا من قبل انهم مشركون . وأجمعوا أن مناكحتهم محرمة لأنهم أهل حرب ، الاّ ما خص الله تعالى من نكاح المحصنات من أهل العهد من أهل الكتاب خصوصاً ، واجتمعت الأمة أن الأسماء تابعة للأحكام . فلما أجمعوا على ما وصفنا ؛ دل ذلك على بطلان قول ابن عمير وشيعته . وبالله التوفيق .

فصــل : ومن رسالة نسبت الى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ـ رحمه الله ـ الى أهل المغرب ، يرد على أصحاب هذه المقالة يقول فيها : فان قال قائل : فكيف يكون الكافر بمحمد ﷺ مع الاقرار بالله بارئاً من التوحيد ، وانما أنكر غير الله ؛ لأن الله ليس بمحمد ومحمد ليس هو الله ؟ قال قائل لهُ : قد نعلم أن الله ليس بمحمد ، ومحمدا ليس هو الله ، لكن إنما يعرف الله حق معرفته بمحمد ، ويعرف محمدا حق معرفته بالله ـ عزَّ وجل ـ فمن أنكر محمداً الذي يعرف الله بهِ ؛ فقد أنكر الله في بعض نعته ، وأسمائه ، ومن أنكر الله الذي يعرف محمد بهِ ، فقد أنكره في نفسه ، واسمه من النبوة أنكر بذلك جميع نعته ، وفيها أيضاً فان قال قائل : ليس الصلاة الى بيت المقدس ، وما نسخ من الأعمال التي كان يعمل بها وهي ايمان ، أفليس الاقرار بها ايمان في تلك الحال وانكارها شرك ؟ يقال لهم في تلك الحالة : نعم . فإن قالوا : أوليس قد نسخت اليوم ، وصار الاقرار بها ايمان اليوم على تلك الحال شركاً كما لو أقروا بها يومئذٍ على حالها اليوم كانت شركاً ؟ قيل لهم : نعم .

فان قالوا : قد تبدلت اذاً خصال الشرك ، وتبدل التوحيد الذي عرف بالاقرار ، يقال لهم : ليس الشرك يتبدل ولا التوحيد ؛ انما يتبدل العمل ولا يتبدل الاقرار ؛ لأن الاقرار في كل حال ايمان وتوحيد ، وانما التبديل من جعل

الاقرار في حال ايمان هو الانكار ، فمن جعل الاقرار تنزيل الله انكاراً ، أو جعل الانكار بهِ اقراراً ، فقد بدل الشرك توحيداً ، والتوحيد شركاً ، كما انهُ لو جعل ثالث ثلاثة توحيداً ، وجعل التوحيد ثالث ثلاثة ، وأشباه هذا من الشرك فهذا هو التبديل ، فمن حيث لا يبدل ثالث ثلاثة ، ويكون توحيداً ، والتوحيد لا يكون ثالث ثلاثة ، فكذلك لا يكون الاقرار إنكاراً ، والانكار اقراراً ، وهي خصال الشرك لا تبدل أبداً ، وبالله التوفيق .

(مسألة) : ومن كتاب عن قومنا من أهل المذاهب الأربعة : قال الشيخ ولعله (النسفي) : ولا يبلغ ولي درجة الأنبياء ، ولا يصل العبد ما دام بالغاً عاقلاً الى حيث يسقط عنهُ الأمر والنهي . (من الشرح) وذهب بعض : أن العبد اذا بلغ الى غاية المحبة وصفا قلبه ، تسقط عنه العبادات الظاهرة ، وتكون عبادته التفكر . وهذا كفر وضلال . وقال الشيخ : والنصوص من الكتاب والسنة تحمل على ظواهرها ما لم يصرف عنه دليل قطعي ، والعدول عنه الحاد ، ورد النصوص كفر . والاستهانة بها كفر ، والاستهزاء على الشريعة كفر . وتصديق الكاهن بما يخبر بهِ من علم الغيب كفر . [من الشرح] ؛ لأن ذلك من إمارات التكذيب ، وعلى هذه الأصول يتفرع ما ذكره في الفتاوى انهُ اذا اعتقد الحرام حلالاً ، فان كانت حرمته لعينه وقد ثبت دليل قطعي فيكفر ، والاّ فلا بأن تكون حرمته لغيره أو ثبت بدليل ظني ، وبعضهم لم يفرق بين حرمته لعينه ، وبين حرمته لغيره ، فقال : من استحل حراماً وقد علم في دين النبي ﷺ تحريمه كنكاح ذوي المحارم أو شرب الخمر ، أو أكل الميتة ، أو شرب الدماء ، أو أكل لحم خنزير من غير ضرورة فهو كافر . وفعل هذه الأشياء بدون الاستحلال فسق ، ومن استحل شرب النبيذ الى ان يسكر كفر ، ولو تمنى ألا يكون الخمر حراماً ، ولا يكون صوم شهر رمضان فرضاً لما يشق عليه لا يكفر بخلاف اذا تمنى أن لا يحرم الزنى ، وقتل النفس بغير الحق ، فانهُ يكفر لأن حرمة هذا ثابتة في جميع الأديان موافقة للحكمة ، ومن اراد الخروج عن الحكمة ؛ فقد أراد أن يحكم الله تعالى ما ليس بحكمه ، وهذا جهل منهُ بربه .

ومن أنكر وعده ووعيده يكفر ، وكذا من ضحك على وجه الرضا ممن تكلم بالكفر ، وكذا لو جلس على مكان مرتفع وحوله جماعة يسألونهُ مسائل ويضحكون ويضربونهُ بالوسائد يكفرون جميعاً . وكذا لو قال : عند شرب الخمر (بسم الله) ، وكذا لو صلى بغير القبلة أو بغير طهارة متعمداً يكفر ، وان وافق ذلك القبلة والاياس من رحمة الله كفر . والأمن من الله كفر . وبهذا يظهر عما قيل : ان المعتزلي اذا ارتكب كبيرة يلزم أن يصير كافراً لإياسه من رحمة الله ، ولاعتقاده انهُ ليس بمؤمن ، وذلك لانا لا نسلم ان اعتقاد استحقاقه النار يستلزم اليأس ، وأن اعتقاد عدم ايمانه المفسر بمجموع التصديق ، والاقرار ، والأعمال ، بناء على انتفاء الأعمال ، يوجب الكفر .

هذا والجمع بين قولهم : لا يكفر أحد من أهل القبلة ، وقوله : يكفر من قال بخلق القرآن ، أو استحالة الرؤية ، أو سب الشيخين ، أو لعنهما ، وأمثال ذلك مشكل . قال : والكاهن هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان . وقال ﷺ : «من أتى كاهناً فصدقهُ بما يقول فقد كفر» . والمنجم اذا ادعى العلم بالحوادث الآتية ، فهو مثل الكاهن .

وبالجملة : أن علم الغيب تفرد بهِ الباري ـ سبحانهُ وتعالى ـ ولا سبيل اليه للعباد الاَّ باعلام منه ، والهام بطريق المعجزة ، والكرامة ، أو ارشاد الى الاستدلال بالامارات فيما يمكن ذلك فيه . قال الشيخ العالم ناصر بن ابي نبهان الأباضي : أراد بالكفر في هذا الفصل الشرك ؛ اذ معه لا يجوز اطلاق اسم الكفر الا على الشرك واسم الكافر الاَّ على المشرك . وأصل قاعدته أولاً صحيحة ، ان ما كان على معنى التكذيب للتنزيل أو للرسول فهو الشرك كمن أنكر فرض الصلاة المكتوبة ، أو فرض صيام شهر رمضان ، أو فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ، وما أشبه ذلك ، أو أنكر فرضاً أوجبته السنة ، وقامت الحجة بصحته ، ولكنه خلط وناقض كلامه بعضه ببعض ، ومع أصحابنا كذلك في بعض أقوالهم . وفي قول : حتى يقرأ عليه آية من التنزيل ، التي فيها حكم ذلك الذي أنكره ، فاذا أنكره بعد ذلك بغير تأويل ؛ فقد

ذات البروج﴾ . ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ . ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ . ﴿ولا أقسم بالخنس الجواري الكنس﴾ . ففي هذه الآيات علم الفلك كله ولو حرم علم الفلك ؛ حرم علم الرمل ، ولو حرما حرم علم الطب ؛ لانهُ مثلهما في ظاهر الأمر يقول على الغيب : ان هذا العقار ، وهذا العقار ، يزيلان العلة الفلانية وهذا من علم الغيب في الظاهر ، فان عرفه بالعادة فكذلك دلالات الفلك والرمل بالعادة التي علمهم الله تعالى إياها ، فلم يختلف وإنما تختلف معرفتهم بذلك في القوة ، والضعف ، والاَّ فالفلك علم محكم ، ومعجزة نبي ، وهو النبي ادريس عليه السلام .

وكذلك الرمل ، وكان والدي أبو نبهان ينكر نفع علم الرمل ، وعلم الفلك ، واحتج بحجة محجوج بها انهُ أقصى ما يخبر صاحب الفلك والرمل بما هو آت ، وما هو آت ان عرفه قبل أن يأتي أو جهله مع انهُ على غير حقيقة بمعرفته ، والحجة في ذلك عليه لا له ؛ لأن علم الرؤ ية هو هو علم عظمة الله تعالى ، وعظمة النبي ﷺ ، وقال ﷺ : «الرؤ ية الصادقة جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الوحي» . وأقصى ما فيها أن يعرف الشيء الذي سيأتي ، وما هو آت كذلك عرفه ، أو لم يعرفه ، مع أن علم الفلك وعلم الرمل فيهما منافع ، غير هذه من اظهار افلاج ، وانهار ينتفع بها ، وموارد من باطن الارض ، وموارد ظاهرة في الارض ، يصيب المرء العطش حتى يقارب الهلاك فيدلهم على الموارد ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً ، الى غير ذلك مما لا يحصى ، وذلك في بدء دخوله في العلم ، فلما توغل في كل علم عرف أن علوم الله كلها شريفة ، والف وصنف في علم الفلك كتباً ، مع العلم الحرفي والاوفاق ، وقال : ان هذا العلم مرتبط بعلم الفلك ارتباطاً كلياً ؛ فصح أن هذا ليس من علم الغيب ؛ بل هو علم علمهُ الله من يشاء من عباده . ومن جهل شيئاً أنكره ، ولذلك قال النبي ﷺ : «خذ من كل علم أحسنه فإن علمك بالشيء خير من جهلك بهِ» وبالجملة ؛ اذا ثبت أن علم الفلك والرمل من علم الغيب ، وانهُ محرم القول بدلالاته ، ثبت أن علم الطب من علم الغيب ؛ وانهُ مثله محرم القول بدلالاته ، وبطل من قال ذلك لقوله ﷺ :

«العلم علمان علم أديان وعلم أبدان» ؛ أراد انهما هما أشرف العلوم ، وأما قوله راوياً عن الجماعة أصحابه ، وقوله يكفر من قال بخلق القرآن ، أو استحالة الرؤ ية أو سب الشيخين ، أو لعنهما أو أمثال ذلك مشكل .

فاما تكفير من قال بخلق القرآن ، فقول الشافعي ، وأما ما ذكره بعد ؛ فلم أجده عمن قال ذلك ، وهذه حجة عليه في تكفير فساق المسلمين كفر نعمة ؛ لانهُ من المعلوم أن سب أبي بكر ، وعمر ليس شركا ؛ لأن الشيع يسبونهما ولم يجر أحد من أهل المذاهب أحكامهم أحكام المشركين ، وكذلك من قال باستحالة الرؤ ية انهُ كافر ، وجميع أهل مذاهب الاسلام يقولون باستحالتها ما خلا الجماعة ، ولم يجروا عليهم أحكام الشرك بتكفير علمائهم الأوائل حجة عليهم في جوازه لفساق المؤمنين تكفير كفر نعمة ، وهذا مما يدل على مناقضة مذهبهم بعضه بعضاً ، ومن العجب انك لا تجدهم قد خالفوا الحق بشيء ، الاَّ ومعهم ما ينقض عليهم ضلالهم من الحق ، عن علمائهم الأوائل مما خطأوا بهِ من قال بهِ من خالفهم في غير ذلك ، وفي ذلك في مذهبهم وكفى بذلك معرفة ، على أن الحق مع غيرهم في ذلك . وبالله التوفيق .

الباب السابع

في قيام الحجة بما يسمعه من القرآن ، وفيما يشرك بهِ في الراد لشيء من القرآن أو سنة الرسول عليه السلام

عن الشيخ سعيد بن بشير الصبحي : ومن يقرأ القرآن ويمر على آيات التوحيد ، والوعد والوعيد ، والفرائض اللازمة في الأبدان ، والأموال ، من الأفعال والأقوال ، ولم يفهم معناه ولا المراد بهِ ؛ أهو معذور وسالم ومؤمن ، ولا شيء عليه من قبل ذلك ؟ .

الجواب : اذا لم يشك في الجملة ، أو يرد شيئاً من كتاب الله ، فواسع لهُ قبل قيام الحجة عليه ، فان قامت عليه الحجة بعلم ذلك فشك فيه ؛ فأكثر ما جاء في آثارهم التضييق ، وبعض يرى لهُ السعة ما لم يعلم بنفسه ، أو يرده ، أو يترك ولاية المحقين ، أو يبرأ منهم . والحجة من الواحد فصاعداً الى ما لا حد لهُ ، ما لم يتعبد بأدائه ، والله أعلم .

وقال في جوابها الشيخ ناصر بن خميس بن علي : الجواب : ـ وبالله التوفيق ـ لا شيء عليه اذا لم يبلغ علمه الى ذلك ، ولم تقم عليه بهِ الحجة بمعرفة ذلك ، ولم يضيع في ذلك لازماً ، ولم يركب محرما فيها عندنا ، والله أعلم .

(مسألة) : ومنهُ : وما صفة قيام الحجة بالقرآن على من سمعه يتلى ، أهو سماعه لهُ أم حتى يخطر بباله أن هذا هو القرآن ، أم حتى يذكر لهُ أن هذا هو القرآن ؟ عرفني سيدي صفة قيام الحجة بذلك التي لا عذر بعدها . الجواب : قال أبو محمد : من سمع الآية والآيتين لم يكفر بشكه حتى تقوم الحجة بشاهدين ، ولا يعذر بما فوق ذلك .

(مسألة) : ومنهُ : ومن سمع القرآن يتلى ولم يفهمه ولا يعرف معناه ، ولا يميزه من كلام المخلوقين ؛ أهذا قد قامت عليه الحجة بهِ ويهلك بجهله لهُ ؟ أم كيف صفة قيام الحجة بهِ ؟ قال : لا يهلك بذلك حتى تقوم عليه الحجة من عقله أو معبر ، ومعنى ذلك موجود في كتاب (المعتبر) .

(مسألة) : ومنهُ : وقوله تعالى : ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ . هذا حكاية عن البعث ، أم قد فعل ذلك في دار الدنيا ، وما يلزم الشاك في ذلك ؟ فنعم ؛ قد فعل بهم ذلك في الدنيا ، ويلزم الشاك اليقين . وقوله تعالى : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾ ، أهذه توبة أم لا ؟ فنعم ؛ توبة ولا يسع الشك فيهما بعد العلم .

(مسألة) : من كتاب (التقييد) الذي عن أبي القاسم سعيد بن عبدالله وجدته على أثر سؤال عن أبي مالك فالله أعلم أهو عن أبي القاسم ، أو أبي مالك ؟ وسألته عمن آمن بالأنبياء صلوات الله عليهم في الجملة ، ثم يُذكَر واحد منهم فيشك فيهِ ولم يعلم انهُ نبي ، ايسعه ذلك ؟ قال : نعم ؛ اذا كان يؤمن بجميع الأنبياء . قلتُ فمن آمن بالقرآن ، ثم سمع آية تتلى وتذكر مقرواً فجهل شيئاً منهُ هل يسع جهله ؟ قال : لا ، اذا شك بعد أن يسمع ثلاث آيات بنظمهنَّ . قلت : فما الفرق بينهما ؟ قال : لأن الأنبياء ليس على أسمائهم أدلة تقطع العذر ، والقرآن نفس تلاوته تقطع عذر من سمعه بصحته ؛ لأن نظمه معجز مع ما يتضمنه من المعاني والأخبار عن الغيوب .

(مسألة) : ومن كتاب (الارشاد) : ومن شك في القرآن بعد أن سمعه ، أو تلي عليه ، فقد كفر . وأما من آمن بالله ورسله والقرآن ، وسمع بآية لم يكن علم بها انها من القرآن ، فشك فيها ، لم يكفر حتى تقوم عليه الحجة انها من القرآن ، فان شك فيها بعد قيام الحجة عليه كفر . ومن شك في سورة من القرآن أو ثلاث آيات ، لم يعذر بذلك ، لأن نظم القرآن معجز . وقول : حتى يشك في ثلاث آيات لأن أقل سورة من سور القرآن ثلاث آيات والله أعلم .

(مسألة) : والقرآن حجة على من تلي عليه ، ولو كان التالي لهُ صبياً ، أو ذمياً ، الاَّ أن الشيخ أبا محمد ـ رحمه الله ـ قال : حتى يسمع ثلاث آيات على قول ، وعلى قول : ان كانت منتظمة بنظم يخرج من كلام الناس من الآيات المنتظمات ، مثل قوله تعالى : ﴿أقم الصلوٰة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر﴾ (الآية) ، وأما قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أقيموا الصلوٰة﴾ ، فلا يكون حجة والله أعلم .

(مسألة) : قال أبو محمد : من شك في القرآن ، أو في ثلاث آيات منهُ ، يستتاب من ذلك ، فان تاب والاَّ قتل . وقال أبو معاوية : من شك في النبي ﷺ ، أو في القرآن ، أو في التوحيد ؛ فانهُ مشرك يقتل ان لم يتب . وروي عن رسول الله ﷺ ، انهُ قال : «من بلغته آية من القرآن ، فقد بلغه أمر الله كله قبله أو رده﴾ . وقال الشيخ أبو عمار ـ رضي الله عنهُ ـ الناقض للاجماع كالناقض للسنة ، والناقض للسنة كالناقض للتنزيل ، ومن رد شيئاً فقد نقضيه ، ومن نقض شيئاً فقد رده والله أعلم .

(مسألة) : ومن بعض كتب أهل المغرب : ومن دفع القرآن جملة فهو مشرك ، ولا يسع جهل كفره ، ولا جهل من شك في كفره ، وكذلك من دفع جملة الملائكة أو جملة الأنبياء ، واما من دفع حرفاً من كتاب الله ، أو ملكاً من الملائكة ، أو نبياً من الأنبياء ، فهو مشرك . والشاك في شركه مسلم اذا لم يعلم ما دفع ، الاَّ أن يكون دفع بنبينا محمد ﷺ أو أبينا آدم عليه السلام فلا يسع السامع الاَّ أن يشركه ، وأما ان قال : هذا نبي أنكرته فهو مشرك ، والشاك في شركه مشرك . وكذلك الحرف من القرآن ، والملك من الملائكة على هذا الحال . وكذلك من جهل معرفة محمد انهُ خاتم النبيين ، انهُ مشرك فيما روي عن ابي أيوب التمنكربي . وكذلك من لم يفرز بين كبائر الشرك ، وكبائر النفاق فهو كافر ، والشاك في كفره كافر، وفي بعض آثار أصحابنا ؛ سألت أبا معاوية : فيمن شك في رسول الله ﷺ من بعد علمه بهِ ؛ قال : هو مشرك يقتل ان لم يتب . وقلت فيمن شك في القرآن من بعد علمه بهِ فقال : لا أدري أهذا

القرآن انزله الله ام لا ؟ قال : هو مشرك يقتل ان لم يتب . وكذلك فيمن شك في آية من القرآن بعد علمه بها ، فهو مشرك يقتل ان لم يتب ، وأما اذا شك في آية من القرآن وهو مؤمن بالقرآن ، الا انهُ قال هذه الآية لا أدري أهي من القرآن أم لا ؟ ولو علمها قبل ذلك فلا يكون مشركاً ، حتى تقوم عليه الحجة ، فاذا شك بعد قيام الحجة عليه بها ؛ فهو مشرك ، يقتل ان لم يتب . وكذلك الكعبة على هذا الحال ، وسائر هذه المسائل ستأتي في موضعها إن شاء الله .

(مسألة) : من كتاب (الارشاد) قال ابو عبدالله : من تأول القرآن أو شيئاً منهُ على غير تأويله لم يكن مشركاً وكان كافر نعمة . وان شك في آية من القرآن بعد علمه بها ، فهو مشرك يقتل ان لم يتب . وأما من شك في آية من القرآن ، لم يكن علمها انها من القرآن ، الا انهُ شاك في هذه الآية لا يدري أهي من القرآن أم من غير القرآن ؟ فانهُ لا يكون بذلك مشركاً حتى تقوم عليه الحجة ، فانهُ يكون مشركاً يقتل ان لم يتب والله أعلم .

(مسألة) : عن الشيخ سعيد بن بشير الصبحي ، وعما يوجد في النعمة نظماً فيمن قال : ان لله صفات كالبشر ، وعلى العرش استقر ، وانهُ يدرك بالبصر ، وينزل في ليلة النصف من الشهر الأغر ؛ فهو مشرك ليس هذا متأولاً . وما قيل : ان الناس اختلفوا في تشريك أهل التشبيه ، فما هذا الاختلاف أهو بدين أو رأي ؟ وهل يسوغ الرأي في هذا ؟ عرفني اعتقاد أهل الاستقامة ودينهم في هذا وصرح لي ذلك . الجواب : فاعلم شيخنا : اني وجدت في [المعتبر] ، فيمن نفى القدر ، وشبه الله بلا علم وأثر بالجوارح والصور ، فانهُ كافر نعمة ، ولا يسمى مشركاً . وأحسب اني وجدت في بعض الآثار من قال : ان لله يداً ورجلاً انهُ مشرك ، ولعله قيل هذا وهذا .

(مسألة) : عن الشيخ ناصر بن خميس بن علي ، فيمن قال بهذه المقالة التي في هذه الارجوزة ، أليس هو متأولاً ويكون كافر نعمة ولا يكون مشركاً ؟ وهل في هذا اختلاف بين علماء المسلمين بالرأي ؟ وهو يسوغ في هذا (رايٌ)

أليس المسلمون قد خطأوا من سمى أهل القبلة بالشرك واستحل سباءهم وغنيمة أموالهم ولا تقع التخطئة الاَّ في موضع الدين ؟ ففسِّر لي ـ سيدي ـ هذه المعاني ، واشرح لي فيها دين المسلمين الصالحين . الجواب ـ وبالله التوفيق ـ : ان هذا متأول تأويل الضلال ، والمتأول لهُ الدائن بهِ لا يكفر كفر شرك ، بل يكفر كفر نعمة ، ولا نعلم بين فقهاء المسلمين أهل الاستقامة في الدين في هذا اختلافاً . والله أعلم .

(مسألة) : من الاثر وقيل : من شبه الله تعالى فهو منافق وليس بمشرك ، كذا رفع عن ابي عبيدة ومحبوب ـ رحمهما الله ـ ، وقال محمد بن محبوب ـ رحمهُ الله ـ : من قال : ان لله يداً كيد المخلوقين فقد أشرك ؛ وإنما لم نلحقهم بالشرك ؛ لأنهم تأولوا آيات الله ـ عزَّ وجل ـ على غير تأويلها ، في اجتهاد منهم على أن يوافقوا العدل فيها ،وهم مصدقون بتنزيل ما جهلوا ، متمسكون بما عرفوا ، طالبون لما لم يعرفوا . والله أعلم .

(مسألة) : عن الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي : ما تقول شيخنا : فيمن زعم أن الله يدرك بالحواس في الدنيا والآخرة هل يصير بذلك مشركاً أم لا ؟ وهل فرق بين الدنيا والآخرة ؟ الجواب : هذا قول اتباع الأئمة الأربعة ، ولم يصيروا في الحكم مشركين لانهم يقولون يدرك بالحواس بلا كيفية ، أي ليس لذلك الادراك كيفية ، واذا كان لا كيفية لم يكن هنالك ادراك . وأما ان الله تعالى يدرك بالحواس ، أي تعرف صفاته من طريق تدبيره للحواس ، وليس المراد بهِ ادراك الذات ، فهو حق ولكن لا تختص الحواس بذلك دون ما بقي من المخلوقات ، ولا فرق بين الدنيا والآخرة ، فتوحيد الله لا يختلف ، فلا يجوز أن يجوز شيء في الآخرة ولا يجوز في الدنيا في وصفه تعالى ، ولكن الفرق بين الدنيا والآخرة ، ان أكثر العباد في الدنيا في غفلة عن ذكر الله تعالى ، وفي الآخرة لم يزل القلب حاضراً مع الله تعالى بجميع صفاته التي يعرفها بهِ في الدنيا ، فهذه الرؤ ية القوية أي قوية الحضور مع الله تعالى بصفاته هي رؤ ية الله في الآخرة ، وضعف حضور القلب مع الله في الدنيا بصفاته هي رؤ ية الدنيا ، وهذا هو الفرق بين الرؤ يتين .

وأما رؤية الذات ببصر العين ، فلا يجوز في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ومن قال بجوازها في الآخرة فهو معنا كافر ، هالك ، ملعون ، ولا ينفعه اعتقاد سؤال ؛ لأن ذلك مما تقوم بهِ الحجة من العقل ، وقد أطلنا القول في هذه المسألة في كتابنا (الحق اليقين) .

(مسألة) : ومنه ووجدت سيدي في كتاب من كتب أهل المغرب ، أن من قال : الله جسم لا كالأجسام ، فمشائخ الجبل يقولون : هو منافق متأول ، ويقول : اليد والوجه انما يكونان على الجسد . وأما مشائخ أهل افريقية يقولون : انهُ مشرك ، فما تقول في هذا ؟ وما يعجبك ؟ وما ترى فيه ؟ عرفنا الحق -يرحمك الله- الجواب : أما أنا فأرى : انهُ منافق متأول ؛ لانه قال : هو جسم ولكن نفى عنه الشبه بالأجسام المخلوقة ، فقال : ليس كالأجسام ، فلا يكون بهذا مشركاً يحرم تزويجه بالمسلمات ، ويحرم أن يتزوج منه المسلمون ، ويحكم بنجاسته ، بل هو ضال كافر ، لا كفر جحود ، ومن قال بغير هذا انهُ مشرك ، لم أقل بقوله ، ولا أجيز لنفسي أن أخطئه في دينه ، ولو قال : هو جسم مطلقاً ، لكان مشركاً . والله أعلم .

(مسألة) : من بعض كتب أهل المغرب : ومن قال : ان الله ليس بموجود؛ فهو مشرك ، ومن قال : ان الله ينزل فهو متأول ، وأما ان وصفه بالصعود ؛ فهو مشرك ، ومن وصفه بالجوارح وزعم انهُ كجوارح الانسان . فهو مشرك ، وان قال : لله وجه أو يد ولم يقل كوجه الانسان فهو متأول منافق ، وان قال لله جسم فهو مشرك ، ومن قال الله نور لا كالأنوار فهو منافق متأول ، وان قال الله جسم لا كالأجسام ففيه اختلاف بين مشائخ الجبل ، ومشائخ افريقية فيما وجدت في الأثر عنهم ، فمشائخ الجبل يقولون : هو منافق متأول يقول في خطابه : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ . ﴿ويبقى وجه ربك﴾ . والوجه واليد انما يكونان على الجسد ففسقوه ، وكفروه كفر نفاق بتأويله .

وأما مشائخ افريقية فيما وجدت عنهم انهُ مشرك . ومن زعم : ان الله يغفل ، أو ينام ، أو يتحرك ، أو يسكن ، فبالجملة من وصفه بشيء من

صفات الخلق مما ليس لهُ تأويل ؛ فهو مشرك . وكلما كان لهُ فيه تأويل يحجزه عن الشرك فهو منافق متأول ، مثل من قال : ان الله لم يخلق حركة الاكتساب ، أو قال : ان الله يرى يوم القيامة ، أو قال : لم يخلق القرآن .

وأما من وصفه بالحركة ، والسكون ، أو باللحم ، أو الدم ، أو يدرك بالحواس غير حاسية البصر في الآخرة أو زعم انه : الهان اثنان فليس لهُ تأويل يحجزه غن الشرك ، وان تأول قول الله تعالى : ﴿نحن نزلنا وأرسلنا﴾ ، وما كان مثل هذا ، فتأول أن لهذا الخلق خالقين ؛ فليس لهُ تأويل يحجزه عن الشرك فهذا ما لا اختلاف فيه ؛ لانهُ ليس بمتأول حين انكر بعض ما بِهِ أقرّ ؛ لأن الله يقول : ﴿انما الله اله واحد﴾ ، وكذلك من زعم ان لله صورة مثل صورة الانسان فهو مشرك ، راد للمنصوص : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ . وصلى الله على سيدنا محمد .

(مسألة) : عن الشيخ سعيد بن بشير الصبحي عن تفسير (الموجود) : ان من شك في قول رسول الله فهو مشرك ، وكثير يوجد مروي عنه ، ولم يقع في القلب تصديقه ، ويشك فيه فما معنى هذا ؟ الجواب : ـ وبالله التوفيق ـ ؛ جعلك الله حجته التامة ، ودعوته العامة ، اذ احلك منزلة أنبيائه ورسله ، وأهل الاستقامة على طاعة الله ، وان كلما صح وثبت عن رسول الله فلا يجوز رده ، ولا الشك فيه بعد قيام الحجة بِهِ ، وفاعل ذلك مشرك بعد صحته انهُ عنهُ ، ولا كان للراد ولا الشاك عذر .

(مسألة) : عن الشيخ عدي بن سليمان الذهلي ، وعما يوجد في كتاب الاستقامة : من شك في قول رسول الله فهو مشرك ، فما صفة هذا وما تفسيره اذ يوجد روايات تروى عنهُ وشك فيها القلب ولم يقبلها ؟ فسر لنا هذا ـ يرحمك الله ـ .

الجواب : ـ وبالله التوفيق ـ ، فالذي وجدته في بعض جوابات أشياخنا المتأخرين : أن هذا المعنى يكون في الصحيح الثابت منها دون ما لم يصح ، وقد

يروى عنه الصحيح ، وغير الصحيح ، ولا يلحق الشرك الاَّ في رد الصحيح المجتمع عليه ، فهذا لا يجوز رده ولا الشك فيه بعد قيام الحجة عليه ؛ فمن رده أو شك فيه كان مشركاً ، ومن تأول فيه تأويل ضلال كان منافقا ، ومن أصل المذهب ألا ترد الروايات ولا الأخبار ، ولا الآثار من غير علم ، ولا اعتبار . والله أعلم .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي في جواب هاتين المسألتين المتقدمتين : الجواب : لا بد من رد الروايات الصريح باطلها ، ولولا ذلك كذلك ؛ لما افترقت الأمة وتبرأت كل فرقة من الأخرى ، وكل منهم يروي روايات عن النبي ﷺ في مذهبِهِ ، وهي روايات باطلة وقد قال النبي ﷺ : «ما روي عني وهو حق فهو عني قلته أو لم أقله» وذلك صحيح ؛ ان الحق منه قال ذلك أو لم يقل بهِ ؛ لأن أصل الحق منه ، وهو الشارع بهِ ، فكل حق فلا يخلو اما انهُ عنه بالنص ، أو عنه بالتأويل من التنزيل ، أو من الروايات والمراد بذلك ما كان من أمر الشرع لا بقية العلوم . وقال : «وما روي عني من الباطل فليسه مني» ، فكيف لا يرد الباطل عن رسول الله ﷺ ، ومن لم يجز رد الباطل عن النبي ﷺ فهو الضال المبطل .

وأما قول علمائنا لا ترد الروايات ؛ فالمراد بذلك الخصوص لا العموم ، وان ورد عنهم بلفظ العموم ؛ فليس كل العلماء كلامهم على قانون واحد ، والمعنى فيما لا يصح باطله ، واحتمل حقه بوجه من التأويل ، ولكن لم تقم الحجة بصحته ، حتى يلزم العمل بهِ فيما لم يأت في الشريعة دليل على صحته ولا على باطله ، فهذا الذي لا يرد ولا يعمل بهِ ، وما دلت الشريعة بالشهرة ، والتواتر على صحته ، أو قامت الحجة بصحته فهو حجة ، ولا يجوز انكاره . ومن أنكره فهو ضال مثل ما روي عنه ﷺ ، «انهُ : نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع ، ومخلب من الطير» ، وصح عنه بالاجماع ذلك ، فلا يجوز رده . وأما انهُ من رد قول النبي ﷺ هو مشرك ، فلا يشرك بالشك في الروايات عنه انهُ قال ذلك النبي ﷺ أو لم يقل ، وانما يشرك ان النبي صادق

فيما جاء بهِ عن الله من الشريعة ، أو غير صادق ، أو حق ما قاله أو باطل ، مثلاً ان شك أن النبي ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع ، أو مخلب من الطير ، أو لم ينه فلا يكون مشركاً بذلك ، وانما يشرك اذا شك أن نهي النبي ﷺ عن هذا هو محق فيهِ أم مبطل ، ونهيه عن ذلك هو حق منهُ ينهيه ، أو هو باطل منهُ في نهيه عن ذلك ، فافهم الفرق بين ذلك . وبالله التوفيق .

(مسألة) : عن الشيخ حبيب بن سالم البوسعيدي النزوي ، فيمن دفع حرفاً من القرآن جهلاً منهُ ، أو بعد العلم أكافر هو أم لا ؟ وإن كان كافراً فالشاك في كفره كافر مثله أم لا ؟

الجواب : ان من دفع حرفاً من القرآن بعد ان صح معه انهُ من القرآن فهو كافر جهل أو علم ، وكذلك من شك فيه فهو كافر لا ان هذا الشاك يكفر كفر نعمة . والله أعلم .

(مسألة) : وفيمن قال : لا أدري محمداً ﷺ خاتم النبيين هو أم لا ؟ أو قال : لا علم لي بموته ، أو قال : لا علم لي بموته ولا أدريه حياً أم لا ؟ كان هذا في أرض أهل التوحيد ، أو في أرض تبلغه الحجة فيها بمحمداً ﷺ ، وبما جاء بهِ محمد ، أهو من المشركين أم لا ؟ وهل يسعه جهل هذا بعد قيام الحجة بهِ عليه ؟ وان كان مشركاً فالشاك في كفره مشرك مثله أم لا ؟

الجواب : أما من شك أو جحد أن محمداً خاتم النبيين ، فهو مشرك بعد قيام الحجة عليه ، وأما من شك في موته فهو منافق كافر كفر نعمة ، والله أعلم .

وفيمن قال لا أدري ان جبرائيل من نسل آدم هو أم غير ذلك ، أشرك هو أم لا ؟ الجواب : اذا شك في ذلك بعد قيام الحجة عليه فهو منافق لا مشرك . والله أعلم .

(مسألة) : ومنهُ : وفيمن قال : ان عيسى ليس نبياً ، أو قال : ان

موسى ليس بنبي ، أوما أشبه هذا من جحد النبي وآمن بمحمد ﷺ ، وبما جاء بهِ وصدق برسالته ؟

الجواب : اذا جحد هذا الجاحد بعد قيام الحجة عليه بموسى بن عمران الذي نطق بهِ القرآن ، وانزلت عليهِ التوراة ، وكذلك عيسى بن مريم الذي نطق بهِ القرآن ، وارسل بالانجيل ؛ فهو مشرك والله أعلم . وان زعم هذا فقال : ان ما سوى محمد عليهِ السلام ليس برسول ، ولا نبي ، ولم يخطىء من قال بخلاف قوله يسعهُ ذلك أم لا يسعهُ ذلك ؟ وقد كفر وأشرك بذلك ، والله أعلم .

فصـــل : ومن بعض كتب أهل المغرب من أصحابنا .

ويقال : الله لا يرى ، ولا يسمع ، ولا يلمس ، ولا يشم ، ولا يذاق ، فمن جوّز هذا فقد أشرك ، الاّ في حاسة البصر في الآخرة . من قال : يرى في الآخرة هكذا ولم يصفه بصفة الخلق ، أو يشبته لوناً من الألوان . وأما غير البصر من الحواس ، فمن زعم : انهُ يدرك بها ، فلا نعلم لهُ تأويلاً بحجزه عن الشرك اذا قال . ادركته بها ، أوقال : يدركه بها أوجاز عليه أن يدرك بها ، أو شك في ذلك ، فهو مشرك كما قدمنا ـ تعالى الله ـ عن ذلك علواً كبيراً . ويقال تعالى عن هذا وجل عن هذا ، وحاش لهُ ان يكون هكذا ، ويقال ايضاً لا يليق بهِ هذا ، ولا يليق لهُ هذا . وهذا كله تنزيه لهُ ، ولا يجوز لهُ ان يقال : لا يحل لهُ هذا ولا يسعه هذا ، ولا هذا حرام عليه أو يسعه هذا ، ويقال : يستحيي أن يعذب اولياءَه وأنبياءَه ، وان يثيب اعداءه واهل الكفر بهِ ، والعصيان لهُ ، ولا يستحي أن يحرم دماء أوليائه وأهل طاعته ، ويعذب أهل معصيته قال الله تعالى : ﴿ان الله لا يستحي أن يضرب مثلاً﴾ (الآية) . ﴿والله لا يستحي من الحق﴾ . والاستحياء التعالي ولا يقال : يتعالى عما يوصف بهِ ، وانما يتعالى عن الصفات المذمومة ، وعما لا يليق بهِ . والله أعلم وأحكم .

(**مسألة**) : وكل ما يخطر على القلب من الوسوسة بجميع الصفات ، فالله ـ عزَّ وجل ـ بخلاف ذلك لأن الله ـ تعالى ـ لا يدرك بعقل ولا تفكير ، وانما يعرف بآياته الدالة على وحدانيته ، فكل ما وردت على القلب صفة من صفات الله تعالى ، فعليه ان يصفه بصفته ، وينفي عنه صفات مخلوقاته ، سواء ورد ذلك في الصلاة أو في غيرها ، والصلاة فيها قولان والله أعلـم .

(**مسألة**) : ومن جواب الشيخ أبي نبهان جاعد بن خميس ، من مسألة لهُ في قوله تعالى : ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ ، ففي قول آخر أن مجوس فارس لما بلغهم أن الله حرم الميتة ؛ كتبوا الى أوليائهم من مشركي قريش ؛ أن محمداً وأصحابه يزعمون انهم يتبعون أمر الله ، وأن ما ذبحوه فهو حلال ، وما ذبح الله فهو حرام ، فناظره مشركو قريش فقالوا : انكم تأكلون مما قتلتم ، ولا تأكلون مما قتله الله فوقع في انفس المؤمنين ، فأنزل الله هذه الآية ، وفي آخرها ﴿وان أطعتموهم﴾ يعني [في تحليلها] رادين لما أنزل عليكم في تحريمها ﴿انكم لمشركون﴾ . هذا ما جاء في تأويلها ، فزعم أهل العمى : أن فيها ما دلهم على تشريك أهل القبلة فدانوا بهِ ، وانهم لضالون . والله أعلم فينظر في ذلك .

(**مسألة**) : ومنهُ في قوله تعالى : ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ . أي (انفردوا) في قول (الزجّاج) عن المؤمنين ، وفي قول (ابي العالية) : تميزوا ، وفي قول (السدي) : كونوا على حدة ، وفي قول (مقاتل) : اعتزلوا عن الصالحين ، وفي قول آخر : انفصلوا والمعنى واحد ، وفي قول (الضحاك) : ان لكل كافر بيتاً في النار ، يدخل ذلك البيت ، ويردم بابهُ فيكون فيهِ لا يرى ولا يُرى أبد الآبدين . وأنا أقول في هذا الأمر : لهم ان يتميزوا عن المسلمين كرهاً لما أنتم لهُ أهل من الجزاء في هذا اليوم : ﴿هل تجزون الّا ما كنتم تعملون﴾ . ﴿الم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انهُ لكم عدوٌ مبين﴾ ، يعني ظاهر العداوة فاحذروه ، ﴿وان اعبـدوني هذا صـراط مستقيم﴾ ، أي لا اعوجاج لهُ فاتبعوه ، وما سواه فذروه فانهُ طريق الدين

القويم الذي دلهم عليه من بعد أن قدره لهم مركباً من بين فعل ، وترك وأمرهم بالسير فيهِ ، وأشار لقربه في حق من رامه منهم بهذا اليه فنكره للتعظيم ؛ لانهُ طريق الفوز بالجنة ، والنجاة من الجحيم ، الاَّ انهُ قد أجمله في هذا الموضع فذكره على وجه الابهام ، وأتى بهِ في صورة الاستفهام ؛ لما أراده بهم في خصوص من تفريع لمن أبى الاَّ أن يخالف في دنياه الى ما أنزله اليهم من نصوص فبقي على ما بهِ من تضييع لازماً لاجرامه ، تابعاً لهواه ، مصراً على آثامه التي اسلفها فيما خلا من ايامه ، فكان من حقه أن يوبخ بمثله على ما أجرمه فأصره عليه من بطله . واني لهؤلاء في هذا الموقف على حال ان يجاوزوا بلى في اقرار الى قوله : نعم في انكار ، فيمكن لهم أن يظهروه ، وماهم فيه من قوة ان يجحدوه فينكر ، وقد ختم حينئذ على أفواههم مع كثرة الشهود في هذا اليوم المشهود تقديره . فأي عذر لكم يا عبادي في طاعة من دعاكم الى عنادي ؟ ﴿ولقد أضل منكم جبلاً﴾ أي [خلقاً كثيراً] ﴿أفلا تعقلون﴾ . ما كان من اضلالهُ لمن كان قبلكم من الأمم الخالية ، حتى هلكوا فاوردهم النار الحامية ، الاَّ من تاب من ذنبه فرجع الى ربه ، أو لا ترون ما كان من عداوته لأبويكم ومكره بهما ؟ حتى أخرجهما من جوار ربهما لا لشيء غير ما أكنه في نفسه فاضمره من عداوتهما حسداً لهما ، أورثته اللعنة من الله طرداً لهُ من رحمته ، وأنتم بنوهما أورثكم العداوة منهما ؛ حتى أغوى منكم جماً غفيراً أفلا تبصرون ؟ هنالك ينقطع العذر ، فتلزمهم الحجة لعدمهم ما بهِ يعتذرون . وفي قول آخر لمن فسره من أهل العمى ، فزعم انهُ قد ظهر لهُ فيه ما دله على تشريك أهل القبلة فدان بهِ ما أكفره ! لأن معنى قوله : ﴿ان لا تعبدوا الشيطان﴾ ، فيما عنده ﴿أن لا تطيعوه﴾ فكل من أطاعه في شيء ؛ فقد عبده في دعواه التي أقامها محتجاً بدليل معناه . ومن عبده فهو مشرك ، نعم ، لو صح لهُ في الأصل ، ما قاله مطلقاً فجاز أن يكون من العدل . ولكن قد رده عليه اهل العلم ؛ لظهور باطله فيما عندهم بالجزم ؛ لأن في طاعته الشرك وغيره من أنواع المعاصي .

وأنا أقول بالحق فيها انهُ هو الداعي اليها ، والمزين لها ، والدال عليها ، ما كان منها في شرك ، أو نفاق من العاصي ، أو ما دونها من زلة

لمؤمن تقي في غفلة ، فكيف يجوز في كلتيهما أن تكون من الشرك فيحكم بهِ في أهلها ؟ الاَّ من تاب الى الله والاَّ فهو من المشركين . اني لا أدريه وجهاً في اجماع ، ولا رأيا في نزاع ، أو ما يكون لأهل الرأي من وفاق ، لو صح فجاز ، فأين يكون موضع ما عداه من نوع في نفاق ؟ دع ما دونها ولكن الله من فضله قد أبى من أن يجوز في عدله ؛ لأنه لا بد وأن يعم جميع من زل عن صراطه يوماً فضل ؛ حتى يأتي على آدم وحواء وغيرهما من الرسل والأنبياء ، مع من هو دونهم من الأولياء ، لما كان منهم من الصغائر ؛ فيعم من كان في اقراره على شيء من الكبائر . ما أعظمها من بلوى ! لانهُ هو الذي دعاهم الى ما كبر من أنواع جنسها أو صغر ، حتى أطاعوا فيما عنه نهى أو بهِ أمر . أفيجوز في هؤلاء أن يكونوا لهُ عابدين ما لم يخرجوا منها بالتوبة نادمين ؟ ليس لهم الاَّ حكم المشركين . كلاَّ إن أحق ما بكل منهم أن يكونوا في الحق على ما دعا اليه من أنواع ما لا جواز لهُ في دين الله ، واطاعه فيهِ من كبير في شرك ، أو نفاق أو ما دونهما من صَغير ، ما لم يصر عليه ، فاما أن يطلق في طاعته انها على حال من عبادته ، فكأنهُ لا موضع لهُ في دين ولا رأي قطعاً . ـ والله أعلم ـ فينظر في ذلك .

(مسألة) : ومنهُ في قوله تعالى : عن ابراهيم عليه السلام ، انهُ قال لابيهِ آزر : ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه فيما يدعوك اليه فيأمرك بهِ ويزينه لك من عبادة الأوثان ؛ فإنها من الشرك بالله . وبهِ دل على أن طاعته في ذلك من عبادته . والله أعلم .

(مسألة) : ومنهُ : وما تقول ـ رحمك الله ـ في قول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنهُ منهم﴾ . ما معنى هذه الكينونة معهم ؟ أرأيت من كان مقراً بالاسلام ، وتولى يهودياً واحبه وصوبه على فعله ، أيكون مثله يهودياً في التسمية ، والأحكام الدنيوية من النجاسة ، وقطع الصلاة وغير ذلك من أحكام المشركين ، وكذلك يكون في الأحكام الاخروية ملحوقاً بهِ ، أم يكون

في الأحكام الدنيوية مفارقاً لهُ ولاحقاً به في الأحكام الأخروية ، أم ما عندك في ذلك ؟ عرفنا وجه الصواب في ذلك مأجوراً مثاباً .

قال : ـ الله أعلم ـ والذي يتوجه لي في تأويله ان صح ؛ انه يكون منهم بالولاية لهم على ما هم بهِ من الكفر في موضع ما ليس لهُ ؛ لعدم الموجب في حقه لوجود العذر ؛ فهو بها من جملة أهل الضلالة عن طريقة الهدى ، وان أقر بالجملة فلا مخرج لهُ من أن يجوز عليه من قبيح الأسماء ما يجمع الكل ؛ فيجوز لأن يطلق على الجميع منها ، بعد أن صار بدخوله فيما يوجبها من أهلها ، فاستحق لأن يعادي على مثلها ؛ فيحكم عليه بالبراءة الموجبة لاباحة اللعنة والعداوة والبغضاء ، وحظر الولاية والمحبة والنصرة في الله تعالى على من صح معهُ أمره فحرم عليه ان يتولاه ، وأن يوليه بغير حق الأولياء ، بعد أن أنزل نفسه بمنزلة الكفار مختاراً لعمل أهل النار . فكيف يجوز على الاصرار . ان يكون بعد موته على التحقيق ، لا من ذلك الفريق ؟ كلاً ؛ فهو معهم في العذاب المهين ؛ لانهُ لا من المؤمنين ؛ لخروجه عنهم بولايته لا بحق من ليس منهم بدليل ؛ ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً هي مثواهم ، وبئس المأوى مأواهم . أو تظن انهُ يكون بولاية اليهودي يهودياً ؟ وبولاية النصراني نصرانياً ؟ وان كان في غير انكار للجملة ، ولا شك فيها ، ولا في شيء منها ، ولا يرد لشيء من التنزيل بعد قيام الحجة بهِ عليه ، وليس كذلك ؛ لبعده من الصواب على حال في الاجماع ؛ اذ لا يبلغ بهِ الى الشرك ولكن الى كفر النعمة لا غيره في دين أهل العدل . فاحذر من أمثال هذه الأحوال ، ولا تقف على عمى ما ليس لك بهِ علم فتردى ، لا سيما في مثل هذا فانهُ عظيم ؛ لانهُ مما يدعو الى تشريك أهل القبلة ، ولا شك ـ فاعرفه ـ . والله أعلم بصوابه . فينظر في ذلك .

وقال في موضع آخر : ففي هذا من النهي ، ما يدل على المنع من الولاية لهم تحريماً لها ، وما يكون من لوازمها في حق الأولياء مثل المدح ، والثناء ، والنصرة على الأعداء وما أشبهها . الا وان في التأكيد ما يدل على المعنى

بالتشديد ، في موضع ما لا عذر فيه ؛ لأن من يكون من جملة الكفار فلا بد لهُ من النار ان مات على الاصرار . أو يجوز فيصح بلا رجوع منهُ أن يخرج عنهم بعد أن ولج معهم ، فصار منهم فيما يجوز عليه ان يلحقه مما جاز في الحكم لأن يجمع الكل في الاسم ، من لوازم الضلالة الموجبة لاشراك الجميع فيها حالة الخروج من الحق الى شيء من أنواع الفسق ، دون ما يخص على الانفراق ، كل فريق في الدنيا باتفاق من شرك أو نفاق . الا وان المرجع في الأخرى ، لأهل الكفر أجمع ، الى فريق واحد في النار ، مقابل من في الجنة من الأبرار . فكيف يصح ألا يكون من أولئك من لم يكن من هؤلاء ؟ والكل فريقان عن الله في غير موضع من القرآن .

فاما أن يكون بالولاية في موضع تحريمها عليه لأهل اليهودية يهودياً ، ولأهل النصرانية نصرانياً في أشباهها فلا أعرفه مما يجوز كذلك ، وان رفع أبو قحطان عمن حفظه من أهل العلم والورع ، انهُ قال : (من تولى يهودياً فانهُ يهودي) ، فان في قول الشيخ ابي سعيد الكدمي - رحمه الله - ما يدل على خلافه ؛ وانهُ لهو القول في النظر لا غيره ؛ - والله أعلم - . فينظر في ذلـك .

(مسألة) : عن الشيخ الفقيه صالح بن سعيد النزوي : وما معنى المسألة التي في كتاب (النور) وهي التي قيل فيها : (من عبدالله على الرجاء فهو مرجي ، ومن عبده بالخوف فهو حروري ، ومن عبده بالحب فهو زنديق ، ومن عبده بالثلاثة فهو مستقيم)

الجواب : والله الموفق للصواب : ان من عبد الله وفي اعتقاده انهُ لو لم يرجُ منهُ ثواباً ، ولا جنة ، ما عبده فهذا لا يسع وهذا عندي معناه . ومن عبد الله ، وفي اعتقاده انهُ لو لم يخلق ناراً لمن عصاه ما عبده ، فهو أيضاً لا يسع وهذا عندي معناه . ومن عبد الله بالحب وفي اعتقاده حبه بتوهم القلب ومعناه اذا شبه الله في قلبه ، وجعله صورة وقصد بالعبادة الى تلك الصورة ، وزعم انهُ يحبها فهذا الكفر . ولا يجوز . وهذا زنديق وعندنا معنى حب الله حب طاعته . ومعنى من عبد الله بالثلاثة فهو مستقيم ؛ فهو ان يعبد الله ؛ لانهُ

مستحق للعبادة وليعطي الربوبية حقها ، ويرجو ان استقام في تلك العبادة ثواب الله ، ويخاف على تضييعها عقابه فهذا الذي عبد الله بالثلاثة والله اعلم .

(مسألة) : عن الشيخ ناصر بن خميس بن علي ، عما يوجد في الأثر : من عبد الله تعالى بتوهم القلب فهو مشرك ، ومن عبد الاسم دون المعنى ؛ فقد كفر ، ومن عبد الاسم والمعنى بهِ - فقد جعل - مع الله شريكاً ، ومن عبد المعنى بهِ ؛ فقد أصاب .

الجواب : - وبالله التوفيق - : لم أقف على هذا بعينه مفسراً وفيما توهمته ان التوهم هو الظن عندنا . من عبد الاسم دون المعنى ؛ فانهُ لم تكمل بذلك عبادته عندنا . وكذلك من عبد الاسم والمعنى ، ولم يعبد الله حقيقة حق عبادته فيما عندنا ، ومن عبد الاسم دون الصفة بالادراك لعلة اذا لم يعبده كأنهُ لم يغب عنهُ ، ولم يغرب عنهُ علمه حيث كان وأين كان . ومن عبد المعنى فهو المراد بهِ حقيقة العبادة . والله اعلـم .

(مسألة) : عن الشيخ أحمد بن سليمان العاتي المنحي ، والشيخ عمر بن سالم الرغومي ، وما تفسير هذا الكلام وقيل : من عبد الله بتوهم القلب فهو مشرك ، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ، ومن عبد الاسم والمعنى فقد اشرك ، ومن عبد الاسم دون الصفة لا بادراك ؛ فقد أحال على غائب . ومن عبد المعنى بحقيقة المعرفة ؛ فقد أصاب وهو مؤمن حقاً ، : والله أعلم - ما تفسير كل معنى من هذا ؟

الجواب : - وبالله التوفيق - : أما من عبدالله بتوهم القلب ، فلعل معناه أن من صور الله في قلبه صورة ذات جوارح وشكل ومثل ؛ فهو مشرك . وذلك صواب . وأما أصحابنا : فلم يشركوا من وصف الله بالجوارح ، بل كفروه كفر نعمة ، ومن عبد الاسم دون المعنى ؛ فقد قيل : ان الاسم هو المسمى . وقيل : الاسم غير المسمى ، وما اختلف فيه المسلمون لم تجز

التخطئة على فاعله . ومن عبد الاسم والمعنى ؛ فقد أشرك ، فهو على ظاهره . وأما تشريك من عبد الاسم والمعنى ؛ فالله أعلم بصحة هذا القول . وقيل : هما واحد كيف يلحقه الشرك بأخذه بعض ما قيل ؟ وللمسلمين في هذا آثار سابقة بثبوت الاختلاف .

وأما من عبد الاسم دون الصفة ؛ فقد أحال على غائب ؛ لأن الاسم غائب ، والله شاهد فقد أحال عبادته عن الشاهد الى الغائب ، ولفظة (لا بادراك) فلا أعرف معناه فيها . ومن عبد المعنى بحقيقة المعرفة فقد أصاب ؛ فلعله يعني المعنى بتشديد الياء ، - والله أعلم - ؛ فلعل معناه فان اراد بِهِ المقصود وهو المسمى ، فهو مؤمن حقاً فهذا صواب خارج على مقالات أهل الصواب ، وأنا يعجبني النظر في هذه المسألة وانما هي عن بعض قومنا نقلت في آثار أصحابنا ، لعل يوماً ما خصها العلماء ويصححها الفقهاء من أصحابنا ؛ ليتضح حقها - والله اعلم - بصحة ذلك وعدله ، وانما تكلفت رد هذا السؤال خوف نزول العتاب ؛ لانهُ قيل : ان (ترك الجواب مجلبة للعتاب) ؛ ولأني لست اهلاً لذلك وقد قلنا في ذلك على معنى ما عرفناه من جوابات أشياخنا المتأخرين . - رحمهم الله ، وغفر لهم - . والله أعلم . وازدد شيخنا من سؤال المسلمين ، ولا تأخذ من قولي الاّ ما وافق الحق والصواب وهي بخط (الرغومي) .



الباب الثامن

في الرد على من قال ان يوم القيامة قبل يوم البعث

من كتاب (النور) : عن الشيخ ابي الحسن البسياني : وسئل عمن زعم ان قبل يوم القيامة بعثاً يقتل بعده من قد مات في الدنيا ، ويموت من قد قتل ؟ وان دولتهم وظهور أمرهم ، وبيان تصديق قولهم بعد ذلك البعث . ما الحجة عليه ؟ قيل لهُ : هذا كاذب مخالف لكتاب الله والاجماع ، على خلاف قوله ما يدل على تكذيبه : ﴿الله لا إله إلاَّ هو ليجمعنكم الى يوم القيٰمة لا ريب فيه﴾ . وقال : ﴿لئن متم أو قتلتم﴾ . وقال رسول الله ﷺ فيما يروى عنه انهُ قال : ﴿بعثت أنا والساعة كفرسي رهان وان كادت لتسبقني فسبقتها﴾ . ولم يقل مثل ما قال صاحب هذه المقالة ، ولا عن الصحابة الذين هم الحجة على كل شيء ما ذكر هذا ، وهذا كلهُ كذب ودعوى لا تصح لمن قال ذلك ، وقوله زور مخالف القرآن .

(مسألة) : عن الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي : وسئل عمن آمن بالبعث ، ولم يشك فيه ، وخطر بباله ان الله يبعث الموتى في الدنيا ، أم لا يبعث أحداً منهم قبل يوم القيامة ؟ ولم يشك في قدرة الله على ذلك ما الذي يعتقده في هذا ، وما يبلغ به شكه عرفنا ذلك ؟

الجواب : ان الله لم يخبرنا في كتابه ، ولا صح عن النبي ﷺ معنا ، ان الله سيبعث احداً من عباده في الدنيا قبل يوم القيامة من أمة محمد ﷺ ، فلا يلزمنا الايمان بشيء لم يأتنا فيه تعبد ، وفي ذلك ما يدل على ان الله لا يبعث أحداً قبل يوم القيامة .

وفي اخبار قومنا ان الله يبعث المهدي ، ويخرج الدجال ، وينزل عيسى

من السماء ، وكل هذا في نفسي بعيد من الصواب . ومعي ان الخضر هو ميت ، وعيسى كذلك ؛ لقوله تعالى : ﴿اني متوفيك ورافعك اليَّ﴾ . ومن قال : هذا غير صحيح ، ولم يخطىء من قال انهُ صحيح ، ولم يدن بصحته فهو سالم ، ولا يلزم هنا شيء من الاعتقاد معنا ، فاعرف ذلك . وبالله التوفيق .

وقال الشيخ سعيد بن بشير الصبحي في جوابها : انهُ على كل شيء قدير ، وانهُ محيي الموتى ، ومميت الأحياء متى شاء وأراد ، انهُ أمات السبعين الذين اختارهم موسى ، أو ما شاء الله منهم وأحياهم في الدنيا . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ ففي التفسير : انهم خرجوا عن الطاعون والوباء ، أو ما شاء الله انهم أماتهم الله ، ثم أحياهم لسؤال نبي من بني اسرائيل ، أو ما شاء الله من مكثهم وعددهم ، ففي التفسير : انهم ثمانية آلاف .

(مسألة) : عن الشيخ ناصر بن خميس : ومن آمن بالبعث ولم يشك فيه ، وخطر بباله ان الله يبعث من في القبور في الدنيا ، أم لا يبعث أحداً منهم إلَّا يوم القيامة ؟ فشك في ذلك ما الذي يعتقده في هذا وهو يعلم ان الله على كل شيء قدير ، وما يبلغ بهِ شكه في هذا وما يلزمه من الاعتقاد في هذا ، وهل تقوم في هذا حجة من الخاطر والسماع ، ولا يسعه الشك بعد ذلك ؟

الجواب ـ وبالله التوفيق ـ : لا يكون البعث الَّا يوم القيامة ، لقول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿ثم يوم القيامة تبعثون﴾ ولا نعلم سعة فيما جاء نصاً في القرآن والله أعلـم .

(مسألة) : ومنهُ : وقوله تعالى : ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ . أهذا حكاية عن البعث ، أم قد فعل بهم ذلك ؟ . ومن شك في ذلك ما يبلغ بهِ شكه ؟

الجواب ـ وبالله التوفيق ـ : لعل هذا كان في بني اسرائيل آية من الله

وحجة عليهم . والله أعلم . وقوله تعالى في الذي حاج ابراهيم في ربه : ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أذلك موت حقيقة أم لا شبه النوم ؟ وهل يسع الشك فيه انهُ ليس بحقيقة ؟ الجواب : ان الموت حق ، والله يحيي الموتى ، وانهُ على كل شيء قدير ، ولا نعلم سعة الشك فيما جاء نصاً مبيناً في القرآن . والله أعلـم .

الباب التاسع

في الرد على من قال أن من قتل لم يمت بأجله

ومن كتاب (الارشاد) قال الله تعالى : ﴿فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ . فالذي نذهب اليه أن كل من مات ، أو قتل فقد مات بأجله . وقول المعتزلة : أن من قتل لم يمت بأجله ، وهذا خلاف ما جاء في كتاب الله ، ولا ينفع عمل ولا غيره في زيادة الأجل ، ولا صدقة ولا صلة رحم ، ولا غير ذلك ؛ لأن الله يقول : ﴿فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ . وهذا خبر أخبر الله تعالى بهِ ، والأخبار لا يقع عليها النسخ ، وقد قال الله تعالى في يحيى بن زكريا : ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ . وقد صح بالأخبار الصحيحة ، أن يحيى قتل ولم يمت على الفراش ، فسمى الله قتله موتاً ، وقد مات بأجله الذي أجله الله اليه . فلو أن رجلاً حلف أن يوم يموت زيدٌ فامرأته طالق فقتل زيدٌ ولم يمت على فراشه لطلقت امرأة الرجل ؛ لانهُ لم ينو ان مات زيد على فراشه بلا قاتل يقتله ، وانما يذهب انهُ يوم تخرج روح زيد من جسده فقد مات . والله أعلم .

(مسألة) : ومن بعض كتب اهل المغرب : من وضع الفقيه تبغورين بن عيسى المغربي : واختلف الناس فيمن قتل مظلوماً ، هل مات قبل أجله أو مات في أجله ؟ قالت المعتزلة : ومن قال بقولهم : انهُ مات قبل أجله وتطرقوا في ذلك واحتجوا ، وقالوا : لو مات في أجله فلا يؤاخذ بهِ ، وحكي عن الحسن البصري انهُ قال في أولاد أيوب عليه السلام : (والذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت﴾ فقال لهم الله : ﴿موتوا ثم أحياهم﴾ انهُ أماتهم قبل آجالهم فأحياهم ليستوفوا بقية آجالهم بزعمه . وقول المسلمين في

ذلك : ان الناس لا يموتون قبل آجالهم ، ولا يأكلون غير أرزاقهم لقول الله عز وجل : ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ ، [وقتاً] لا يتقدم ولا يتأخر عنهُ ، كما قال : ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ . ومثل هذا كثير في القرآن .

وسئل هؤلاء عن قولهم في أجله : هل علم الله ذلك الذي مات فيه ، وكتبه في اللوح المحفوظ ، ووعد لهُ أن يعيش الى ذلك الوقت ، أو جعل لهُ أجلين فمات دون الآخر منهما ، فما معنى أجله الآخر اذا علم انهُ لا يدركه ، ولم يكتبه ولم يعدله ؟ وان قالوا : لا يعلمه فقد وصفوه جاهلاً بخلف الوعد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والجأهم الى ذلك فراراً أن يكون لله في ابطال العبادة منع ، أو يكلفهم ما لا يستطيعون ، وقد أتينا على النقض عليهم في ذلك ، والحمد لله على ما بصرنا من دينه ، ونسأله أن يمن علينا بالاتباع ، ويعصمنا من الابتداع ، والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وامام المرسلين ، وعلى جميع الأنبياء أجمعين ، والملائكة المقربين . تم الذي من وضع الفقيه تبغورين بن عيسى بن داود الملشوطي المغربي رحمهُ الله .

(مسألة) : من كتاب لبعض قومنا فيه لهم متن ، وشرح قوله : والمقتول ميت بأجله .

الشرح : أي الوقت المقدور لأجله ، لا كما زعم المعتزلة من أن الله تعالى قطع عليه الاجل؛ لأن الله قد حكم بآجال العباد على ما علم من غير تردد ، وبانهُ ﴿اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ . واحتجت المعتزلة بالأحاديث الواردة أن في بعض الطاعات تزيد في العمر ، وبانهُ لو كان ميتاً بأجله ؛ لما استحق القاتل ذماً ، ولا عقاباً ، ولا دية ، أو قصاصاً اذ ليس موت المقتول بخلقه ولا بكسبه .

والجواب على الأول : ان الله تعالى كان يعلم لو لم يفعل هذا لكان عمره

أربعين سنة ، لكنه علمه انهُ يفعلها ويكون عمره سبعين سنة ، فنسبت هذه الزيادة الى تلك بناءً على علم الله تعالى انهُ لولاها لما كانت تلك الزيادة .

وقال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : وهذا لا يصح في صفة الله تعالى انهُ لو علم انهُ لا يفعلها ، لكان عمره أربعين سنة ، ولكن علم فعلها فجعله سبعين سنة ؛ لأن كلمة [لولا] حكم لها في تحقيق الأمور مع جميع العلماء العارفين بمعاني الألفاظ ، وعلمه سابق انه سيفعل ذلك ، فكيف يصح هنالك صفة لو وعلمه أزلي بحادث ؟ ولكن لو قال : هذا أحد واعتقده بجهله فلا يهلك ما لم يدن بهِ ؛ لانه حكم بهِ بالقطع على ما علم الله فيه .

وأما ما اعتقده المعتزليون من انهُ لو لم ينقص ذلك من عمره ، لم يكن مستحقاً بفعله العقاب ، لأن كل من قتل نفساً ظلماً متعمداً فجزاؤه جهنم . - حكم من الله تعالى - ، وقد يمكن أن يوافقوا قتل هذا وفاء أجله على زعمه ، فلا يكونِ عليه عقاب وذلك من علم الغيب ، وحكم الله تعالى على العموم ، ولا يصح في صفة الله تعالى أن يكون الأمر على غير ما أخبر من علم الغيب ، ولا من العلم الذي عرفه عباده ، ويتفاوت القتل في المقتول وقد يمكن انهُ لم يبق من عمره الَّا ساعة ، أو يوم أو شهر أو عام أو دهر طويل ، أو يكون موافقاً للعمر ، فيختلف أحكام الجزاء في قتل النفس ظلماً ، وفعل المعصية في ذلك سواء بالقصد ، فصح بطلان هذا القول من المعتزلة . ومن العجب أن كل أهل مذهب اذا ضل أحدهم عن الصواب ، ضلوا جميعاً فلا نراهم يختلفون . ألهم عقول كلها على صفة واحدة فلا يكون كذلك في الغالب ؟ ولكن لم يوافق بعضهم بعضاً الَّا التقليد لبعضهم بعضا ولو تركوا التقليد وأجازوا النظر لكل ناظر فيما خفي من الحق ، وأجالوا الفكر في أقوال المذاهب ، ومالوا الى حيث اتضح الحق مما لا اختلاف فيه ، ومما يجوز فيه الاختلاف ، لأصابوا الحق ؛ لانهُ لا بد وأن تختلف أنظارهم ورؤيتهم في ذلك .

ومع مقابلة الأقوال واختلافها ، يتضح الأصح والأعدل منها على الغالب ، ولم أر أهل مذهب هكذا صفتهم غير أهل مذهبنا ، فان كل عالم

ينظر أولاً في كل قول انهُ من أي قسم ما تقوم الحجة بمعرفته من العقل بمجرد معرفة العقل . او من القسم الثاني مما تقوم بمعرفته الحجة من العقل بعد السماع كما سنأتيه أو هو من القسم الثالث ، مما لا تقوم بهِ الحجة الاَّ بالسماع من أمر الدين الذي لا يجوز فيه الاختلاف . أو من القسم الرابع الرأي الذي يجوز فيه الاختلاف .

فان كان من القسم الأول ، فالعقل كافٍ في الحجة . وان كان من القسم الثاني ، فالسماع فيه منتشر مع اكثر العباد والحجة من العقل تقوم بمعرفته ، ولا يصح أن تقوم الحجة من العقل بمعرفته ، بعد أن يخطر بباله الاَّ والحق فيه واضح ، ولا يصح فيه الاختلاف لانهُ اما واجب ، واما مستحيل ، وهي الثلاثة هي الحكم العقلي الذي نحن بصدد ذكره وزيادة العمر ونقصانهُ في علم الله ، من المستحيل أن يكون على خلاف ما علم .

وان كان المعنى انهُ عمره كذا لو لم يقتله قاتل ، ونقص عمره بقتل ذلك وقد علم انهُ سيقتله ، وإن عمره ينقص فلم يختلف علمه ، فعلى هذا المعنى فمتى كان عمره أكثر لو لم يقتله وقد علم الله انهُ سيقتله ، وانهُ لا يكون لهُ من العمر الاَّ كذلك . وفرق المعتزليون بين معنى العمر ، ومعنى الأجل ، لقوله تعالى : ﴿فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ، وقالوا في العمر : ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الاَّ في كتاب﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ وفي الحق لا فرق بين معنى الأجل وبين معنى العمر ، وانما معنى قوله تعالى : ﴿وما يعمر من معمر﴾ فيكون اطول عمره من غيره اذا كان في علم الله طويلاً ولا ينقص معمر أقل عمراً من الأطول منه عمراً من عمره فيكون عمره أقل ، أي أنقص من عمر المطول عمره ألا وهو في كتاب مبين ، أي الا وهو مثبوت في اللوح المحفوظ . فالمعنى انهُ لا يكون أحد طويل العمر ، ولا أحد عمره أنقص من عمر ذلك الأطول عمره الاَّ في كتاب ، فان قيل : هاء الضمير راجعة الى المعمر بنفسه ، قلنا : لما انهُ قال [وما يعمر] فهي عامة لكل معمَّر والمعمَّر قد

يكون طويل العمر ، وقد يكون قصير العمر ، وكلامنا هذا في المعمر ولسنا نعني معمراً واحداً ، بل المراد أحوال المعمرين كذلك ، فكذلك هنا لفظة [ما] نعم كل معمر من المعمرين بطول العمر ، ومن المعمرين بقصر العمر ، فما بعدها بمعنى التفصيل بعد الاجمال للمعمرين في أحوالهم ، فلا يصح أن يكون فرقاً بين معنى العمر وبين معنى الأجل .

ولو تركوا التقليد وأجازوا مجال النظر في هذا ؛ لعرفوا الأصح ، واتضح لهم الهدى ، ﴿ومن يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فما لهُ من هاد﴾ .

رجـــع : الى شرحه في جوابه للمعنى الثاني من قول المعتزلة : لو لم ينقص عمره شيئاً لم يستحق العقاب .

فقال : وعن الثاني ان وجوب العقاب عن القاتل المعتدي لارتكابه المنهي ، وكسبه الفعل الذي يخلق الله تعالى عقيبه الموت بطريق جري العادة ، فان القتل فعل القاتل كسباً ، وان لم يكن خلقاً والموت بالميت مخلوق الله تعالى لا صنع للعبد فيه تخليقاً ، ولا اكتساباً ومبني هذا على أن الموت وجودي ، بدليل قوله تعالى : ﴿خلق الموت والحيوٰة﴾ . والأكثرون على انهُ عدمي .

ومعنى خلق الموت ؛ قدره والأجل واحد لا كما زعم الكعبي من المعتزلة : ان للمقتول أجلين : القتل ، والموت ، وانهُ لو لم يقتل لعاش الى أجله الذي هو الموت ، ولا كما زعمت الفلاسفة أن للحيوان أجلاً طبيعياً هو وقت موته ، تتحلل رطوبته وتنطفىء حرارته الغريـزيتان وآجـالاً اجترائيـة بحسب الآفات والأمراض .

فصـــل : ومن كتاب ركن الدين تأليف المعتزلة ؛ فان قال الله تعالى : ﴿وما كن لنفس أن تموت الاَّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ ، فاذا كان موته باذنه فلا بد من حصوله في وقت معلوم ، فاذاً لا ذنب للقاتل !

الجواب : الظاهر يدل على انهُ ليس لها ان تموت الاَّ باذن الله ، ولم يذكر

انها عند موتها كيف الحال فلا تعلق بالظاهر ، على أن الظاهر يدل على أن من يموت حكمه ما ذكره ولم يدخل فيه المقتول ، على أنا لا نمتنع من أن المقتول لا يموت الاَّ باذنه ، فالمراد بالاذن : [العلم] لأن أحداً لا يقول : انهُ يموت والأمر انما يوجد من فعله من طاعة وغيرها ، والموت من قبل الله . ويقول : انهُ لا يقتل الاَّ في ذلك الوقت الذي جعله الله آجلاً .

فان قيل : فيجب ألا يكون ظالماً . قيل لهُ : انما صار ظالماً من حيث أدخل عليه الآلام على وجه الظلم ، فلا فرق ان يصادف أجله أو لا يصادفه في انهُ ظالم في الحالين ، فليس المعتبر في ذلك مصادفة الأجل ، والمعتبر بصفة الألم الذي فعله ، وانما اراد الترغيب في الثبات على قتال العدو ، بأن الموت يحصل لا محالة في الوقت الذي علم نزوله بالعباد ، وان امتناع من امتنع عن المقاتلة من المنافقين لا يؤخر عنهم الأجل وهذا ظاهر .

فصـــل : ومنهُ سؤال فان قال : ان قوله تعالى : ﴿ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ . ان الله تعالى قد بين في هذه الآية ، ان التوبة لا يجب قبولها انهُ متفضل بذلك فلهُ أن يمنع .

الجواب : ان الظاهر لا يدل على أن التوبة لا تقبل اذا وقعت على صاحب الآية ، ليس في الآية انهم تابوا ، ولا خلاف ان المرتد اذا تاب توبة نصوحاً لم يكن ضالاً ، وان توبته تكون مقبولة حكماً وشرعاً ، فان قيل : فان لم يكن تابوا فلماذا قال لن تقبل توبتهم ، ومعلوم ان توبة من لم يتب لا تقبل ؟ قيل لهُ : يجوز أن يعني بِهِ توبته المتقدمة لانها انحبطت بالكفر بعده . ويجوزانهُ أراد بِهِ نفي الغفران بلفظ عدم قبول توبتهم ؛ لانهُ لما ورد الغفران في كثير من المواضع بلفظ ﴿تاب الله عليهم﴾ جعل نفي قبول توبتهم عبارة عن نفي الغفران لهم .

(مسألة) : ومن كتاب البحر الزخار تأليف بعض الزيدية البهشيمية : الأجل واحد وهو وقت الموت [البغداذية] بل اجلان مقدر ومسمى . قلنا : ما

لم يتب فيه فليس وقوله واجل مسمى عنده اراد القيمة .

(مسألة) : لم يقبل لعله لو لم يقتل المقتول لجاز أن يموت الحاكم وبعد القتل ينقطع انهُ لم يكن يجوز غيره . قلت : وفيه نظر ابو الهذيل والمجبرة لو لم يقتل لمات قطعاً ، والاَّ كان قاطعاً أجله المسمى ، قلنا : الأجل وقت الموت ويلزم ، فمن ذبح شاة غيره ان يكون محسناً اذ أجلها وقوله : ﴿برز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم﴾ متأول . ابو علي اراد لو لم يخرجوا لقتلتم في بيوتكم في قوم خاص أبو القاسم بل اراد يخرج قوم كتب عليهم القتال أي أمروا بهِ . قلنا : وكلاهما تعسف البغداذية بل يعيش قطعاً والاَّ لم يكن ظالماً لهُ ، قلنا : ضرر لا يقع فيه لا دفع ، ولا استحقاق فكان ظالماً . قال غيره وهو الشيخ ناصر بن ابي نبهان : الأجل واحد ليس لأحد أجلان ، لا انهُ ان لم يمت في الأول فأجله هو الآخر وان مات في الأول فهو أجله لقوله تعالى : ﴿اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ والله أعلـم .

الباب العاشر

هل يبعث الله جميع ما خلق يوم القيامة أم المتعبدين فقط ؟

قال أبو الحسن : الدليل على إعادة الخلق ؛ ان الله سبحانهُ وتعالى خلق الخلق على غير مثال سبق ، فلم يعيه ان يعيدهم خلقاً آخر ، وقد قال الله : ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ . وقال تعالى : ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ . وقال تعالى مخبراً عن قولهم : ﴿أئذا كنا تراباً وآباؤ نا أئنا لمخرجون﴾ . وفي آية أخرى ﴿مبعثون﴾ ، وقال : ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ . فدل في القرآن في غير موضع انهُ يعيدهم . وقال : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ ، وقال : ﴿ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون﴾ ، وقال : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى﴾ ، فهذا دليل من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والله أعلـم .

(مسألة) : اختلف الموحدون في بعث الخلق ، فقال بعضهم : ان كل شيء خلقه الله - عزَّ وجل - ، وأخرجه من العدم الى الوجود ، يبعث يوم القيامة .

وقال بعضهم : يبعث الله كل ذي روح . ويوجد انهُ من اعتقد ان الله يبعث كل ذي روح فهو سالم ، ومن اعتقد ان الله يبعث كل شيء خلقه فهو سالم ، ما لم يخطىء أحدهما الآخر ؛ فحجة من قال : ان الله يبعث كل ذي روح ؛ قوله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الاّ أمم

أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون﴾ . وقال آخرون : ليس في هذه الآية دلالة على انهُ لا يبعث الاَّ ذوات الأرواح ، وان ما كان من غير ذوات الأرواح لا يعاد ، وقد قال الله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهذه عامة وما كان عاماً فهو على عمومه ، الاَّ أن تقوم دلالة على نسخه ، أو حجة واضحة من كتاب أو سنة أو اجماع على تخصيص شيء منهُ ، وقال الله تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ (الآية) . وهذا ليس من ذوات الأرواح . وقال تعالى : ﴿انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون﴾ . وقال : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ والله أعلـم .

(مسألة) : ومن كان يؤمن بجملة البعث الاَّ انهُ كان يعتقد ويظن ان الله تعالى يحشر الجن والانس دون كل الخلائق ؛ فان كان لم يسمع بذلك ، ولا قامت عليه الحجة من الكتاب ، ولا من خاطر قلبه ففيه اختلاف . واذا تليت عليه الآية : ﴿وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه﴾ (الآية) فقد قامت عليه الحجة . فان شك بعدما تليت عليه الآية ، وخطر بقلبه فلم يعلم كفر . وقال ابن عباس : يحشر كل شيء الاَّ الذبابَ ، والله أعلـم .

(مسألة) : ومن بعض كتب أهل المغرب : وقيل : في معنى قول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿واذا الوحوش حشرت﴾ ، فحكي عن ابي محمد عبدالله بن محمد بن بركة ، قال : حشرها [فناها] وقال غيره : تحشر وتحاسب ويؤخذ من القرناء للجماء ، فابطل ابن الحسين هذا القول في كتابه ؛ واعتل في ذلك بأنها غير مأمورة في الدنيا ، فيسوغ عليها الحساب في العقبى . وأما أصحاب الحديث فقد استفاض هذا عندهم ، وهي موجودة في أحاديث الزكاة وغيرها ، وزعموا : ان الله اذا اقتص لبعضها من بعض ، قال لها : كوني تراباً وهي الغبرة التي تغشى وجوه الكفار في قوله : ﴿وجوه يومئذٍ عليها غبرة﴾ . فقال عند ذلك : ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ ، وقالوا في قول الله ـ عزَّ وجل ـ :

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ : ان طيها [فناؤ ها] والسجل فيما زعموا : [كاتب] للنبي ﷺ ، ويقال للسجل : هي الصحيفة المكتوبة فيها أعمال العبد ، والسجل كاتبها ، والله أعلم أي ذلك كان .

وكذلك قالوا : في قوله تعالى : ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ ، أي [فانيات ذاهبات بقدرته] ، على أن الشيخ أبا يعقوب يوسف بن ابراهيم ، ذكر في بعض جواباته لبعض من سأله ، أو كتب اليه فقال السائل : سمعت المشايخ يقولون : ان النفخة الأدنى من الدنيا ، والنفخة الثانية من الآخرة ،

وان الدنيا والآخرة لا يجتمعان . قالوا : حدوث هذه فناء هذه . ووجدت في القرآن خلاف ذلك منها قوله تعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيكم﴾ (الآية) وقال : ﴿ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون﴾ . والأجداث : [القبور] وهي في القبور والنفخة في الآخرة . وقال : ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الاّ من شاء الله﴾ الى قوله : ﴿وهي تمر مرّ السحاب﴾ بالجبال في الدنيا والنفخة في الآخرة .

وقال أيضاً : ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ ، الى قوله : ﴿فكانت سراباً﴾ . فالسماء في الدنيا وفتحها في الآخرة ، والجبال في الدنيا وسيرها في الآخرة قال : الاّ ان تقول : السموات والأرض والجبال لا تفنى كما رأيت في الكتاب ان العرش لا يفنى .

فأجابه أبو يعقوب : فقال : أعلم يا أخي : أن النفخة الأولى : انما هي في الدنيا باجماع الأمة ، ووقع الاختلاف فيما بين النفختين ، فقال بعضهم : لا يسمى دنيا ولا آخرة ؛ وانما اسمهُ (البرزخ) وقال بعضهم : البرزخ أيضاً من الدنيا ، وانما الآخرة من النفخة الآخرة قال : فالقائل حدوث هذه فناءُ هذه غير مساعد على قوله : واما قولك في القرآن خلاف ذلك ، وهو قولهُ ـ عزَّ وجل ـ : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم﴾ (الآية) . قال : اعلم أن الدنيا والآخرة انما خلقتا في الزمان ، والفساد ، والكون ،

والتقديم ، والتأخير . أما الزمان فان أحوال الدنيا واوقاتها هي هذه التي تجري على الموجود ، وكذلك أحوال الآخرة ، فالحالان متفقان ، وانما اختلفا بصفاتها . فأحوال الدنيا : كون ، وفساد . قال : وكذلك ان الله خلق الخلق أولهُ جوهر ، وآخره جماد ، وبعد حيوان ، وبعده عاقل ، وهو الاشارة بقوله : ﴿وما خلقنا السموات والارض وما بينهما باطلا﴾ ، وقوله : ﴿وما بينهما لاعبين﴾ ، وقولهُ : ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً﴾ (الآية) . فصار الكون في الدنيا بمقتضى استطفسات الطبائع من الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة . فالاستطفسات ، النار والهواء ، والماء ، والأرض . واطلق الباري - سبحانهُ - الحيوان الى التناسل ، والشجر والنبات الى الاثمار ، والزيادة في الأجساد الى النمو والنقصان ، فكان يكون فيها ظاهراً ، والفساد ظاهر ، وهو الحدث ، والفناء ، والتقديم ، والتأخير في تسابق الأحوال ، والاعصار ، والليل والنهار ، وليس في الآخرة الاَّ الخلود والأبد ، وكن (فكان) وكتب على الدنيا الفناء ، وكتب على الآخرة البقاء .

قال : وأما قوله : ﴿منها خلقناكم﴾ الى آخر الآية ؛ فانما وقع الضمير ههنا على الأرض . قال : واعلم ان الله - عزَّ وجل - قال : ﴿كل من عليها فان﴾ . فلم يوجب الفناء هاهنا الاَّ على من كان على وجه الأرض لاغير . وقال في موضع آخر : ﴿كل شيء هالك الاَّ وجهه﴾ قال : الهلاك ههنا مرتبط بالأحياء ؛ فلان هالك ، وفلان حي ، ولم يدل على الفناء ، ولم يأت في فناء العرش ولا السماوات والأرض خبر يدل على فنائهنَّ لا من القرآن ، ولا من الحديث ، فليس للرأي ههنا حظ ، ففي قدرة الله جائز فناء كل شيء ، فان كان ؛ فان رجوعه موجود مثل ما كان ، أو لا غير مستحيل ، فان فنيت الجبال ، والأحداث ، وغيرها ، فستعود غداً في الآخرة ، فتصير كما قال الله تعالى : ﴿يوم تبدل الأرض غير الارض﴾ ، وقوله : ﴿فاذا هم بالساهرة﴾ . ووجدت أنا في بعض التفاسير ان [الساهرة] قال بعضهم : هي أرض بيضاء تحت الجبال ولم يعمل عليها معصية ، فاذا فنيت الجبال ظهرت ، والله أعلم .

قال : وكذلك ؛ ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ وجدت أنا أيضاً في بعض التفاسير ، أن [الاعراف] جبل أحد يمثل بين الجنة والنار ، والله أعلـــم .

وقال : وكذلك ؛ السموات ، والارض ، والجبال والاحداث ، قال : فان فنيت عادت وان لم تفن بقيت الى الحشر ، وجاز فناؤ ها . قال : وقد استبعد العلماء قول من يقول : ان العرش وما دونه ، والسماوات والارض ، تفنى وتعود الأشياء مثل ما كانت في الأزل فبعيد والله أعلـــم .

(مسألة) : قال في كتاب السؤالات في السؤال : وفناء الأشياء كلها على التلاشي ، لا على الانقلاب ، ما خلا المكلفين واطفال المسلمين ، فان فناء هؤلاء كلهم على الانقلاب . وأما اطفال غير المسلمين ، فالله أعلم ، أعلى الانقلاب أو التلاشي ؟ وقد قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿واذا الموءودة سئلت﴾ ، ويقرأ (سألت) ، ﴿بأي ذنب قتلت﴾ . . والموءودة فيها بلغنا بنات المشركين ، يدفنونهنَّ أحياء مخافة الفقر ، وذلك قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ ، أي خوف فقر . والله أعلـــم .

وقول الذي قال : ان فناء اطفال غير المسلمين على الانقلاب عندي أرجح ؛ لأن الله تعالى أخبر في هذه الآية انها ستسأل عن قتلها بغير ذنب ، ومذهب معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ في ولايته الاطفال جملة ، أعني أطفال المسلمين وأطفال المشركين وأطفال المنافقين ـ ، وهو أعلم هذه الأمة بعد نبيها عليه السلام على أن بعض العلماء قال في أصحاب الأعراف : انهم ذراري المشركين ، فان كان هذا فمصيرهم الى الجنة لأن الله تعالى يمن بالرحمة ، ولا يظلم بالعذاب ، لأن من غرق في الماء مع نوح عليه السلام ، وأبناء الأمم التي هلكت ، أيذهبون باطلاً لا الى جنة ولا نار ويخلق الله تعالى الحور العين والولدان في الجنة ؟ وقد روي عن رسول الله ﷺ انهُ قال : «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجاسنه» (الحديث) . فهذا الذي قلنـا عندي انـظر والله اعلم . انقضى الذي من كتـاب أهل المغرب .

(**مسألة**) : قال الشيخ ابو الحسن - رحمهُ الله - : ان الله تعالى هو المحاسب لعباده ، ويسألهم عن جميع أعمالهم من خير وشر ، ويريهم ذلك فيعلم المؤمن فضل الله عليه ، ويعلم الكافر عدل الله فيه ، والله تعالى ليس بظلام للعبيد ، والله تعالى سريع الحساب ، وأسرع الحاسبين .

واختلف في المقاصة بين البهائم ، والدواب في الآخرة ، فقال قومنا : يقضي الله بين الدواب وتقتص الجماء من القرناء بما نطحتها في الدنيا . وقال أصحابنا : الدواب لا تكليف عليها وانما هي تبعث وتحشر ، كما قال الله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الاَّ أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون﴾ . فقيل : اذا جمعت الدواب يوم القيامة ، فما استحسن منها أهل الجنة كان في الجنة ثواباً لأهل الجنة ، والباقي يكون عقاباً لأهل النار ، ولا عذاب على البهائم والدواب في الآخرة والله أعلــم .

(**مسألة**) : ومن جواب الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي وهل يبعث الله - عزَّ وجل - يوم القيامة جميع ما خلق ، أم المتعبدين فقط ، أم كل ذي روح ؟ عرفني - مولاي وسيدي - ذلك .

الجواب : اختلف العلماء في ذلك ، فقيل : ان جميع الحيوانات تنشر وتحشر الى الموقف ، ويستدل على ذلك بتأويل آيات من التنزيل ﴿انهم الى ربهم يحشرون﴾ . وقيل : معناه يحشرون هو موتهنَّ ، وان الله يتولى موتهنَّ ولا يلزم المتعبدين معرفة ذلك ، وفيما معي ان الأصح قول من يقول : ان الله تعالى لا يبعث الاَّ الجن ، والانس ، والملائكة ، هم ثلاثة أصناف لا غير ذلك ، وهكذا غالب اشارات آيات الذكر الحكيم والله أعلــم .

(**مسألة**) : عن الصبحي ، وفي أرواح الدواب اذا قبضت في التحري انها على قول من يقول : انها تبعث فلا يخلو أن يكون لها مستقر في مكان حيث علم الله ، وعلى قول من يقول : انها لا تعاد فلا يكون لها بقاء ولا مستقر والله أعلــم .

(مسألة) : ومن كتاب النور تأليف عثمان بن عبدالله الأصم ، قال المؤلف : ولا أقول أن الله تعالى يقضي بين الدواب ، كما قال قومنا تنطح الجماء يوم القيامة القرناء بما نطحتها في دار الدنيا ، لأن الدواب ليسوا بمكلفين حتى يقضي بينهم ويحاسبون ، ويقتص منهم ، وهذا شيء لا يصح في حكمة الباري - عزَّ وجل - يعاقب من لا تكليف عليه ، ويحاسب ويحكم ويقتص بين من لم يأمره في دار الدنيا وينهاه ، كالثقلين وانما قيل : انهم يحشرون يوم القيامة ، فما استحسن منهم أهل الجنة ، كان في الجنة ثواباً لأهل الجنة ، والباقي في النار يكون عقاباً لأهل النار لا عذابا على البهائم والله أعلـــم .

وقيل : ان البهائم يدخلون الجنة بالأعواض ، في قول ابي محمد ؛ لأن أبا محمد ؛ قال : ان المكلفين يدخلون الجنة بالتفضيل والعمل ، والبهائم هم الذين يدخلون الجنة بالاعواض ، وقال : فالبهائم والحشرات وجميع ما يجري هذا المجرى لا عقاب عليها ، ولا تدخل الجنة الاّ بالتفضيل ، فلم يبقَ الاّ بالاعواض ، قال المؤلف : فان قيل كيف يدخل المكلفين الجنة بالتفضيل وهم قد استحقوه بعلمهم ؟ لو كان كذلك لكان كل من دفع الى أجير أجرته قد تفضل عليه . قيل لهُ : ان الأجير قد نفع المستأجر بعلمه ، كما نفعه المستأجر بأجرته ، والمكلفون لم ينفعوا الله تعالى بشيء انما كلفهم الله لينفعهم فهذا فرق بين ذلك .

(مسألة) : ومن غيره عن الشيخ ناصر بن جاعد ، لم تقم الحجة بصحة بعث الحيوان وعوضهنَّ ، ولا انها لا تبعث ، وجهل ذلك جائز ، ومن قال في ذلك برأي على ما يظنه انهُ كذا ولم يدن برأيه في ذلك ولا خطأ من قال بخلافه فلا اثم عليه ، ولكنه غيب والله أعلـــم .

الباب الحادي عشر

في الحكم في ذبح الحيوان وإيلامها من كتاب النور

الحكمة في ذبح الحيوان وإيلامها ؛ أن الله تعالى لهُ أن يميت كل ما خلق ويفنيهم ، فلما كانت الحيوان خلقاً من الله ، فلهُ أن يميتهم ، جعل الله موتها على أيدينا ، نذبحها منفعة لنا بذبحها ، وإيلامها ، وركوبها والله يعوضها على ذلك . وكذلك تسليط البهائِم والطيور بعضها على بعض ؛ فان الله يعوضها مما ينال بعضها من بعض ، ولا يفعل الله تعالى شيئاً من ذلك عبثاً .

ولله أن يأمر بذبح الحيوان ، وقد أمر ابراهيم ﷺ أن يصدق رؤ ياه بذبح ولده ، وأمر الخضر عليه السلام بقتل الغلام ، وأمر بني اسرائيل بقتل بعضهم بعضاً ، وليس ذلك بأكثر من أن يأمر ملك الموت بقبض أرواحهم ، ولو لم يكن لله ذلك ، لم يكن لهُ أن يميتهم بعد خلقهم ، مع ان في قتلهم أهون ألماً من موتهم . وأيضاً ؛ فإن هذا في الحيوان التي تذبح لو لم تذبح وأهملت لصارت من الكثرة الى الضياع ، والموت بالحوادث الفظيعة الى ما هو افظع من الذبح ، لانها ليست اكثرها مما تحمي نفسها ، وهي ان لم تذبح تموت لا محالة ، ولسنا مع ما قد بينا نجبر ذبح الحيوان للتلذذ والطرب ، واللعب والعبث ، بلا منفعة بل حرام عندنا قتل الذر وما فوقه مما لا يؤذي . وحرام ضرر الدواب وألمها ، وضربها والحمل عليها فوق طاقتها ، الَّا ضربها ليسوقها بقدر ما يعرف انها تساق بذلك ، وهذا الباب منهُ شيء عن قومنا وهو التعويض يسأل عنهُ .

الباب الثاني عشر

في ايلام الدواب والأطفال والحكمة في ذلك

من كتاب النور : الحكمة في إيلام الأطفال ، والبهائِم ، والهوام ، على معنيين :

الأول : انهُ تعالى عوضهم حتى خرج من أن يكون ظلماً ؛ لأن حقيقة الظلم هو الضرر الذي لا يستحقه المفعول بهِ عقاباً على قبيح لفعله ، فلا يكون في ذلك الضرر وصول نفع أعظم منهُ ولا دفع ضرر أعظم منهُ .

والثاني : في إيلامهم اعتبار للمكلفين حتى خرج من أن يكون عبثاً ، والمعلوم عند الله لو لم يؤلمهم لما صار المكلفون يتقربون الى الطاعات ، ويجتنبون عن المعاصي ، وتصديق ذلك قول الله تعالى في محكم كتابه : ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾ (الآية) .

ففي قتل الغلام حصل لهُ عوض يوم القيامة وحصل للوالدين الطاف كثيرة لأن الوالدين كانا يحبان الغلام محبة كثيرة فربما قد حصلا في محنة من المحن ، فكان سبب قتل ذلك الغلام من كثرة التفقد لهُ انقضى .

وقال المؤلف ولم أجد في آثار أصحابنا ذكر العوض ، والذي سمعت بعض المسلمين يقول : ان الحكمة في ألم الأطفال ، لكي يعلموا فضل الآخرة ان ليس فيها ألم يؤذي .

(مسألة) : سئل بعض العلماء ، عن المرض الذي يصيب الدواب والبهائِم ، يكون لهم ذلك عوضاً في الآخرة أم لا ؟ قال : في هذا اختلاف بين

قومنا ولا أعرف لأصحابنا فيه قولاً والله أعلـــم .

(مسألة) : في إيلام المكلفين من كتاب النور : قال المؤلف : إيلام المكلفين البالغين على وجوه .

الوجه الأول : ان يؤلم الأنبياء ومن لا ذنب لهُ ، لاستحقاق الثواب كألم الأطفال .

والوجه الثاني : ألم المؤمنين من كسب الذنوب ، لم يأتِ منها فلكي يكون حظه ذلك من عذاب النار ، فجعل ذلك الايلام والبلاء عقوبة لهُ لما سلف من ذنوبه .

والوجه الثالث : ألم الكفار والمصرين من الموحدين على ما كسبت أيديهم كالمنافقين ، والفاسقين ، والظالمين ، والجائرين ، ونحوهم ، ممن قد أصر ، فذلك عقوبة لما كسبت أيديهم ، لا انهُ ليكون حظه ذلك من العذاب ، بل عقوبة في الدنيا والآخرة .

الاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك من المؤمنين .

وقد يعمي الله المؤمن أو يصم أذنيه وذلك صلاح لهُ ، لعلمه ان لم يكن أعمى ، أو أصم ، لاكتسب بتلك الجارحة مما يورده بهِ جهنم ، فكان في صممه أو عمائه ارتفاع ذلك الذنب العظيم الذي يورده عذاب الجحيم .

الباب الثالث عشر

في خلق السباع ، والهوام ، والابراص ، والاريح المكروه ، وفي جواز الابتداء بامثال الثواب

من كتاب (النور) قال المؤلف : الحكمة في حمل أذى ذلك لنا في الدنيا ، لكي نذكر عذاب جهنم الذي فيها أعظم مما أصابنا ، ونذكر نعيم الجنة نرى لها فضلاً عظيماً ، اذ ليس فيها ألم يؤذي الاّ لذة وسروراً مع أن الذي يصيبنا من آلام ، ولدغ الدواب ، والارايح المكروهة ، ولو لم يصبنا شيء من ذلك قط البتة ؛ ما وقع في قلوبنا الزجر بذكر عذاب جهنم ، كما يقع بقلوبنا اذا اذاقنا الله طرفاً من ذلك في الدنيا من لدغ الدواب ، وأمراض وارايح مكروهة .

(مسألة) : ان سأل سائل : ان الله خلق الخلق ، لِمَ خلقهم ؟ وخلقهم لِمَ رزقهم ؟ وأماتهم لِمَ بعثهم ؟ وبعثهم لِمَ حاسبهم ؟ وحاسبهم لِمَ غفر لهم ؟ فيقال لهُ : خلقهم ليريهم حكمته . ورزقهم ليريهم نعمته . وأماتهم ليريهم قدرته . وبعثهم ليريهم رأفته . وحاسبهم ليريهم هيبته . وغفر لهم ليريهم رحمته . وعذبهم ليريهم عدله . والله أعلـم .

فصــل : من كتاب ركن الدين تأليف المعتزلة ، فيما زعم قوم انهُ يجوز الابتداء بأمثال الثواب ، وان جميع ذلك يقع بتفضله من غير استحقاق .

اعلم أن الأصل في ذلك : انهُ لو جاز ان يبتدي الله بالثواب ؛ لكان تكليف الله عباده عبثاً ولغواً ؛ وذلك لانهُ تعالى ؛ لا ينتفع بعبادة العابدين إياه ؛ وانما كلفهم ليتوصلوا بهِ الى منزلة الثواب الذي هو أعلى المنازل . ولا يجوز الابتداء بهِ اذ لو جاز التفضيل به ؛ لكان الواجب ان يبتدي الله عباده بتلك المنازل ، ولا يتعبهم بالتكليف اذا كان لا ينتفع بهِ ، وكان غرضه في تكليفه إياهم استحقاق الثواب ؛ خصوصاً اذ كان المعلوم انهُ يعطب في ذلك

اكثر الخلق ويأدب لأن الثواب يجري مجرى المدح والتعظيم ، ولا يجوز الابتداء بذلك من غير استحقاق ؛ لأن مدح من لا يستحق المدح ، وتعظيم من لا يستحق التعظيم يقبح في العقول . ومما تعلقوا بهِ في ذلك قوله تعالى : ﴿من جاء بالحسنة فلهُ عشر أمثالها﴾ ، قالوا : فالتسعة تفضل وهو من أفعال الثواب ؛ لأن الواحد منهُ ثواب ، والباقي تفضل ، واذا جاز أن يتفضل بتسعة أمثال الثواب جاز أن يتفضل بذلك الواحد أيضاً ؟

الجواب : الظاهر يقتضي : أن من جاءَ بالحسنة فلهُ من قبل الله عشر أمثال الحسنة ، ولم يقل عشرة أمثال الثواب ، ولم يبين انها أمثالها في أي وجه . وبهذا القدر لا يعرف المراد ، وبعد ؛ فان ذكر التماثل ، مع تقدم وصف يقتضي حمله عليه والذي تقدم من الوصف هو كونها حسنة ، فيجب أن تكون العشر أمثالاً في انها حسنة ، ولا يفهم بذلك انهُ جزاء ، أو تفضل ؛ لانهُ تعالى اذا تضمن فعل الأمرين جاز ان يقال : ان الفاعل لطاعة ذلك من قبلة كما اذا كان مستحقاً لهُ ، جاز أن يقال هذا القول : فمن أين انهُ يثبت لا على الفعل ؟ والمراد بالآية ؛ انهُ يفعل ما يستحقونه من الثواب ، ويعطي المثابة على جهة التفضل بغير حساب ، فيكون ذلك تفضلاً ، والحسنة الواحدة ثواباً ، وان كان في العدد يزيد على التسعة ؛ لأنهُ اذا كان وجه التماثل كونها حسنة لا العدد ، لا يمتنع فيها ما ذكرناه ، ولولا أن الأمر على ما قلناه لوجب القطع على الطاعات على ان الطاعات لا تتفاضل فيما يستحق بها من الثواب ، ولوجب القطع على أن المستحق لجميعها هذا القدر ، وهذا لا يصح عند الكــل .

وإنما أراد الترغيب في الطاعة ، بتضمن التفضل مع الثواب . فاما المعصية فلا يجوز أن يفعل في عقابها أكثر من المستحق لا عقاباً ، ولا تفضلاً ؛ لأن الابتداء بهِ ظلم ، فالزيادة فيه قبيحة فلا يجوز أن يتوعد . وكذلك قال عقيبه : (وهم لا يظلمون) مبيناً انهُ لا يفعل الاَّ القدر المستحق ، ولو كان الأمر كما قالوا لوجب أن لو فعل أضعاف ذلك ، لا يكون ظلماً وكأن لا يكون لهذا القول معنى .

الباب الرابع عشر

في حقيقة الايمان وقول العلماء في ذلك

من كتاب (الارشاد) : الايمان : هو التصديق لما أخبر بهِ المخبر من أمر الغيب . لأن الله تعالى أضاف الايمان الى القلب ، كما قال تعالى : ﴿قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ ، وقال : ﴿الأ من أكره وقلبه مطمئن بالايمان﴾ . واما محل الاسلام من الايمان ، كمحل الضوء من الشمس ، فكل شمس ضوءٌ وليس كل ضوء شمساً ، وكل مسك طيب وليس كل طيب مسكاً . فكذلك الايمان اسلام ، وليس الاسلام ايماناً اذا لم يكن تصديقاً ؛ لأن الاسلام هو الخضوع والانقياد ، الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ فاستسلموا من خوف السيف . والله أعلـم .

(مسألة) : قال النبي ﷺ : «الايمان سر وأشار الى صدره والاسلام علانية» ، وقال ﷺ : «يا معاشر الناس من ليس بمؤمن أسلم بلسانه ولم يدخل الايمان في قلبه» . وقال تعالى : ﴿يؤمنون بالغيب﴾ أي يؤمنون بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، ولقائه وجنته وناره ، وجميع ما جاء بهِ رسل الله عنهُ ، من جميع ما أمر بهِ ونهى عنهُ . والله أعلـم .

(مسألة) : وقيل : ان الايمان ثلاث مقامات :

أحدها : انطواء القلوب ، وضمير النفوس على اعتقاد التوحيد لغةً وشرعاً . وسئل النبي ﷺ عن الايمان : فقال : «الايمان ههنا وأشار الى صدره» ، وقال عليه السلام : «الايمان اثبت في قلوب أهله من الجبال

الرواسي على قرارها» ، وقال ﷺ لعمار بن ياسر ـ رضي الله عنهُ ـ : «الايمان أحلى من العسل لا يدخل قلب مؤمن ثم يخرج منهُ» . في أمثالها من الأحاديث . وجميع ما حكى الله في كتابه من ذم المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ، دليل على أن الايمان لا بد فيه من اعتقاد القلوب حين ذمهم اذ لم يعتقدوه في قلوبهم .

والمقامة الثانية : الاقرار باللسان نطقاً ، والاعراب عن الضمير وقفاً ، وقلبه تحقيقاً وصدقاً ، وهذا دون الأول ؛ لأن الأول يجزي عن هذه العلل ، ولا تجزي هذه عن هذه على حال لغةً وشرعاً ، أما اللغة فلأن نطق اللسان واقراره ، عبارة عن التصديق الذي حصل في القلب . قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ معناه : [أقروا] ، وقوله ـ عليه السلام ـ : «من آمن بلسانه ولم يخلص الايمان الى قلبه» . والادلة قائمة على اثبات الايمان في القلب ، والنطق بهِ باللسان . وقال الله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ فذم بنطقهم بالايمان بألسنتهم ولم يعتقدوه بقلوبهم ، وكثير من الأدلة تبين هـــذا .

المقامة الثالثة من الايمان : هو العمل بالأركان ، وبحقيقة الأفعال شرعاً ، وسمعاً ، أما الشرع فقول الله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع أيمانكم﴾ أي : [صلاتكم] عند بيت المقدس . وقال النبي ﷺ : «الايمان مائة جزء أعلاها شهادة أن لا إله إلاّ الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق» . وقال عليه السلام : «الحياء شعبة من الأيمان» ، وقال : «الصبر والسماحة من الأيمان» ، وقال : «حسن العهد من الايمان» ، وقال : «الصبر نصف الايمان» وكثير من الأخبار دالة على أن الأعمال من الايمان .

فمن خرج من هذه المقامات الثلاثة ؛ فهو كما قال الله : ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ . ومن كان الايمان في قلبه وخلا منهُ لسانهُ وعمله ، فهو كقوم فرعون الذين قال الله فيهم : ﴿ألم احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ الى قوله تعالى : ﴿وليعلمنَّ الكاذبين﴾ .

والمؤمنون يتفاضلون في الايمان على قدر ترقيهم في درجاته ، فالدرجة الأولى هي المعنى الذي كلف الله عباده المؤمنين ورضيه منهم : وهو قوله تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه﴾ (الآية) ، وقال : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ . فهذا الايمان وهو تصديق عامة المسلمين واعتقادهم ، يشد ويقوى تارةً ، ويضعف ويسترخي أخرى ، وهذا موجود في اعتقاد المؤمنين ، والعمل يؤثر في نماء هذا الاعتقاد وزياداته ، كما يؤثر الماء في نمو الأشجار علواً ، وفي رسوخ أصولها سفلاً . قال الله تعالى : ﴿ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم﴾ فهذه الزيادة فيما قيل لما أقروا بالجملة التي دعاهم اليها رسول الله ﷺ ، أوفوا بها عند مباشرة العمل ، فزادهم الله إيماناً ، وتصديقاً ، ويقيناً ، فدل هذا على أن الايمان يزداد بعمل الطاعات ، وينقص بانتهاك المحرمات ، والله أعلـــم .

(مسألة) : روي عن النبي ﷺ ، انهُ قال : «الايمان يزيد وينقص» ، وذلك بتأثير الطاعات في القلب . ولهذا قال علي بن ابي طالب : ان الايمان يبدو لمعة بيضاء في القلب ، فاذا عمل العبد الصالحات ، نمت وزادت حتى يبيض القلب كله ، وان النفاق يبدو نكتة سوداء فاذا انتهك المحرمات ، نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه . وذلك الختم ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ . فاذا تحقق العبد الأيمان ورسا في قلبه ، انتقل الى درجة هي اعلى مما كان فيه : وهي الظن الذي مدح الله بهِ المؤمنين : قوله : ﴿الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون﴾ . وقال : ﴿ان لا ملجأ من الله الاَّ إليه﴾ . وهذا الظن درجة في الايمان اعلى من أوائله ، وهذا الظن الذي هو بمعنى اليقين لا بمعنى الشك .

فمن سكنت نفسه الى وجود الباري سبحانهُ وتعالى ، ووقع في قلبه الأيمان بهِ ، زال عنهُ الجهل والشك ؛ لأن الشك هو تردد وتوقف بين أمرين لا مزيد لأحدهما مع الآخر . والظن ترجيح أحد الجانبين ، فمن رجح جانب ظنه الى جانب العلم فهو ظن محمود ؛ لانهُ جاوز حد الجهل والشك الى

الايمان . فحقيقة الظن ميلان النفس الى تحقيق ما اعتقد المؤمن وآمن بهِ ، والظن يؤول الى العلم ؛ لأن جل أحكام الشريعة انما بنيت على غلبات الظنون ، فاذا قوي الظن صار علماً وهو ان يلوح المعنى الذي اعتقده القلب فتطمئن اليه النفس وربما يعضده الدليل ؛ فيتضح بهِ السبيل .

وهذا العلم نور يقذف في قلب المؤمن فيتسع القلب بهِ وينشرح ، قال الله تعالى : ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي بهِ من نشاء من عبادنا﴾ (الآية) ، وقال تعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام﴾ (الآية) . فقيل لرسول الله ﷺ : ما هذا الشرح ؟ فقال عليه السلام : «ان النور اذا دخل في القلب انشرح بهِ الصدر وانفسح» ؛ قيل لهُ فهل لذلك من علامة يعرف بها قال : نعم «التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» . فالعلم درجة في القلب أعلى من درجة الايمان . ولذلك فرق الله تعالى بين درجة الايمان ، ودرجة العلم ، فقال : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ . ومن غيره فلحن الخطاب : (يرفع الذين آمنوا درجة والذين أوتوا العلم درجات) .

رجـــع

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - انهُ قال : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبع مائة درجة ، ما بين الدرجتين مسير خمسمائة عام ، فان ازداد العلم صار يقيناً واليقين : ازاحة الشك ، وهو علم راجح في القلب زائلته الشكوك ، وفارقه الاضطراب ، واستحكم في النفس حتى يكون كأنهُ عن مشاهدة ، فلهذا قال نبينا عليه السلام : «ان أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» . وقال ابن عباس : (اعمل على الرضا واليقين والاَّ ففي الصبر على ما تكره خير كثير) . وعنهُ عليه السلام : «لا ترضين احداً بسخط الله» . والله أعلـــم .

(مسألة) : قال بعض العلماء : ان أقل اليقين اذا وصل الى القلب ،

ملأ القلب نوراً وشكراً ، ومن الله خوفاً ، ونفى عنهُ كل ريب . والتوحيد نور والشرك نار . ونور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين ، من نار الشرك لحسنات المشركين ، واراد بهِ اليقين . وقد أشار القرآن الى ذكر الموقنين في آيات كثيرة ، تدل على أن اليقين هو الرضا للخيرات والسعادات ، وانهُ اعظم ما للعبد من الهبات ، والله أعلـــم .

(مسألة) : قال بعض العلماء : أول المقامات : المعرفة ، ثم اليقين ، ثم التصديق ، ثم الاخلاص ، ثم المشاهدة ، ثم الطاعة ، والايمان اسم يجمع هذا كله اشار هذا القائل الى ان الواجبات : هو المعرفة بالله سبحانهُ . وقال بعض : حرام على قلب ان يشم رائحة اليقين ، وفيه سكون الى غير الله . وقيل : اليقين داع يدعو الى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو الى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر في العواقب . والله أعلـــم .

(مسألة) : قال بعض العلماء : ثلاث من أعلام اليقين : النظر الى الله في كل شيء رجوع ، والرجوع الى الله في كل أمر ، والاستعانة بالله على كل حال . واختلف في معنى اليقين فقال بعضهم : اليقين علم مستودع في القلب غير مكتسب . وقال آخرون : اليقين تحقيق الاسرار بحكم المغيبات . وقال قوم : العلم : التعلم بمعارضة الشكوك ، واليقين لا شك فيه واشار الى العلم الكسبي . وقيل : هو العلم الذي لا يتحول ، ولا ينقلب ولا يتغير في القلب . وقال بعضهم : اليقين : هو المكاشفة وقيل : اليقين : رؤ ية العيان بقوة اليقين . والله أعلـــم .

(مسألة) : ومنازل العباد على تفاضلهم في اليقين ، فالملائكة أعظم يقيناً من الأنبياء ، والأنبياء والرسل أعظم يقيناً من غيرهم من المسلمين . وأصل اليقين العلم والابلاغ فيه أن الأمور كلها من عند الله ، وقد يتفاضل الناس في الدوام عليه . وقلة السهو على قدر تفاضلهم . واليقين يصيبه المسلم ، وغير المسلم ، ولكن لا يستحق بهِ الثواب الاَّ المسلم الموفي بدينه ، ويستجاب

الدعاء باليقين للناس كلهم المؤمن وغيره ، ولكن غير المؤمن لا يستجاب لهُ الاّ دعاء الدنيا خاصة . ومن كثرة اليقين يكون البراهين ، والعلامات ، ولكن ليس في ذلك ما يستوثق بهِ لأمر الآخرة ، ولكن يزيد الرغبة ، والاجتهاد . والله أعلـــم .

(مسألة) : وقيل : اليقين : استقرار معرفة العارفين وقيل : اليقين هو التصديق يزيد بزيادة الايمان ، وينقص بنقصانه ، ويتزايد الناس في اليقين ، بلزوم القلب للمعرفة التي يتولد منها اليقين . وروي انهُ قيل : يا رسول الله ، بلغنا ان عيسى عليه السلام كان يمشي على الماء قال : «لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء» ؛ فعلى قدر شغل القلب بامور الدنيا يضعف اليقين ، وروي عن النبي ﷺ انهُ قال : «اخوف ما أخاف على أمتي ضعف اليقين» فكل يجاهد على قدر قوة يقينه ويقرب من الله تعالى على قدر مرتبته . وقيل : من امارات المعرفة بالله : حضور الهيبة من الله . والله أعلـــم .

(مسألة) : قال النبي ﷺ : «دعامة الدين المعرفة بالله ، واليقين والعقل المانع عن معاصي الله ، والحرص على طاعة الله» . ومعنى المعرفة بالله تعالى : ان يعرفه بأياديه الكاملة ، وصفته البالغة ، وقدرته التامة . فاذا عرف العبد ربه ؛ لزمت قلبه الرغبة والرهبة ، وامتلأ قلبه عظمة وحياء ، وتزايد المعرفة في قلب العارف بحسن التفكر ، والاعتبار في اتقان ما يشاهده من اتقان صنع الله ، وحسن تدبيره في جميع خلقه . والله أعلـــم .

(مسألة) : وقيل : معرفة الله تعالى بحر لا يدرك لهُ قعر ، ولا يحيط بهِ بشر ، وانما يحوم الخلق على سواحله واطرافه ، بقدر ما يتيسر لهم . وما خاض بعض اطراف بحر معرفته الاّ الأنبياء ، والأولياء ، والراسخون من العلماء على قدر درجاتهم . وهذه المعرفة اذا قويت في قلب العارف ، لاح لهُ من ربهِ اللطف الخفي ، والنور الجلي ، واستولى على قلبه حب ربه ، واستأنس بذكره في الخلوات ، وغلب نور قلبه على نور بصرهِ ، وظهر لهُ من ذلك من مزيد ربه ، ومن غيره فابصر الدنيا خيالاً ، والآخرة منالاً ، ولحق بالصالحين مآلاً .

رجـــــــع

- جعلنا الله من أهل طاعته ، وتوفانا مع أهل رحمته - . والله أعلـــم .

(مسألة) : ومن جواب الشيخ الفقيه صالح بن سعيد الزاملي ، وما صفة اليقين الممدوح في الأثر ، وما أصله وكيف صفته حتى يكون موقناً على الحقيقة ، وما الذي يسعهُ على ذلك ؟ وكذلك الخلق الحسن ، ما صفته ؟ وكذلك تطهير القلب ما صفته حتى يكون طاهراً ؟

الجواب : أما الخلق الحسن اذا وافق في أفعاله ، وكلامه ، وحركاته الحق : هو الخلق الحسن . واما اليقين : فهو اذا أيقن الانسان بوعد الله ، ووعيده وعرف الله حق معرفته ، وانطردت عنهُ الشكوك والحيرة ؛ فذلك هو صاحب اليقين . وأما طهارة القلب : فهي طهارته من الخواطر الوحشية التي تدله على الشر ، من الحسد ، والكبر والغل ، والاعجاب ، وغير ذلك من الخصال المذمومة . وأما السعادة : فأمرها الى الله - عزَّ وجل - .

قال غيره : - ولعله ابو نبهان - أما الخلق ؛ فعسى أن يكون حالة في الباطن من العبد ، يصدر منها في الظاهر ما على الجوارح يظهر عنهما من أفعال جميلة محمودة ، أو على العكس في الخلق ، وليس من الحسن في شيء على حال ، الاَّ ما وافق الحق . واليقين ما تأدى الى القلب - من علم لا شك معهُ في أمر الدنيا ، أو الدين - والممدوح ما أهداه الى ربه فدله على مواضع قربه . وأما طهارته : فعبارة عن ازالة ما بهِ من أخلاق مذمومة . فأما قطع الخواطر الردية ، ان تعرض لهُ فليس من طاقة البشرية ، وانما غاية ما يقدر عليه من قد بلي بها ان يخالفها الى ما يقابلها على الضد منها كراهة لها ، والمسعد على هذا ما في الآيات ، والخبر ، والاجماع ، والنظر في صحيح الأثر ؛ حتى يخرج من قعر بحارها جواهر أسرارها . والله أعلم فينظر في ذلك .

(مسألة) : ومن كتاب شرح قصيدة أبي نصر فتح بن نوح المغربي : والايمان معناه : التصديق ، ولهُ خمس مقامات :

أحدها : درجة الايمان الذي كلفه الله عباده بقوله : ﴿آمن الرسول﴾ (الآية) واليه توجه قول الرسول عليه السلام : «عليكم بإيمان العجائز» .

والثاني : درجة الظن الذي بمعنى اليقين : وهي اعلى من الايمان المتقدم ، ولذلك مدح الله - تعالى - المؤمنين فقال : ﴿الذين يظنون انهم ملاقو ربهم﴾ .

والثالث : درجة العلم ، ولذلك فضل الله أهل العلم بِهِ على سائر المؤمنين ، فقال : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم﴾ ، فلحن الخطاب درجة ، والذين أوتوا العلم درجات .

والرابعة : درجة اليقين ؛ فهو علم راسخ في القلب ، قد زايله الشك ، واستحكم في النفس حتى كاد أن يكون مشاهدة ، ولذلك قال عليه السلام : «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» ، وقال عليه السلام لابن عباس : «اعمل على الرضا واليقين والاَّ ففي الصبر على ما تكره خير كثير» . وقال تعالى : ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ .

والخامسة : درجة المعرفة ؛ وذلك اذا قوي يقين العبد ، واستولى على قلبه أحب ربه ، واستأنس بذكره في الخلوة ، ورضي بقضائه في كل مهمة ، صار من جملة العارفين الذين جاء فيهم الحديث : «اذا حضروا لم يعرفوا واذا غابوا لم يفقدوا» . قال بعضهم : -

فلولا الله يحفظ عارفيه ... لهام العارفون بكل واد

وقال آخر : -

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرونا

فصل : الايمان جميع ما قارنهُ الثواب .

وهو على وجهين : ايمان توحيد ، وايمان الفرائض ، فكل توحيد

ايمان ، وليس كل ايمان توحيد ، وكل طاعة لله ايمان ، وكل ايمان طاعة ، وكل ايمان اسلام . والتوحيد ايمان لعلة وجوب الثواب عليه ، وهو معنى غيره . وكذلك ، كل خصلة من خصال الايمان ، يقال لها : ايمان بالتنكير ولا يقال : الايمان بالتعريف الاَّ للوفاء بجميع الدين ؛ لأن الله تعالى ذكر الصلاة فسماها إيماناً بالتنكير ، فقال : ﴿وما كان الله ليضيع ايمانكم﴾ ، وقال في الايمان الذي هو الوفاء بجميع الدين : ﴿ومن يكفر بالايمان﴾ (الآية) .

(مسألة) : فان قال قائل : لم كان الايمان إيماناً ؟ قيل لهُ : لعلة وجوب الثواب . فان قال : تلك العلة أإيمان أو غير إيمان ؟ قيل لهُ : هي غير الايمان ؛ لأن الثواب غير الايمان . فان قال : لِمَ قارن الثواب الايمان لمعناه أو لمعنى غيره ؟ قيل لهُ : قارنهُ الثواب لمعناه ، وليس هناك معنى غير الايمان . فان قال : قارن الثواب الايمان التوحيد لاجل انهُ توحيد ، أو لغير انهُ توحيد ؟ قيل لهُ : كلا الوجهين غير جائزين ؛ لانا اذا قلنا : قارنهُ الثواب لأجل التوحيد ، ابطلنا عن غيره ان يكون قارنهُ الثواب ، أو قلنا : قارنه الثواب لعلة انه ايمان ، ابطلنا عن غيره ان يكون قارنه الثواب . وكذلك لو قال : الأمر مفارق للتوحيد انهُ توحيد ، أو لغير انهُ توحيد ؟ قيل لهُ : الأمر مفارق للتوحيد لعلة انهُ طاعة ، فيدخل في هذه العلة كل طاعة ، من توحيد ، أو غيره ، ولا يقال قارنهُ لمعناه ولا لمعنى غيره ، وبالله التوفيق .

(مسألة) : قال ابو عبيدة - رحمهُ الله - : . العزم على الايمان ايمان ، والعزم على الكفر ليس بكفر حتى يفعل ، وقال ابو سعيد - رحمه الله - : الايمان يزيد ولا ينقص ، لانهُ اذا انتقص منهُ شيء بطل كلهُ . ويقال : ان الايمان يضعف ولا ينقص . وقيل : كل طاعة لله تعالى فهي من الايمان ، الاَّ ان من الطاعة الوسائل ، وترك الوسائل لا يكفر بهِ العبد ، والايمان اذا ترك كان تركه كفراً . والله أعلـم .

(مسألة) : روي عن النبي ﷺ ، انهُ قال : «قال جبريل عليه السلام : لن يجد المؤمن طعم الايمان ، ولا يكون مؤمناً حقاً ، حتى يصل من قطعه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويحسن الى من أساء اليه» . فمن

فعل هذا مع استقامته على دين الله ، كان من المتقين ، ووعد الله المتقين الجنة [اللهمَّ وفقنا لطاعتك ، واهدنا الى سبيل رضاك ، يا أرحم الراحمين] .

فالايمان اعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة والعلم ، ويضعف بالمعصية والجهل ، ليس الايمان بالتحلي ، ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل ، ولا يدخل احدٌ الجنة الاَّ بعمل صالح يتقنه ، أي : [يحكمه] والايمان باطن في القلب وظهور العمل الصالح يدل على زيادته . والله أعلـــم .

(مسألة) : وقد كان وقع في صدر الاسلام تكلف سؤال ، كان تركه خيراً من تكلفه ، كأن يقول أحدهم لصاحبه : أَمؤمن أنت ؟ فاختلف الجواب ومنهم في ذلك من قال ، انا مؤمن - إن شاء الله - واستثنى خوفاً من التزكية ، وخوفاً من خاتمة المعصية عنهُ .

ومنهم من حاد عن لفظ السؤال الى لفظ هو عنده أسهل ، فقال : آمنت بالله ، وكتبه ، ورسله ، ونحو هـذا .

ومنهم من قال : أنا مؤمن ؛ وخاف أن يدخله ان استثنى ابهام شك .

ومنهم من لم يجب ، وقال : أرجو ولم يقطع الخاتمة .

وربما تأول من أمسك عن الجواب ، قول الله تعالى : ﴿واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه إيماناً﴾ . فلم يخبر عن المؤمن بجواب ، فاخبر الله بقوله : ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ . وأرى هذا السؤال نجم بالعراق .

وروي : ان رجلاً من أهل الشام قدم العراق ، وكان الرجل قد صحب معاذ بن جبل ، وأخذ عنهُ ، فحضر قوم من أصحاب ابن مسعود ، فقالوا لهُ : أَتشهد انك مؤمن ؟ فقال : نعم ؛ فقالوا : أَتشهد انك في الجنة ؟ قال : أخاف الذنوب . فقالوا : نحن نشهد ان المؤمنين في الجنة ، ثم ذكروه لابن

مسعود أتشهد انك مؤمن ؟ قال : نعم ، قال : أتشهد انك في الجنة ؟ قال أخاف الذنوب . فقال لهُ : أفلا ارجيت الاولى كما أرجيت الثانية ؟ وأراه قال : لو شهدت اني مؤمن ، لشهدت اني في الجنة فقال الشامي : صلوات الله عليك يا معاذ ، ما كان معاذ يخوفنا الاّ من أمثالك ، فقال لهُ عبدالله وما قال لكم معاذ ؟ فقال : اتقوا زلة العالم ، وأراه خشن القول لابن مسعود فقال : وهذه زلتك يا ابن مسعود ؛ أما علمت ان الناس كانوا في زمان رسول الله ﷺ مؤمن ، ومنافق ، وكافر ، ومن لم يكن من المؤمنين كان من الصنفين الآخرين . فروي : ان ابن مسعود ، اعترف لهُ انها كانت زلة منه ، وكان ذلك الاعتراف من ابن مسعود - رضي الله عنه - بفضل خشيته ، ولو احتج عن قوله لوجد مقالاً ، ولكن كان من الخشية لله على عظم رتبة ، مع انهُ كان يرى لمعاذ ولفضله .

وقد روي عنهُ - رضي الله عنه - انهُ قال : ان معاذاً كان امة قانتاً لله حنيفا ، ولم يك من المشركين . فظن السامع انهُ كان غلط فقال : (ان ابراهيم كان امة) كأنه يذكره بلفظ الآية . فأعاد ابن مسعود : ان معاذاً كان أمة قانتاً لله كما قال أولاً ثم قال : أتدري ما الأمة ؟ قال : الذي يعلم الناس بها الخير ، يعني وقد كان معاذ كذلك . والقانت المطيع لله ، وأراه قال : وقد كنا نشبه معاذاً بابراهيم ﷺ .

(**مسألة**) : ومن سئل عن الايمان ، وهو مؤمن فقيل لهُ : أمؤمن أنت ؟ فانهُ يقول : ان كنت تريد اني من أهل الاقرار بالايمان ؛ فنعم ؛ انا مقر بالايمان ، وبجميع أحكامه وان كنت تريد الايمان الحقيقي الذي قال الله فيه : ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ فلا علم لي في ذلك ، وعلمه عند الله تعالى .

فان قال : وما دليلك على قولك هذا ؟ فقل لهُ : ان المؤمن قد يقال : انهُ مؤمن ، لما يبدو منهُ من الاعتراف بالدين والايمان . وقد جرت الأحكام في الشرع في مثل قول الله تعالى : ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ . فلم يكلفوا الناس ان يطلعوا على بواطن العبيد ، وما تسره قلوبهم ؛ ولكن تجري الأحكام بما ظهر من علانيتهم في أحكام التسمية بالايمان ، والموافقة لأهل الايمان في القول

والعمل ، ولو لم يكن كذلك ؛ لم يوجد من يقطع بإيمانه على الغيب من نفسه . وكذلك قولهُ تعالى : ﴿فمن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض﴾ فوسع لهم على ما يجري في ظاهر الحكم ، ولم يكلفهم علم ما غاب عنهم من بواطن القلوب ، وان كنت تريد اني مؤمن حقاً عند الله ، فلا علم لي في ذلك ؛ لاني اذا قلت : مؤمن حقاً عند الله ، فقد شهدت لنفسي بالجنة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ .. وأيضاً اذا قال : أنا مؤمن حقاً عند الله ، فقد زكى نفسهُ وخالف تقى الله ؛ لأن الله يقول : ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ . فلا يجوز لاحد ان يقول : انهُ من أهل الجنة ؛ لان ذلك من تكلف علم الغيب الذي لم يجعله الله لأحد من عباده ، الاَّ الأنبياء والمرسلين . والله أعلـــم .

(مسألة) : روي ان النبي ﷺ ، قال لحارثة : كيف اصبحت يا حارثة ؟ قال : مؤمناً قال : فما حقيقة ايمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني انظر الى عرش ربي بارزاً ، وكأني انظر الى أهل الجنة في الجنة يتزاورون ، وكأني أسمع عواء أهل النار . فقال لهُ رسول الله ﷺ : «عرفت فالزم» . فقتل حارثة في بعض مغازي رسول الله ﷺ شهيداً سعيداً . فلما قتل ، جاءَت امه الى رسول ﷺ ، فقالت : يا رسول الله : ان يكن حارثة في الجنة فلا ابكي ، ولا ابالي ، وان يكن غير ذلك فسترى ما أصنع . فقال رسول الله ﷺ : «يا أم حارثة أجنة واحدة هي انها لجنان كثيرة وانهُ لفي الفردوس الأعلى» . فرجعت وهي تضحك وتقول : بخ بخ لك يا حارثة . والله أعلـــم .

(مسألة) : وقيل : ان عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن مسعود ، اختلفا فقال عبدالله بن مسعود : أنا مؤمن حقاً عند الله ، وقال ابن عباس : أنا مؤمن حقاً عند نفسي ، ولا أقول : عند الله ؛ لانك اذا قلت : انك مؤمن حقاً عند الله ، فقل : انك في الجنة ؛ لأن الله يقول : ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات﴾ (الآية) . فقال ابن مسعود : اذا لم تقل مؤمناً حقاً عند

الله ، فأنت شاك في ايمانك ، والله أعلـــم .

(مسألة) : قال ابو محمد : ان سأل سائل فقال : انت مؤمن فقل : نعم ، عند نفسي ، وأما عند الله فلا أدري . واذا قلت : أنا مؤمن بغير شرط فقط قطعت لنفسي بالشهادة برضا الله عني ، وقد نهى الله عن تزكية النفس ، وعنه عليه السلام : «لا تشهدوا لأنفسكم بجنة ، ولا نار» ولا يجوز لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين انهُ من أهل الجنة ، ويعتقد ذلك ديناً بحقيقة ذلك الاّ من صح لهُ ذلك بكتاب الله ، أو يشهد لهُ بذلك رسول ، أو نبي ، من أنبياء الله ؛ لأن هذا من تعاطي علم الغيب ، وأخاف أن يكون هالكاً شاهداً بالزور ، حاكماً بالجور الاّ على اعتقاد الشريطة أن كان مات على ظاهر ما صح لهُ ، وصحت سريرته مثل علانيته ، فهذا على الشريطة لا الحقيقة .

ولا يشهد لأحد بالجنة الاّ الأنبياء وقول ابي بكر وعمر لما جاء فيهما ، وازواج النبي عليه السلام ، لقوله : (زوجاتي في الدنيا زوجاتي في الآخرة) والله أعلـــم .

فان قال : اذا كانت أفعالك كلها طاعة عند نفسك ، فَلِمَ لم تشهد بهذه الشهادة ؟ فقل : لأن الله يقول : ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ . وقال النبي ﷺ : «لا تشهدوا لأنفسكم بجنة ولا نار» ؛ فان قال : فان وصفت نفسك بانك مؤمن ، فقد مدح الله المؤمنين . فقل : لاني وجدت المسلمين يسمون كل من كان على مثل ما أنا عليه من الاعتقاد ، والقول ، والعمل ، مؤمناً ؛ فوجب ان اتسمى بهذا الاسم . فان قال : أنت مؤمن حقاً أو كافر حقاً . فقل : ان كنت تعني اني مؤمن حقاً ، أي سعيداً ، فلا علم لي بذلك ، وتلك شهادة غيب محجورة عليَّ وعليك ، والسؤال في الغيب محال ، والمحال ساقط . وان كنت تعني مؤمناً حقاً في حكم ما تعبده الله بهِ ، فتلك حالات لا يستدل عليها الاّ بالأفعال المكفرة ، والأفعال الصحيحة . وفي حال ما أكون عاصياً لله في حكم دينه ، أكون كافراً حقاً في حكم دينه . واما مؤمن عند نفسي حقاً اذا كنت تائباً لله تعالى من جميع ما عصيت الله فيه ، مؤدياً لجميع ما يلزمني أداؤه من طاعته . والله أعلـــم .

(مسألة) : وقيل : انهُ لا يجوز لأحد من الناس ، ان يشهد لأحد بالجنة ، ولو ظهر منهُ ما يستوجب بهِ الولاية من الفعل ، والجهاد في سبيل الله ، والقول والموافقة ، الاَّ من صح لهُ ذلك ، في كتاب من كتب الله ، أو شهد لهُ بذلك رسول من رسل الله ، أو نبي من أنبيائه صلوات الله عليهم ؛ والاَّ فلا يجوز لهُ ان يشهد لهُ بحقيقة ذلك ، فمن شهد لهُ بحقيقة ذلك بغير هذا الوجه ، ودان بهِ فقد تعاطى علم الغيب ، وأخاف ان لا يسعه ذلك ، ولا آمن عليه من الهلاك ، الاَّ على اعتقاد الشريطة لهُ ان كان مات على ظاهر ما صح لهُ من حسن الأعمال الصالحة . ولا يشهد لأحد بالجنة الاَّ للأنبياء . وقول لابي بكر وعمر - رضي الله عنهما - لما جاء فيهما ، ولكنا نشهد لأهل الايمان بالايمان ، والمؤمن في الجنة واما من مات على الكفر فنشهد لهُ بالنار . ويجوز أن يشهد لأزواج النبي ﷺ ، ورضي عليهنَّ بالجنة . والله أعلـم .

(مسألة) : واذا كان رجلان من أهل الولاية ، احدهما يخرج زكاته ، ولا يتصدق على جار ولا قريب ، والآخر يتصدق ويعطي الضعيف ، ويبذل الاخلاق الحسنة للناس ، فلا يجوز ان يقال : هذا كريم وهذا بخيل ولكن يقال : هو أكرم منهُ . ولا يجوز ان يقال لوليين : هذا أورع من هذا ، ولا أصدق منهُ لانهُ يتوهم على الآخر بالكذب وترك الورع . وأما أفضل منهُ فجائز ، اذا كان كذلك في ظاهر الأمر . والمؤمنون يتفاضلون في الدرجات من غير ان ينقص احدهم من منزلته في الفضل . والله أعلـم .

(مسألة) : أبو سعيد يروي عنهُ عليه السلام انهُ : «لا يكون المؤمن مؤمناً حقاً حتى يحب للناس كما يحب لنفسه» . ويخرج ذلك عندي ، انهُ يحب للناس التوبة من الذنوب والكفر ، ويحب لهم العافية من الأمراض ؛ لأن المؤمن قلبه رحيم . ويوجد عنهُ عليه السلام انهُ قال : «الدين النصيحة» قيل : لمن يا رسول الله ؛ قال : «لله ، ولرسوله ، ولكتابه وللأئمة ولجماعة المسلمين» والله أعلـم .

(مسألة) : وقيل : لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب الذل على العز ، والفقر على الغنى ، والموت على الحياة . وتفسير ذلك ؛ أن يحب الذل في طاعة

الله ، على العز في معصية الله ، والفقر من الحلال ، أحب اليه من الغناء في الحرام ، والموت على الطاعة ، أحب اليه من البقاء على معصيته . قال النبي ﷺ : «ليس الشديد الذي يغلب الناس ، ولكن الشديد الذي يغلب نفسه» . وقال : «ثلاث من كنَّ فيه فقد اعطي خير الدنيا والآخرة : ورع يحجزه عن محارم الله ، وخلق يعيش بهِ في الناس ، وحلم يردّ بهِ جهل جاهل» . والله أعلـــم .

(مسألة) : وعند الاشاعرة يجوز ان يقول المرء : أنا مؤمن ، وعند الماتريدي لا يجوز أن يقول المرء ذلك .

وقال الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي : ان كان المراد بقوله : أنا مؤمن في حكم الظاهر وهو مؤمن بالله ، ورسله ، وكتبه ، واليوم الآخر ، وبما جاء بهِ الرسل وبما الزمه الله الايمان بهِ ، فلا شك في جوازه لهُ ، ولزومه عليه ان يشهد على نفسه بكذلك ان اهتدى الى ذلك ، اذ ليس بعد هذا الايمان الّا الشرك ، ولا يجوز لهُ ان يدع نفسه في حال شك فيها انهُ مسلم ، أو مشرك ، ولو كان فاسقاً فهو في الحكم مؤمن في اجراء الاحكام عليه . واما ان كان المراد بقوله : [مؤمن] ان الله قد رضي عنهُ في الدنيا والآخرة ، فهذا من الحكم بالغيب ، ومما نهى الله تعالى عن اعتقاده في غير انبيائه ، أو ولي نزل بهِ الوحي ، او بلسان نبي من أنبياء الله ، لقوله تعالى : ﴿ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ .

(مسألة) : عن الشيخ العالم عامر بن علي العبادي : قلت لهُ : وما معنى الاختلاف في المقالة التي اختلف فيها عبدالله بن مسعود ، وعبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - وقال : ابن مسعود : أنا مؤمن حقاً عند الله ، وقال ابن عباس أنا مؤمن حقاً عند نفسي . فقال ابن مسعود : أنت شككت في دينك . فقال ابن عباس : فان قلت : أنا مؤمن حقاً عند الله فقل : وانا في الجنة أو كلام هذا معناه . أهذا الاختلاف منهما رأياً أم ديناً ؟

قال : بل هو خارج على اختلاف الرأي بينهما ، ولا يجوز عليهما أن

يكونا قد اختلفا بالدين وهما أئمة الأمة ، ومقاييس الظلمة . قلْت لَهَ : وهل يجوز أن يقول المؤمن : أنا مؤمن حقاً عند الله ، أم هذا عندك من القطع في العلم بالغيب ؟ .

قال : لا يكون كذلك كما وصفت من معنى هذا القول ، وهو عندي خارج على الحكم منهُ في نفسه بالظاهر الذي أفاضه الله على عباده المكلفين ، وأوليائه المؤمنين المهتدين ، وأصفيائه المتقين .

قلت لهُ : وما الحجة لمن أجاز القول بذلك ؟

قال : فالحجة في ذلك في كتاب الله تعالى ، قولهُ تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ ، وقال في موضع آخر : ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ . فلما ان صح لهذا القائل بقوله ذلك انهُ قد دخل في الاسلام الذي ارتضاه مولاه ديناً يدين بهِ العبد اليه ، فافترضه على لسان رسوله ﷺ ، وهو الحجة لله البالغة في ارضه ، وامينه على وحيه ، ولم يعلم من نفسه انهُ قد أضاع شيئاً منهُ ظاهراً وباطناً ، واستقام على الطريقة التي أوضحها الله للسالكين ، الطالبين الى مرضاته ، جاز لهُ ان يقول : انا مؤمن حقاً عند الله ؛ لانهُ قد استقام على الايمان الذي رضيه الله لهُ إيماناً ؛ لأن اسم الحق شامل على جميع من قامت لهُ ، وعليه بهِ الحجة من حجج الله ، في حكم الظاهر ، ومن كان هو الحجة في حال ما يكون فيه حجة اذا قام بها ، فقد قام الحق في نفسه ، وفي غيره فهو الحجة ولا يسع من قامت عليه الاَّ قبولها ، والشهادة لها : انها هي حجة الله في أرضه ، فكذلك هذا لما صح معه ما بهِ من الايمان بالله ، ورسوله ، وجملة دينه الذي تعبده الله بهِ مستقيماً عليه ، جاز لهُ أن يقول : أنا مؤمن حقاً عند الله ؛ لأني على الحق الذي انزله الله ، من الأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، مقر مصدق مؤمن بهِ ، دائن بجميع ما افترضه الله عليَّ من دينه ، ولا يسعني أن أشك فيما رضيه الله لي ديناً ، وعند الله اسلاماً ، وأنا عليه وبهِ مؤمن حقاً عند الله ، فهذا على معنى الخبرة منهُ بما صح معه في نفسه ، فكيف لا يجوز ذلك لابن مسعود - رضي الله عنهُ - وهو الذي قد شهدت لهُ بفضله شواهد الحجة التي لا تغيرها

حجة ، وقضت لهُ بذلك الشهرة التي لا تدفعها شهرة ، وكما وسعه هو ذلك ، وسع غيره كذلك على وجه الخبرة بما علمه من نفسه في ظاهر أمره ؟

قلت لهُ فلو قال : انهُ مؤمن حقيقةً هل يجوز القول بذلك ؟ قال : لا يبين لي ان يجوز ذلك لهُ ؛ لأن الحق ظاهر ، وهو غير الحقيقة وهما قد افترقا تسميةً ومعنى ، فأما الحقيقة ؛ فقد خفى الله أمرها على اكثر عباده ، والمؤمن الحقيقي هو الذي صح لهُ ذلك بحكم كتاب الله ، أو على لسان رسول من رسل الله ، عليهم السلام ، انهُ مؤمن أو انهُ سعيدٌ ، وانهُ من أهل الجنة ، وبعكسه في الضد لهُ فذلك هو المؤمن الحقيقي ، وبعكسه للآخر ولو أن هذا المؤمن الحقيقي أشرك بالله ، أو نافق ، أو كفر ، وأقام على ذلك فلا يسع الاَّ ولاية نفسه ، والبراءة من فعله ، وبعكسه ، والحق الذي قد شهد بهِ ابن مسعود بنفسه ، لا يخرج الاَّ على معنى الحكم الذي ظهر لهُ من نفسه مع الشريطة لهُ ان مات على ذلك ؛ لأن الايمان الذي استقام عليه اهله ، فلا يمكن الاَّ أن يكون هو الحق عند الله ، كذلك المستقيم عليه فهو المؤمن حقاً عند الله ، والشريطة فيه ان قبله الله منهُ مع اخلاصه لهُ ، ويحتمل ان يكون قد صح لابن مسعود عنده من رسول الله ﷺ ، ولم يظهر مع غيره ، فقال بذلك : ممتثلاً لأمر الله حيث قال : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ . وأي نعمة أعم وأعظم منها وهي الايمان بالله ، ورسوله ، وما جاء بهِ عنهُ هو الحق ؟ فيحتمل هذا وذاك . والله أعلـــم .

قلت لهُ : وما معنى قول ابن عباس حين قال : انا مؤمن حقاً عند نفسي ؟ قال : هو كذلك عند نفسه بعلمه بها ، واستقامتها على الايمان الذي أوجبه الله عليها في ظاهر حكمه ، وأما ما عنده فلا أعلمه حتى اقطع فيه ، فأتورط في أوراط الافراط ، فأقع في بحر الرجاء فاطفىء نار الخوف منهُ - جل وعلا - ففيما يبين لي خرج على هذا توفيقاً لا شكاً ، وقد قيل : انهُ قد أخذ بقول محبوب وابي محمد . والله أعلـــم .

فتدبروا معاشر المسلمين البصراء باصول دين رب العالمين ، وتأملوا ما شرحته من بيان معاني هذه المقالة ، وتأويل قولها ، على حسب ما بان لي من

معاني ما يخرج لها من اصول الدين ، وخذوا ما بان لكم صوابه ، وردوا ما رأيتم من غلطه وعتابة ، وخطئه وباطله ، وأنا استغفر الله من جميع ما خالفت فيه الحق والصواب ، والحمد لله على كل حال ، ونسألهُ الاعانة لجميع الأحوال .



الباب الخامس عشر

في البعث والحساب والاقرار بذلك

وأما الحساب فحق لازم بقوله تعالى : ﴿ألا لهُ الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ . وليس حساب ربنا كحساب خلقه ، وانما هو حكم ، وعدل ، وعلم بأعمال العباد التي عملوها ، وحساب الله للخلق أجمعين ، مثل حسابه لرجل واحد لا يشغله حساب هذا عن حساب هذا ، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن .

وأما الكتب فقد قيل : انها تطاير ويطير كل كتاب الى صاحبه . وقيل : انها تكون قبل طيرانها تحت العرش ، وقيل : انها تكون بأيدي الملائكة الذين كانوا يكتبون على بني آدم ، فيعطون بني آدم كلاًّ منهم كتابه ، فيقرأه ، فان قرأه ؛ علم بحجة الله عليه ، ويلقي الله ذلك على قلوبهم . والله أعلـم .

(مسألة) : ومن بعض كتب أهل المغرب : وعلينا الأيمان بالبعث ، وقيام الساعة ، كما قال ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور﴾ . فمن جهل هذا وانكره ، أو شك فيه بعد قيام الحجة عليه ، فهو مشرك . وقد احتج الله على منكري البعث ، فقال : ﴿يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب﴾ (الآيات كلها) .

ثم قال في آية أخرى : ﴿وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت﴾ ، ثم قال : ﴿ذلك بأن الله هو الحق وانهُ يحيي الموتى وانهُ على كل شيء قدير﴾ ، وقال تعالى حكاية عن منكري البعث : ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ ، فقال تعالى : ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ ، فأخبر تعالى ان الذي انشأهم من ماء مهين بعد ان لم يكونوا شيئاً ، قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً .

وعلينا ان نعلم أن الحساب حق ، كما قال الله - عزَّ وجل - : ﴿وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ . وقد روي عن عائشة - رضي الله عنها - انها سألت رسول الله ﷺ ، عن قوله : ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ ، فقال : «ذلكم العرض ولكن من نوقش الحساب فهو هالك» ، وفي بعض الأحاديث : «من نوقش الحساب عذب» . وهو الاستقصاء .

وذكروا عن عبدالله بن عمر قال : ان الله يوقف عبده المؤمن يوم القيامة على ذنوبه فيقول : ألا تعرف ذنب كذا ! فيقول : نعم يا رب اعرفهُ ، حتى اذا اقرره بذنوبه ورأى العبد في نفسه انهُ قد هلك ؛ قال : فاني سترتها عنك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك ثم يعطى كتاب حسناته . وأما المشركون والمنافقون ؛ فانهم : ينادون ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ (الآية) ، أو مثل هذا او دون هذا والله أعلم .

وليس حساب الله لعباده يوم القيامة كحساب الخلق ولكن حسابه فصل وتمييز ، ولا يشغله حساب أحد عن أحد . وفي الحديث : «يحاسب العبد عن كل شيء الاَّ أربعة : طعام يقيم بِهِ صلبه ، وثوبٌ يواري بِهِ عورته ، وماء قراح يشربه ، وبيت يكنه» . وما سوى ذلك ، فهو محاسب عليه . وفي الحديث : «يسأل ابن آدم يوم القيامة عن اربع : عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما انفقه ، وعن ماذا عمل فيما علم» . وقال الله تعالى : ﴿فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ . معناه - والله اعلم - نحاسبهم ونوقفهم على أعمالهم ، ونقررهم ونوبخ الظالمين بأعمالهم . وقال تعالى : ﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان﴾ اراد انهُ لا تخفى عليه أعمالهم ؛ حتى يسألهم عنها .

وقيل : يسألهم لم عملوا ما عملوا ! ولا يسألهم أعملوا أو لم يعملوا ! وقيل : ان الناس يومئذٍ ثلاثة اصناف : فصنفان لا يسألان عن الأعمال : وهم الأنبياء والمشركون ، فالأنبياء الى الجنة بغير حساب ، والمشركون الى النار

بغير حساب . والصنف هم المؤمنون والله أعلـم ، وقال تعالى : ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ وبلغنا ـ والله أعلم ـ في تفسير هذه الآية ؛ ان على جسر جهنم سبع قناطير محابس ، وستأتي في موضعها ان شاء الله .

وذكروا عن بعض الفرق الضالة : انهم انكروا الحساب زعموا ان ذلك منهم : تعظيم لله ـ عزَّ وجل ـ الَّا ينسبوا اليه بأعمالهم ، حتى يسألهم عنها فياسبحان الله ! ما أعظم غباوة من اعتلى بهذا ! ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ ؟ وانما يسألهم توبيخاً للكفار والزاماً للحجة ، وقطع المعاذير وتوقيفاً لهم على أعمالهم ومثل ذلك في القرآن كثير .

ومن كتاب الارشاد : وأما قوله تعالى : ﴿أفمن هو قائِم على كل نفس بما كسبت﴾ فهو لمعنى الكفاية والتدبير ، والثواب ، والجزاء ، والرزق ، والاحصاء لجميع اعمال المكلفين فلا يغيب عنهُ أحد ، ولا يخفى عليه عمل ، ولا يغفل عن رزق أحد ، ولا عن أجله . كما قال : ﴿أفمن هو قائِم على كل نفس بما كسبت﴾ . ليس قيام وقوف ولا انتصاب . والله أعلـم .

(مسألة) : وأما قوله تعالى : ﴿ومن عنده أم الكتاب﴾ يعني : الملائكة المقربين ، وكذلك قوله : ﴿عند مليك مقتدر﴾ ؛ انما أراد عنده في المنزلة ، والرفعة ، والزلفى ، مستحقين لثواب الله ، آمنين من عقابه . كما ذم الله سبحانه المجرمين ، والمشركين ، والمنافقين ، فقال : ﴿ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم﴾ ؛ يريد بهم عنده في المنزلة الدنية اذ كانوا مستحقين العقاب آئسين من الثواب ، ولم يرد بهِ الدنو ولا الرؤية ؛ لانهما لا يجوزان على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، والله أعلـم .

(مسألة) : ومن بعض كتب أهل المغرب ، وعلينا ان نعلم ان الموت حق ، وان كل نفس تموت ، وان كل عاقل يموت ويذوق الموت ، لقول الله تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ . وهل يجوز الشك ؟ يفنون ولم يذاقون الموت ؟ قال في كتاب السؤالات : وان شك فهل يكفر ؟ قال : نعم . واما في

القدرة فيجوز ان يفنوا قبل ان يذوقوا الموت ، وغير العقلاء ليس علينا منهم شيء ، الاّ ان أخذنا : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ ، وأما الفناء فلا شك انهُ يعمهم . وقال في كتاب السؤالات : فان رأى عمن رأى بالغاً صحيح العقل ، قال : عليه ان يعلم انهُ سيموت ، ويبعث ويحاسب ، وان الرسول بعث اليه ، قال : «فمن لم يعلم ذلك أشرك» ، والله أعلـــم .

وقال في كتاب السؤالات : على الناس أن يعلموا انهُ ستكون دار غير هذه حدوث تلك فناء هذه . وقال يحيى ابن أيوب : علينا أن نعلم أن الدنيا ستفنى والدنيا في نفسها الليل والنهار وما فيهما ، وقيل : الدنيا لانها دنت الى الفراق وجمعها دنى .

قـــال المتنبـــي : -

أعز مكان في الدنا سرج سابح　　　وخير جليس في الزمان كتـابُ

وأما الآخرة فهي اسم واقع على الوقت والدار ، قيل لها : آخرة ؛ لانها أخرت لوقت ، وجمعها أواخرات ، ومن [السؤالات] وجمعها أواخر .

(مسألة) : وعلينا ان نعلم أن الله خلق الأشياء ؛ وأما خلقهم لا من شيء ففي ذلك اختلاف . وكذلك فناؤهم لا الى شيء ، واعادتهم لا من شيء ، علينا ذلك فيما ذكر بعض شيوخ أهل المغرب . وزعم عن ابن الحسين انهُ قال : يبقى فيهم عجم الذنب . فقال : أخطأ في ذلك بل يفنون ،

ويصيرون لا شيء موجود ، كما خلقهم لا شيء ، قال : والرد على أحمد انا واياه مجتمعون على انه خلقهم وأبدأهم لا شيء والاعادة مثلها . قال الله تعالى : ﴿كما بدأنا أول خلقٍ نعيده﴾ . قال : وهو قول ابن عباس ـ رحمهُ الله ـ

والله أعلم . على أن الحديث عن رسول الله ﷺ : قال : «كل ابن آدم تأكله الأرض الاّ عجم الذنب منهُ خلق وفيه يركب» . والله أعلـــم .

(مسألة) : وعلينا أن نعلم أن الجنة حق ، وان النار حق ، ومن لم يعلم ذلك ، أو شك فيه ، أو أنكره فهو مشرك . وأوجب بعض المشايخ معرفة أسماء الجنة ، والنار بالعربية كما قدمنا قبل هذا ، وكذلك اذا علم ان لله ثواباً لا يشبههُ ثواب ، وعقاباً لا يشبههُ عقاب ، فلا بد لهُ من معرفة الجنة والنار . وقال بعض المشايخ : عليه ان يعلم أن الجنة قصورٌ ، وانهارٌ وبساتين ، وان النار سوداء مظلمة ؛ لانهم قالوا : لا يعلم الأشياء من لا يعلم حقائقها ، وقد اجتمعت الأمة على أن الثواب واصل ، وان العقاب واصل ، ولم يجتمعوا على دوامها ؛ لان جهم بن صفوان قال : لا باقي الَّا الله ، وسيأتي ذلك في موضعه ـ ان شاءَ الله ـ .

وأما ابن الحسين فأوجب معرفة البعث ، وان معرفتهما من العقليات الواجبات ؛ لانهُ لا بد من ثواب ، وعقاب ، ولا ثواب ، ولا عقاب ، الى الآن ؛ فان قال قائل : ما الدليل على ان ثم دار غير هذه ؟ قيل لهُ : انا نظرنا الى المحسن والمسيء ، فوجدناهم كذا على حالة واحدة في هذه الدار من الغنى ، والفقر ، والصحة ، والسقم ، فعلمنا ان ثم دارا ، غير هذه ، يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء على اسائه ، ليس من الحكمة ان يساوي الحكيم بين المحسن والمسيء ، فان قال : ألله دائِم ؟ فقل : نعم . فان قال فالآخرة دائمة ؟ فقل : نعم . فان قال : ما الفرق بين الدائمين ؟ فقل : الله دائِم بذاته ونفسه ، لا يجري عليه الفناء ، والآخرة باقية ؛ لأن الله ابقاها وأدامها . فان قال : اذا زعمتم ان الآخرة دار البقاء ليست بدار الفناء ، أخبرونا عما اكلوا من ثمارها ، وما شربوا من مائها ، وجميع ما وصل اليهم من لذاتها أزائل هو أم ثابت ؟

الجواب ان كنت تريد ان الذي أكلوه أو شروبه قد زال ، وفني ، لم يعقب مثله ، فهو غير جائز ، وان كنت تريد اذا فني اعقبه مثله ، فذلك جائز . فان قال : يدخل اهل الجنة الجنة فيتلذذون فيها ولا يأكلون ، ولا يشربون ، أو قال : يدخل أهل النار النار ، فيسجون فيها كالحيتان في الماء ، فقد أشرك فيما ذكر في [السؤالات] وهو قول المنانية والنصارى لعنهم الله .

(مسألة) : عن الشيخ صالح بن سعيد الزاملي ؛ وفي المؤمنين : أيبعثون يوم القيامة عراة ، أم عليهم كسوة ، أم احدٌ مخصوص بكسوة دون غيره ؛ لانهُ قد جاء ذكر الكسوة ، وذكر العراء في الأثر ، ولم نعلم بالصحيح من ذلـك ؟

الجواب : فيما عندنا : ان الصحيح : انهم يبعثون عراة ، مؤمنهم وكافرهم ، ثم يكسى بعد ذلك المؤمنون . والله أعلـم .

(مسألة) : ومن غيره : ويوجد عن النبي ﷺ : «ان أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب ولهُ شعاع كشعاع الشمس» . فقيل لهُ فأين أبو بكر ؟ فقال هيهات زفته الملائكة الى الجنة . والله أعلـم .

(مسألة) : ومن كتاب عن بعض قومنا من أهل المذاهب الأربعة ، والكتاب حق اي المثبت فيه طاعات العباد ومعاصيهم ، يؤتى المؤمنون بايمانهم ، والكفار عن شمائلهم وراء ظهورهم ، هو حق لقوله تعالى : ﴿ونخرج لهُ يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ .

والمصنف يسكت عن ذكر الحساب اكتفاء ؛ بالكتاب ؛ لانهُ مستلزم للحسنات ، وانكره المعتزلة زعماً منهم : انهُ عبث ، والجواب ما مرّ ـ قوله ـ . والسؤال حق ، لقوله (عم) أي ؛ [عليه السلام] «ان الله يدني العبد المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره» فيقول : أتعرف ذنب كذا ، وذنب كذا ، فيقول : نعم ، أي رب حتى يقرره بذنوبه ، ورأى في نفسه انهُ يهلك فيقول تعالى : «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» ، فيعطى كتاب حسناته .

وأما الكفار والمنافقون ؛ فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . قوله : والحوض حق لقوله تعالى : ﴿انا أعطيناك الكوثر﴾ . ولقوله ﷺ : «حوضي مسير شهر زواياه

سواء ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، كيزانهُ أكثر من نجوم السماء ، من شرب منهُ فلا يظمأ أبداً» والأحاديث فيه كثيرة .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : في هذه الثلاثة التي ذكرها : [الكتاب والسؤال والحوض] ؛ فاما [الكتاب] فلا شك انهُ حق ، ولكن معناه ممكن انهُ ليس المراد بهِ في صحيفة جسمية مكتوب فيها بشيء من الحروف ، على ما انكره المعتزليون أن يكون كذلك ويمكن كونهُ كذلك . والقول في تحقيق معناه محال ؛ لانهُ من الممكن كونهُ مكتوباً على المعنى المفهوم حقيقة ، ويمكن أن يكون حفظ الملائكة لهُ هو المعنى المقصود من انهُ مثبوت كتاباً ، واذا احتمل المعنيان لم يتحقق أحدهما ، ولا يجوز الشك على أن جميع أعماله مكتوبة في كتاب ، وان المعنى يعطى اياه ، بيمينه ، والكافر يعطى اياه بشماله ، كما أخبر الله تعالى بذلك ، ولكن لا يجوز الشك في معنى الكتاب ، أهو على المفهوم الظاهر أم على المجاز ؟ واما ان الله تعالى يدني المؤمن ، [الى آخر كلامه] ؛ فان كان المراد انهُ يدنيه بقرب مسافة ، فلا شك ان ذلك مما لا يجوز في صفته تعالى ، وكذلك المعنى ان كان يحاسبه ويكلمه بنفسه يسمع كلامه ، فهو من الباطل المستحيل في صفته تعالى .

وقوله : يغفر لهُ ذنوبه ؛ فلا يغفر الكبائر ، لقوله تعالى : ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنهُ نكفر عنكم سيئاتكم﴾ . وان كان المراد : ان الحساب على يد الملائكة ، والسؤال منهم للعباد فذلك لا شك انهُ حـق .

وأما الحوض فليس مما يلزم اعتقاده انهُ حق ، وهو من الممكن كونهُ انهُ حق ، ومن الممكن عدمه . اذ لا فائدة فيه ؛ اذ لو كانت فائدته شرب المؤمنين منهُ ، اذا عطشوا في موقف الحساب ، فكذلك يحتاجون للأكل . وان كان يؤتى الأولياء من الجنة ، ما يأكلونه ؛ فالذي يأتي لهم بالمأكول ، يمكنه أن يأتي لهم من الماء ، اذا كان المراد من الآية قوله تعالى : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنـة أن أفيضوا علينا من الماء﴾ فانه يتلو[الماء]قوله تعالى : ﴿أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين﴾ . اذا كان المراد بهذا النداء في

موقف الحساب ، لا في الجنة وهو الأصح فيما أراه ؛ لأن أهل الجنة ، بعد أن يدخلوها ، فلا يسوغ في العقول السليمة انهم يرون أهل النار ، اذ الجنة عريضة ، فلو فرضنا ان النار قريبة منها ، لم يلزم قرب كل موضع منها ، فان كان الخطاب لأهل القرب منها فلا فائدة لأهل الجنة ان تكون النار قريبة منهم فيسمعون حسيسها ، ويرون قبح منظرها ، فالعقل يبعد ذلك ، ويقرب ان الخطاب واقع في الموقف .

ومن قال : بوجود الحوض على ما يراه في عقله انهُ حق ، ومن قال : لا شيء على ما يراهُ انهُ أصح فهو جائز . ولا يجوز لهُ أن يدين بأحد القولين في ذلك . ولا يجوز ان يلزم نفسه ، ولا يلزم غيره ، اعتقاد كونه حقاً ، ولا انهُ غير شيء ؛ لانهُ لم يرد في التنزيل ، ولا قامت الحجة بصحة السنة في ذلك . وليس في ذلك اجماع . وبالله التوفيق .

الباب السادس عشر

في ذكر ذهاب السماوات السبع والأرضين السبع يوم القيامة واتيانهما

من كتاب [النور] : قال المؤلف : قال الله تعالى : ﴿كل شيء هالك الاّ وجهه﴾ فبين في هذه الآية فناء الخلق أجمعين . والدليل على أن السماوات ، والأرض فانيات ، قولهُ تعالى : ﴿والسموٰات مطويات بيمينه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ . ففي التفسيران السماوات والارضين ، ذاهبات يوم القيامة وقال تعالى : ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ ؛ من غير طيٍ بيد . وقال في الأرض : ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ .

وأما الدليل على ذهاب ذوات الأرواح ؛ قوله تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ ، فكل نفس منفوسة ، ذائقة الموت ، من دابة ، وبشر ، وملائكة ، وطير ، فهو ميت .

والدليل على ان كل ما على الأرض من جماد يذهب ؛ قوله تعالى : ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾ .

والدليل ان جميع الخلق أجمع يذهب ، مما ذرأ الله وبرأه من جميع بريته ، مما ذرأ وبرأ السماوات والارضين ، وما فيهما أجمعين ، من حيوان ، وجماد ذاهب فان قوله تعالى : ﴿كل شيء هالك الاّ وجههُ لهُ الحكم واليه ترجعون﴾ . فكل شيء موجود مخلوق ، يقع عليه اسم شيء ، فذاهب من جميع السماوات ، والارض ، وما فيهنَّ أجمعين .

فصـــل : في الرد على من قال من الجهمية : ان الجنة والنار ، تفنيان في

الآخرة ، وان نعيم الجنة ، وعذاب أهل النار يفنى ، وانهُ الى مـــدة .

قال المؤلف : الدليل على انهما باقيتان لا يفنيان ، قول الله تعالى : ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ . وقال : ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ . فالقائل : بفناء الجنة والنار ، قد نقض كتاب الله تعالى ؛ فمن لم يؤمن بالجنة والنار ، وانهما باقيتان كبقاء الآخرة ، وان أهلها يخرجون منها فقد كفر . وان احتجوا بقوله تعالى : ﴿خالدين فيها ما دامت السموٰات والأرض الاَّ ما شاء ربك﴾ ، فقد شاء الله الخلود للفريقين ؛ لانهُ قد أعلمنا انهُ قد شاء الخلود بقوله في أهل الجنة : ﴿خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ، وقوله في أهل النار : ﴿خالدين فيها أبداً أولئك هم شر البرية﴾ .

والله تعالى انما خلق الخلق ، لنعيم الآخرة لا لسكونهم في الدنيا ، وانما كفر الكافر بسوء اختياره ، ولو لم يكفر ؛ لكان في نعيم الآخرة كغيره ممن آمن ؛ لأن الله انما خلق الخلق لنفعهم ، فلا منفعة أعظم من خلودهم في النعيم ، فلذلك لم يهلكهم ويصيرهم عدماً .

(**مسألة**) : من كتاب عن قومنا فيه شرح ومتن قوله : [باقيتان لا يفنيان ولا يفنى أهلها] .

الشرح : أي دائمتان لا يطرأ عليهما عدم مستمر ؛ لقوله تعالى في حق الفريقين : ﴿خالدين فيها أبداً﴾ . وأما ما قيل : انهما يهلكان ولو لحظة ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿كل شيء هالك الاَّ وجهه﴾ ، فلا ينافي البقاء بهذا المعنى ، على انك قد عرفت انهُ لا دلالة في الآية على الفنـــاء .

وذهب الجهمية على انهما يفنيان ويبقى اهلها ، وهو قول باطل مخالف الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، ليس فيه شبهة فضلاً عن حجة .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان الأباضي قوله : واما ما قيل : انهما

يهلكان ولو لحظة ، أم اراد انهُ أراد قبل دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار أو بعد ذلك ؛ فان كان قبل ذلك ، فما معناه حيث جعل فرقاً بين الهلاك والفناء ، الاَّ ان الهلاك مثلاً اذهاب حياة الجسم ، مع بقاء الجسم على صورته ، أو يصير تراباً ، والفناء العدم أصلاً ، فاذا كان على هذا المعنى فمراده هلاك الجنة على هذا المعنى ، هو هلاك أهلها المخلوقين فيها ، أو الجنة بنفسها . فان كان المراد من الجنة سكانها ، فذلك وجه ، ولو افناهم ثم أحياهم ، لم يكن فرقاً ؛ لانهُ وان كان كذلك يصير غير الأولين في الحكم ، فالجزاء بالأولين وبالآخرين سواء ، فان جزاء المسلمين في الجنة ، من لحم الطير غير طيور الدنيا ، وان كان المراد بارض الجنة غير أشجارها ، والقول في الأشجار والطيور وما أشبه ذلك ، كالقول في حورها وخدمها .

وأما الأرض فاهلاكها ثم إحياؤ ها فلا معنى لهُ . وان كان اراد هلاكهما بعد دخول أهل كل دار منهما فهذا باطل . واذا ثبت هذا معهُ فقد قال : يقول مذهب الجهمية الذي لم يجزه للاجماع الذي ذكره .

وفي كتاب [انسان الكامل] ؛ النار لا تبقى ولا يبقى من فيها ومتى سيق الى الجنة جميع من فيها ، يضع الرحمن قدمه عليها فتقول : قط قط وينبت فيها شجر الجرجير ، وهو بلغة أهل عمان المحرقة ، [شجرة تقارب شجرة الفجل ، وفيها حراقة قليلة فلفلية] ثم ان الجنة ايضاً لا تدوم ، اذ معه لا يجوز ان تكون شيئاً باقياً بلا نهاية ؛ الاَّ ذات الله تعالى ولا أدري هو من أي المذاهب ؟ فافهم ذلــك .

الباب السابع عشر

في الجنة والنار خلقتا أم لم تخلقا من [كتاب النور]

قال المؤلف : اختلف الناس في ذلك ، وحجة من قال : انهما قد خلقتا قول الله تعالى : ﴿قلنا اهبطا منها جميعا﴾ . والهبوط من الشيء ، لا يكون الاَّ وقد خلق . وقال في الجنة والنار : ﴿اعدت للمتقين﴾ ، ﴿واعدت للكافرين﴾ . والمعد المهيأ الذي قد فرغ منهُ . وقال ﷺ : «اطلعت على الجنة فرأيت أقل أهلها الأغنياء والنساء ، واطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» ؛ فلا يطلع الاَّ على شيء قد خلق ، وفرغ منه ، ومن غيره وحجة أخرى ؛ قوله تعالى : ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ [بالالف واللام] ، ولا تكون الاَّ الجنة المعدة للمتقين .

واما من يقول : إن الجنة والنار غير مخلوقتين ؛ يحتج بان الخلق كله فان ، ولا يبقى الاَّ الله وحده ، والجنة والنار ، اذا خلقتا لا يفنيان ، ولكن كل شيء قال الله تعالى انهُ سيكون ، فهو كائن لا محالة ، وهو كانهُ قد فرغ منهُ ، ولو لم يكن بعد ، فهو كما انهُ قد كان . فلما كانت الأدلة قائمة بان الجنة والنار لا يفنيان ؛ دل ان كل شيء وعد الله بكونه انهُ سيكون لا محالة ، وكأنه قد كان ، وقد فرغ منهُ .

ونحن نقول : ان الجنة والنار حق ، ونؤمن بذلك ، ونرد علم ذلك الى الله تعالى ، وهو العالم بجميع خلقه ، واليه يرجع الأمر كله ، ﴿فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ . والله أعلـم .

(مسألة) : قال ابن محبوب : ان الجنة والنار مخلوقتان ، وهي الجنة التي اسكنها الله آدم ـ عليه السلام ـ ، وأخرجه منها ، ووعده لما تاب ان يرده

اليها . قال غيره : ويدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ ، فالهبوط من السماء . قال ابو عبدالله : وجدنا في الكتب انهما يفنيان عند فناء الخلق ، ويعادان عند اعادة الخلق . قال : وهذا مما يسع جهله ، وفي الجنة والنار اختلاف . ولعل من يثبتهما انهما مخلوقتان يقول : الجنة في السماء السابعة ، والنار في الأرض السادسة . والله أعلم .

(مسألة) : من بعض كتب أهل المغرب : اختلف الناس في الجنة والنار ؛ هل هما مخلوقتان أم لا ؟ قال بعضهم : الجنة والنار مخلوقتان ، وهو قول الاشعرية فيما احسب . والله أعلـــم .

وقال آخرون : ليستا بمخلوقتين اليوم ، وهو قول ابي سهل الفارسي ـ رحمه الله ـ ، فيما ذكر في [السؤالات] ، وهو قول المعتزلة أيضاً فيما حكي عنهم ، وقول ابي المؤثر الصلت بن خميس فيما يروى عنهُ : ان كانتا وان لم تكونا فستكونان ، واستدل الأولون بقول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وتلك الجنة التي أعدت للمتقين﴾ ، لعله اراد : ﴿وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموٰات والأرض أعدت للمتقين﴾ . والمعد لا يكون الاَّ موجوداً حاضراً . ويقول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة﴾ ، واستدل من قال : غير مخلوقة بقوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿كل شيء هالك الاَّ وجهه﴾ .

وزعموا انهُ لا فائدة في خلقها ، قبل يوم الثواب ، والعقاب ، وحملوا ما جاءت الآيات في قصة آدم ، وحواء ، ـ عليهما السلام ـ على بستان من بساتين الدنيا فيما حكي عنهم ، ورأيت في بعض كتب غيرنا ، ان الجنة عن يمين العرش ، والنار عن يساره وعندي ؛ ـ والله أعلم ـ قول : من قال انهما مخلوقتان أمثل ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ولقد رآهُ نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾ ، وما روي من الأحاديث ان : «أرواح الشهداء تجعل في حواصل طير خضر تسرح في الجنة وتأوي الى قناديل معلقة بالعرش» ، وقال رسول الله ﷺ : «اذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنان وغلقت أبواب النيران» ، وما ذكر في فضل الجهاد من نزول الحور العين على الشهيد ، ورأيت

في بعض كتب أصحابنا من أهل المشرق ، عن الحسين ، ان رسول الله ﷺ قال : «الجنة مخلوقة وهي في السماء ، والنار مخلوقة وهي في الأرض» ، والله أعلـــم .

ومن وضع الشيخ الفقيه ناصر بن ابي نبهان الخروصي ، من رده على بعض أهل الخلاف ؛ لا دليل قطعياً من التنزيل ، ولا من السنة القائمة الحجة بصحتها ، ولا من حجة العقل ؛ ان الجنة والنار الآن مخلوقتان ، ولا انهما لم يخلقا ، واذا كان كذلك ؛ فمن الممكن وجودهما الآن ، ومن الممكن عدمهما الآن ، ولا شك في علم الله انهما مخلوقتان في الوقت الذي يريده تعالى ، ولازم علينا الاعتقاد انهما مخلوقتان لا محالـــة .

وأما لزوم الاعتقاد في انهما مخلوقتان ، أو غير مخلوقتين فباطل . وبالدينونة يهلك المرء في مذهبنا ، كما في كيفية [الكتاب] ، وفي [الحوض] ، والجسر المسمى [الصراط] ، فكل هذا لا تجوز الدينونة في وجودهما ، ومن قال في ذلك برأيه ولم يخط من خالفه فلا بأس ، وما ذكره من اعداد ذلك كقوله تعالى : ﴿أعدت للكافرين﴾ . و﴿اعدت للمتقين﴾ ، لا يدل على خلقهما الآن ، وانما يدل على انهما كائنتان لا محالة ، كذلك لا محالة كانت الآن مخلوقتين أو لم يخلقا ، وما سبق في علم الله كونه ، فهو كائن قد مضى كونه ، أو سيكونه في وقته الذي اراده ، وأما قول الله : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها﴾ ، لا يدل على انها لم تكن الآن غير مخلوقتين ، اذ معنى [نجعلها] اي نجازي بها في وقت الجزاء . واذا احتمل الكلام معاني مختلفة ، وكلها من الممكن كونه ، ولا يخالف شيء منها السنة القائمة الحجة بصحتها ، لم يجز ان تحمل على معنى واحد ، وابطال ما سواه .

وقصة آدم ـ عليه السلام ـ ، ليس فيها دليل قطعي تحقيقي ؛ لأن جنة آدم بنفسها قد اختلف العلماء فيها ، هل هي الجنة الأخروية ، أم جنة خلقها الله لهُ واختصها لهُ ، من جميع خلقه ولزوجته حواء ؟ .

وأكثر قول العلماء انها جنة الخلد ، ولا دليل في الذكر الحكيم على انها جنة . اذ جنة الخلد ليس فيها شيء حرام ، ومن دخلها كان آمناً من الخروج ؛ لانها دار الخلد ، فلم تكن خلداً لكل من دخلها ، فقد خرج منها آدم ، ولكل فريق حجج كثيرة ، ولا فائدة في ذكرها ، لانها لا تفيد علماً ، ولا سبيل الى القول فيها ؛ حتى تكون علماً ؛ لانهُ من الغيب ، كما لا سبيل الى معرفة الجنة والنار ، انهما الآن مخلوقتان أولاً الاَّ ظناً وتخميناً ، واذا كان على هذا ؛ فكل من رأى في نفسه بدليل انهُ الأصح ، فقال بِهِ انهُ جاز لهُ ، ما لم يدن بِهِ ويخط من قال بخلافه في دينه ، ولو كان علماً بما تراه النفس أصح ، لقلت : ان الأصح معي فيما تراه نفسي ، كأنها تميل الى انهما غير مخلوقتين الآن ؛ لقوله تعالى : ﴿كل شيء هالك الاَّ وجهه﴾ ، وقال تعالى : ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾ . ولا فائدة في خلقها ، واهلاكها ، ثم خلقها ثانية ، وما لا فائدة فيهِ ، فالأصح انهُ غير معقول ، وان فعله الله تعالى ، سلمنا لهُ الأمر انهُ فيهِ فائدة ، لا نعلم ما نحن وهو يعلمها ، ولكن نظري للأصح ليس هو بعلم لي ، ولا لغيري . وبالله التوفيــق .

(مسألة) : قيل : خلف جبل [قاف] اربعون الف دنيا مثل هذه الدنيا ، كل دنيا اربعمائة ، في كل باب ضعف هذه الدنيا ، أروضها الذهب ، سكانها ذات نور لا ظلمة ، وانما هذه السماوات والارضون قليل من كثير مما خلق ، وهما في الهواء كالحلقة في الفلاة ، والدنيا في البحر كالمحة وسط البياضة ، في والج البيضة . والخلق فيها قيل : في ربع الأرض .

(مسألة) : وقيل : أول ما خلق الله الريح العقيم ، أسفل ما خلق ، فزمت بسبعين الف زمام من حديد ، ولكل زمام سبعون الف ملك . وخلق جبل [قاف] من زمردة خضراء يحيط بالدنيا . والسماء مثل القبة ، اطرافها على جبل [قاف] وهذه الخضرة خضرته . وقيل : خلق الله خلفه سبعين أرضاً من الذهب ، وسبعين أرضاً من الفضة ، وسبعين ارضاً من المسك . وخلف ذلك سبعون الف أرض من نور ، وخلفها أرض سكانها الملائكة ، لا يرون فيها

حراً ولا زمهريراً ؛ كل أرض مسير عشرة آلاف سنة . وان خلف الأرض التي تسكنها الملائكة حجاباً من الظلمة ، خلفها حجاب من الريح ، وخلف الريح حية محيطة بالدنيا ، وهي ملكة الحيات ، تسبح الله الى يوم القيامة ، وخلف ذلك كله علم الله .

وسبب خلق الدنيا اضطربت الريح العقيم في الثرى ، ثم هبطت في البحر ، فاضطربت أمواجاً وزبداً ، ومنـه خلق الله الأرض ، وخلق السماوات من الدخان ، وخلق الجبال من الموج ، وخلق الكرسي من نور العرش . والعرش ملتصق بالكرسي ، والملائكة في جوف الكرسي ، والكرسي من نور يتلألأ ، وخلق الشمس من نور الكرسي ، وخلق القمر من سدس شعاع الشمس . والعرش ، والكرسي ، والشمس ، والقمر من عشر نور النبي محمد ﷺ . وقيل : قد قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿نور محمد من نوري﴾ (حديث قدسي) ، وقيل : ان الشمس والقمر ، في سماء الدنيا ، بين مطلع الشمس ومغربها مسير ستمائة سنة . وقيل : الشمس في السماء الرابعة ، طولها وعرضها تسعمائة فرسخ .

الباب الثامن عشر

في عذاب القبر وما قيل فيهِ

من كتاب [التاج] في مذهب ابي محمد ، في عذاب القبر ، قال ابو محمد : ونحن نقول اذا جاز في المعقول ، وصح في النظر بالكتاب ، وبالخبر : ان الله يبعث من في القبور ، بعد أن تكون الأجساد قد بليت ، والعظام قد رمت ، جاز أيضاً في المعقول ، وصح في النظر انهم يعذبون بعد الممات في البرزخ .

فأما [الكتاب] قال الله تعالى : ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾ (الآية) ، فهم يعرضون على النار غدواً ، وعشياً قبل يوم القيامة ، وبعد يوم يوم القيامة يدخلون أشد العذاب . وقال الله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ . وهذا شيء خص الله بهِ شهداء بدر ـ رحمة الله عليهم ـ وقد أخرجوا عند جعفر وطاياسور ، فاذا جاز أن يكون هؤلاء الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وجاز انهم مستبشرون ؛ فلِمَ لا يجوز أن يكون أعداؤهم الذين حاربوهم ، وقتلوهم أحياء في النار يعذبون ؟ فاذا جاز أن يكونوا أحياء ، فلِمَ لا يجوز أن يكونوا يسمعون وقد أخبر الله بذلك رسولهُ ﷺ ، وقوله الحق ؟ وعن عائشة قالت : كانوا يبكون على يهودي ، فقال النبي ﷺ : «انهم ليبكون عليه وانهُ ليعذب في قبره» .

(مسألة) : والحجة على جواز عذاب القبر ؛ قال : من الحجة على ذلك ، انهُ معذور عليه ، وليس يلحق منها غيب الاّ الفاسق والكافر ، اذا كانا مستحقين للعذاب في الآخرة ، فليس بمنكر ان يعاقبا في القبر ، وانما المنكر ما ذهب اليه الحشوء ، من أن المؤمن يعذب ايضاً في قبره ، وان الميت يعذب

ببكاء أهله عليه ، فاما من زعم انهُ انما يعذب الكافر والفاسق ، وانهما انما يعذبان بما جنيا ، فليس الى دفع ذلك من سبيل مع الأخبار المتظاهرة استدلالاً لهم .

فان قال قائل : فان كثيراً ممن يموت من الكفار ، ليس يقبر فكيف يعذب ؟ قيل لهم : ان الكلام تطق على الأغلب ، فلما كان الموتى عند اكثر الأمم تقبر ، واخرج الكلام مخرج الغالب العام دليل ، وقد يكون ان يوصل ـ الله تعالى ـ الى من لا يقبر من العذاب في وقت واحد ، أو في أوقات قليلة ما بقي بعذاب غيره في القبر مدة طويلة انقضى .

قال المؤلف : قولنا في عذاب القبر ، قول المسلمين وليس بمنكر ان يعذب الله من قد شاء عذابه ، قبر أو لم يقبر ؛ لأن الله تعالى لا يفوته الذي قبر ، ولا الذي لم يقبر ، ولا حجة لمن احتج بمن لم يقبر ؛ لأن الذي قد قبر ، والذي لم يقبر كلاهما بيد الله ، وفي ملكه وسلطانه ، لم يخرج أحدهما من ملك الله تعالى ، وانما يفوت الشيء بعد الشيء المخلوق الذي لم يملك الشيء الذي فاته ، ولم يخلفه ، ولذلك لم يقدر عليه لانهُ لم يوجدهُ من بعد العدم الموجود والله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، الطالب ، الغالب ، المدرك ، المهلك ، الواحد ، القهار العزيز ، الجبار ، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، الاَّ في كتاب مبين .

وأما قول الذين قالوا : ان الله يعذب المؤمن ايضاً في قبره ، ويعذب ايضاً ببكاء أهله عليه . فأقول : ان هذا المؤمن الذي مات على التوبة وانهُ قد رضي الله عنه ، وصاير الى الجنة يوم القيامة ، فذلك لا يعذب ، انما يعذب من استوجب العذاب ؛ لأن هذا القول مخالف للكتاب . قال الله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ، وقال تعالى : ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم﴾ . فقائل هذا القول مخالف لكتاب

الله . وأما قوله : فانهُ يعذب ببكاء أهلِه عليه ، فهذا أيضاً مخالف لكتاب الله ؛ لأن البكاء الذي يكره أهله عليه ، فان كان متعدياً الى ما أجاز المسلمون من البكاء على الميت حتى صار الى حدٍ لا يجوز ذلك ، وصار ذنباً فذلك الذنب على مكتسبه معذب عليه ، لا يعذب عليه غيره ، بل يعذب على الذنب من كسبه ؛ لأن الله لا يؤاخذ عبداً من عبيده بذنب غيره ، وهو يقول : ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ ، وقال : ﴿ولا تكسب كل نفس الاّ عليها﴾ ، وقال :﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ ، وقال : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ . والمؤمن لم يكسب من بكاء أهله شيئاً ، فكيف يعذب على ما لم يفعـــل .

فقائل هذا القول مخالف لكتاب الله تعالى ، وأنا وان كان قد قيل : ان المسلمين لا يخطوا ، وان الآثار لا ترد ولا تغير ، فأنا مثبت على ما قد قاله المسلمون ، في جميع ما قد حفظته من آثارهم ، من غير رد مني لأحد من المسلمين ، ولا لخبر ولا لأثر وأنا أستغفر الله من جميع ما خالفت فيه الحق والصواب ، وقولي قول المسلمين ، انما أنا وجدت مسائل ، وحفظت مسائل من آثار المسلمين ، موافقة لكتاب الله ، مخالفة لهذه المسائل اعني ؛ التي اخذتها مخالفاً لكتاب الله ، فثبت ما حفظته من آثار المسلمين ، عند هذه المسائل التي اخذتها ليقف على جميع ذلك المتعلم ، ويسأل عن صواب ذلك ، فرأيت ذلك أولى من أن اترك المسألة التي احفظ فيها الخلاف للمسلمين ، ولكتاب الله المبين ، فيقف عليها المتعلم ، فيصوبها ؛ لأني قد سمعت بمن تحدث بأقاويل المرجئة الذين خالفوا كتاب الله ، فقالوا : ان الله يخرج قوماً من النار ، ويكتب على جباههم [جهنميون عتقاء الله من النار] . فلما لم يجد المتعلم قولاً للمسلمين ، فيه رد لهذه الأقاويل ، وهو متعلم ، لم يعلم بما قاله المسلمون صدق بما رآهُ في الكتب في أول حال ينظره ، فحدث بذلك لأن هذا مخالف لكتاب الله ، وقد تقدم ردنا لهم في ذلك ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ ، وقال : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ ، وقال : ﴿خالدين فيها أبـداً﴾ . فلما رأيت هذا الفعـل من الضعفاء

والمتعلمين ؛ أردت بأن أجعل عند كل قول وجدته مخالفاً لما قاله المسلمون في ذلك ، حديثاً يجيبه من أقاويل المسلمين ، لكي يسأل المتعلم عن الصواب في ذلك ، وأنا استغفر الله مما خالفت في ذلك ، أو في شيء منهُ الحق والصواب .

(مسألة) : وقيل : ان المؤمنين تجد أرواحهم لذة النعيم ، وهم في قبورهم قبل دخولهم الجنة . قال : وأرواح الكافرين في سجين ، وقيل : ان سجيناً وادٍ من أودية النار . وقال : من قال الوادي الذي في حضرموت ، يسمى برهوت ، وهو وادٍ وحش مظلم كما شاء الله خلقه .

وعن النبي ﷺ ، في قوله تعالى : ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يثبته في القبر عند هول المساءلة . عائشة قالت : دخلت عليها يهودية فوهبت لها طيباً ، فقالت : أجاركِ الله من عذاب القبر ، قالت : فوقع في نفسي من ذلك ، فلما جاءنا رسول الله ﷺ ، قالت : يا رسول الله ؛ أللقبر عذاب ؟ قال : «نعم انهم ليعذبون عذاباً تسمعه البهائِم .

زيد بن ثابت ، عن النبي ﷺ : «لولا ان تدافنوا لدعوت الله ان يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمعه» ، ثم اقبل بوجهه الكريم ، ثم قال : «وتعوذوا بالله من عذاب القبر» ، وعنه ﷺ : «اللهمَّ إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وفتنة الدجال» ومن غيره ، قال المؤلف : ويوجد عنهُ ﷺ ، انهُ قال : «لولا انكم لا تدافنون لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر» .

رجـــع :

قال رسول الله ﷺ : «من مات ليلة الجمعة وقاه الله من فتنة القبر» .

(مسألة) : عن ابن عباس أن العذاب يرفع عن أصحاب القبور فيما بين النفختين ، فان نفخ في الصور النفخة الآخرة ، قاموا فحسبوا انهم كانوا نياماً ، فذلك قوله تعالى : ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ ، قالت لهم الملائكة : ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ .

وقد وردت الأخبار بصحة عذاب القبر ، وان جهلنا كيف ذلك وبالله التوفيق . والله قادر على عذاب القبر ان شاء عذّب ، ومن الدعاء أن يسأل الله تعالى ، ويستعاذ بهِ من الكفر ، والفقر ، وعذاب القبر ، وموقف الخزي في الحياة الدنيا والآخرة ، وقد اختلف الناس في ذلك اختلافاً شديداً ، وقولنا قول المسلمين ، ولا يعجز الله شيء من ذلك . وأما منكر ونكير ، فقد يوجد في الآثار عن ابن عباس ، وجابر بن زيد ، وموسى بن ابي جابر ، ولم يصح لاختلاف الأخبار فيه ، والله أعلم بذلك .

وعذاب القبر فيه اختلاف ؛ فقيل ، المنافق يعذب في القبر ، وقيل : هم في البرزخ ولا عذاب عليهم الى يوم القيامة ، وقيل عذابهم في القبر ، تملآ عظامهم افزاعا وأهوالاً كما يرى النائِم في منامه . وقال ابو الحسن : واحب قول من قال : إن عذابهم في الآخرة بالنار كما قال الله تعالى : ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ . وقيل : ان المؤمن قبره روضة من رياض الجنة ، والكافر قبره حفرة من حفر النار ، والله اعلـــم .

وقال بعض : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ ؛ فالعذاب الاكبر ، هوعذاب النار ، والعذاب الأدنى هو الجوع في الدنيا ، فهذا قولنا . وقال : في منكرٍ ونكير الله اعلم ، قد قال بعض الفقهاء بذلك : ومن مات مؤمنا ادخله قبره مؤمنا ، ويبعث مؤمناً ، والمؤمن اذا حضره الموت ، شهدته الملائكة ، فسلموا عليه ، ومشوا مع جنازته ، وصلوا عليه مع الناس ، والله اعلم .

(**مسألة**) : ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ . قال سنعذبهم في الدنيا ، ثم في قبورهم ، ثم يردون في القيامة الى عذاب عظيم . قال الحسن : أما عاجل عذابهم في عاجل الدنيا فأخذ صدقات اموالهم ، وهم كارهون لاخراجها .

وأما الثانية ، فيعادون في قبورهم ، ثم يردون في العاقبة الى عذاب عظيم .

واحتج من قال بمنكر ونكير ، لقول الله تعالى : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال : الموتة الأولى التي تقع بهم في الدنيا بعد الحياة ، والحياة الأولى إحياء الله اياهم في القبر ، لمساءلة منكر ونكير ، والموتة الثانية ؛ إماتة الله إياهم بعد المساءلة ، والحياة الذاتية إحياء الله اياهم للبعث .

وقال قوم : هو كقوله تعالى : ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ . فالموتة الاولى كونهم نطفة في اصلاب آبائهم ؛ لأن النطفة ميتة ، والحياة الثانية احياء الله إياهم من النطفة ، والموتة الثانية ، اماتة الله اياهم بعد الحياة ؛ والحياة الثانية احياء الله اياهم للبعث . قيل : يميتكم ثم يحييكم في القبر ، ثم يميتكم ثم يحشركم في القيامة ، وقال قوم : قيل عذاب القبر ليس بدائم ، وانه يزول عنهم .

(مسألة) : واحتج من انكر عذاب القبر بقوله تعالى : ﴿ كم لبثتم في الارض عدد سنين ﴾ (الآية) فقال : لو كان هؤلاء الكفار احياء في قبورهم ، ما قالوا لبثنا يوما ، فهذا يدل على انهم لا حياة لهم بعد موتهم ، والله اعلم .

(مسألة) : وعن اليهود ؛ ان عذاب القبر لا بد منهُ للصالح والطالح ، واما المؤمن فثلاثة ايام ، واما الكافر فسبعة ايام .

(مسألة) : من [الضياء] : واما الخبر الذي رووه عن اهل الحديث ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من طريق ابن عمر ، [عبدالله بن عمر] أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، قال : « إن الميت يعذب ببكاء اهله عليه » ؛ فهذا خبر غير موافق لكتاب الله ، ولا توجب صحته العقول ، ولم

يرد ورود الاخبار التي تقطع الاخبار بصحتها . وقال الله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فكلًّا اخذنا بذنبه ﴾ فان كان الخبر صحيحا فوجه التأويل فيه والله اعلم ؛ انهُ ما امر بهِ الميت ، من الفعل المحرم عليه ، فهو يعذب بذلك البكاء المنهي عنهُ ، والفعل الذي لا يجوز . ووجه آخر : ان النساء كن يبكين موتاهنَّ قبل مجيىء الاسلام ، كنَّ يبكينَ موتاهنَّ في الجاهلية ، من المدح لهم بذلك من الأفعال التي كانوا يأتونها ، ويتشرفون بها عندهم ، فقيل : ان النبي - صلى الله عليه وسلم - ، مضى بامرأة وهي تبكي على ميت وتقول : انت الذي أغرتَ على بني فلان ، وعلى ديارهم ، وقتلت أبطالهم ، وكذا وكذا من الأفعال القبيحة في الاسلام ، فقال لها عليه السلام : « لا تبكي بهذا فان الميت يعذب بهذا البكاء الذي هو عندك مدح » والله اعلم .

(**مسألة**) : منهُ ايضاً اختلف الناس ، في ارواح المؤمنين والكافرين اذا ماتوا ، ونقول كما جاء في كتاب الله ، ان ارواح المؤمنين تكون في ايدي ملائكة الرحمة الذين يقبضون ارواحهم ، ثم وارواح الكافرين تكون في أيدي ملائكة الغضب الذين يقبضون ارواحهم ، ويقال في الاخبار : انهُ يرى على الموتى ضوء ساطع ، فالله اعلم ما ذلك الضوء ؟ انقضى .

قال المؤلف : قيل ان ارواح المؤمنين في حواصل طير خضر ، تروح وتغدو بهم في الجنة . وأرواح الكافرين في حواصل طير سود ، تروح وتغدو بهم في النار . والله اعلم .

(**مسألة**) : ومن وضع الشيخ الفقيه تبغورين بن عيسى المغربي : وأما ضغطة القبر وعذابه ؛ فالذي ذكروا جاء في حديث مشهور غير منكور . واختلف الناس في تفسيره ؛ فقال بعضهم : انما عذاب القبر في أهل الكبائر والنفاق ، وليس هو لاهل التقوى والاخلاص ، وهو الصحيح والحقيق .

وقال بعضهم : ان ضغطة القبر وعذابه ، عند معاينة الملك من الفظاظة والغلظة ، وجمع عليه العذاب ، ان كان الميت من اهل سخط الله ، اتاه الملك بسوء البشارة ، وما لم يره قط حسرة الموت ، وفراق الأحباب ، ودنياه ، وما يرى مما يصير اليه من الهون ، والعذاب الهون ، وذلك قول الله :

﴿ والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق ﴾ اي اجتمعت الشدة بالشدة ، وبعضهم يثبتون عذاب القبر ، ويروون ذلك عن جابر بن زيد ، وعائشة رضي الله عنها ، ولعل معناها في الآخرة ، كما قال الله في الشهداء :

﴿ بل احياء عند ربهم يرزقون ﴾ واحتجوا بقول الناس : انهُ يسمونه من اهل القبور ، اذا اشرف على الموت ، ويسمون الميت من اهل الآخرة لأنهُ انقطع من الدنيا عمله وسعيه ، كما قال الله عز وجل : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ يعني : يسترزقون ويحيون في الآخرة ، ويستبشرون فيها ردا لقول المشركين اذ قالوا للمسلمين : قتلتم انفسكم باطلا لا جنة تحيون فيها ، ولا ناراً تتقون ألمها ، فنسبهم الله الى ما تصير إليه عاقبتهم ، لأن كل ما هو آت فهو قريب عند الله كأنه آت .

(مسألة) : وسئل الشيخ ابو الحسن البسياني عن عذاب القبر ، قال :

هم عبيد الله تعالى ، ان شاء عذبهم في القبر ، وفي الدنيا ، وفي الآخرة ، وان شاء رحمهم . واما عذاب الآخرة فلا شك فيه لمن مات غير مؤمن ، وقد قال الله في اليهود : ﴿ ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون ﴾ ، وقال : ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد ﴾ ، وقال في قوم عاد : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون ﴾ ، وقال : ﴿ فاخذه الله نكال الآخرة والاولى ﴾ .

واختلف الناس في عذاب القبر اختلافاً كثيراً ؛ وقولنا قول اهل الحق في هذا وغيره ، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ؛ ان شاء عذب في الدنيا ، وان شاء عذب في القبر ، وان شاء عذب في الآخرة . كل الأمر لله تعالى ، والخلق خلقه ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون . فالذين يقولون بعذاب القبر ، يحتجون بقوله تعالى : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين ﴾ .

فقالوا : الموتة الاولى التي تقع بهم في الدنيا ، بعد الحياة ، والحياة الاولى احياء الله اياهم في القبر ؛ والموتة الثانية ، اماتة الله اياهم بعد المساءلة . والحياة الثانية احياء الله اياهم للبعث . وحجة من انكر عذاب القبر قوله تعالى : ﴿ كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ﴾ . قال : فلو كان هؤلاء الكفار احياء في قبورهم ، ما قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ، فهذا يدل على انهُ لا حياة لهم في القبر ، بعد المورد ، ومن غيره ، وقولنا قول ائمتنا فان صح عذاب فهو القادر على ذلك ، وعلى جميع الأمور بيده ، والمقدور والمقادير والتقدير هكذا نقول ، والله اعلم .

رجع : وأما الخبر الذي روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قال : « ان الميت ليعذب ببكاء اهله عليه » ، فهذا خبر غير موافق للكتاب ؛ لأن الله يقول : ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ ، وقال : ﴿ فكلًّا اخذنا بذنبه ﴾ .

واما منكر ونكير فقد اختلف الناس فيهم ، وقولنا قول المسلمين فيهم ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب [الطهارات] . ومن غيره ، روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : انه ذات يوم جالس هو وابو حفص عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، ولعله احد من الصحابة ، وذكر لهم الموت ، والقبر ، والحساب ، والعقاب ، وعذاب القبر ، ومنكر ونكير ، ويعظهم بالمواعظ ، فقال لعمر - رضي الله عنه - يا عمر : ما حالك اذا مت ، ودرست في قبرك وأتاك منكر ونكير يحاسبانك ؟ قال عمر - رضي الله عنه - : يا رسول الله

وعقلي معي ؟ قال : « نعم » . قال له : لا علي منهم ؛ لأن قلبي قوي الايمان بالله ، وبك يا رسول الله ـ صلى الله عليك وسلم ـ . فهذه الرواية تدل على ان في القبر حياة . والقول في منكر ونكير صواب ، والله اعلم بالصواب . [اتيت بالمعنى لا اللفظ بعينه] .

(مسألة) : فيما تعلقوا به ، في اثبات عذاب القبر ، من كتب بعض المعتزلة ينظر فيه .

اعلم : انا لا ننكر عذاب القبر ، بل نجوزه على وجه لا يبطله العقل ، وذلك انا نقول : انه يجوز كون عذاب القبر ، بأن يحيي الله الميت فيعذبه ببعضٍ ما يستحقه ، ولا يجوز ان يعذبه وهو ميت ؛ لأن ذلك خروج من المعقول ، والميت لا يألم ، ولا يجوز تعذيب الروح على ما ذهب اليه بعضهم ؛ لأن الروح لا تحس ، ولا تعلم شيئا بالانفراد ، وانما الانسان يألم ويحس بجسده ، ويعلم ويشعر ما دام حيا ، ولا يثبت القول بوجوب عذاب القبر ؛

لأنه ليس في ذلك اجماع ولا نص ظاهر . والذي روي في ذلك ؛ فاخبار آحاد ، لا توجب العلم ، والذي تعلقوا به آيات . فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ﴾ .

قالوا : ولا يتأتى تفسير هذه الآية ، وعرض النار عليهم غدواً وعشياً الا ان يعني به في القبر . ولا يجوز ان يريد به في الآخرة ؛ لقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ ، وهذا غير عرض النار عليهم .

الجواب ؛ انهُ لا حجة في ذلك ؛ لأنهُ تعالى لم يقل ان النار تعرض عليهم ، وانما قال : ﴿ وهم يعرضون على النار ﴾ وقوله النار ؛ تفسير لقوله :

﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ ثم قال : ﴿ النار ﴾ : على وجه التفسير لسوء العذاب ، ثم قال : ﴿ هم يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴾ ، فأما قوله تعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ ؛ فانما يريد به يوم القيامة ؛ وذلك على وجهين :

احدهما ؛ انا بينا انهم يسمون العاقبة باسم الابتداء ، والابتداء باسم العاقبة ، وهو كقوله تعالى : ﴿الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا ﴾ . وانما اكلوا ما التذوا به في الوقت ، ولكنه يسمى الابتداء باسم العاقبة ، والآخر ان يعني ويحقق ، فاخبر عنهُ بلفظ الماضي ، كما قال :

﴿ واذ قال الله يا عيسى بن مريم ﴾ (الآية) وهذا كثير في القرآن . واما قوله : ﴿ غدواً وعشياً ﴾ ؛ فهو على مجاز اللغة وسعتها ، اراد مقدار ذلك ، وان لم يكن في الآخرة بكرة ولا عشي ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ ، وان لم يكن في الجنة بكرة ولا عشي . ولا تعلق في ذلك ،

بقوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ﴾ ؛ لأن فيه تقديماً وتأخيراً كأنه قال : (ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ، وحاق بهم سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدوا) . وهو كقوله تعالى : ﴿ قل لا اجد فيما أوحي الي محرماً على طاعم يطعمه الاَّ ان يكون ميتة ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي احسن ﴾ ؛ وانما أوتي موسى الكتاب قبل ذلك ، وكقوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ الى قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ ، ويجب ان يكون اولاً مؤمناً ، ثم يفك الرقبة ، وهو كثير في الشعر والقرآن لا تعلق بمثله .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ . قالوا : والاماتة مرتين في الحقيقة لا يحصل الاَّ بان يحيي في القبر مرة اخرى ، ثم يميتهم في القبر مرة اخرى ، لتحصل الاماتة مرتين .

والجواب : التعلق بذلك فاسد ، وذلك لأنهُ مهما احيوا في القبر ، حصل الاحياء ثلاث مرات : احياء في دار الدنيا واحياء في القبر ، واحياء عند البعث . وانما قالوا احييتنا اثنتين ، وهذه الآية مفسرة قوله : ﴿ وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ﴾ . والمفسر قاض على المجمل ، محكوم عليه بحكم المفسر ، وقد قال تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها الموت الاَّ الموتة الاولى ﴾ ؛ وذلك يوجب تناقض القرآن مهما فسرت الآية على ما قالوه .

ومن ذلك ، قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون ﴾ (الآية) قالوا فحكم بانهم احياء ونهى عن عدهم في الاموات ، واذا كان كذلك ، فاضداده من الكفار يجب ان يكونوا في عذاب القبر .

الجواب : انهُ لا حجة في ذلك ، لأنا لو حكمنا انهم احياء ، في الوقت لم يلزم به حجة في عذاب القبر ؛ لأن اضدادهم يجب ان يكونوا امواتا . وبعد ، فانه خص بذلك الشهداء ، بان يجعلهم إحياء ، وهذا تمثيل لا تحقيق ، وذلك لأنهُ لا يخلو قوله [احياء] من احد الوجوه الثلاثة ، اما اراد انهم احياء في الوقت على ظاهر اللفظ ، او يريد انهم يحيون يوم القيامة ، او اراد الاخبار عن شرف حالهم وفضلهم ، فجعلهم كالاحياء ، ولا يجوز ان يكونوا احياء في الحقيقة في الحال ؛ لأن ذلك يوجب كونهُ جميع الانبياء ، ومن هو افضل منهم ، او في مثل حالهم من المؤمنين ، بل جميع المؤمنين احياء ، في الوقت والامر بخلافه . ولأنهُ قال ﴿ احياء عند ربهم ﴾ وعند انما يوجب ان يكون في حكمه ، كما قال تعالى : ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ ؛ اي في حكمه . وكذلك ، قوله تعالى : ﴿ فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ ؛ اي في حكمه . .

ولو كانوا احياء في الحقيقة لوجب ان يعني [بعند] مكانا لديه . ولا

يجوز كونهُ في مكان بيناه ، ولا يجوز ان يكون المراد به انهم يحيون يوم القيامة ؛ لأن جميع الناس ، بَّرهم وفاجرهم فيه سواء يحيون يوم القيامة ، فلم يبق الاَّ انهُ اراد انهم احياء على وجه التشريف ، والأخبار عن جلالة حالهم ، وفضل شأنهم ، ومن عادة العرب ان يمثل الحي بالميت ، والميت بالحي أخرى . قال الله تعالى : ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ﴾ (الآية) . وقد قال الشاعر :

لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وقال آخر :

اذا ما المرء عاش بعظم ميت فذاك الميت حي وهو ميت

وقال ايضا تعالى : ﴿ انك لا تسمع الموتى ﴾ ، وقال ايضا : ﴿ وما انت بمسمع من في القبور ﴾ . فشبه المعرضين عنهُ [بالموتى] ، وكذلك أخبر عن الشهداء ، بكونهم احياء في حكم الله لما لهم في الآخرة من الأحوال الشريفة ، وانما خصهم بذلك ، لأنهُ ليست لغيرهم تلك المنازل الشريفة ، وكانوا احياء لشرفهم وفضلهم .

البـاب التاسـع عشـر

في منكر ونكير ، وحساب القبر ، والاختلاف فيه

من كتاب [التاج] فاما ما سألت عنهُ من منكر ونكير ، وحساب القبر ؛ فذلك الى الله يفعل ما يشاء ، وفي ذلك اختلاف كثير ، يطول ، وقد قال الله : ﴿ حتى اذا حضر احدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الا له الحكم وهو اسرع الحاسبين ﴾ ، وقال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون ﴾ ، فقد قال الله ان الرجعى اليه وهو اسرع الحاسبين في القبر وفي الآخرة وكيف شاء الله كان ذلك ، واما الى ربكم ترجعون فهو في الآخرة وقوله : ﴿ اسرع الحاسبين ﴾ في الآخرة فلا شك في حساب الاخرة ، وهو سريع الحساب ، واما منكر ونكير ، فانه يوجد في الآثار عن ابن عباس ، وايضا عن جابر بن زيد ، وقد وجدنا الشك مني ، عن موسى بن ابي جابر ، والله اعلم بذلك ، انما يجوز لنا القول في الحكم ، على ناطق الكتاب او الاجماع ، فاما ما فيه الاختلاف ولم يقع فيه حكم بنص ، فقولنا فيه قول المسلمين ، ونحن سائلون انقضى .

ووجدت في بعض آثار المسلمين ، ان حجة من قال بمنكر ونكير ، قوله تعالى : ﴿ امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين ﴾ (الآية) قالوا : الموتة الاولى التي تقع بهم في الدنيا ، والحياة الاولى احياء الله اياهم في القبر لمساءلة منكر ونكير . والموتة الثانية اماتهم بعد المساءلة ، والحياة الثانية يوم القيامة . وقال قوم : هو كقوله تعالى : ﴿ وكنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ فالموتة الاولى كونهم نطفا في اصلاب آبائهم ؛ لأن النطفة ميتة ، والحياة الاولى احياء الله اياهم من النطفة ، والموتة الثانية اماتة الله اياهم بعد الحياة الدنيا ، والحياة الثانية يوم القيامة .

وقال قوم [يميتكم ثم يحييكم] في القبر والله اعلم . ومما وجدت ، في جامع الشيخ ابي الحسن البسياني ، منثوراً مفرداً عن ابواب التوحيد ، بعد رده على اليهود ، حيث قالوا : ﴿ نحن ابناء الله واحباؤه ﴾ ، اي هم عند الله بمنزلة الولد ، ان عذبهم فيعذبهم بقدر ذنوبهم ، فرد عليهم ذلك ثم قال : عقبى ذلك فمن مات مؤمنا ادخله قبره مؤمنا ويبعث مؤمنا ، وادخله الجنة ، قال : ويقال : المؤمن اذا حضره الموت شهدته الملائكة ، فيسلمون عليه ، ويبشرونه ، ومشوا مع جنازته ، ويصلون عليه مع الناس والله اعلم . قال : وقد ذكر بعضهم انهُ اذا دخل قبره ، اجلس فسئل ، من ربك ؟ فيقول الله ربي ويقولون : من رسولك ؟ فيقول : محمد فيقولون : ما شهادتك ودينك ؟ فيقول شهادتي لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، والعبودية ، والاسلام ، والاستسلام لأمره يكون ذلك خالصاً ، فيوسع لهُ قبره مد نظره ، وللكافر يسلط عليه عند الموت بالعذاب فيضرب وجههُ ، ودبره ، وذلك انه يجدهم عند الموت ، فاذا ذخل قبره قالوا ، من ربك ؟ فلم يرجع اليهم شيئاً فاذا قيل لهُ من الرسول ؟ لم يهتد لهُ ولم يرجع شيئا . واذا قيل له ما شهادتك ؟ عميت عليه الانباء فيضيق عليه قبره ، وامليت عليه الارض ضيقا كذلك المنافق في الدرك الاسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا الا الذين تابوا واصلحوا العمل ، واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين اجراً عظيماً . [انقضى] .

قال المؤلف : وقد وجدت قولا من اقاويل بعض مخالفينا ، يبطل ان يكون منكرا ونكيرا ؛ لأنه لا امتحان بعد الموت وتهويل ، وانه لو جاز الامتحان في ذلك الوقت ، لم يكن منكرا ان يجيب كافرا بالايمان ، او مؤمن يجيب بالكفر ، وهذا مجتمعة الامة على فساده . وقال : وايضا فان هذين الاسمين قبيحان ، لا يجوز ان يسميا بهما ملائكة الله ، الذين لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون . ثم رفع عن ان المنكر هو العمل السيء ، والنكير من الله للعمل المنكر ، وقولي في ذلك : قول المسلمين ، وديني دينهم ، وانا سائل عن بيان هذا الفصل ، ما قد قيل في منكر ونكير ، سائل

طالب الحق في ذلك ، وهذا من كتاب [الضياء] من باب عذاب القبر ومنكر ونكير .

(مسألة) : في قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدينا وفي الاخرة ﴾ ، فيثبتهم بالخير ، والعمل الصالح ، وفي الآخرة في القبر ، هذا قول قتادة . وقال الضحاك : في الحياة الدنيا ، بلا اله الاّ الله وفي الآخرة اذا سئل في القبر ؛ وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج الى جنازة فانتهى الى قبر ، فجلس ، وجلس القوم اليه ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « ان المؤمن اذا حمل على سريره الى قبره فادخل قبره فاتاه ملكان فقالا له من ربك وما دينك ؟ فيقول الله ربي ، وديني الاسلام ، ونبيي محمد ، فيقولان له صدقت هكذا كنت في الدنيا ثم يفتحان له باباً الى النار فاذا نظر اليها وجد ريحها قالا له هذه النار التي لو كنت كذبت بها ادخلت هذه النار ، ولكنك صدقت بها وعلمت بها ، قال ثم يفتح له باب الى الجنة حتى اذا عرف ما فيها ، وعرف انها الجنة قيل له مصيرك الى هذه فيقول : دعوني ابشر اهلي فيقال له : كما انت فيضرب على اذنيه فيكونان احب اهله اليه نم كنومة العروس ، ويفتح له في قبره مد بصره ويأتيه روح الجنة وريحها ، واما الكافر اذا ادخل لحده اجلسه المنكر والنكير ثم تظهر له منهما الغلظة فينهرانه فيقولان له من ربك وما دينك وما نبيك ؟ فيقول لا ادري ، فيقولان له : لا دريت هكذا كنت في الدنيا ثم يضربانه بمرزبة من حديد لو اصابت جبلاً لارفض ما اصاب منه فيصيح عند ذلك صيحة لا يبقى منها مما خلق الله تعالى الاّ سمعها الا الثقلان الأنس والجن ، ولا يسمع صوته شيء الا لعنه فذلك قوله:﴿ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ . ثم يفتح له باب من الجنة ، ويرى ما فيها فيقال له هذه الجنة التي لو صدقت بها لكان مصيرك اليها ثم يفتح له باب الى النار ، فيرى مقعده منها ويدخل عليه سمومها ولا يغلق ويقال له : « نم نومة اللذيع لا يجد طعما للنوم ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف اضلاعه » فذلك قوله تعالى :﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ بقول لا اله الا الله ، وفي الآخرة يعني في القبر اذا سئل عنها ، فمن ثبته الله تعالى في الدنيا بلا

اله الا الله ، وفي الآخرة يعني في القبر اذا سئل عنها في عمل صالح فمات عليه ، ثبته الله في القبر اذا سئل عنها ، ويضل الله الظالمين من صرف الكافر عن لا اله الا الله فلا يقولها .

وكان جابر بن زيد وغيره يذكرون عن النبي صلى الله عليه وسلم لعله ان الميت اذا كان في قبره وسوي عليه فانه يسمع نعال القوم حتى ينصرفوا عنه ، لانه اذا حمل من بيته فروحه مع الملائكة فاذا وضع في قبره يأتيه ملكان اصواتها كالرعد القاصف ، وابصارهما كالبرق الخاطف ، فيقعدانه فيقولان له : يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فاذا كان مؤمنا قال : الله ربي والاسلام ديني ومحمد نبيي فيقولان له : على هذا حييت وعلى هذا مت وعليه تبعث فانظر عن شمالك فيفتح له باب من قبره الى النار ، فيقال له : هذا منزلك لو عصيت الله فاما اذا اطعته فانظر الى يمينك فيفتح له باب من قبره الى الجنة فيدخل عليه برد منزله فيريد ان ينهض فيقولان له : لم يأت اوان نهوضك بعد نم سعيدا نم نومة العروس ، فما شيء احب اليه من قيام الساعة حتى يصير الى اهل ومال والى جنة النعيم ، واما اذا كان كافراً اقعداه فقالا له من ربك ؟ فيقول لا ادري فيقولان ما تقول في هذا الرجل يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول كنت اقول كما يقول الناس فيقولان له لا دريت ولا تليت على هذا كنت وعليه تبعث . انظر عن يمينك فيفتح له باب من قبره الى الجنة فيقولان له : هذا كان منزلك لو اطعت الله ، فاذا عصيته فانظر عن شمالك ، فيفتح له باب من قبره الى جهنم ، يدخل عليه غم من منزله وأذاه فما شيء ابغض اليه من قيام الساعة ، ثم يصير الى العذاب فالناس في المحنة رجلان :

رجل يقول ربي الله ورجل يقول : لا ادري . فمن قال انا ادري فهو مؤمن ، ومن قال لا ادري فهو كافر . قال ابو عبد الله محمد بن محبوب : قيل انه اذا ادخل الميت في قبره اتاه ملكان اسودان ازرقان ، يقال لهما منكر ونكير ، يخطان الارض بانيابهما ويسفانها بشفاهيما اصواتها كالرعد القاصف ، وابصارهما كالبرق الخاطف ، في يد كل واحد منهما مرزبة من نار فيأتيان القبر فيضربانه بمرزبتيهما فيتصدع القبر ، فيأتيان اليه فيرفعانه ، فيسمك كل واحد

باصبعيه ، ويرد الله تعالى فيه الروح فيهزانه هزا شديدا ويقولان له : من الهك ؟ فان كان مؤمنا لقاه الله حجته بما اتبع رضاه في الدنيا ، فيقول : [الله الهي] فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : [الاسلام ديني] فيفتح له باب من ابواب النار فينظر الى اغلالها ، وانكالها ، وسلاسلها ، وقطرانها ، وما اعده الله لأهلها فيها ، فيقال له : انظر ما صرف الله عنك بما اطعته في الدنيا ، ثم يفتح له باب من ابواب الجنة ، وينظر الى اشجارها ، وانهارها ، وثمارها ، وما اعد الله لمن اطاعه فيها ، فيقال له : انظر الى منزلك فيها ثم يقول له الملكان نم نومة العروس الى يوم القيامة . قال ابو محمد : كان زياد بن مثوبة يقول في هذا الحديث : يقولان له ارقد رقدة العروس .

قال ابو عبدالله : وان كان كافراً ، فسألاه من الهك ؟ فيقول : [لا ادري] فيقولان له : من نبيك ؟ فيقول : [لا ادري] فيقولان له : من امامك ؟ فيقول [لا ادري] فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول [لا ادري] ؛ ثم يفتح له باب من ابواب الجنة فينظر الى اشجارها ، وانهارها ، وثمارها ، وما اعد الله لمن اطاعه فيها ، فيقولان له : انظر الى ما حرمك ما ارتكبت من معصية الله ، ثم يفتح له باب من ابواب النار فينظر الى سلاسلها ، واغلالها ، وانكالها ، وما اعد الله لمن عصاه فيها ، فيقولان له : انظر الى مقعدك منها ،

ويضربه الملكان بمرزبتيهما ، حتى يدخل دقنه في يديه ، ويقولان له : نم نومة المتلومين الى يوم القيامة فيصيح صيحة يسمعها جميع من على الارض الا الثقلين . انقضى الذي من كتاب [التاج] .

(مسألة) : قال الشيخ النسفي في عقيدته : وعذاب القبر للكافرين ، ولبعض عصاة المؤمنين ، وتنعيم أهل الطاعة ، وسؤال منكر ونكير ، ثابت بالدليل السمعي ، والبعث حق . الوزن حق . والكتاب والسؤال والجواب حث . والحوض حق . والصراط حق . والجنة حق . والنار حق . وهما مخلوقتان الآن موجودتان باقيتان ، ولا يفنى اهلهما .

الشـرح : قوله : وعذاب القبر للكافرين ، ولبعض عصاة المؤمنين ،

خص البعض ؛ لأن منهم من لا يريد الله ان يعذبه بعذاب . ومن حاشية في [الكتاب] : كذلك الى يوم القيامة ، ويرفع عنهم كل يوم جمعة ، وكل رمضان بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال بعض العلماء : العذاب على الروح دون البدن . وقال بعض الفقهاء على البدن ، دون الروح . وقال بعض : انه على الروح والبدن . فان قيل : لا يجوز ان يعذب الروح ؛ لأنه سره في القلب ، وقد خلا القلب منه ولا يجوز ان يعذب البدن ؛ لأنه خال من الروح فيمتنع عذابه ، قال غيره : واظنه ناصر بن ابي نبهان ، ان الله قادر ان يخلق له نوع حياة ، يجوز بها ما يدرك الألم والتنعيم ، من غير اعادة الروح اليه لئلا يحتاج الى نزع حياة جديدة ، ويجوز باعادة الحياة دون اعادة الروح .

(**مسألة**) : قوله وتنعيم اهل الطاعة ، وفي القبر بما يعلمه الله ويريده وهذا اولى مما وقع في عامة الكتب ، من الاقتصار على ثبوت عذاب القبر دون تنعيم ، بناء على النصوص الواردة فيه اكثر . وعلى ان عامة اهل القبور كفار وعصاة ، فالتعذيب بالذكر اكثر قوله ، وسؤال منكر ونكير ، وهما ملكان يدخلان في القبرفيسألان العبد عن ربه ، وعن دينه ، وعن نبيه . وقوله ثابت كل من هذه الامور ، بالدليل السمعي لانها امور ممكنة ، اخبر بها الصادق على ما نطقت به النصوص ، وقال الله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب .

ومن حاشية في [الكتاب] النار يعرضون عليها اي يوم القيامة

رجع : الى شرحه ؛ وقال تعالى : ﴿ اغرقوا فادخلوا ناراً ﴾ ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قال : قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ؛ نزلت في عذاب القبر ، اذا قيل : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله ، وديني الاسلام ونبيي محمد ﷺ . وقال عليه صلوات الله وسلامه : « تنزهوا من البول فان عامة عذاب القبر من البول » وقال ﷺ : « اذا قبر الميت اتاه ملكان اسودان ازرقان يقال لاحدهما المنكر والآخر النكير » الى آخر الحديث . وقال صلوات الله عليه وسلامه :

« القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النيران » . وبالجملة الاحاديث الواردة في هذا المعنى في كثير من احوال الآخرة متواترة المعنى وان لم تبلغ احادها حد التواتر .

وانكر عذاب القبر بعض المعتزلة والروافض ، لأن الميت جماد لا حركة لهُ ولا ادراك ، فتعذيبه محال .

الجـواب ؛ انه يجوز ان يخلق الله في جميع الاعضاء ، او في بعضها نوعا من الحياة ، قدر ما يدرك الم العذاب ، او لذة التنعيم ، وهذا لا يستلزم اعادة الروح الى بدنه ، ولا ان يتحرك ، ولا ان يبصر ، ويرى اثر العذاب عليه حتى ان الغريق او المأكول في بطون الحيوانات يعذب ، وان لم يطلع عليه .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : ان تصديق خبر الناكر والنكير في القبر ، يضادد خبر القرآن العظيم ، واذا كان كذلك لم يجز تصديقه ، لقوله تعالى حاكيا عن قول اهل النار : « امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين » ، وقوله تعالى : ﴿ كنتم امواتاً ﴾ اي عدما ، او مضغة ولحما في بطون امهاتكم ثم احياكم فيها ، فاخرجكم منها احياء ، ثم يميتكم في بطن الأرض ، ثم يحييكم يوم البعث ، فيخرجكم من الارض احياء ، ثم اليه الى موقف الحساب تحشرون [تجمعون] .

وخبر الناكر والنكير يحتاج الى حياة بعد الموت بعقل كامل ، حتى يفهم ما يقال له ، وما يجيب ، وهذا لا يصح لأنه مخالف لاخبار التنزيل ، وما خالفه فلا شك في بطلانه ، وقولهم يفهم بحاسة غير رد روح الذي هو عقله فباطل ؛ لانه لا يمكنه ان يشهد ، ويقر ، ويفهم ، الا بعقله . واما عذاب القبر ؛ فقيل : ان الروح لم تزل كأنها في حلم ورؤ يا منام ، ان كانت سعيدة ، ترى منعمة ، او شقية ترى معذبة ، والاختلاف في هذا جائز . وقيل : ان الروح لا تعقل الاَّ في جسدها ، واظن انه الاصح .

وفي الأصل ان هذا كله من علم الغيب ، لا يصح فيه تحقيق . وقوله تعالى في فرعون وآله : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة

ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ﴾ ، . يمكن ما ذكرناه بمنزلة الرؤ يا في المنام ، ولكن في غير القبر ، او فيه ، لأن الروح لا تدري اين يذهب بها . ويمكن ان في الآية تقديماً وتأخيراً ، والمعنى ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، باستغراق الوقتين ، في كل حين ، وليس المراد برد الروح المشركة الموجودة ، التي بها وجود القوة الغاذية ، التي تتولد بها القوة التامة ، والقولة المولدة ، وتخدم القوة الغاذية القوة الهاضمة ،

والقوة الماسكة والقوة الدافعة ، والقوة الطابخة حتى يكون الغذاء كيموسياً صالحا ، لاستحالته في اجزاء المغتذي جزاء منه ، مما يناسبه من الغذاء ، فاما مع عدم القوة العاقلة ، فلا يصح ان يحس عذابا ، ولا ان يفهم خطابا ، ولا ان يرد جوابا .

واذا قيل : انه ترد عليه ، فهي قيامة له ، وصح ان للميت قيامتين ، ولم يقم دليل على صحة هذا ، وآيات الذكر تدل على ان هذا كله غير صحيح ، فان كان من قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ (الآية) ، فليس في ذلك دليل قطعي ، وانما فيها احتمالات معان ، يحتمل ان يكون اراد بذلك ، يوم الحشر ، ويكون معنى الغدو ، او يوم العشي اخر يوم الحشر ،

فيكون استغراق الطرفين ، اي من اول يوم الحشر كذلك ، الى آخر يوم الحساب . ويحتمل ان يكون معنى الآية على التقديم والتأخير ، فيكون المعنى ويوم القيامة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ، فهم يعرضون عليها غدواً وعشياً ، اي هم فيها مستغرقو الاوقات لا يخرجون منها .

فان قلت كذلك انت أولت الآية على الظن ، واحلته عن معنى لما صح انه ليس للانسان قيامتان ؛ وقال تعالى : ﴿ أمتنا اثنتين ﴾ هي موتة العدم الاولى ، فهم كالاموات ، او المضغة ، واللحمة في بطون الامهات ، والموتة الثانية هو الموت المعروف ، ﴿ واحييتنا اثنتين ﴾ ، هي الحياة الاولى ، وحياة يوم القيامة . فان قيل : وما الدليل على ان الموتتين ليستا هما الموتة الاولى ، وموته في القبر ؟ قلنا : هذا سؤال اهل النار الذي أثبت عليهم انت عذاب

القبر . فاذا ماتوا هذه الموتة الاولى ، فلا تكون هي الثانية بالاولى التي هي العدم او المضغة . قلنا : اتفاقنا جميعاً ان الروح ، والعقل ، لا يردان في القبر . وبالاجماع ان رد الارواح ، لا يكون الا يوم البعث ، والقرآن يدل على ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ . فلو ثبت عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، لم يكن الاحياء اليها ، وهي رميمة فأولت الآية على ما وقع عليه الاجماع ، ودل عليه صريح الكتاب ، ودل على ان الروايات المروية ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مسلمة الى قائلها غير مسلم في صحتها ، لانها على خلاف صريح الذكر الحكيم .

وبعض اصحابنا بقلة علمه صدق هذه الشهرة ، فاثر ذلك في كتابه ، واما قوله : ان بعض المعتزلة انكر ذلك ، فصحيح ، وهو الاصح . واما قوله : مع ذلك والروافض فكأنه بعض المعتزلة ، وعم الروافض فالله اعلم .

ولكني ارى الامامية من الشيع ، يذهبون دائماً وقت العصر ، من يوم الخميس ، الى قبور موتاهم ، فسألت كثيراً منهم ممن لا يخفى عليّ امورهم ، فقال : ان ارواح موتاهم ترد الى اجسادهم آخر يوم الخميس ، الى آخر يوم الجمعة ، ويسمعون خطاب من يخاطبهم ، وانهم في الليلة الى زيارة علي والحسين ، ويخاطبون موتاهم برد السلام الى علي والحسين ، ويطلبون الوسيلة بالشفاعة منهما ، مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ليستشفع لهم مع الله تعالى ، فاذا كان هذا فرد الروح معهم مصحح ، ولا يكون معهم مصححاً الا بتواتر الاخبار ، واما انهم يعذب احد منهم في القبر فلا ؛ لأن حبهم لعلي والحسين ، كافٍ لهما عن الخلاص من عذاب القبر ، ومن عذاب النار في الآخرة ، بتواتر النصوص المصححة معهم ، اذا كان كل متواتر صحيحا ، ولو يجوزان يؤ ول القرآن على ذلك التواتر لم يصح افتراق في الاسلام ، اذ يصير الكل حقاً ، اذ كل مذهب لم يدينوا بشيء مما اختلف فيه المسلمون من امور الشرع الا وهو صحيح بتواتر الروايات ، فصح ان الحق في تأويل ما يتوافق فيه السنة ، والكتاب ، وان عارضه بسنة ،واختلف في صحة تلك السنة ، وغير صحتها رجع الحكم الى صحيح الكتاب ، لأن السنة الصحيحة لا تخالف الكتاب ،

وانما هي تفسير له ، واتمام لمعانيه ، او تعارضه ، ولكن المعارضة التي هي كالناسخة لا بد وان يكون لها دليل واضح ، يدل على صحتها ، لأن الروايات التي قامت الحجة بصحتها ، مستفاضة في اهل الاسلام .

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ . اوضح دليل على انه لا عذاب في القبر ، ولا سؤال منكر ونكير ، لان معنى الآية يدل على انهم حققوا صحة ما جاءتهم به رسلهم ، بعد بعثهم مع تلك الصيحة ، فلو كان عذاب في القبر لتحقق لهم الامر فيه ، وتحققوا مع سؤال منكر ونكير . ثم يبقى فيهم من رمق الحياة ، ما يحسون به العذاب ، فيصح لهم تحقيق ما جاءتهم به رسلهم قبل يوم البعث ، قال : ﴿ كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسأل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ﴾ .

وهذه الآية ايضا تدل على صحة ما ذكرناه اذ لو كان عذاب في القبر وسؤال منكر ونكير ، لما رأوا المدة التي لبثوا فيها في قبورهم كأنها لم تكن الا يوما او بعض يوم ، وانما يجب ذلك كذلك اذا كان على ما قلناه . ووافقني عليه من قال به من المعتزلة ، وكثير من آيات القرآن تدل على ان الروايات المخالفة لدلالة الكتاب مسلمة الى قائلها ، لا الى الصحة ، وبالله التوفيق .

قال المؤلف : وقد نقلنا في عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، في الجزء الرابع والعشرين (جزء وصلاة الميت وتكفينه) ما فيه كفاية وهداية .

الباب العشـــرون

في ذنوب الانبياء عليهم السلام وما قيل فيهم

قال الشيخ ابو محمد : لا يجوز لأحد ان يقول : ان انبياء الله كانوا غير مسلمين ، وهم اصفياء قبل ان يخلقهم . قال الله تعالى : ﴿ ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ . والله اعلم .

(**مسألة**) : قال محمد بن محبوب : ان انبياء الله تعالى ، لم يزالوا عند الله مسلمين ، وهم له اولياء ، لا يسع احد ان يقول : ان انبياء الله ورسله ، كانوا عند الله ، في شيء من الحالات كفاراً وضلالاً ؛ وهم اصفياء الله قبل ان يخلقهم . وكذلك اخبرنا الله ، فقال : ﴿ ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ ، وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ؛ يعني ضالاً عن النبوة لم تُؤْته بعد . وكذلك ؛ قول موسى عليه السلام : ﴿ فعلتها اذا وانا من الضالين ﴾ ؛ عن النبوة . وما بعث الله نبيا الا اعطاه خصلتين يغفر ما تقدم من ذنبه ويعصمه فيما تأخر ، والله اعلم .

(**مسألة**) : ابو سعيد من قال : ان آدم لم يعص الله ، فقد خالف القرآن نصاً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ ، فكيف يكون من الظالمين ولم يعص الله ؟ والله اعلم .

(**مسألة**) : ابو الحسن البسياني : ان يوسف هم بالمعصية فصرف الله عنه السوء والفحشاء بالبرهان الذي أراه اياه ، ولم يفعل معصيته فيكتب

عاصياً . والناس مختلفون في ذنوب الانبياء صلى الله عليهم اجمعين . وقد اتفقوا ، على انها كلها صغائر وخطأ ، وقال في داود عليه السلام : انه لم يقصد الى الخطيئة ولا تعمد اليها ، وانما قصد الى ما هو جائز له ، ان خطب الى قوم امرأة قد خطبها غيره ، فانزل الله عليه الملكين ، كما اخبر الله فقال داود من قبل ان يسأل الخصم : ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ﴾ ، فلما قال [لقد ظلمك] ظن انه قد فتن فلم يتعمد ولا اراد الخطيئة . وانما الملكان سألاه ان ليس له ان يخطب على خطبة اخيه ، فعرف انه قال للخصم ، من قبل ان يستفهم قوله [لقد ظلمك] فتاب من ذلك ، من غير عمد منه ، ولا قصد للمعصية ، فاستغفر ربه وأناب ، اي رجع الى الحق ، وندم على ما فعل . والله اعلم .

(مسألة) ؛ قال ابو عبدالله : لا يقال ان النبي ابراهيم عليه السلام قال الكذب في قوله : ﴿ اني سقيم ﴾ وقوله : ﴿ فعله كبيرهم هذا ﴾ ولا قول يوسف لاخوته : ﴿ انكم لسارقون ﴾ ، ولا قول الملائكة لداود عليه السلام : ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ فلا يقال لهم انهم قالوا الكذب ، ولكن هذا بوحي من الله ان يقولوا فاطاعوا ؛ والله اعلم .

(مسألة) : وقال بعض قومنا : لا تجوز الصغائر على النبي صلى الله عليه وسلم ، الا خفية . قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : ان الرسول صلى الله عليه وسلم ، معصوم من الصغائر الخفية والجلية ، لأنه افضل الخلائق ، وان فعل امرا باجتهاده ؛ فانما يجتهد فيما يجوز فيه الاجتهاد ، وان كان قد نزل الوحي بعده بخلافه ، ويتهدد فانما ذلك تعظيما لشأنه ، حتى يوقفه في موضع الخضوع ، والتذلل بالعبودية ، كالمعلم المؤدب ، لمن كان اقرب المتعلمين معه ، فانه يفتح له ابواب الادب ، والجرأة عليه ، اكثر من غيره . وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ فأصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ﴾ ؛ فلم يأمره بالصبر ، اكثر مما صبر اولو العزم من الرسل ، ففي ظاهر اللفظ لم يرفعه عليهم وفي الباطن هو الترفع ؛ لانه امره بالتواضع لئلا يرتضي بالوقوف على مقامه ، في غير طلب مزيد القرب ، مع انه من المعلوم انه رفعه عليهم ،

بآيات صرحت بذلك ، وبخطابه له بغير اسمه مع خطابه لغيره بأسمائهم ، الى غير ذلك .

(مسألة) : وقيل : ان النبي محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يأت الخطيئة ولا كانت منه . واخوة يوسف فعلوا ما فعلوا في يوسف قبل ان يستنبئوا وانما استنبأوا بعد ذلك . وقيل : فعلوا فيه ذلك قبل بلوغهم . والله اعلم .

(مسألة) : قال الشيخ ابو محمد : قتل موسى صلوات الله عليه يتصرف على وجوه منها : انه يجوز ان يكون قتله ولم يستأذن في قتله ؛ لأن الانبياء ان ارادوا فعلاً وايجاب حكم ، استأذنوه في فعل ما ارادوا فعله ، لئلا تلحقهم هناك لائمة ، فيجوز ان يكون لم يستأذن في قتله ،وكان فعله خطأ ، وكان معصية منه ، يمحوها الاستغفار ، والندم ، والانابة ؛ لأن الاجماع من الكل ان الانبياء لا يأتون الكبائر . ويجوز ان يكون غير متعبد في الظاهر ، بدليل على قتل ذلك الرجل ؛ لأن العبادة مأخوذة عليه في جملة الشريعة ، فتأول في قتله فاخطأ التأويل ، فوقعت منه صغيرة من جهة خطئه في التأويل ، لا من جهة القتل ، لأن المقتول كان كافراً ، فاستغفر ، وتاب من جهة خطئه في التأويل . والله اعلم .

(مسألة) : ومن كتاب ركن الدين تأليف ابي طاهر المعتزلي ينظر فيه ؛ ومن ذلك قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ (الآية) الى قوله : ﴿ اني ظلمت نفسي ﴾ (الآية) الى آخرها . قالوا : فموسى عليه السلام قتل نفساً في حال كونه غير نبي ، وهي كبيرة ، واعترف بانه ظلم نفسه ، واستغفر منه ، ثم بعد ذلك اعترف بانه كان ضالاً عند مناظرته فرعون ، حيث قال : ﴿ فعلتها اذا وانا من الضالين ﴾ .

الجـواب ؛ انه لا تعلق لهم في الظاهر ، لأن القتل قد يكون بالحق ، كما يكون بغير الحق . كذلك قال تعالى في قتل الانبياء بغير الحق ، وقد يكون القتل على سبيل الخطأ ، ولا يكون كبيرة . وكذلك قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً الا خطأ ﴾ ، واستثنى الخطأ من ذلك ، ونحن نبين ان

قتله لم يكن على وجه لا يكون كبيرة ، فسقط تعلقهم بذلك في اثباته كبيرة ، واما تعلقهم بقوله : ﴿ رب اني ظلمت نفسي ﴾ ، وباستغفاره في ذلك ، وغفران الله تعالى له ذلك ، فساقط ؛ لأنا قد بينا فيما سلف ، ان جميع ذلك يستعمل في الصغائر كما يستعمل في الكبائر ، وان الاستغفار والتوبة ، تجب من الصغيرة ، كما تجب من الكبيرة . واذا كان كذلك ؛ سقط التعلق به ايضا ، واما تعلقهم بقوله : ﴿ فعلتها اذا وانا من الضالين ﴾ ، فسنبين المعنى فيه في الجواب ، عن قوله ﴿ فوجدك ضالا فهدى ﴾ ، انما يوجب سقوط تعلقهم في الآية .

فأما معنى الآية فيحتمل وجهين : احدهما ، ان نعلم اناً لا ننكر تعاطيهم الصغائر ، والقتل قد يقع على وجه الحق فيكون القاتل محمودا على ذلك ، مأجوراً ، وقد يقع على سبيل الخطأ ، فيكون صغيرة لا يؤاخذ بها ، ولا خلاف ان موسى عليه السلام ، لم يتعمد لقتله ، وانما وكزه على سبيل الخطأ لم يكن عليه في ذلك تبعة ، ولم يلحقه مذمة . فاما قوله تعالى : ﴿ رب اني ظلمت نفسي ﴾ ؛ فقد بينا ان ذلك يستعمل في الصغائر ، كما يستعمل في الكبائر ، في غير موضع .

قال الشيخ ابو علي : انه لما الزم نفسه بتلك المعصية التوبة ؛ مع كونها شاقة من حيث ندم عليها ، كان ظالماً لنفسه من هذا الوجه . واعترض ابو هاشم عن ذلك ، فقال : هذا يوجب ان يكون الله تعالى ظالماً من حيث كلفه التوبة في الاصل ، ولا يجوز القول به ؛ لأن التكليف يقع من حيث يستحق به الثواب ، فكيف يكون ظلما ؟ فقال : انما صار ظالماً لنفسه بالصغيرة من حيث نقصت من ثوابه ، فصار فوق النفع بمنزلة حصول المضرة وان قل .

وأما قوله تعالى : ﴿ فعلتها اذا وانا من الضالين ﴾ ، فلم يقل : اني صرت بذلك ضالاً ، ولكن لما ادعى انه كافر في حالة القتل ، نفى عن نفسه كونه كافرا في ذلك الوقت ، واعترف بأنه كان ضالا ، اي متحيزاً جاهلاً لا

يدري ما يجب عليه ان يفعله ، وما يدين به في ذلك ، ويستدل على صحة هذا المعنى ، في الآية التي تلي هذه .

والوجه الآخر ؛ انه تعالى بقوله : ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ ، فقوله [هذا] اشارة الى المقتول عنا انه من جند الشيطان ، اي من اصحابه ، ومن جملتهم يقال : فلان من عمل الشيطان ، اي من اصحابه ، ومن جملتهم . ثم قال : ﴿ رب اني ظلمت نفسي ﴾ ، حيث آتيتني من القوة ما اقدر على قتلهم ، وقتل احدهم ، بوكزة فقصرت في قتلهم الى اليوم . الا ترى انه من الغد اراد ان يبطش بآخر منهم ، حتى قال له : ﴿ اتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ﴾ وقوله : [فعلتها اذا] اي فعلت تلك الفعلة ، وانا جاهل بما يجب علي من قتلكم ، والجاهل قد يسمى ضالا ، وكذلك الناسي . قال الله تعالى : ﴿ ان تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ﴾ ؛ عني به انه ينسى احداهما ؛ واذا كان كذلك ، سقط التعلق .

(مسألة) : عن الشيخ ابي نبهان ، جاعد بن خميس الخروصي ، ما تقول فيما قيل عن انبياء الله ، واصفيائه ، ورسله ، فيمن واقع منهم زلة مثل زلة سيدنا آدم فيما قيل : انه بكى مائتي عام زائدا ناقصا ، وكذلك سيدنا داوود حتى قيل : انه لصق خده بالارض بعد برهة من الزمان في تضرعه وبكائه فيما وجدناه في كتاب [درياق الذنوب] وغيره من الكتب ، هل هذا عندك صحيح في مذهبنا ، فيما رفعه قومنا في كتبهم ، ونعتقده مذهبا ام لا ؟ ارأيت ان مات هذا النبي او الرسول قبل انقضاء المدة ، ماذا كان حال الرسول او النبي ؟ ايصح ان نبي الله ورسوله ان تؤخر توبته ، مذ تاب الى كذا كذا ساعة ، اوكذا شهراً ، اوسنة ، اوحقبا الى ما اكثر ؟ وهل في التوبة النصوح تأخير ؟ ، وان لم يصح هذا في الرسل والانبياء ، ايصح في الاولياء فيما دونهم ، ومن مات منهم ، فيمن قارف معصية ؟ واذا صح في الأولياء السابقة ولايتهم ، أتصح فيما دونهم كان موقوفاً عنه ، وتاب من معصيته ؟ واذا صح في الموقوف عنه ؛ ايصح فيمن كان في البرأة وتاب عند من صحت معه توبته ، على ما يجب عليه في تلك التوبة من الشروط ؟ علمنا مما علمك الله ، ودلنا

لطريق مرضاة الله ، تخص ببحبوحة جنته ، وديمومة نعمته ، آمين .

قال : لا اعلم ان هذا في الخلق مما ينكر بغير برهان ، فيرد بحق ؛ لأنه مما يمكن فيجوز على ما اقول في مثل هذا المنقول ، ان يكون على قدر العقول ، لا على قدر الذنوب ، بدليل : ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وان كان القطع بصحة ما لم يصح لعدم قيام الحجة به لا سبيل اليه ، فان رده على معنى الانكار له على الغيب ، لا يجوز واما تأخير التوبة من الله على من تاب اليه ، من نبي او غيره ، فلا اعلم انه مما يصح فيجوز على الله في شيء ، مما به تلزم ، او يجوز ان ترد توبته حتى حين نعمة عين ، ولا ان يؤاخذه به من بعدها على حال . وان مات في الحال ، وكفى بما جرى لسحرة فرعون دليلا في هذا ، لمن ابصر فاهتدى بدليل ، لأوضح سبيل .

واما نزول الوحي بها من الله على من خص به ، فيمكن فيه التأخير عن قبولها الى الوقت الذي قدر ، لأن يكون فيه لحكمة ، وان قبلها ورضي عنه بها فهي معنى آخر . واما نفس القبول والرضا من الله ، على صدق الرجعى اليه ، فلا يمكن ان يؤخر عنها طرفة بصر ، فضلا عما زاد عليها في الدهر ، من ساعة ، او يوم ، او شهر ؛ لأن فيه ان مات قبل مجيء الوقت ان لو كان لزوم هلاكه معها ، وجوازه على الله لا يصح في عموم ، لما يكون به من الذنوب الموبقة لاهلها ، ولا خصوص فيها لشيء منها ، ولا في احد من المتعبدين بها ، لكن الرضا مغيب لا يدري في حقه عند نفسه ، مع صدقه لجواز احتمال الرد ، لبقاء السخط عليه ، لاخلاله في شروطها بشيء من الواجبات عليه فيها ، فكيف به على ظهور عدله عند مثله ؟ والا فهي على كمالها مقبولة ؛ لا محالة في حالها ، بغير جدال يصح في حال ، الا ان هذا وان كان المقطوع به في نفسه على حال ، فالشك فيه اذا من حيث بلوغه حد الكمال ، الذي به يقبل فلا يرد ، لا بد وان يكون فيه لخفائه عليه فهو اذا امر مبهم على حال ، فليس الى ادراكه من سبيل الا بوحي من الله على نبي ، او رسول ، يخبره عن ربه بالعفو ، والمغفرة لذنبه ، والا فشكه في القبول منه لازم له ، لا ينفك عنه ابدا ، لحكمة من الباري اودعها لعباده في ذلك عن تفضل ، فلهذا لم يكن من

العجب ، ولا من المحال ، ان يقتضي مخافة البعد ، دوام بكاء العبد ، على ما يكون من تفريطه في جنب مولاه على ما به من النعم اولاه .

وحقيق بمثل آدم ان يبكي في دهره ، طول عمره ، على ما كان من ذنبه الموجب لهبوطه ، من جوار ربه ، وغيره في ذلك من العبيد ممن له قلب او القى السمع وهو شهيد . كذلك لا سيما من البرية ؛ كل ذي مرتبة علية ، من ارباب العقول . فانه على قدر الصعود يكون النزول . ومن نظر بعين المعرفة لربه ، ولنفسه ، ودنياه ، واخراه الى قرب المسافة ، صار في رجاه على مخافة . وطوبى لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى . وان تكن الأخرى ، خسر الدنيا والأخرى ؛ لأن من فاته عز العزيز ، لخروجه عن الملجأ الحريز ، فيصير الى ذل مصيره ، لقبح تقصيره ، او يظن انه يجد له من معين ، على دفعه في حين ، وما له في الآخرة على قبح التقصير ، من ولي ولا نصير .

فذر الكبير ، واحذر الصغير ، وعجل التوبة ، الخلصاء من كل حوبة ، ولا تقم على الاصرار ، في شيء من الأوزار . وابك بعد المتاب ، على ما كان منك من العصيان ، عسى ان ينظر اليك مولى النعمة ، بعين الرحمة .

ولا تصغ الى عذل من اراد بك غير العدل ، ولا تلتفت الى قول من ينكر ، من فعل الصالحين ما لا يبصر ، فان الوجل من الله عز وجل ، على قدر الألباب لا الزلل . وان طال العمل لقصر الأمل ، فنزه المولى عما لا يليق ، وبالله التوفيق .

ولا تقولن ما ليس لك به علم ، في نفي لشيء ولا اثباته ، واعمل لله على الاخلاص طلب الخلاص . ولا تعمل حتى تعلم ، واياك والأمن والقنوط ، فانهما من التفريط الداعي الى الهلاك ، والعياذ بالله من ذاك . واذا كان ما فيهما عن حكم الله ، فدعهما الى ما بينهما ، فان في الدين للناس طريقا بين الأمن واليأس ، هي طريق الرشاد ، لمزيد السداد ، فلا تختر سواها ، ولا تتعداها الى ما عداها .

وكن على حذر بالغ من غيرها ، لعدم خيرها ، وعظم ضيرها ، فان من ورائه العذاب المهين ، من امر رب العالمين ، لمن لم يتب من العاصين ؛ ولهذا مع الرجاء عظم خوف العارفين ، فصار ألم نار الندم محرقا لفؤاد كل تقي لبيب من العباد ، عصى فتاب الى الله ولم يصر مما كان منه خوف من البعاد ، فكيف لا يورثه على هذا كون البكاء والنوح ، مثل داوود ونوح ، وغيرهما من كل ولي ، ذي قلب زكي ، وهم اعرف خلق الله تعالى بالله ، وبالنفس ، والشيطان ، والدنيا ، والآخرة جميعا ! واعلمهم بالأمر والنهي ، وادركهم لمرارة المعاصي ، ولذاذة الطاعة ، اني لا ابعد على هذا ان يكون منهم ، ما قد حكي عنهم .

وان كان ذلك من الانبياء على شيء من الصغائر ، لانهم منزهون عن فعل الكبائر ، فانهم لقربهم ، وعظم شأنهم عند ربهم ، لكثرة الاجتهاد ، عن محض وداد كامن بالفؤاد ، وصحة بواطنهم لطهارة قلوبهم ، وتمكنهم لصفاء اذهانهم من رؤية شؤم المخافة ، بغير الحق وان كان فيها هو من الشعر ادق ، ومن الماء ارق ، يرونها على حال ، كالرواسي من الجبال ، فيشمئزون منها وتقشعر جلودهم لذكرها ، وقبح امرها ، وثقل اصرها ، لا كمن يراها مثل ذباب وقع بانفه فاطاره ثم نسيه في موضع ما يكون الله محصيه ، على من اتاه ليجزيه به شراً يخزيه ، في يوم لا ظلم فيه . كلا ، بل قد جلا البابهم من العمى بأنوار الهدى ، فانهم يرون الانحطاط عما كانوا عليه من المنازل العلية ، اعظم بلية ، واشد رزية ، تقتضي كون العويل ، في العمر الطويل ، ضرورة لا يقدرون علي دفعها ، ولا الاحتراز منها ، ولا التحول عنها ، بعد كون المخافة المكدرة لعين الصفاء ، في حق اهل الوفاء ، كلما ذكروها تجدد لهم بها تذكار ذنبهم ، فأورى بهم ، خوفا من ربهم فاشتد لذلك الخشوع ، وزاد السجود والركوع ، وكثر الحنين ، فطال الانين ، وعلا الزفير ، لقوة لواعج ضرامها في الصدور ، ولا بأس فان لهم فيه بدل الوزر ، اعظم الاجر ، لانهم على صراط مستقيم ، فلا يريدون به الا وجهه الكريم ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

فان تشرب من فضل كأسهم يوما والا فدع عنك المراء على سبيل الأنكار ، لما جاء في الاخبار ، من احوال الانبياء وغيرهم من الأولياء ، بغير علم في شيء من جميع ما روي عنهم من شيء وامكن فجاز ان يكون منهم فان من طلب العلا من العبيد ، لم يقنع في حين الا بالمزيد ، فكيف يقر له على النقص قرار ، ويهنأ بعيش او تلذ له دار ؟ ولو من دونه عند من كان من اولي الالباب على الصحيح ، نزع الروح ، حتى ترجع الى ما كان فيه فيكون عليه طالبا لما علا ، قاصدا نحو العلا ، حبا لمولاه وشوقا اليه .

هذا واني بعده لا قول . اللهم اجعل لعبدك الراجع ، من فضلك الواسع ، ذنوبا مثل ذنوبهم ، عسى ولعل ان يخشع قلبي فيخضع ، حين يحشى بالمخافة فيخشى ، ويندم على ما تقدم ، فيبكي على ما اسلفه من ذنوبه ، مثل بكائهم على ذنوبهم ، او يكون لي ادنى حظ من ذلك احظى به ، فانه مما يدعو في التوكل عليك الى التبتل اليك ، مع كثرة السؤال والتضرع ، والابتهال عن لذة مناجاتك ، يقوى بها على دوام ذكرك ، ولزوم شكرك ، والانس بك عن غيرك ؛ روما لخيرك على الرضا بانواع القضاء ، حتى يلقاك على ما تحب وترضى .

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « اللهم ارزقني عينين هطالتين يبكيان من خشيتك قبل ان تكون الدموع دما والاضراس جمرا » ، واذا كان هذا من سؤاله مع علو مقامه ، لصفاء باله ، وصحة حاله ، فكيف بمن هو مثلي على ما نحن فيه من ضعف توكلي ، وقلة عدلي ؟ فاننا قد تلوثنا من الخبث بانواع ، مغيرة للطباع ، لا خلاص لنا منها الا به ، لكنا نرجو ان يمدنا بما به نقدر في امرنا ، على فك اسرنا ، انه بالجود والامتنان ، لاعظم منان ، فانظر في هذا كله ثم لا تقبل منه الا ما كان عدلا . والله اعلم . والسلام من العبد المذنب ، الخاطىء ، الخائف ، الراجي جاعد خميس بن مبارك الخروصي .

(**مسألة**) : من كتاب الارشاد ، وقد روي : ان اخوة يوسف صلى الله علي انبيائه اجمعين ، انما فعلوا في يوسف ما فعلوا ، ولم يبلغوا على قول بعض

الناس . وقال آخرون فعلوا فيه ذلك ، ولم يكونوا استنبأوا بعد ، وانما استنبأوا بعد ذلك . ولا يجوز ان يوصف الانبياء بالمعاصي ، وقد ارتضاهم الله واصطفاهم ، وجعلهم حجة على عباده ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . والله اعلم .

(**مسألة**) : ومن كتاب ركن الدين ، تأليف ابي طاهر المعتزلي ينظر فيه ، ومن ذلك تعلقهم بافعال اخوة يوسف من العزم على قتله ، والقصد لايحاش والدهم والتفرق بينه وبين اعز ولد عليه ، وهو نبي لا يجوز القصد لايحاشه ، وعصيانه ، وايذائه ، وكذلك القاؤهم اخاهم في البئر ، من غير جرم وحيلتهم لابيهم ، وكذبهم في قولهم : ان الذئب اكله ، وكذلك قوله : « ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل » واخلافهم والدهم ما وعدوه من ردهم يوسف اليه ، وهذا كله عن قصد منهم لذلك وتعمد ، من غير سهو ولا غفلة ، ولا تأويل ، قالوا : فان كان ذلك بعد نبوتهم ، فقد بطل القول بالعصمة ، وان كان قبل نبوتهم فالعصمة غير صحيحة .

الجـواب ؛ ان القائلين بالعصمة في امرهم على قولين : فمنهم من ذهب الى انهم لم يكونوا انبياء ، وانما كان النبي من بينهم يوسف ، واحتجوا على ذلك بانهم انما عادوه لفوزه بامر النبوة . ولذلك قال والده له : ﴿ لا تقصص رؤ ياك على اخوتك ﴾ (الآيتين) الى آخرهما . واستدلوا ايضا بارتكابهم ما ارتكبوه من الخيانة ، والكذب ، والخلف في الوعد ، والقصد للقتل ، وغير ذلك مما عددناه من غير تأويل ، ولا سهو ولا خطأ ، قالوا : وليس هذا من افعال الانبياء عليهم السلام قالوا : انه لم ترد آية ناطقة ، ولا خبر يوجب الحكم في كونهم انبياء ، ولا يجب القول بذلك ، ومن ادعى الاجماع في ذلك فباطل ؛ لأن الاجماع لا يكون مع الخلاف ، وهؤلاء الشيعة باسرها ، وكثير من سائر الفرق ، انكروا ان يكونوا انبياء ، ولا تعلق في ذلك بقوله . والاسباط ؛ لأن الاسباط يعني به جميع بني اسرائيل ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطاً امماً ﴾ ، فليس لفظ الاسباط مقصورا على اولاد يعقوب ، ـ عليه السلام ـ بل هو عام لجميع بني اسرائيل .

فاما قوله تعالى : ﴿ انزلنا عليهم ﴾ ، فيجوز ان يذكر ذلك ، ولا يكون ذلك موجبا لكونهم انبياء ؛ وانما يقال ذلك من حيث خوطبوا به ، وكلفوا القيام ، فالتعلق بذلك ساقط على قول هؤلاء المنكرين . والفرقة الاخرى اعترفت بكونهم انبياء ، وادعوا انهم فعلوا ذلك وهم غير بالغين ، وتعلقوا في ذلك بقولهم : ﴿ يرتع ويلعب ﴾ قالوا : والانبياء لا يلعبون بعد بلوغهم . قالوا : وليس هذا من كلام الانبياء البالغين ، واستدلوا ايضا بردهم قميص يوسف الى ابيهم ملطخا بالدم ، غير ممزق زاعمين ان الذئب اكله ، حتى عرف يعقوب ـ عليه السلام ـ انه لا يجوز ان يأكل الذئب صبياً ، او يخرجه من قميصه ، ويلطخ قميصه بدمه من غير ان يخرقه ، فقال : ﴿ بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل ﴾ ، وكذلك قوله تعالى حاكياً عن يوسف ـ عليه السلام ـ هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ انتم جاهلون . فلا يطلق لفظ الجهل على الانبياء بعد بلوغهم ، وانما نسبهم الى ذلك لانهم كانوا غير بالغين . واذا ثبت انهم غير بالغين ، فهم كانوا غير مكلفين ، فلم يعتبر العصمة في ذلك الحال . ومن ذلك قوله تعالى في قصة شعيب : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ ، الى اخر القصة ؛ بل قالوا : وقد اعترف شعيب بانه قد نجاهم من ملتهم التي هي الكفر ؛ ولا يعود فيها ، والعائد الى الشيء من كان فيه فرجع اليه بعد مفارقته . كذلك سبيل النجاة .

الجواب ؛ التعلق بظاهره فاسد ؛ لأن العود الى الشيء قد يستعمل فيما لم يكن فيه قط . ألا ترى ان الله تعالى سمى القيامة معاداً ، والمصير اليه عوداً ، وان لم يكن فيها قط ، وقد سمى عيد الفطر والأضحى عيداً ، من حيث يعود الناس في ذلك اليوم ، وان لم يكونوا في ذلك اليوم قبله ؟ واذا كان كذلك ؛ سقط تعلقهم وما كان لنا أن نعود فيها وكذلك تعلقهم بقوله : ﴿بعد اذ نجانا الله منها﴾ فاسد ، وقد يستعمل فيما لم يقع فيه ، وقد تطلق على من سلم مما ابتلى بهِ غيره . فيقال : الحمد لله الذي نجانا مما ابتلى بهِ فلاناً ، وعلى ذلك قوله : ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه﴾ ، وكذلك قوله

تعالى : ﴿ونجيناه لوطاً الى الارض التي باركنا فيها للعالمين﴾ ، وكذلك سائر الأنبياء الذين ذكر الله انهُ انجاهم ، وانما أنجاهم مما لم يحل بهم من العذاب ، وحل بقومهم بعد مفارقتهم اياهم ، لكنه لما أخرجهم من بينهم ، ثم أحل بهم العذاب ، قال : أنجاهم فسقط تعلقهم بذلك .

ووجه آخر ؛ ان الكناية في قوله : [منها] راجع الى الملة ، فيجوز ان يكون شعيب عليه السلام قبل أن أوحى الله اليه ، مكلفاً بتلك الملة ، فلما أرسلهُ الله نسخ تلك الملة ، فدعوه الى العود في تلك الملة ، فأجابهم شعيب : انهُ ليس لهُ أن يعود في تلك الملة ، لأن كل نبي يكون مكلفاً بشريعة من تقدم من الأنبياء ، الى ان تنسخ تلك الملة على لسانه .

فصـــل : ومنهُ ، وأكثر أصحابنا ، انهُ لا يجوز أن يرتكب النبي قبل النبوة الشرك والكبائر ، ولا ما ينفر من الصغائر ايضاً ، وتعلق المخالف في ذلك بآيات ؛ فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السمٰوات والأرض﴾ ، الى آخر هذه القصة ، قالوا : فبين انهُ قبل ذلك كان كافراً .

الجواب هو ؛ ان الآية تدل على خلاف ما ذهبوا اليه ، لانهُ ليست تنبىء عن انهُ كان كافراً ، بل توجب انهُ استدل ، ونظر ليكون من الموقنين ، وموقناً ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿وكذلك نري ابراهيم﴾ (الآية) ؟ ونحن نبين الوجه في قوله : ﴿هذا ربي﴾ بما يسقط بهِ تعلقهم . فأما معناها فيحتمل وجوهاً ؛ احدها : -

ان حالة تلك اول حالة نظره ، والناظر يكون واقفاً بين الأمرين مرتاباً طالباً . ولسنا نعتقد أن الأنبياء عليهم السلام - كانوا عارفين بالله تعالى ضرورة ، بل كانوا مختارين مكتسبين للمعرفة ، ولكنهم لما حصلت لهم شرائط التكليف العقلي ؛ نظروا واعتبروا واستدلوا ، حتى اداهم النظر والاستدلال ، الى معرفة الصانع ، ومعرفة توحيده وعدله . كما قال تعالى : ﴿ولما بلغ أشده

آتيناه حكماً وعلماً﴾ (الآية) ، وقال ايضاً تعالى : ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل﴾ (الآية) ؛ انما اخبرت عن حال نظره ، وابتداء الأمر في الاستدلال ، وبين انهُ اراد ملكوت السماوات والأرض ، ليكون من الموقنين ، يعرف بالتعبير الدال على الحدوث ، حدوث الشمس والقمر ، وأنها مصنوعة مخلوقة ، وأن لجميع ذلك خالقاً لا يشبهها ، ولا يجوز عليه التغيير والزوال ، فقال عند ذلك : ﴿اني وجهت وجهي﴾ (الآية) ، حيث عرف ان جميعها مفطورة .

وانما قال هذا على سبيل التوسع في النظر ؛ وذلك لأن طريقة النظر هو ان يقول مثلاً : العالم قديم ، ثم يقول : القديم لا يتغير ، والعالم يتغير فهو اذاً غير قديم . واذا كان على سبيل التوسع في النظر ؛ لم يلزمه تبعة في ذلك ، ولذلك لم يوبخه الله تعالى على ما قاله ، ولا ذمه ، ولا استغفر ابراهيم منهُ ، بل ذكر الله تعالى عنهُ ، على سبيل المدح لهُ ، وانهُ أراد ذلك كي يكون من الموقنين .

وثانيها ؛ أن يكون قال ذلك على دعوى قومه ، وذلك ان منهم من كان يعبد النجم ، ومنهم من كان يعبد الشمس ، فدل بأحوال كل واحد منها على حدوثه ؛ وانهُ لا يجوز أن يكون رباً معبوداً ، وأظهر من الأمر على سبيل الزامهم للحجة ؛ انه وجه وجهه للخالق جميع ذلك ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه﴾ ؛ فمعناه أي حجته ليحتج بها على قومه ، فقد بين انهُ انما قال ذلك على سبيل الاحتجاج على خصومه وقومه .

وثالثها ؛ أن يكون قوله : ﴿هذا ربي﴾ على سبيل الاستفهام ، دون الحكم والاخبار . وقد بينا فيما قبل ، على جواز حذف حرف الاستفهام .

انقضى الذي نقلناه من كتاب [المعتزلة] انظروا فيهِ ، وفي جميع ما نقلناه

في هذا الكتاب ، يا أولو الألباب ، ولا تأخذوا منهُ الآ ما وافق الحق والصواب .

(مسألة) : من كتاب [عن بعض من أهل المذاهب الأربعة] ، قال : والأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة .

قال : أما الكبائر غير الكفر ؛ أراد غير الشرك ، منها اللسانية ، والجنانية قد اجمع الناس ايضاً على امتناع صدورها عنهم ، واختلفوا في دليل امتناعها فقيل : السمع ، وقيل : العقل .

وأما الصغائر عمدا ؛ اي قبل البعث فقد جوزها عليهم جماعة من السلف وغيرهم ، كامام الحرمين منا ، وكأبي هاشم من المعتزلة ؛ واليه ذهب ابو جعفر الطبري ، وغيره من الفقهاء والمحدثين ، والمتكلمين ، ومنعها المحققون من الفقهاء ، والمتكلمون ، وبهِ جزم . فهم معصومون من الصغائر عمداً كما انهم معصومون من الكبائر .

وقال بعض : هذا بعد البعثة ، وأما قبل ان يبعثوا فقال الجمهور من أصحابنا ، وجمع من المعتزلة : لا يمتنع ان يصدر منهم غير الكفر ؛ اراد غير الشرك . وقال أكثر المعتزلة : تمتنع الكبيرة ؛ وان تاب منها توجب النفرة المانعة عن اتباعهم . ومنهم من منع كل ما ينفر الطباع من متابعتهم .

وقالت الروافض : لا تجوز عليهم صغيرة ولا كبيرة ، لا عمداً ولا سهواً ، ولا خطأ في التأويل ، واختلف في عصمتهم عن المعاصي ؛ قبل النبوة ، فمنعها قوم ، وجوزها آخرون ، والأحسن تنزيههم عن كل عيب ، وعصمتهم من كل ما يوجب الريب . والله أعلم ينظر في ذلك كله ، ولا يؤخذ الاَّ بما صح عدله .

الباب الثاني والعشرون

فيما يتعلق بهِ في سيرهم ومذاهبهم

من كتاب [ركن الدين] الذي يتعلق بهِ في هذا الباب آيات ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ وسائر ما أتى من القرآن من الاخبار ، عن أكله الشجرة التي نهي عن أكلها ، واخراجه اياه من الجنة لذلك ، وتوبته ، وتوبة زوجته منه ، واعترافهما بالخطيئة ، كما حكى الله عنهما : ﴿قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ وأشباه ذلك . قالوا : فجميع ذلك دل على تعاطيه الكبيرة ، واستحقاقه العقاب .

الجواب ؛ انا نقول : ان تعلقهم بقصة آدم عليه السلام . بخمسة أشياء .

أحدها ؛ بقوله تعالى ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ .

وثانيها ؛ بارتكابه المنهّي عنه .

وثالثها ؛ بتوبته .

ورابعها ؛ بإخراجه من الجنة .

وخامسها ؛ بتسمية نفسه ظالماً .

ونحن نبين أولاً انهُ لا يدل شيء من ذلك على ما أدعوه . ونحن نبين فساد تعلقهم بجميعه ، ثم نفسر القصة على وجه موافقة اللغة ، من غير ان يوجب قدحاً في الأنبياء - عليهم السلام - فنقول - وبالله التوفيق .

أما تعلقهم بقوله تعالى : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ ؛ ففاسد ؛ لأن لفظ [عصى] يستعملى في الصغائر كاستعماله في الكبائر ، ويستعمل ايضاً في ترك قبوله نصيحة الناصح ، واشارة المستشار ، ومعالجة الطبيب ، وما يجري مجرى ذلك . فيقال : أشرت عليه في امر ولده بكذا ، فعصاني ، وأمرته بشرب دواء [كذا] فعصاني ، واذا كان كذلك ؛ لم يدل قوله [عصى آدم ربه] بمجرده ؛ على ارتكاب الكبيرة ، واما قوله [فغوى] ، فانهُ عني بهِ ، فانهُ [خاب وخسر] حيث أخرج من حيث كان مكفي الشغل .

واما تعلقهم بارتكاب المنّهي عنه ففاسد ؛ لان ارتكاب المنّهي عنه ، قد يكون على وجوه لا يوجب كونهُ كبيرة ؛ منها ان يرتكبه على سبيل النسيان والغلط والخطأ ، ومنها ان يرتكبه على ضرب من التأويل ، ومنها ان يرتكبه لجهله المعرفة بالنّهي ، فلا يعلم أن ما ارتكبه محظور عليه ، وبغير ذلك ، واذا كان كذلك ، لم يدل [ارتكاب المنهى عنه] بمجرده ، على انهُ ارتكب كبيرة .

فاما تعلقهم بتوبته ففاسد ؛ وذلك لأن التوبة من الصغائر ، تجب كما تجب من الكبائر ، وذلك لان الصغيرة متى ما لم يتب منها صار الجاني مصراً عليها ، والاصرار على اي ذنب كان كبيرة . واذا كان كذلك ؛ سقط تعلقهم بتوبته .

فاما تعلقهم باخراجه من الجنة ففاسد ، ايضاً ؛ وذلك انهُ لا يدل على انهُ عاقبهما بذلك ، لأن حرمان المنفعة ، لا يدل على انهُ قد يجوز ان يكون على سبيل المحنة ، والاعتبار الذي يدل على ذلك انهُ على سبيل العقوبة كما ان نزول المضرة لا يدل على ذلك ، اذ قد يجوز ان يكون ذلك على طريق المحنة والاعتبار ، الذي يدل على ذلك انهُ أخرجهما بعد قبول توبته ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انهُ هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ فأمرهما بالهبوط من الجنة بعد قبول توبتهما .

وأما تعلقهم بتسمية نفسه ظالماً بقوله : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ فغير

صحيح ؛ لأن هذا اللفظ يستعمل في الصغائر ، كما يستعمل في الكبائر ، لأن كل ذنب يأتيه المكلف صغيراً كان أو كبيراً ، يكون فيه ظالماً لنفسه ، من حيث يستحق عليه الذم والعقاب واللايمة ، ويلزمه لأجله توبته ، والندم ، وبعد ؛ فانما سميا أنفسهما ظالمين ، لانهما حرّما بعض ما جعل لهما من الثواب ، والمفوت نفسه المنافع ، كالجالب اليها المضار ، في انهُ يوصف بانهُ ظالم لنفسه ، ولذلك نسبا انفسهما الى الظلم ، ووصف الظالم بانهُ ظالم ، يكون غير ذم ، اذا أجري على طريق الاشتقاق ، ولذلك قالت العرب [اظلم من حية] ، وان لم يصح ذمها ؛ فاذا أريد بهِ الذم صار منقولاً ويخالف الوصف بالفاسق ؛ لأن ذلك وضع للذم في الشرع ، ولذلك استعمل على طريق اللغـــة .

وقوله تعالى : ﴿وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾ ؛ محمول على أن ظاهر الآية لو لم يغفر لهما الصغائر ، واخذهما بعقابها لكانا من الخاسرين في الحقيقة ، والتقدير ، في العقل لا يدل على حال الذم ، اذا وقع كيف يكون في الحسن والقبح ، ولولا أن الأمر على ما قلنا ، لوجب أن يحسن ذمهما ، ويجوز لعنهما ، لأن من استحق العقاب يحسن ذمه ، وهذا باطل بالاجماع في الأنبياء - عليهم السلام - .

وقد بينا سقوط تعلقهم ، بجميع ما تعلقوا بهِ في قصة آدم ، - عليه السلام - ، وأما تأويل القصة ؛ فيحتمل وجوهاً ثلاثة : -

أحدها ما ذهب اليه بعضهم ؛ وهو انهُ قال : ان نهي الله تعالى عن أكل الشجرة ، لم يكن على سبيل التحريم ، فيلزم أكلها العقوبة والتفسيق ، بل انما كان على سبيل نهي الطبيب غيره ، عما يضرّ بهِ من الأشربة ، والأطعمة ، قال : وكان عورتهما مستورين لنفس الخلقة ، فلم يكونا يريان عورتهما ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾ ، وقال : وكانت طبيعة تلك الشجرة ؛ انها اذا أكل منها تبدي العورة ، وتغير الخلقة ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ ؛ فهذا يبين ان طبيعة تلك الشجرة كانت

كذلك ، ويدل عليه ، ان ابليس لما غرهما فقال : ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الاَّ أن تكونا ملكين أو تكونان من الخالدين﴾ ، فهذا ينبيء أن طبيعة الشجرة ما ذكره ، ولا وجه لقوله سوى ذلك ، اذا لم يرد أن طبيعة الشجرة ما قـال .

فما في أكلهما من كونهما ملكين أو من الخالدين ؛ وهذا كما تقول العامة [ان من شرب ماء الحياة لم يمت أبداً] .

واذا كان كذلك ؛ صح ان نهيه اياهما عنها كنهي الطبيب المريض عما يضر بهِ . قال : ولا تعلق لهم بقوله تعالى : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ ، في توبته من حيث بيَّنا ان جميع ذلك يستعمل في باب المصالح ، وفي ترك أوامر الطبيب ، والمشير ، ومن يجري مجراهما .

وثانيها ؛ ان ذلك كان من آدم ـ عليه السلام ـ على سبيل السهو ، والنسيان لنهي الله إياهما عنها يدل عليه قوله تعالى : ﴿ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد لهُ عزماً﴾ . يعني ؛ انهُ لم يعزم على المعصية ، فتبين انهُ نسي ما عهد اليه من النهي . واذا كان كذلك ؛ صح أن ذنبه لم يكن كبيراً ولا يقدح في ذلك توبته ، وما عوقب عليه ، واعترافه بالظلم على نفسه ، لأن ذلك أجمع ، يصح في الصغائر ، وفيما يفعل على سبيل السهو ، والنسيان ، فليس في شيء من ذلك دلالة على فساد هذا التأويل .

وثالثها ؛ ان ذلك وقع منهما في جهة تركهما القياس ، وذلك ان الله ـ تعالى ـ نهاهما عن شجرة بعينها ، واليها أشير فقيل لهما [لا تقربا هذه الشجرة] وكان المراد فيه جنس الشجرة ، لأن الألف واللام كما يكونان للمعهود ، يكونان للجنس ، وهو كقول النبي ـ عليه السلام ـ حيث أخذ حريراً وذهباً فقال : «هذان حرامان على ذكور أمتي حل لاناثهم» ؛ فلم يرد النبي صلى الله عليه وآله ، المشار اليه خاصة ، وانما اراد تحريم الجنس المشار اليه على ذكور امته . ولقول الطبيب للمريض [لا تأكل من هذا] مشيرا الى ما يحضره من

بعض ما يضر بهِ ، وليس يريد بهِ نهيه عن المشار اليه ، وانما يريد نهيه عن جنس المشار اليه . وآدم ـ عليه السلام ـ توهم ان المحرم عليه ، المشار اليه دون الجنس ، والجنس غير محرم عليه ، من حيث ترك استعمال القياس ، واقتصر على ظاهر اللفظ والاشارة ، فأكل من جنس تلك الشجرة ، ولم يأكل من المشار اليه ، واذا كان كذلك ؛ لم يكن ذنبه من الكبائر لانهُ وقع من جهة الخطأ في التأويل .

فان قيل : ان كان اخراجهما من الجنة لا على سبيل العقوبة ؛ فَلِمَ أضاف اخراجهما الى إبليس ، فقال : ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ قيل : لهُ هذا محال ؟ لانهُ لا خلاف ان ابليس لم يخرجهما في الحقيقة ، وانما الله تعالى أخرجهما ، وانما أضاف اخراجهما اليه ، من حيث كان اخراجهما عقيب ما ارتكباهُ بوسوسته . وهذا شبيه بقوله : ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ ، وقد علمنا ان المحرّم عليهم لم يكن على سبيل العقوبة على ظلمهم ، اذ لو كان عقوبة لم يؤجروا على الانتهاء عنها لانهُ لا يجب للمعاقب أجر على فعل ما عوقب بهِ ، وانما علق المحرم عليهم بظلمهم ، من حيث ورد التحريم عقيب ظلمهم ، فكان ظلمهم أوجب التحريم ، وهو أصلح لهم ، فلما صار الظلم كالسبب للتحريم جعله معلولاً بهِ ، كذلك اخراجهما لما كان عقيب ما ارتكباهُ بدعائه ، فجعله معلولاً بهِ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ونادى نوح ربه فقال : رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق﴾ الى آخر الآيات .

فزعمت الحشوية المفترية على الله ورسله ان ابنه كان لغير رشده ، وان امرأة نوح خانته في نفسها ، وجاءت بولد من الفجور ، واحتجوا بقوله : ﴿وامرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ (الآية) . وقالوا : نوح اذنب ، حيث شفع في أمر من لم يكن ابنه ، وذكر انهُ ابنه فاذنب ، من وجهين .

الجواب ؛ ان نبين أولاً أن المذكور كان ابنه ، ثم نبين فساد تعلقهم بالآية فيما راموا اثباته ، ثم نفسر الآيــة .

فأما كونه ابنه ؛ فالذي يدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ونادى نوح ابنه﴾ (الآية) . فهل يجوز ان يقول ذلك ، وهو ليس بابن لهُ فكان هذا محالا ؟

والواجب ان يعلم أولاً : ان نساء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يجوز أن يكنَّ زانيات . ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ . ثم قال : ﴿أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة﴾ (الآية) ؛ وان كان يجوز أن يكون نساؤهم من جملة الكفار ؛ لأن الكفر دين ، وليس بعيب في الدنيا والدين ، والزنا لا يباح في دين من الأديان ، وليس عيب الكفر يرجع اليهنَّ ، وعيب الزنا يرجع اليهنَّ ، والى أزواجهنَّ ، ويعمل في فساد نسب أولادهم . ويدل عليه قوله

تعالى : ﴿الزانية لا ينكحها الاّ زانٍ أو مشركٌ وحرم ذلك على المؤمنين﴾ ، فلما اخبر ان ﴿الزانية لا ينكحها الا زان ، او مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين﴾ ؛ دل ذلك على براءة ساحة نساء الأنبياء من الزنا ، وانهُ لم يجز لهم ان ينكحوا زانية .

واما تعلقهم بقوله تعالى : ﴿فخانتاهما﴾ ففاسد ، لأن لفظ [الخيانة] لفظ مجمل يقع على كل خيانة ، سواء كان في باب الدين ، أو في المال ، أو في ترك النصيحة ، أو في افشاء السر ، فكل ذلك يسمى خيانة . قال الله تعالى : ﴿وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل﴾ ، وقال ايضا تعالى : ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ، وقال ايضاً تعالى : ﴿ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ ، فسقط تعلقهم بذلك .

وأما تعلقهم بقوله تعالى : ﴿ليس من أهلك﴾ ففاسد أيضاً ، لانهُ لم يقل : [انهُ ليس بابنك] ولو كان المراد بهِ نفي بنوته ، لكان ذلك مناقضاً لقوله : ﴿ونادى نوح ابنه﴾ ، والذي يدل على ان معنى قوله : ﴿انهُ ليس من اهلك﴾ ليس هو انهُ ليس بابنك ؛ قول نوح : ﴿ان ابني من أهلي﴾ ؛ فلو كان المراد بقوله : [من اهلي] ؛ أي [انهُ من ابني] ؛ لكان معناه : ان ابني من ابني

وهذا كلام غير صحيح . ونحن نبين المعنى في قوله : ﴿انهُ ليس من أهلك﴾ بما يزيل تعلقهم وسعيهم .

فأما معناها : فان الله تعالى كان وعد نوحاً أن ينجيه وأهله ، وكان قال انهُ : ﴿انا منجوك وأهلك﴾ وكذلك في قوله تعالى : ﴿أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الاَّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الاَّ قليل﴾ ، وكان قال : ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ . فتوهم نوح ؛ ان المأمور بحملهم في السفينة جميع أهل بيته ، وأقربائه وأولاده ، فسأل الله تعالى انجاز وعده ، ومن انجاء أهله ، وان ابنه منهم ، فأجابه : ﴿انه ليس من أهلك﴾ يعني انهُ ليس من جملة من وعدتك انجاءهم ، وبين السبب في ذلك بقوله : ﴿انهُ عمل غير صالح﴾ ، كأنه قال : ليس من اشياعك ، وأصحابك ، ولا ممن وعدتك نجاتهم ، من حيث خالفك في الديانة ، فعمل غير صالح ولم يتبعك . وبعد ؛ فان نوحاً ذكر سببين : ـ

أحدهما : انهُ ابنه والآخر انهُ من أهله ، فلو لم يكن ابنهُ لوجب ان يرد ذلك كما رد عليه قوله : ﴿من أهلي﴾ ويدل على صحة ما ذهبنا اليه ، من ان نوحاً سأله انجاز وعده ، من انجاء أهله في قوله : ﴿وان وعدك الحق﴾ ؛ كأنهُ قال : [ان ابني من اهلي وقد وعدتني انجاء أهلي] فعرفه انهُ ليس من اهله الذين وعده انجاءهم بعمله غير صالح ، فاما خطأ نوح فيحتمل وجهين :

احدهما ؛ انهُ اشتبه الأمر عليه فيما وعده الله من انجاء أهله ، ولم يدر أي أهل يريد ، وجرى على ظاهر اللفظ ، متوهماً ان المراد بهِ أهل بيته .

والآخر ؛ ان يكون ابنه هذا غير مظهر لهُ ما كان يسره من الكفر ، والمخالفة لهُ ، فأعلمه الله تعالى انهُ ليس من أهله ؛ أي ليس من جملة من وعده انجاءهم ؛ لانهُ عمل غير صالح . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿فلا تسألني ما ليس لك بهِ علم﴾ ؛ أي أنت غير عالم بحقيقة الحال فيه ، فلا تسألني ما لا تعلمه ، فلم يلحق نوحاً ـ عليه السلام ـ في ذلك لائمة .

واما قوله تعالى : ﴿اني أعظك ان تكون من الجاهلين﴾ . يريد أن أعظك أن لا تكون من الجاهلين ، ويجوز ان يعني اني انهاك عن أن تكون من الجاهلين . وليس هذا يقدح فيه ؛ ألا ترى انهُ قال لنبيه ـ عليه السلام ـ : ﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾ ، ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر ولا تكوننَّ من الذين كذبوا بآيات الله﴾ . فاما استغفار نوح ، فلا تعلق بذلك ، لانهُ يجوز أن يستغفر من الصغائر كما بيناه ، بل ويجب الاستغفار منها ، ويجوز أن يستغفر من غير ذنب ، كما قال الله تعالى : ﴿اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره انهُ كان تواباً﴾ . وليس ذلك بذنب يوجب الاستغفار وقد قال تعالى : ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ . وليس جميعهم بمذنبين . ونوح ـ عليه السلام ـ استغفره من حيث سأل الله تعالى ما لم يكن لهُ بهِ علمٌ ، فلانهُ لم يعتبر من يعني بقوله : ﴿واهلك﴾ ومن حيث جرى على ظاهر امر ابنه ، أو من حيث انهُ لم ينظر في انهُ لو كان في جملة ما وعده نجاته لخلصه ، فسقط لذلك تعلقهم .

ومن ذلك ما قالوه في ابراهيم ـ عليه السلام ـ ، وزعموا انهُ كذب ثلاث كذبات .

أحدها ؛ في قوله تعالى : ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ ، وفي قوله : ﴿اني سقيم﴾ ، وفي قوله لسارة : ﴿انها اختي﴾ .

الجـــواب ؛ انما زعمهم انهُ قال لسارة ، انها اخته ؛ فليس ذلك في القرآن ، فلا يجب علينا الاشتغال بهِ ، ولو صح لكان الجواب عليه سهلاً ، لانهُ يجوز أن يكون عني بهِ اخته من جهة الديانة ، كما قال تعالى : ﴿انما المؤمنون اخوة﴾ .

فأما الجواب عن تعلقهم بقوله : ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ (الآية) ، فعلى وجوه : احدهما ؛ انه قال : ذلك على تقريرهم بأنه لم يفعله كبيرهم ، ولا على نفي الفعل عنهُ دون اثباته ، مبكتاً لهم في عبادتهم ، ما لا يعقل شيئاً

ولا ينطق . وذلك ان القائل يقول لمن فعل فعلاً : أنت فعلت [كذا] فيقول : لا ؛ بل فعلته أنت ؛ مبعداً أن يكون ذلك من فعله ، ونافياً عنهُ ذلك ، ومثبتاً الفعل لنفسه ؛ كأنه يحيل أن يكون فاعلاً لهُ بحال من حيث لم يكن ذلك اقراراً على نفسه في الظاهر ، حتى لا يجدوا عليه حجة ويكتهم بذلك . وأراد بذلك ، انهم ان اعترفوا بانهُ يفعل سقط عنهُ لا يمتهم ، وان اعترفوا انهُ لا يفعل احتج عليهم ، في عبادتهم ، ما لا يعقل شيئاً ، ولا يضر ولا ينفع .

ووجه آخر ؛ وهو انهُ يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله : ﴿كبيرهم﴾ ثم يقول : ﴿هذا فاسألوهم﴾ ؛ فيكون معناه ، بل فعله كبيرهم ، يعني [نفسه] لأن الانسان أكبر من كل صنم ، وهذا من معاريض الكلام ، وكذلك قال الرسول عليه السلام : «ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب» . وكان مراده في ذلك ، ما ذكرناه من اعترافهم بانهُ فاعله ، أو غير فاعله ، لتلزمهم الحجة من وجهين ، ولذلك قال : ﴿فرجعوا الى انفسهم﴾ .

ووجه آخر وهو ؛ ان يكون في الكلام تقديم ، وتأخير ؛ كأنهُ قـال : ﴿بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسألوهم﴾ ، فيكون اضافة الفعل الى كبيرهم ، مشروطاً بكونهم نطقاً ، فاذا لم يكونوا نطقاً لم يفعله كبيرهم ، وهذا شائعٌ في اللغة ، بقول القائل : لمن يسأله عن فعل شيء ، بل فعلته أنت ، ان كنت مالكاً على معنى نفي الفعل ، فسقط تعلقهم بذلك .

وأما الجواب عن قوله : ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم﴾ ؛ فان الواجب على من يدين بنبوة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ويعترف برسالتهم ، ان يذبّوا عنهم ، وان يدفعوا ما يلحق بهم . ممن يجحد نبوتهم ، ويطعن فيهم ، والتقول عليهم ، لكان ذلك عظيماً عند المتدينين ، ولوجب عليهم ان يدفعوا طعنهم .

وبعد ؛ فلو ثبت بآية ناطقة ، أو حجة قاطعة ، انهُ لم يكن سقيماً ، لوجب على المعترف بنبوة الرسل ، ان يحتال في ان يتأول قوله : ﴿اني سقيم﴾

على وجه بنفي الكذب ، لكي لا يجد الجاحد لنبوتهم ، ولولا ان الجاحدين لنبوتهم طعنوا فيهم ، ونسبوهم الى الكذب الى دفع أمرهم ، وابطال رسالتهم سبيلاً ، والى الطعن مسلكاً ، فكيف وليس هاهنا نص ، ولا خبر متواتر ، ولا حجة قاطعة في كونهُ في ذلك الوقت [غير سقيم] فمن أين ساغ لهم ، وأجازوا أن يقولوا : انهُ لم يكن سقيماً مع كونهُ اماماً للناس بعده ، وهو من اجل انبياء الله جل ثناؤه قدراً ، وأمر الله تعالى جمع من بعده من المكلفين باتباعه ،

واعتراف الكل بتعظيمه ؟! لكن الحشوية المفترية على الله ، ورسوله ، أبت الاّ الخزي ، على سوء مذهبهم من التقول على كافتهم ، واشاعة ذلك على رؤوس مجالسهم ، والعام والخاص . واذا تقرر ذلك فنقول : انهُ نبي الله الصادق ، المقبول قوله ، المقتدى بهِ ، اخبر انهُ [سقيم] وكان كما اخبر ، فلا تعلق لهم في ذلك ؛ فان قال : لِمَ قال : ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم﴾ ؟ قيل لهُ [سببين] : الجواب عن ذلك فيما يتعلق بهِ المنجمون ، في الفصل التاسع - ومعناه ما قاله الخليل : في كتاب [العين] ؛ وذلك انهم لما ارادوا اخراجه معهم الى عيدهم ، وكان عزم على انهُ يكيد اصنامهم ، تدبر في امره ، فاعتل عليهم بما كان بهِ من العلة ، وان كان حيث يمكنه الخروج معهم ، ليتأتى ما أزمع عليه من جعل أصنامهم جذاذاً .

ويجوز أيضاً ؛ انهُ كان علة تعتاده كحمى الربع ، والغب ، فنظر الى النجوم ، فقال : ﴿اني سقيم﴾ ، يعني [قرب وقت علتي] وهو كقول القائل : اني خارج غداً ؛ يعني في المستقبل ، وليس يعني بهِ في الوقت كذلك ، فسقط تعلقهم على اني أفسر الآية ، وابني الأمر على انهُ لم يكن في ذلك الوقت سقيماً على وجه لا يلحقه الكذب في ذلك ، وهو ان يكون اراد بهِ [سأسقم في المستقبل] .

وقد يخبر عما يكون في المستقبل بلفظ الحال ، قال الله تعالى : ﴿انك ميت وانهم ميتون﴾ ، وليس يريد انهم في الحال لذلك ، وانما أراد انك ستموت في المستقبل ، وانهم سيموتون فيما بعد . ويجوز انهُ كان من سنتهم

أخذ الطالع لاختيارات ما يريدون فعله ، فأخذ الطالع لنفسه يوهم انهُ يعمل على عادتهم في ذلك ، فقال : ﴿اني سقيم﴾ ، وكان مراده في ذلك في مستقبل عمره ، واوهمهم انهُ يسقم عن قريب لكي يخلو سبيله ، فلا يخرجوه مع أنفسهم ، كي يتأتى لهُ ما يريده في أمر أصنامهم ، ويجوز انه اراد بهِ [اني سقيم القلب] لما انثّم عليه من عبادة الأصنام ، وترك عبادة الله وحده ، عنى بهِ [اني مغتم] ؛ وذلك لانهُ يخبر عن [الغم] بلفظ [السقم] وعلى هذا فسر قوله تعالى : ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ ، وعني بهِ ان في قلوب أهل الكفر والنفاق ، غماً لما رأوا من نصر الله تعالى نبيه ـ عليه السلام ـ ، وعلو شأنه ، فزادهم الله مرضاً ، يعني [غماً] لما ازداد نصراً وعزاً وتأييداً .

واذا احتمل هذه الوجوه ، كيف يجوز لمن يدعي انهُ مسلم ، مقر بنبوته ، يقول فيه ما يبطل نبوته ، لانهُ اذا جاز أن يكذب في ثلاثة أشياء ، جاز أن يكذب في جميع اخباره ؟ والله المستعان على سوء مذاهب الحشوية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾ (الآيتين) الى آخرهما . قالوا : وهل يجوز أن يجادل ابراهيم ـ عليه السلام ـ ربه ـ جلّ وعز ـ في باب الكفار وقد نهى الله تعالى نبينا عن ذلك ؟ فقال : ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون انفسهم﴾ (الآية) ، وقال أيضاً جل ثناؤه : ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ .

الجـــواب ؛ هو : انهُ لا تعلق لهم فيه ؛ لانهُ لو كان ذنباً لعوقب عليه ، ولاستغفر ابراهيم ـ عليه السلام ـ منهُ . كيف وقد مدحه الله تعالى على ذلك ، فقال ـ جل وعز ـ : ﴿ان ابراهيم لحليم أواهٌ منيب﴾ . فمدحه الله تعالى على ذلك ، ووصفه بالصفات الثلاث التي ليست وراءها منزلة في باب الرفعة ، والنزاهة فكيف يجوز أن يتعلق بما قد مدحه الله لأجله ، وأحسن الثناء عليه ، لولا قصد القوم الى التقوّل على أنبيائه بكل غث وسمين ؟ واذا كان الأمر على ما بيناه سقط التعلق .

فأما معناها : فان المجادلة ليست بمقصودة على المخاصمة ، وقد تكون المجادلة بمعنى المسألة والطلب ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ﴾ يعني : يسألك عما حلف زوجها من الظهار ، فكان ابراهيم عليه السلام استنظر الرسل ليسأل ربه في بابهم ، فاعلم الله تعالى انه اتاهم عذاب غير مردود . فدل ذلك سقوط تعلقهم .

ومن ذلك : قوله تعالى : حكاية عن ابراهيم عليه السلام حيث ؛ قال لابيه : ﴿ سلام عليك ساستغفر لك ربي انه كان بي حفيا ﴾ ثم قال : ﴿ واغفر لأبي انه كان من الضالين ﴾ . وقال ايضا تعالى : ﴿ وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه ﴾ قالوا : وقد استغفر ابراهيم لابيه - وكان هو كافرا - وذلك كبيرة ، يدل عليه نهي الله تعالى ابانا عن الاقتداء به وذلك بالاستثناء الذي عقب به ، عند الحث على الاقتداء به ، لقوله : ﴿ الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك ﴾ .

الجـــواب : الظاهر لا تعلق فيه وذلك ؛ لانه تعالى لم يعاتبه عليه ، ولم ينهه عنه ، بل بين عذره فيه ، وغرضه ، وانه كان لموعدة وعدها اياه ، فانجز وعده . وبعد فلو كان ذلك لتاب منه ، واستغفر على سنة الرسل - عليهم السلام - عند تعاطيهم الصغائر - وأما الوجه في الاستغفار لأبيه ؛ فان الاستغفار انما كان بعد ان كان يرجو منه الانابة والرجوع ، فلما آيس من ذلك ؛ ترك الاستغفار ، والذي يدل على صحته ، قوله تعالى : ﴿ فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ﴾ ، فهذا يبين انه صلى الله عليه واله وسلم ؛ انما استغفر له قبل ان تظهر عداوته لله تعالى . ووجه اخر ، وهو ان اجتهاد ابراهيم - عليه السلام - كان مؤديا الى جواز ذلك ، شركا كان ، او فسقا حتى يرد مانع ذلك . واكثر اصحابنا على جواز الغفران ، عقلا ، كفرا كان او غيره ، فسقط التعلق .

واما نهي الله تعالى ايانا ، عن الاقتداء به في ذلك ؛ فانه لم يدل على كون

ذلك معصية ؛ لأنا نهينا عن اشياء كثيرة ، مما كان مفروضا عليه ، ولو كان ذلك معصية لاجل نهي الله ايانا عنه ؛ لوجب ان يكون كل ما نهانا الله عنه ، من شرائع من تقدم نبينا ـ عليه السلام ـ ونسخه معصية . وهذا محال ، فسقط التعلق في كونه معصية . ومن ذلك ما قالوه : في يوسف ـ عليه السلام ـ فزعموا : انه هم بالزنا ، وقعد من امرأة العزيز ، مقعد الرجل من امرأته بين رجليها ، حتى ترائى له جبريل ـ عليه السلام ـ غير مرة ، في صورة ابيه يعقوب ـ عليه السلام ـ وقال له انت تفعل هذا ، واسمك مثبت في ديوان النبوة . وتعلقوا في ذلك بقوله : ﴿ وهم بها لولا ان رأى برهان ربه ﴾ .

وبقوله : ﴿ وما ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ﴾ .

الجـواب : انه لا تعلق له في الآيتين في ذلك ؛ لأن قوله : ﴿ وهم بها ﴾ قد بيناه في الباب الأول . ان لفظ الآية ، يوجب نفي الهم عنه ؛ لما يعقبه من الشرط ، وذلك ؛ لأن قوله : ﴿ وهم بها لولا ان رأى برهان ربه ﴾ بمثابة قوله : ﴿ لولا ان رأى برهان ربه ﴾ لهم بها ، وسواء قدم الشرط ، او اخره ، لانه ليس بعد الشرط في الآية ما يمكن تعليق الشرط به ؛ ولا بد من تعليق لولا بما به تقع الافادة ، وبينا هناك ان : معنى الآية انه لولا انه كان ممن ابصر آيات الله ، واهتدى بهذا لهم بها . فان قيل : فاي فائدة في قوله : ﴿ وهم بها لولا ان رأى برهان ربه ﴾ لو لم يكن هناك هم ؟ قيل له : الفائدة في ذلك : الاخبار عن ان ترك الهم بها ، واجابتها الى ملتمسها ، لم يكن من حيث كان ، غير راغب في النساء لعجز ، او عنه ، لكنه ترك ذلك ، من حيث أبصر بايات الله ، واهتدى بهداه ، فكأنه ترك الهم بها لا لعجزه ، ولا لانه كان غير مشتهي ؛ فيكون غير ممدوح على تركه ، بل تركه لاجل الله ، وخوفا من عقابه ، من حيث ابصر بآيات الله ، واهتدى بهداه ، فكأنهُ ترك الهم بها لا لعجزه ، ولا لانهُ كان غير مشتهي ؛ فيكون غير ممدوح على تركه ، بل تركه لاجل الله ، وخوفاً من عقابه ، من حيث ابصر بآيات الله وحججه ، فعرف ان له صانعا يكافيه على ما يأتيه من خير ، أو شر ، فاتقاه ، واجتنب المعصية ،

والهم لأجله ، على ان لفظ الهم ، وان اطلق على يوسف ، فلا يجب به الحاق عيب به ، ولا الحاق ذنب ، لانه لفظ مجمل ، لا يوجب محمدة ، ولا مذمة ، ولا يقتضي باقترافه طاعة ، ولا معصية ، اذ يكون الهم ؛ الا ترى الى قول الشاعر :

همي وهم الكميت مختلف همي المسير وهمه العلف

على ان لفظ الهم ، اذا اطلق ، يكون بمعنى العزم على القتل ، وعلى ذلك فسره علي - رضي الله عنه - وعمر - رضي الله عنه - على ما ذكره وكيع بن الخراج في تفسيره . ويدل على ذلك قول عمير بن ضابي ، قاله في عثمان حين قتل :

همت ولم افعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ويدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه ﴾ ، وقال ايضا : ﴿ وهموا بما لم ينالوا وما نقموا ﴾ (الآية) مخبرا عن المنافقين ، حين قصدوا لقتل النبي - عليه السلام - على العقبة . ويروى عن معاوية انه قال في كلام جرى بينه وبين الحسن بن علي - رضي الله عنهما - : ما زال يقول حتى هممت به . واذا كان كذلك ، جاز انه اراد يوسف : هم بقتلها ، لولا خوفه من الله تعالى ، ومعرفته ببرهانه ، وآياته ، على ان الهم اذا كان غير مصروف الى مخصوص بانفراده ، وجب ان يرجع في ذلك الى سائر الآيات الدالة على معناه ، وترك الحكيم لمجرد اللفظ ؛ انه الهم بالفاحشة .

ومن اوجب الامور ان يلحق بكل منها بما يشاكله . فكل يعمل على شاكلته ، فشاكلة النبوة الطهارة من الادناس ، والبرأة من الانجاس ، وشاكلة المرأة الفساد . كيف وقد رادفت الآيات في هذه السورة ، على برأة ساحته ، والابانة عن همها ، فدلت على معنى هم المرأة في قوله : ﴿ انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ ، وكذلك اعتراف المرأة مرتين ، حيث احضرت النساء ، وقالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ (الآية) . وكذلك في قولها : عند الملك :

﴿ الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ . فاما هم يوسف عليه السلام ، فنحن نبين من بعد براءة يوسف ـ عليه السلام ـ مما رمته به هذه الفرقة المفترية على الله ورسله ، ما سنبين المعنى فيه ، انه لم يكن هم بالفاحشة . على أن اللفظتين ، وان اتفقتا في الظاهر ، فيجوز ان تختلفا في المعنى ، خصوصا اذا كان من المجملات ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه ﴾ فجمعها في لفظة واحدة ، ثم كان استباقها الباب ؛ حرصا على المعصية ، واستباق يوسف هربا من المعصية ، وثم المعنيين . وقال ايضا تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ ، ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ انما نحن مستهزؤ ن الله يستهزىء بهم ﴾ ، فقد جمع الله تعالى بين نفسه ، وبين الكفار في هذه الآيات ، ومعانيها مختلفة ، فاما الدلالة على براءة يوسف ـ عليه السلام ـ : فان جميع من باشر تلك الاسباب ، واستبطن تلك الاحوال ، من بين زوج ، وحاكم ، ونسوة ملك ، تشهد ببراءته جميعا . وادعى يوسف ـ عليه السلام ـ ذلك ، واعترف خصمه ، بصدق ما قاله مرتين ، وشهد له بذلك رب العالمين ، الذي هو اصدق الصادقين ، والعالم بالغيوب والسرائر ، وقد اعترف بمثل ذلك ابليس . فاما شهادة الزوج ببراءة ساحته : فقوله لها : ﴿ انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف اعرض عن هذا ﴾ (الآية) .

واما الحاكم فقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ وشهد شاهد من اهلها ﴾ (الآيات الى اخرها) ، واما شهادة النسوة فقولهن : ﴿ حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، وأما شهادة الملك قوله : ﴿ انك اليوم لدينا مكين امين ﴾ ، فاما ادعاء يوسف عليه السلام : فقوله : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿رب السجن احب الي مما يدعونني اليه ﴾ ، فاما اعتراف الخصم له ؛ فقولها للنسوة : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ ، وقولها : ﴿ الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ ، واما شهادة الله تعالى له بذلك ، فقوله تعالى : ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا

المخلصين ﴾ ، فاخبر الله تعالى انه يصرف عنه السوء ، والفحشاء ؛ فوجب ان يكون هم يوسف غير سوء ولا فحشة ، واما شهادة ابليس بذلك ، فقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين ﴾ ، فبين انه يغوي الكل الا المخلصين ، ويوسف عليه السلام كان منهم ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ انه من عبادنا المخلصين ﴾ ، فانه لا شبهة تبقى مع شهادة من ذكرنا في براءته ، وبعده من اتيانه الفاحشة ، ونزاهته من العزم ، على ما ذكروا انه عزم عليه ، وهلا قبلوا من خصمه ، اذا لم يقبلوا منه وهو نبي صادق ، وهلا صدقوا استاذهم اذا لم يصدقوا خالقهم ، ولكن الحشوية ابت الا تكذيب من ذكرنا ، ودفع اقوالهم ، ولعلهم يزعمون انهم اعرف بذلك من جميع من ذكرنا . وبعد ؛ فليس يخلو القوم ان يكونوا من حزب الله تعالى ، وابعدهم ، فليقبلوا قوله ، وليصدقوه في خبره . وقد اخبر الله : ﴿ انه من عبادنا المخلصين ﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ، او يكونوا من حزب ابليس ، فلا شك ولا ارتياب فيه ، فيجب ألا يتخطوه ، ويقبلوا قوله ، حيث استثنى المخلصين ، فلم يقبلوا قوله ايضا ويخطوا استاذهم ، ويقولوا على من اعترف استاذهم ابليس ، بالعجز عن اغوائه ، ورموه باشنع المقال ، واقبح الفعال ، ولعلهم اقتدوا ، حيث يقول في ذلك بالجبررزي حيث يقول : -

وكنت امرءا من جند ابليس فارتقى ... بي الامر حتى صار ابليس من جندي
فلو مات قبلي كنت احسن بعده ... طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

فاذا تقرر ما ذكرناه ، سقط تعلقهم بقوله وهم بها . واما تعلقهم بقوله : ﴿ وما أبرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم ﴾ ، فساقط غير صحيح من وجوه احدها : ان ذلك من كلام المرأة لا من قول يوسف ، وذلك ؛ لأن يوسف لما قال للرسول : ﴿ ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربي بكيدهن عليم ﴾ ، فلما رجع الرسول الى الملك ، فاخبره بمقالة يوسف ، قال الملك للنسوة : ﴿ ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء ﴾

(الى آخر الآيات) ويوسف عليه السلام لم يحضر هذا المجلس ، وليس فيه ذكر رجوع الرسول الى يوسف ، واخباره بمقالتهن ، وكان اعتراف النسوة وامرأة العزيز على غيبة منه ، وهو بعيد في السجن ؛ ولذلك قال الملك لما سمع مقالتهن ، وتبين له براءة ساحة يوسف : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ ، فأما معنى قولها : ﴿ ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب ﴾ وانما عنت به ؛ ليعلم يوسف اني لم اخنه على غيبته بشيء . وقوله تعالى : ﴿ ان الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ اعتراض من قبل الله ثم قالت : ﴿ وما ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ﴾ (الآية) . وليس في القرآن ما ينبىء ؛ أو يدل ان ذلك من كلام يوسف ، والجري على الظاهر ممكن . ومهما حصل ذلك من يوسف ، احتيج الى حد طويل من رجوع الرسول الى يوسف ، واخباره بما قلن فيه ، حتى يجيبه يوسف في ذلك ، ثم رجوع الرسول الى الملك ثانية ، واخباره اياه بمقالة يوسف ، حتى يقول الملك : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ ، وهذا محال لا يجوز مثله في شعر ، ولا قرآن . على انا لو جعلنا ذلك من قول يوسف عليه السلام ، لم يوجب ذلك الحاق الفاحشة به ؛ بل هو ادل الدليل على براءة ساحته ، وذلك لانه قال : ليعلم الملك اني لم اخنه بالغيب ، فانه لا خيانة اعظم من الهم والقعود منها مقعد الرجل من امرأته ، واما قوله : ﴿ وما ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء ﴾ ، فان الانبياء - عليهم السلام - والصالحين من عباده لا يزكون انفسهم ، ولا ينزهونها بل يذمونها ابدا ، ويعترفون بان النفس امارة بالسوء ، داعية الى اللذات ، مائلة الى المعاصي ، راغبة فيها ، ولو لم يكن كذلك لم يستحقوا المدح ، والحمد والثواب على الامتناع منها ؛ لأن المكلف لا يستحق المدح على الامتناع بما لا يشتهيه ، فأراد ان نفسي ، كانت تميل الى ذلك طبعا ، الا من رحمه الله بالطافه ، حتى يمتنع ، فيسقط تعلقهم (بالآية) . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثم اذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون ﴾ .

الجـواب هو : انه ليس في (الآية) ان المؤذن قال : ما قاله بأمر يوسف عليه السلام او باذنه ، فسقط التعلق ، على انه ان كان ذلك بامره ، فيجوز ان

يكون انما نسبهم الى السرقة ؛ على معنى : انهم سرقوا يوسف على ابيه ، لان المؤذن لم يقل : ماذا سرقهم ؟ ويجوز ان يكون ما قاله المؤذن على وجه الاستفهام ، فاسقط احد الهمزتين على قراءة من اسقطها اذا اجتمعتا في كلمة واحدة ، واذا كانت هذه الوجوه جائزة يسقط تعلقهم بها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ رب ارني انظر اليك قال لن تراني ﴾ (الآية) . قالوا : فقد سأله تعالى : ما لا يجوز ان يسأل ؛ لأن رؤ يته غير جائزة في الدنيا عند جميع الأمة ، الا عند من لا معتبر به ، وذلك يوجب اثباته كبيرة ، او يكون غير عارف بتوحيده .

الجـــواب : الظاهر لا تعلق فيه ؛ لان المسئول رؤ يته محذوف ، فانه لم يقل رب ارني نفسك ، وانما قال رب ارني انظر اليك ، فلا تعلق في ذلك على ما سنبينه من بعد في تفسير (الآية) . ومعناها : فيحتمل وجوها ثلاث :

احدها ان يكون موسى عليه السلام لم يسأل لنفسه ، وانما سأل ذلك لقومه ؛ لأن قومه كلفوه سؤال ذلك ؛ الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة ﴾ فنهاهم موسى ـ عليه السلام ـ عن ذلك ، فلم يرتدعوا ، فسأل الله تعالى : عن مسألتهم ؛ ليكون ما يرد من الجواب عن الله تعالى احسم لدأبهم ، واقطع لشعبهم ، فلا تعلق في ذلك بتوبة موسى ـ عليه السلام ـ ؛ لأن العادة قد جرت من الصالحين بالبدار الى التوبة ، عند حدوث ما حدث في ذلك الوقت من الزلازل والصواعق وأشباهه ، وليست كل توبة تكون عن ذنب ، ولا يجوز ان يكون انما تاب ، من حيث سأل الرؤ ية عنهم ، ولهم من غير اذن الله له في ذلك السؤال ؛ لأن الانبياء ـ عليهم السلام ـ ليس لهم ان يسألوا شيئا بمشهد القوم الا باذن الله ، لانه يجوز ان يكون في ضمن ما يسأل مفسدة لا يجوز في الحكمة الاجابة اليها فيؤدي ذلك الى التنفير منه ؛ ولذلك قال الله تعالى : لنبيه عليه السلام : ﴿ ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ﴾ : يعني الا ان يأذن الله لك فيه ، ويأمرك به على ما بيناه في باب المشيئة ، فسقط التعلق به ، واما

الوجه الثاني : وهو ان نفي الرؤ ية يعرف عن طريق العقل والسمع ، فيجوز ان يكون ذلك حال نظر موسى - عليه السلام - في الرؤ ية ، هل يجوز على الله تعالى ام لا يجوز ؟ فسأل ذلك موسى - عليه السلام - سؤ ال مسترشد ، طالب للوقوف عليه من جهة السمع ، وحالة النظر في ذلك خلاف سائر الأحوال . فاما الوجه الثالث : فان الواجب ان تعلم ان في الآية حذفا ؛ لانه قال : ﴿ رب ارني ﴾ ولم يبين ما الذي ان يريه ، فالمسئول رؤ يته محذوف ، فيجوز انه انما سأل ان يريه ما به يعرف ربه معرفة ضرورية ، تزول معها الشكوك ، ويرفع عندها اعتراض الخواطر ، فيكون معنى قوله : ﴿ انظر اليك ﴾ اي : أتحققك فلا ارتاب . وقد يقول القائد لغيره : ارني عقلك ، وانما اراد ارني ما استدل به على مقدار عقلك وكميته ، ويقال : انظر اليه والى رأيه ، وعقله ، ومراده ، وهواه ، وجميع ذلم مستحيل الرؤ ية عليها ، وانما يعرف ذلك استدلالا ، فاجابه الله تعالى : انه لا يراه ، اي : لا يقع العلم الضروري في الديانة من حيث ان حالها لا يحتمل ذلك . ولا يجوز ظهور تلك الآيات ، التي يضطر الى معرفته في النيا ؛ لانها دار تكليف لا يجوز ان يرتفع عنها باب الاختيار ، ويدل عليه : ان الله تعالى احال على ما لا نصيب له في الرؤ ية ، والذي يدل على ان موسى - عليه السلام - لم يرتكب في ذلك كبيرة ، ولم يكن سؤ اله معصية ؛ ان الله تعالى ذم اليهود على سؤ الهم رؤ يته جهرة ، ولامهم عليه ، واخبر بذلك من عنودهم ، وجهلهم ، وانزل بهم الصاعقة .

فلو كان موسى - عليه السلام - سأل ربه : الرؤ ية ، لدخل فيما دخلوا ، ولزمه ما لزمهم ، ويحل به ما حل بهم . فاما قوله تعالى : ﴿ لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ﴾ (اي) انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه لظهور تلك الآيات الموجبة للعلم الضروري ؛ امكنك ان تعرفني معرفة ضرورية ، فلما لم يستقر الجبل ، لظهور تلك الاسباب ، عرف موسى ان حالة الدنيا لم تحتمل ذلك ، وليس في هذا السؤ ال ما يوجب الحاق اللائمة ؛ فقد سأل ابراهيم عليه السلام : ان يريه احياء الموتى ، مع ايمانه بذلك ؛ لكي يطمئن قلبه ، ويزول الوسواس ، والشكوك . ومن ذلك قوله

تعالى : ﴿ وأخذ برأس اخيه يجره اليه قال يا ابن ام لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ قالوا : فكيف يجوز ان يأخذ بلحية نبي ورأسه ؟ وهل هذا الا كبيرة ، اذا لم يكن كفرا .

الجـواب : انه لا تعلق في الظاهر ؛ لأن الاخذ برأس الغير ، وبلحيته ، لا يوجب كبيرة بانفراده ؛ لانه يقع على وجه ، يوجب أخذه بذلك ؛ لأن كلما يجوز ان يقع على وجه الوجوب ويجوز ان يقع على غير جهة الوجوب ، لا يجب الحكم بتفسيق من يرتكبه ، الا ترى ان القتيل ، لما وقع على غير جهة ، ويقع على جهة الوجوب ، قيد الله تعالى قتل الكفار للانبياء ، انه كان بغير الحق . وقال تعالى : ﴿ يقتلون النبيين بغير الحق ﴾ كي يبين بذلك تكفيرهم ، وتفسيقهم ، فاذا كان كذلك لم يجب الحكم بمجرد اخذه برأس اخيه ولحيته ، انه ارتكب كبيرة ، لجواز وقوعه على جهة الحق ، وعلى خلافه ، فسقط تعلقهم بذلك . فاما معناها فالوجه في ذلك ان : الواجب ان يعلم اولا ان حال الانبياء عليهم السلام بعضهم مع بعض في معاملات بعضهم بعضا ، وكذلك حال من يقرب منهم ، من ولد واخ بخلاف حال الاجانب ، الا ترى : ان عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت للنبي ـ عليه السلام ـ عند نزول براءة ساحتها في حديث الافك : بحمد الله لا بحمدك ، وانما قالت ذلك ؛ لفرط الدالة والخصوصية . ولو قال غيرها من الاجانب ؛ لكان غير بعيد مفارقته للايمان .

فموسى ـ عليه السلام ـ انما فعل ذلك لشدة ما يداخله من الغضب لعبادتهم العجل ، فعاتب اخاه على مقامه بين ظهرانيهم ، وتركه اللحوق به ، وليس ذلك مما يتعلق به في كونه معصية ، يدل على ذلك : ان الله تعالى يعاتب انبياءه على الصغائر ، وينهاهم عنها ، واستغفر الانبياء منها فلو كان ذلك معصية ؛ لما ترك الله معاتبته ، ولا ترك موسى الاستغفار ، والتوبة ، ولا جاز لهارون ترك بعثه على ذلك ؛ وانما سأله هارون : ترك اخذ رأسه ولحيته ؛ كي لا يشمت به الاعداء ، ولو كان ذلك معصية ؛ لنهاه هارون عن ذلك ، على ذلك السبيل دون ان ينهاه عنه ، كي لا يشمت به الاعداء .

ووجه اخر : وهو انه يجوز ان يكون موسى انما اخذ برأس اخيه ولحيته ؛ لترك اللحوق به ، توبيخا لمن عبد العجل . فان المعاقب ربما قد يعرض في مثل ذلك على اهل الجرم ، ويقبل على توبيخ من حضر ؛ تعظيما لذلك الذنب ، وذلك يبلغ من الجرم ما لا يبلغ اشد نكير يحل به . فموسى - عليه السلام - انما اخذ برأس اخيه ولحيته توبيخا له في المقام ، حيث عبدوا العجل ، صار ذلك من اشد ما يحل بالمتغاضبين واجل زاجر للمجرمين ، الا ترى انه ابتداء بالقوم ، ثم باخيه ، ثم اقبل اخرى على السامري ، وكل ذلك يكون اهول عنده واخوف له . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وهل اتاك نبؤ الخصم اذ تسور المحراب ، اذ دخلوا على داود ﴾ (الآية) الى اخر القصة .

قالوا : ان داود عشق امرأة اوريا ، فاحتال في قتله ، وتقديمه في الحرب ، من غير ان يكون ذلك توبته ، حتى قتل وتزوج بامرأته . وذكر بعضهم : انه لما عشقها انفذ اليها بسوار النبوة ، وقال لها : اجعليه في يديك ، حتى اذا ورد زوجها من الغزو ، وكان يرجو ان يطلقها ، فانصرف ورأى السوار ، واقام ثلاثا فلم يطلقها ، فعزم على قتله ، وامره ان ينطلق الى مدينة سماها والسيف في يمينه ، وشعلة النار في شماله ، حتى يضرب بيمينه اعداءه ، ويحرق باب المدينة بشماله ، ففعل ، فلما اشعل الباب دلى عليه حجرا واستشهد ، فلما انقضت عدة المرأة تزوج بها ، فدخل عليه ملكان ، ففزع منهما ، فلما رفعا اليه القصة ، قال : علي بصاحب حرس فقالا له : وما الذي تريد ؟ قال : امر ان يمد بين اربعة اوتاد ، حتى يجيء رجل شديد الذراعين ، فيضربك ، حتى يقسمك باثنين ، فقالا له : هذا جزاؤه ، قال : نعم ، فطارا عنه فعرف انهما ملكان ، وتنبه لخطئته فخر ساجدا اربعين يوما ، تسيل الدموع على عينيه ، يستغفر الله الى ان نبت العشب حول وجهه ، فأمر بحضور قبر اوريا والاستحلال منه فحضر قبره ، واحيى اوريا فاخبره بما فعل ، واستحله في ذلك . مع قصة طويلة .

(**الجواب**) : انا نبين اولا : فساد ما ذكروه ، وفساد تعلقهم ، (بالآية) وان ذلك غير موافق للآية .

ثم نفسر ما في القرآن من هذه القصة ، التي تعلقوا بها ، فاما فساد تعلقهم ، فيما حكوه فظاهر من وجوه . احدها : ان ما حكوه غير لائق بالانبياء الذين اختارهم الله لرسالته ؛ فانه لو وصف به افسق الملوك ؛ لكان منكرا عظيما .

وثانيها : ان الملك لا يكذب ، ولا يخاصم ، فقد ادعى احدهما ان الاخر استولى على نعجته حكما بتا ، ودعوى مجردا من غير ان يكون ذلك على سبيل استفتاء ، او تمثيل ، او اشارة الى تعريض ، فرد ذلك الى الملائكة فاسد .

وثالثها : ان ما حكوه غير موافق للآية ؛ لأن في الآية : انهم تسوروا المحراب ، وانهم كانوا جماعة وهم زعموا انهما كانا : ملكين وتسلقا من الجدار ، ولأن الدخول في دم اوريا ، والقصد لاهلاكه اعظم من التزوج بامرأته ، فليس فيما ذكر من الدعوى لذلك ذكر ولا تمثيل .

ورابعها : ان صرف الكلام عن الظاهر الى غيره وعن النعاج الى النساء وعن الخصم الى الملك غير جائز ، مع الامكان على الجري على الظاهر ، على ما ذكرناه في الفصل الأول .

وخامسها : ان نظم السورة من اولها الى اخرها ، لا ينتظم ولا يوافق ما قالوه ؛ لأنها في محاجة الكفرة ومناظرتهم ، فلا يلائم عشق نبي على امرأة ، واحتياله الفوز بها ، وذلك محال ، وذلك مما يؤدي الى الطعن في القرآن .

وسادسها : انه تعالى امر نبيه - عليه السلام - عند مطالبتهم اياه : ان يعجل لهم قطهم قبل يوم الحساب ، فامر ان يصبر على ما قالوه ، ولن يذكره عنده داود ، فانما امره بذلك ، عند مطالبتهم بما طالبوه به ، بعد امره اياه ، بالصبر على مقالتهم ، على سبيل امره اياه ، بالاقتداء به ، من حيث دفع داود عليه السلام مثل ما دفع اليه النبي - عليه السلام - من ايذاء قومه اياه ، وافترائهم عليه ، وما يتمنون من المحالات . فأي تعلق بين ما ذكره من هذه القصة وبين سؤالهم اياه تعجيل قطهم وامره بالصبر على ذلك ؟ وهل بين ما

قالوه وبين ما امر به من ذكر قصة داود ملاءمة او تعلق بحال ؟ .

وسابعها : ان الله تعالى وصف داود - عليه السلام - في ابتداء القصة باوصاف حميدة تباين ما نسبوه اليه ، واضافوه اليه ، فسماه : اواها وانه اتاه الحكمة ، وفصل الخطاب ، وذا الأيد ، واخبر بشدة ملكه ؛ فلو كان ما ذكروه ، على ما ذكروا ؛ لكان مثاله من يقول : فلان رجل صالح عفيف زاهد ، لكنه يعمل بالكبائر !! .

واذ قد بينا فساد ما ذكروه ، وان ظاهر القرآن لا يقتضي ذلك . نعود الى ذكر ما في القرآن ، وبيان معانيها ؛ ليتضح بذلك صحة ما قلناه ، فنقول : - وبالله التوفيق - ان مبتدأ السورة حكاية اقوال الكفرة ، في تعجبهم من دعاء النبي ﷺ الى وحدانية الله تعالى ، وخلع الانداد ، فقال حاكيا عنهم : ﴿ اجعل الاله الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ﴾ . ثم اتبعهم بانكارهم نبوته ، وان يكون قد خص من بينهم بالرسالة ، وسائر ما أتبع ذلك ، الا ان ذكر ما اقترحوا عليه ، من ان يعجل لهم قطهم قبل يوم الحساب ، فعند ذلك قال : ﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ﴾ فاخبر عن الكفرة باستعجالهم العذاب قبل يوم القيامة ، جراءة منهم على الله تعالى ، وتكذيبا لمحمد - صلى الله عليه واله - فشق ذلك كل المشقة ، اذ كانت من عادتهم : الشفقة على كافة خلق الله تعالى ، فقال تعالى : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ واستعبده بالصبر ، والاقتداء في ذلك بداود عليه السلام ، ثم بسليمان ، ثم بايوب ، ثم سائر الانبياء - عليهم السلام - الذين ذكرهم في هذه السورة ، ولو فكر في هذا مفكر ؛ ايقن وعلم جلالة عادة داود - عليه السلام - في الصبر ، لما استعبد به محمدا عليه السلام - مع جلالته وعظم قدره - بالقدوة ، وقد كان الله تعالى استعبده بالاقتداء به مجملا ، في قوله : ﴿ فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ﴾ وداود - عليه السلام - منهم ومعنى العزم : ان له ان يقتل وينتصف ويحارب . الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ﴾ . فعزمه عزم القتال ، وقال بعد ذلك : ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ - مادحا له مثنيا عليه بالجميل - وذلك

لان ؛ من سنة الله تعالى اذا اراد ان يذكر متشابها ، ان يقدم امام ذلك مقدمة : تدل على المراد بالمتشابه . ومنها تمكن فساد قول المحرفين لكتابه ، فقال تعالى في مدائحه : ذا الايد . والايد هي : القوة . فقال تعالى : ﴿ واصبر ﴾ كما صبر داود ـ عليه السلام ـ وكان ذا قوة شديدة ، وكان له العزم ، ولم تمنعه مانعة في الانتصاف لوجه من الوجوه ؛ اذ السبيل الى الانتصاف : اتيان القوة والعزم ؛ وانما وصفه بانه كان ذا الايد ليس بوان ، وان صبره لم يكن عن عجز ، بل عن قدرة ، وتمكن من الانتصاف والانتقام . ثم قال تعالى : ﴿ انه كان اوابا ﴾ فبين انه مع قدرته على الانتصاف واباحة الله تعالى له ذلك ، لم ينتصر مما جني عليه ، وكان اوابا ، فكيف يستجيز مدعي انه من اهل الاسلام ، معترف نبوة داود ـ عليه السلام ـ مقر بصحة الكتاب ؟ وكونه معجزة ان يقول : مع ثناء الله تعالى عليه بما اثنى ، انه اقدم على فسق فظيع ، وقد سماه الله تعالى اوابا ، والاواب هو الرجاع عن المحظورات ؛ اذ هو المحظور بمعنيين متنافيين .

ثم قال : ﴿ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق والطير محشورة كل له اواب ﴾ ، يستجيز له ليرتكب ما ادعوه ويتعاطى ما رموه به ؛ وقد قيل : انه كان محرما عليه صيد شيء من الطير ، فكانت تأمنه ، ويستحيل ان يكون نبي الله بحيث يأمنه الطير ، والوحش ، ويزاحم اخاه في حليلته ، ويدخل في دمه . فان من كان هذا مذهبه ؛ كان منافقا خيانا جعل امساكه عن الصيد حيلة الى ما يضمر من السوء ، ـ جل نبي الله داود عن ذلك ـ . ثم قال : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ اخبر : انه شدد ملكه من كل عيب . وهو فلو عمل الفاحشة ما كان ذلك شدا لملكه ، ولأن لفظ الشد عام ، غير مخصوص ومطلق غير مقيد ، ومحال ان يعني بذلك شد ملكه بالعدة والعباد ، ثم يكون مسلما عن طريق الدين ؛ لان ذلك سبيل الكفرة من الملوك دون الانبياء . واللفظ شامل لهما راجع اليهما ثم قال : ﴿ واتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ فالحكمة اسم جامع لكل فضل ، علما وعملا ، فكيف يجوز ان يخبر انه اتاه الحكمة ثم يعمل بما لا يستجيز السفهاء ، وتتبرأ منه الجهال الاغبياء من مزاحمة اصحابهم ،

والدخول في دمائهم ، وايثار هواه على رضائهم ، فالذاهب اليه راد على الله - سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ واتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ ، قطع الاحكام .

واذا كان قطع الحكومات اليه ، لم يجز ان يظلم ، وان يتعاطى ما قرفه المحرفون لكلام الله تعالى عن مواضعه ؛ لأن الله - سبحانه يتعالى - من ان يجعل الى من يجور ويظلم . كيف وهو تعالى : يقول : ﴿ الله يعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ، ويقول : ﴿ انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ﴾ فكيف يأتي ما ذكروه ، ويرتكب ما ادعوه من كانت هذه صفته في اختيار الله تعالى اياه وحسن الثناء عليه ؟ ثم قال : ﴿ وهل اتاك نبأ الخصم اذ تسور المحراب ﴾ ، قال : يا محمد وهل أتاك نبؤ الخصم والخصم : اسم يقع على الواحد ، والجمع ، تقول : رجل خصم وقوم خصم . وكذلك قال : «اذ تسور المحراب» فأخبر عن جماعة انهم تسوروا قصره . ومحال ان يكون الملائكة معنيين به ؛ لانهم لا يكذبون ؛ ولا يبغي بعضهم على بعض . وبعد : فان في الصدق لمندوحة عن الامثال بالكذب ، وعني بالمحراب : القصر ، قال الله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾ ، وهو جمع محراب ، ففزع منهم ؛ لانهم كانوا جماعة ، تسوروا قصره ، قاصدين لقتله ، او عازمين على سوء به ، او بأهله ، او بماله ، فدخلوا قصره في وقت ظنوا انه غافل ، او نائم ؛ لأنه معلوم في العرف ، والعادة ، انه لا يتسور احد دار غيره ، من غير امره ، الا لسوء يريده ، من قتله ، او المكابرة على اهله ، وحرمه ، او لسرقة ماله ؛ خصوصا اذا كان صاحبها ملكا محتجبا او نبيا مرسلا ، فلما رأوه مستيقظا ، انتقض عليهم تدبيره ؛ فاخترع بعضهم عند فزعه منهم خصومة لا اصل لها ، ولا فرع ، زاعما انهم قصدوه لاجلها ، دون ما توهمه ، فقالوا : ﴿ لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ ثم ادعى احدهما : ما لا فرع لها ، ولا اصل ، فقال : ﴿ ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ﴾ فانما اخبر بالنعاج عن النساء ، وليس في اللغة وقوع

اسم النعجة على النساء ، ولم يعبروا بها لا حقيقة ، ولا استعارة ، ثم قال : ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾ فاستثناء داود ـ عليه السلام ـ المؤمنين من جملة الباغين انابة ، او اشارة الى من ظلم ، ليس بمؤمن مطلق ، او لو كان داود قاعدا لمثل ذلك ؛ لكان باغيا ، خارجا ، عن جعله المستثنى ؛ وذلك يوجب كونه غير مؤمن . ومحال ان يكون نبي غير مؤمن .

ثم قال : ﴿ فظن داود انما فتناه ﴾ والفتنة : الامتحان والابتلاء على ما بيناه في غير موضع ، فعلم انه ممتحن بما وقع اليه ، وباشكاله ، فلم يعمل على ظنه من ان ظاهر الحال كان ما ذكرناه ، ولم ينتقم منهم مع كونه ذا يد قوة مطلق له الانتصار ، والانتصاف ، بل هو عاد الى ما هو اليق به وشاكله من الاستغفار للقوم الذين قصدوه ، والشفاعة لمن اغتالوه ، ومسألة الله العفو عنهم ، وذلك ؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم يقل : انه اذنب ، ولا انه استغفر لنفسه ، فغفرنا له ذلك ، يعني : غفر لداود جرم اولئك ، فاعطيناه ما طلب ، وشفعناه فيما استشفع ، ولم يقل غفرنا ذنبه ؛ انما قال : غفرنا له ذلك ، فالواجب ان ينظر في السورة ، ما هذا المغفور؟ ومن المذنب؟ . وليس في القصة ان داود ـ عليه السلام ـ اذنب بوجه من الوجوه ، وانما فيه : ان القوم تسوروا قصره بغير اذنه ؛ ولذلك فزع منهم . والغفران راجع الى ذلك ، دون ما ليس في القرآن منه قليل ولا كثير . فاما ما يدعيه القوم ويذكرونه : فشيء خارج عن القرآن . وانما هي قصة تقولها اليهود على داود ، واخذ ذلك عنهم هؤلاء المفترون على الله ورسله ، ولا احتجاج لمثل تلك القصة ؛ اذا لم يوافق القرآن ، ولم يدل على شيء منه لفظ القرآن ، وقد بينا مخالفة تلك القضية للقرآن ، وخروجه عن عظة القرآن . وادابه الى ابطال ما قدمه تعالى : من مدائح داود ـ عليه السلام ـ امام هذه القصة . وقد دلت ايضا دلالة العقل على فساد ما تقولوا عليه ؛ فلا تعلق للقوم في هذه القصة

بشيء ، يوجب ذنبا ، او يلحق به جرما ، الا قوله تعالى : ﴿ فاستغفر ربه وخر راكعا واناب ﴾ .

وقد بينا فيما تقدم : انه ليس كل استغفار يكون عن ذنب . وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : « اني استغفر الله في اليوم سبعين مرة » والمؤمنون مجمعون على الاستكثار من الاستغفار ، فلا تعلق في ذلك بكونه مجرما ، او مذنبا ، على انا قد بيناه : انه استغفر للقوم ، لا لنفسه ، وقد يجوز ان يستغفر الانسان لغيره ، كما قال بنو يعقوب لوالدهم يعقوب ـ عليه السلام ـ : ﴿ يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ﴾ (الآية) وكذلك قوله : ﴿ فاستغفر ربه ﴾ اراد به استغفر للقوم لا لنفسه الداخلين عليه ، فغفر له ذلك ، يعني غفر لاجل داود ـ عليه السلام ـ ذنب اولئك . ولهذه الفضيلة التي خص بها داود لحالته لافضل منازل البشر بعث نبينا ﷺ بالاقتداء به في الصبر بقوله : ﴿ فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد ﴾ ، وقد تأدب النبي ـ عليه السلام ـ بهذه يوم احد لما هشمت ثناياه ، قال : « الهي لا تؤاخذهم فانهم جاهلون » . ولما استعملوه كذا داود ـ عليه السلام ـ من هذه الفضيلة التي حكم مجمل ، حكم بالاقتداء به في ذلك . خلع عليه الخلعة النفيسة ، فجعله خليفة في الارض التي هي اشرف منازل البشر . ولو كان مذنبا لذلك الذنب العظيم ؛ لما استحق المثوبة لأعلى المراتب ، واسنى المطالب وبعث افضل البشر بالاقتداء به . ووجه اخر لاستغفاره عليه السلام وهو : ان الانبياء عليهم السلام متى ما دهمهم خطب ، أو نزل بهم مكروه ، يرجعون فيه باللوم على انفسهم ، ويتبادرون الى التوبة ، والاستغفار ، خوفا من ان يكون بدر منهم ما يوجب المحنة ، ولا ينزهون انفسهم عن الاحترام . فداود عليه السلام جرى على منهاج الصالحين البررة ، وسلك سبيل المتقين ، وبادر الى التوبة ، والاستغفار . وقد يكون الاستغفار من غير ذنب ، كما قال الله تعالى لنبيه ـ عليه السلام ـ : ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ الى قوله : ﴿ واستغفره انه كان توابا ﴾ . ومجيء النصر والفتح يجري مجرى الثواب ، فلا يجب منه الاستغفار . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ قالوا : انه اشتغل بعرض الخيل عليه عن صلاة العصر حتى غربت الشمس ، فلما تذكر امر بقطع ايدي الخيل واعناقها ، فزعموا : انه اذنب ، ثم جعل توبته قطع ايدي ما لا ذنب له في ذلك واعناقها ، على سبيل المثلة المنهي عنها .

الجـــواب عنه : لا تعلق لهم في هذه القصة بحال ، وذلك لانه ؛ ليس فيها ذكر ذنب اقترفه ، ولا عتاب من الله ، ورد عليه ، ولا استغفار منه التجأ اليه ؛ ولأن ما يدعونه من نسيانه صلاة العصر ؛ فشيء لا ذكر له في القرآن ، ولا دلالة عليه ، ومن اين قالوا ان صلاة العصر كانت عليه مفروضة ؟ هل بذلك كتاب ناطق او خبر صادق ؟ ومن اين قالوا انه اشتغل عنها بعرض الخيل ؟ ، فان ادعوا ذلك من قبل قوله : ﴿ اني احببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ فليس في اللغة ان يقال : احببت كذا عن كذا اي اشتغلت به عنه ، وكذلك ادعاؤهم انه نسيها حتى غابت الشمس فليس للشمس في (الآية) ذكر . واما الكناية في قوله حتى توارت بالحجاب ، فراجعة الى الخيل ، ولا يجوز رجوع الكناية الى غير مذكور متقدم ، ومعلوم لا يذهب التوهم الا اليه ، ولا يمكن ردها الا اليه . وبعد فانه قال : ﴿ بالعشي ﴾ والعشي : انما يكون بعد غروب الشمس ، ولذلك يقال لصلاة المغرب صلاة العشاء الاولى . ومما يدل على فساد تعلقهم (بالآية) سواء ما ذكرناه وجوه منها ما بينا انه تعالى اذا اراد الاخبار عن شيء بلفظ متشابه ، قدم امامه من المحكمات ما ينبئ عن معنى المتشابه ؛ ليبطل بذلك تحريف المحرفين لكلامه عن مواضعها ، فالمؤمن يجعل المحكم اصلا يبني عليه تفسيره المتشابه ، والزائغ القلب يعرض عن المحكم ، ويتعلق بالمتشابه . كما قال الله تعالى : ﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ (الآية) . فاذا تقرر ذلك ، فالله تعالى قدم امام القصة الثناء على سليمان ، ومدحه بثلاث صفات بكونه هبة منه ، وبانه نعم العبد ، وبانه اواب ، زيادة على ما خصه به من النبوة ؛ كيلا يلحق به ما ينافي هذه الصفات ، فلو اردفه بما ينبىء عن كونه نبيا غير اواب فاسقا ، لتضاد

الخبران وتناقضت الصفتان ، فتعالى الله ان يجمع في كتابه مثله . ولكن الحشوية الطغام ابت الا التقول على الله ، ورسله ، والطعن فيهم ، والحاق ما يجد الملحد سبيلا الى ابطال نبوتهم به ، على ان ما قرفوه ليس بذنب فقط ، بل هو ذنب وسعة دلالة على جنون فاعله ؛ لأنه بزعمهم اذنب ، ثم جعل توبته من غير ان تاب ؛ معاقبة منه من لا جرم له من قطع الايدي ، والاعناق ، فزعموا انه ارتكب في ذلك ما لا يرتكبه احمق الخلائق ، ولو لم يكن فيها وصفه الله به الا قوله : ﴿ انه اواب ﴾ لكفى بذلك ابطالا لقولهم ؛ لانه بين انه اواب حال عرض الخيل عليه . فكيف يكون اوابا على زعمهم وقد ارتكب من الخطيئة والسفه ما ارتكب ؟ ، وهل هذا الا الرد على الله وتحريف كتابه الى ما يجب كونه فاسدا متناقضا يبطل اخره اوله ، ولا يشاكل اوله اخره . ومنها انهم زعموا : انه امر بضرب قوائمها ، متعلقين بقوله : ﴿ فطفق مسحا بالسوق والاعناق ﴾ ، ولا يقال مسحت بسوقها واعناقها اي ضربتها ؛ وانما يقال : مسح مقرونا بالسير ، فاذا ترك ذكر السيف ، لم يعقل منه الضرب والقطع .

وعلى ان قولهم مسح عنقه بالسيف في الاخبار عن ضرب العنق مجاز ، او استعارة ، فمتى ما اسقط السيف منه ، رجع الى اصله ، ولو كان معنى مسح بسوقه وعنقه اي : (ضربها) ؛ لكان للقائل اذا قال : مسحت برأس فلان او يده كان معناه اي (ضربتها) ، ولكان معنى قوله تعالى : ﴿ فامسحوا برؤسكم وارجلكم ﴾ اي اضربوها ، وهذا محال . فقد تبين فساد تعلقهم بهذه القصة فيما اقتصوه ووصفوه ، على انا قد بينا : انه من جملة الانبياء ، الذين ندب الله تعالى نبيه الى الاقتداء بهم في باب الصبر ، فلا يجب ان يكون من هؤلاء الانبياء من يباين الصبر ؛ فاذا قد تبين فساد كلامهم وظهر بطلان تعلقهم بهذه القصة . فنحن نفسرها على ما توجبه قضية اللغة ، ويوافق الكتاب والعقل . فنبين بذلك عوارهم وتحريفهم لكتابه ، وبراءة ساحة سليمان فيما راموه ، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ . انه تعالى قال في مبتدأ القصة : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب ﴾ فبين انه هبة ، وهبة الله لا تكدير فيها ؛ لأنه انما خصه بهذه اللفظة تعظيما له ، وبين بها عن ان يلحقه

عيب ، ثم اخبر انه : نعم العبد حكما بتا ، وخبرا مطلقا ، ومن وصفه بمثل هذه الصفة يتعالى الله ان يرتكب ما لا يرتكبه احمق الخلائق ، ثم اخبر انه اواب ، وقد بينا ان معناه : الراجع الى الله تعالى في افعاله ، واقواله ، وكيف يكون اوابا من فعل ما ذكروه من السفه والذنب ؟ ، وقد بين انه اواب في الوقت الذي عرض عليه الخيل وهو وقت العشي ، فقال : ﴿ اني احببت حب الخير ﴾ يريد بالخير : الخيل ؛ والعرب تكني عن الخيل بلفظة الخير ؛ كما يكنى عن الابل بلفظ المال . فمعنى اني احببت الخيل عن ذكر ربي ؛ عني به عن امر الله تعالى اياي باتخاذها ، وارتباطها ، وحبه اياي على ذلك ، وهو كما قال : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ يعني : بامري . يقال : فعل كذا عن امر فلان اي : بامره فبين سليمان ـ عليه السلام ـ ان محبته للخيل ليس لرغبة فيها ، ولا لحرص على الدنيا ، ولا لاجل التزين بها ؛ ولكن بامر الله وترغيبه اياي في ذلك احببتها ، واتخذتها . وكان هذه اللفظة : ﴿ لما توارت بالحجاب ﴾ يعني لما حجبها عن بصره فقال ردوها علي ، فلما ردت عليه ظل يمسح اعناقها ، واسواقها بيده تواضعا منه لقيامه على الخيل ، ومسحه اعناقها وسوقها بيده ، تشريفا لها ، وابانة لكرمها وفضلها ، وامتثالا لما امر الله به من اتخاذها ، وحثا على ذلك ، ولانه اراد بذلك الى تبيين انه من السياسة والبصر باحوالها ، وحفظها ، ما لا تخفى عليه شيء من اسباب مملكته ، وانه يشارف كل ذلك بنفسه ، حتى انه يبحث عن عيوب الخيل وغيرها بيده دون الاعتماد على غيره ، كما اخبر عن تفقده الطير ، فقال : ﴿ ما لي لا ارى الهدهد ام كان من الغائبين ﴾ فلم تخف عليه غيبة هدهد من بين الطير اجمع ؛ لتيقظه وتعرفه اسباب مملكته ، ومهما تفكر المنصف في قصة الهدهد ، وقوله : ﴿ لاعذبنه عذابا شديدا ولاذبحنه او ليأتيني بسلطان مبين ﴾ كيف كان توقفه على عقوبة طير ، وانتظر اتيانه بحجة ، ولم يستعجل بعقوبته ، مع مفارقة حضرته من غير امره ، يعرف انه لم يكن ليعاقب الخيل في شرفها من غير جرم بل يحرم نفسه . فقد ظهر فساد كلامهم ، وتحريفهم كتاب الله تعالى . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب ﴾ (الآية) قالوا : انه

سلط شيطانا على مملكته وسلب ملكه ؛ بان احتال لاخذ خاتمه وان مملكته كانت في خاتمه ، فكان يأتي نساءه وهن حيض ، وان امرأته كانت تعبد الصنم في داره اربعين يوما ، فسلبه الملك اربعين يوما ونحوه في قصة طويلة . وذهب بعضهم الى ان معناه انه قال : لاطوفن الليلة على كذا من نسائي فتلد كل واحدة منهن ولدا يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن ، فلم يولد له الا شق ولد ، له يد واحدة ، ورجل واحدة ، وعين واحدة ، فتاب عند ذلك من ذنبه في ترك الاستثناء وتنصل منه .

الجـواب : انه لا تعلق لهم في الظاهر ؛ لانه ليس في القرآن شيء مما ذكروه من هذه القصة التي اخترعوها ، وهذه من التأويلات المخترعة التي ذكرتها في الفصل الأول . ومن اين قالوا ان ملكه كان في خاتمه ؟ وكيف صرفوا لفظ الجسد الى الشيطان ؟ وبأي دليل ؟ ابحجة عقلية ام بدليل لغوي ؟ وهل يقوى الشيطان ، ويقدر على ان يحول نفسه على صورة سليمان ، ولان جاز ذلك جاز الآن ؛ وذلك لان نساء الناس لا يثقن بازواجهن ، فلعل من يدخل عليهن شياطين تصوروا بازواجهن ، وهذا يوجب لا يمكن لاحد ان يشهد على احد ، انه فلان في حق ولا في غيره ، فلعل المقر كان شيطانا ، او من تشبه عليه ؛ لأن الشيطان في صورته فكفى بمذهب فسادا ، يؤدي الى ما قلناه : على ان ما تعلقوا من قوله : ﴿ والقينا على كرسيه جسدا ﴾ (الآية) فلا تعلق في ظاهره ؛ لأن الجسد ما لا روح له . ويقال اجساد وارواح قال الله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ﴾ يعني : امواتاً ، وقال في صفة العجل : ﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار﴾ عني به مواتا لا روح فيه ، واذا كان كذلك سقط تعلقهم بالظاهر . وما معناها : فان قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ انما هو معطوف على القصة المتقدمة ، وهما معطوفان على قصة داود ، حيث امر النبي ﷺ بالاقتداء به ، فعطف على ذلك قصة سليمان ، فالواجب ان يعلم انه ممتحن بمن خرج منها سابقا ، وقام بها فاصلا لم يلحقه في ذلك عيب ، ولا مذمة ، وذلك ان الفتنة اصلها : تخليص الشيء من الشوائب ، وتصفيته من الاقذار ، وهو مأخوذ من قولهم : فتنت الذهب اذا

استخرج ما فيه من الخبث ليبقى خالصا . ومن ذلك قوله تعالى لموسى - عليه السلام - : ﴿ وفتناك فتونا ﴾ اي : خلصناك ، وهديناك بهدانا . فالله تعالى يمتحن عباده في كل وقت ، وفي كل حال بمحن تخلصهم ، واحوال تهديهم ، لا محنة تعرف لما لا يكون منه ؛ لانه العالم بما كان ويكون ، وبما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وبما يكون لو لم يكن كيف كان يكون ، وكل من كان عنده أعلى منزلة ؛ كان تعريضه اياه للمحن الصعاب اكثر ترسخا ؛ لما يريد رفعه اليه ، فالله تعالى امتحن سليمان ببعض محنه ، كما فعل بسائر انبيائه ، وقوله تعالى : ﴿ والقينا على كرسيه جسدا ﴾ فقد بينا ان معنى الجسد في حقيقة اللغة ما لا روح فيه ، وقد يقال للاحياء اجساد على معنى التشبيه ؛ كما يقال للاحياء اموات ، فيقال : فلان جسد بلا روح اذا مرض مرضا شديدا اشفى على الموت ، (فالآية) تحتمل معنيين : احدهما ان يكون المراد به انه القى نفس سليمان على كرسيه جسدا اي امرضه مرضا شديدا اشفى منه على الموت ، حتى كأنه جسد لا حياة فيه من شدة المرض ، ثم اناب ، اي رجع وعاد الى الصحة .

وها هنا يؤدي الى حذف الكناية ، كأنه قال : والقيناه وحذف الكناية كثير ما اتى في الشعر والقرآن ، فاما في القرآن : فنحو قوله تعالى : ﴿ واضل فرعون قومه وما هدى ﴾ يعني : وما هداهم ، وقال ايضا : ﴿ الم يجدك يتيما فآوى ﴾ يعني : فآواك ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ يعني : فهداك ﴿ ووجدك عائلا فاغنى ﴾ يعني : فاغناك . واما الشعر فقول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

عني به من تصبه ومن تخطه ، فحذف الكناية فيهما . وقال اخر :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

يعني به : من لم يزوده . وقال عنترة وهو في الحاشية :

ما كنت اول من اصاب بنكبة دهر وحب ياسكون صميم

اراد : من اصابه بنكبة وحبه ياسكون صميم ، فحذف الكناية فيهما

واذا كان كذلك صح ان حذف الكناية جائز وهو ظاهر ، ووجه آخر وهو انه : جاز ان يكون ولد له ولد على ما جاء في بعض الاخبار ، يعد ان يكون سليمان ـ عليه السلام ـ كان ينتظر ان يولد له ولد ، يقربه عنده ، فلم يجزع ، ولم يستعمل الطيش ، بل اظهر الرضا بما اوتي ، واناب الى الله تعالى ، والى الرضا بقضائه ، وترك السخط لحكمه على ما يليق بشاكلته ، ويقتضيه حاله من النبوة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي انك انت الوهاب ﴾ قالوا : فسليمان عليه السلام حسد في ذلك ، من حيث سأل ربه ملكا لا يؤتى غيره مثل ذلك . قالوا : وهذا هو الحسد لا غير .

الجـواب : الظاهر لا تعلق لهم فيها من وجهين : احدهما لم يقل هب لي ملكا لا يكون مثله لغيري ؛ وانما قال ذلك ان غير ذلك الملك لا ينبغي لغيري من بعدي ، ومعنى لا ينبغي : هو انه لا يستحقه احد من بعدي ، وبين الاستحقاق وبين الكون فرق ظاهر ، فسقط التعلق بظاهره انه حسد ، واما معناها : فقد قيل فيه اقوال كثيرة ذهب بعضهم الى ان سؤاله كان عن اذن من الله . وقال بعضهم انه سأل ربه الجنة ، اي : ملكا لا زوال عنه فيصير الى غيري ، وهذا انما يكون في الجنة ، وكلاهما بعيدان عن معنى (الآية) . وانما غلطوا من حيث توهموا انه سأل ربه ملكا لا يكون مثله لمن سواه ، ولم يقل : كذا ، وانما سأل ملكا لا يستحقه احد من بعده ، وذلك لما مرض ثم رجع الى الصحة ، عرف ان ملك الدنيا ونعيمها وسائر ما فيها ، صائر الى الغير بارث وغير ذلك ، فسأل ربه ملكا لا يستحقه غيره من بعده : وهو الملك الذي لا يورث ولا يستحق بحال ، وذلك لأن كل ملك كان من جهة الدنيا يقع فيها الاستحقاق ، وانما يقع الاستحقاق في الملك الذي يكون من جهة النبوة ، فاعطى ذلك ؛ بان سخر له الريح ، والشياطين ، وسائر ما ذكره الله تعالى في الآية ، فسقط تعلقهم بالآية . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا ايوب ﴾ (الآيات) الى قوله : ﴿ انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب ﴾ زعموا : انه اذنب ، فابتلاه الله بان سلط عليه شيطانا فامرضه ، واسقمه ، وأهلك ماله

وولده ، قالوا فلم يرض بقضائه ، فشكى ذلك الى ربه ، فلزمته الملامة من غير وجه .

الجـواب : ان ظاهر الآية يبطل دعواهم ؛ لأنه ليس في الآية شيء مما ادعوه . فاما قوله : ﴿ اني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ ولا تعلق لهم فيها ؛ لانا نبين من معناها ما يظهر به فساد تعلقهم ؛ فاما سائر ما اقتصوه ، فلا دليل عليه ، فمتى ما رجع الى ما قبل هذه القصة ، والى اول السورة ، واخرها ، على ما ذكرناه ؛ يدل على فساد قولهم في قصة داود ، وسليمان ، ـ عليهما السلام ـ باعثا للنبي ﷺ على الاقتداء به مثبتا انه ابتلي فصبر ، ولم يذكر في (الآية) : انه اذنب بوجه من الوجوه . وقال في اخر القصة : ﴿ انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب ﴾ فاثنى عليه بمثل هذا الثناء الجليل ، فكيف يكون مذنبا خاطئا مع ذلك ؟ وكيف يليق وصفه به ؟ ولكنهم ابوا الا الافتراء على الله ورسله . فاما معنى قوله : ﴿ اني مسني الشيطان بنصب ﴾ (الآية) . وادعاؤهم انه امرضه ، واهلك اولاده ، فبعيد من معنى اللفظ ؛ لأن النصب : هو التعب ، والعذاب : هو المشقة ولا يسمى المرض عذابا ، والشيطان غير قادر ان يمرض احدا ، وان يهلك مالا ولو قدروا عليه ؛ لاهلكوا المؤمنين عن اخرهم ، ولعلهم اعرف بذلك من استاذهم ، وهو حيث حكى الله عنه ، اذ يقول في الاخرة لاوليائه : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ فاذا لم يكن له سلطان على اصحابه ، ومن يتبعه من اعوانه ، وحزبه ، وجنده ، فكيف بالانبياء البررة الذين اصطفاهم الله تعالى لرسالته ، وايدهم بالملائكة ؟ كما قال تعالى : ﴿ فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ وقال ايضا : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه ﴾ (الآية) واعجب الامور : ان من مذهب القوم : انه لا فعل في ذلك لأحد من الجن ، والانس ، والحيوان ، بل الله فاعل جميع ذلك ، ثم يزعمون : ان الشيطان امرض ايوب ، واهلك اولاده ، ولا خلاف بين الامة في ان المرض من الله ، وانه لا يصح ان يقع تحت قدرة المخلوقين ، وعندهم ان جميع المتولدات من الافعال غير داخل في الكسب ، وما ليس يكسب فلا يكون مقدورا للعباد

عندهم ، فكيف جعلوا الشيطان قادرا على ان يمرض الانسان ؟ فاما معنى قوله الخالي : ﴿ مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ فيحتمل وجهين : احدهما ان النصب التعب على ما بيناه ، فاراد انه يورد على وساوسه ، وخدعه من الخواطر ما يناله بذلك مشقة ، وسمي ذلك عذابا على سبيل المجاز والعرف القائم فيه ، فقد يقال تعذبني بكثرة الحاحك ، ولا تعذبني بفنون تموهاتك ، وضروب كلامك ، فكان الشيطان يورد عليه ، على الحالة التي كان فيها من المرض ، والسقم ، وهلاك الاهل ، والمال ، من ضروب وساوسه ، ما يناله بذلك مشقة ، وتعب ، فسماها : عذابا ، والوجه الاخر انه عنى به : انه وسوس الى الناس في ان داءه يعدي ، وانه كيت وكيت حتى استقذروه ، واخرجوه من بينهم ، ولم يتعهدوه ، وكذلك وسوس الى امرأته حتى امتنعت من القيام عليه ، وتركت تعهده ، حتى حلف ان يضربها جعله لكل ذلك مشقة وعذابا فلما دعا الله تعالى ، وابتهل اليه ، ازال عنه المرض ، وما كان فيه ورد عليه اهله ، وماله ، واضعف له واثنى عليه بالجميل ، فقال : ﴿ انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب ﴾ فاخبر انه وجده صابرا فيما ابتلي به ، وانه نعم العبد اذ كان اوابا راجعا الى الله تعالى في كل حال ، واثنى عليه بالاوصاف الشريفة التي لا يختص بها الا كل مبرور ، وكل مقدم في الفضل . فكيف يجوز الحاق عيب به ؟ ومن ذلك قوله تعالى اخبارا عن يونس عليه السلام : ﴿ وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾ (الآية) قالوا : فاول ذنبه ، انه غاضب ربه ، ثم ظن انه لا يقدر عليه ، واعترف واخبر انه من الظالمين ، قالوا : فقد صرح : انه ارتكب الكبيرة .

الجـواب : ان التعلق بجميع ذلك فاسد ؛ وذلك لان المغاضبة مفاعلة ، والمفاعلة لا تكون الا بين اثنين ، الا في احرف شاذة مخصوصة ، ليست هذه من جملتها ، وغير مذكور في (الآية) من غاضبه ، واذا لم يكن مذكورا في الآية لم يجب رده الى ربه ، بل يجب رده الى ما تدل (الآية) عليه ، واذا كان كذلك ، سقط التعلق بظاهر (الآية) وكذلك تعلقهم بقوله :

﴿ فظن ان لن نقدر عليه ﴾ ، لانه متى ما اجرى على الظاهر كان كفرا ؛ لانه لا خلاف ان من ظن : ان الله لا يقدر عليه ، فهو كافر ، وليس يطلق القوم ذلك ، ومتى ما عدلوا عن الظاهر ، سقط تعلقهم . وسنبين معناه بما يزيل شغب القوم . فاما تعلقهم بقوله : ﴿ اني كنت من الظالمين ﴾ . ففاسد ؛ لانا قد بينا في غير موضع : انه قد يوصف به المرتكب للصغائر ، وشرحنا ذلك شرحا بينا فيما سلف ، فقد سقط تعلقهم (بالآية) . فاما معناها : فان الله تعالى سماه « ذا النون » تبجيلا له ، وتشريفا ، وتشهيرا . كما قال الله تعالى : يا ايها المدثر قم فانذر ﴾ و﴿ يا ايها المزمل ﴾ . فأما قوله تعالى : ﴿ اذ ذهب مغاضبا ﴾ فقد بينا : انها مفاعلة والمفاعلة لا تكون الا بين اثنين ، ولا خلاف ان الله - تعالى - لم يغاضب يونس ؛ وانما غاضبه قومه ، وغاضب هو قومه ، والمغاضبة في سبيل الله مدحة ؛ فقد مدح الله المهاجرين في الله ، وقد قال - صلى الله عليه واله وسلم - : « من غضب لله امنه الله من غضبه » ، وقد قال ابراهيم - عليه السلام - : ﴿ اني مهاجر الى ربي ﴾ اي : مهاجر قومي الى ربي . وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت ﴾ (الآية) فيونس عليه السلام لما اغضبه قومه ، وفارقهم ، ظانا ان ذلك غير مضيق عليه ، ولا محظور ، والانبياء - عليهم السلام - وان مسهم اذى من قومهم ولقوا بلاء وشدة فليس لهم ان يفارقوهم ، وان يخرجوا من بينهم الا باذن الله ، فهم في ذلك ، كما اقام نبينا بين ظهراني قومه ، يلقى الجهد منهم طول تلك المدة ، فلم يفارقهم الى ان اذن الله له في ذلك . وكذلك موسى - عليه السلام - كان يلقى هو وقومه من فرعون ، وملائه الاذية الشديدة ، الى ان امره الله تعالى بالخروج هو وقومه ، من بينهم ليلا فيونس عليه السلام فارق قومه - وهذا من باب الاجتهاد - فأخطأ فيه يونس ، والخطأ في مثله موضوع ، فلما فارقهم ، ابتلي باشد منه ، وتاب ، وتنصل ، فقبل منه توبته ، ورد الى ما كان عليه . واما معنى قوله : ﴿ فظن ان لن نقدر عليه ﴾ عنى به : انه ظن ان لن نضيق عليه الخروج ؛ وذلك ان لفظة نقدر ، تأتي بمعنى : التضييق ، قال الله تعالى : ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾

معناه : ضيق فعنى به انه توهم ان الله لم يضيق عليه الخروج من بينهم ، ففارقهم ، واذا كان كذلك ، سقط التعلق . ومن ذلك قوله تعالى : في قصة لوط حاكيا عنه عن قوله : ﴿ هؤلاء بناتي هن اطهر لكم ﴾ قالوا : فعرض بالفاحشة مع بناته ، وذلك كبيرة لاحقا فيها .

الجـواب : انه لا تعلق لهم في الظاهر ؛ وذلك لأن بيان الوجه الذي دل عليه دعا اليهن محذوف ، وقد بينا ان المحذوف لا بد ان يكون عرفا او دليلا يدل عليه ، والعرف القائم في مثله ؛ انما هو الى النكاح ـ خصوصا في الانبياء والصالحين ـ ، الا ترى انك تقول : اذا أمرت غيرك باشتراء اللحم ، لم يحوج ان تقول : اشتر لحم ما يحل اكله ، واشتر لحم المذبوح دون الميتة ، للعرف القائم فيه . وكذلك اذا حث انسان على ترك التعريض للغلمان ، والرجوع الى مناكحة النساء ، قال : النساء خير لك من الغلمان ، وعليك بالنساء ، وليس يريد على سبيل الزنا ؛ وانما يريد على سبيل النكاح ، واستغنى عن ذكر النكاح للعرف القائم في ذلك ، والذي يدل على انه دعا الى النكاح ؛ انه لو دعا الى الزنا ؛ لكان انما يصرف عن محرم الى محرم مثله ، بل الى ما هو مثله في الفساد ، او اكبر منه ، وهذا لا يصح عند احد ، ولكان لقومه ان يقولوا : كيف تصرفنا عن اللواطة الى الزنا وكلاهما في مذهبك محرمان قبيحان ؟ ولئن جاز ان يفعل احدهما ، جاز ان يفعل الاخر ، وهذا محال ، فقد صح انه انما دعاهم الى نكاحهن ، فكيف يجوز لمدع انه من اهل الاسلام ، ومعترف بنبوة الانبياء ـ عليهم السلام ـ ان ينسب بعضهم مع اصطفاءة الله تعالى ، واختياره اياه ، لسعادته ، واصطفائه له لرسالته ، الى ان دعا الى الزنا ويعيب عليه ثم مع بناته ، وليس يرتكب ذلك الا الديوث : الذي لا حمية له ، ولا دين ، ولا انفة ، ولا اسلام ، لكن القوم يقذفونهم بكل شنيع فظيع ، وكل منكر قبيح ، واذا كان كذلك : تقرر بانه لم يدع الى الزنا ؛ وانما دعا الى نكاحهن ، فسقط بذلك تعلقهم ، والذي يدل على انه دعا الى النكاح : قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ هن اطهر لكم ﴾ فكيف يقول : ﴿ هن اطهر لكم ﴾ لو كان دعا الى الزنا ؟ واي طهارة في الزنا وقد تقرر انه أنما دعا الى نكاحهن ؟ ، فان قيل : كيف جاز

ان يدعوهم الى تزويج بناته منهم ، وهن مسلمات ، والقوم كفار ، وتزويج المسلمات من الكفار غير جائز .

قيل له الجواب عن ذلك : على اوجه ثلاثة احدها : ان هذا من باب الشرع وجائز تزويج المسلمات من الكفار اذا كانوا في دار الحرب ، الا ترى النبي ﷺ كان زوج ابنته زينب من ابي العاص ، وكان كافرا - في دار الحرب - . وثانيها : وانه وان دعاهم الى التزويج ؛ فانما دعاهم الى ذلك بشرط الاسلام . الا ترى انك اذا قلت : ان زوجتك ابنتي فاطهر . كان شرطا ، وان لم يذكر كذلك هذا ، الا ترى الى قوله تعالى حكاية عنه : انه قال - عقيبه - : ﴿ فاتقوا الله ﴾ فانما دعاهم الى تزويج بناته بعد ان يتقوا ، ويؤمنوا . الا ترى الى قوله : ﴿ اليس منكم رجل رشيد ﴾ . وثالثها : ان لوطا - عليه السلام - اراد بذلك : مدافعتهم وتشويفهم وذلك ؛ لأن الرسل كانوا اخبروه بهلاكهم عند الصبح ، وفي التزويج والزفاف يقع مهلة ، ومدة ، فاراد مدافعتهم بما قال ، على علم منه انهم يهلكون عند الصبح . ويدل على تعريفهم اياه ذلك قبل دخول العزم قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿ فلما جاء آل لوط ﴾ (الآيات الى اخرها) قوله : ﴿ ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴾ . فلوط - عليه السلام - لما عرف هلاكهم في وجه الصبح ، حاول دفعهم بذلك . وقد قيل : انه عني به بنات قومه ، وانما قال بناتي ؛ لأن النبي عليه السلام حكمه حكم الاب على الجملة ، وكان حكمه عليهن جار كحكم الاب ؛ وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ هؤلاء ﴾ اشارة ، والاشارة لا تبين الا بدليل ، فلما جاز ان يريد به بنات قومه ، توجهت الاشارة اليهن ، فسقط التعلق بذلك من جميع الوجوه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال ربي انى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر ﴾ (الآية) قالوا : فقد شك في قدرته تعالى بعد ما سأل ربه ان يهب له ولدا ، فلما اجابه الى ذلك ، تعجب منه ، وشك فيه .

الجواب : لو كان الامر على ما قالوه ؛ لوجب ان يكون غير عاقل ؛

لأنه محال ان يسأل الانسان ربه شيئا ، فاذا اجابه الى اعطائه ما سأل انكر ذلك ، وشك فيه ، اذ لو كان ذلك مما يشك في قدرته عليه ، لما جاز ان يسأله ؛ انما يجوز من العاقل ان يسأل ربه ما لا يستحيل فعله . واذا كان كذلك دل على ان الامر خلاف ما قالوه ، وذلك : ان زكريا لم يسأل ربه ولدا من جهة الولادة ؛ وانما سأله ان يهب له ولدا من عنده ، فقال : ﴿ هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ وفي آل عمران : ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ وانما سأل ذلك ، عندما اخبرته مريم : انه يأتيها الرزق من عند الله ، فسأله ولدا من عنده ، فلما بشرته الملائكة بانه يهب له ولدا من امرأته ، سأله كيف يهب له الولد على كبر سنه وكون امرأته عاقرا على هذه الحالة ؟ ام يردها الى حال الشباب ؟

فجاء الجواب : انه على هذه الحالة ، من غير ان يردهما الى حال الشباب . واذا كان كذلك سقط التعلق ؛ لأنه لم يشك في قدرته ؛ وانما سأل بيان الحالة التي عليها يهب له الولد . ومن ذلك قوله تعالى في نبينا ـ عليه السلام ـ : ﴿ واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ (الآية) الى اخرها ، قالوا : تبنى زيد بن حارثة فكان يسمى : زيد بن محمد فكان متزوجا بزينب بنت جحش الاسدية ، فحضر رسول الله ﷺ يوما باب داره ، فلقيها فعشقها ، فحول وجهه عنها ، وقال : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، وعلى طاعتك » فبلغ ذلك زيدا ، فجاء الى رسول الله صلى الله عليه واله شاكيا منها من سوء عشرتها ، فامره رسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ بان يداريها ، واعتقد خلاف ما اظهره ، وتعلقوا في ذلك بقوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ (الآية) .

الجواب : اولا : نبين فساد تعلقهم بهذه القصة ، ثم نفسرها ، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ : القصة في القرآن غير موافقة لما حكوه ، ولا دلالة على ما ادعوه ، وذلك ؛ لأنه تعالى لم يلحق به في ذلك مذمة ، ولا عاتبه على شيء منه ، ولا ذكر انه عصى ، او اخطأ ، ولا ذكر استغفار النبي منه ، ولا

اعتراف على نفسه بخطئه ، وانه ظالم نفسه ، ولا يجري مجرى ذلك اسوة غيره من الانبياء ، الذين لما اتوا صغيرة ، او زلوا زلة ، بادروا الى التوبة ، والاستغفار ، والاعتراف ، فانهم عصوا ، وظلموا انفسهم ، وما شاكل ذلك . واذا كان كذلك ، دل على كذبهم ، وتقولهم فيما اقتصوه ، يدل على ذلك ايضا : وجوه اخر من (الآية) احدها : انه تعالى انما زوجه اياها ؛ ﴿ كي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ﴾ ولم يقل : اني فعلت ذلك من اجل عشقك ، او لاجل ميلك اليها ، ولا لشيء مما ذكروه . وبعد فكيف يجوز ان يجعل المحرم اصلا للمحلل حتى تقتدي به جميع الأمة وتعمل على ذلك بعده الكافة ؟ . والاصل فعل مذموم عند القوم ، فدل ذلك على فساد قولهم . وثانيها : انه ذكر في اخر القصة انه ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ فبين : انه لم يكن عليه حرج فيما فعل ، ولا ذنب . فكيف يجوز لزاعم يزعم انه اتى كبيرة ، وارتكب فاحشة ، مع حكم الله تعالى فيها انه لم يكن عليه حرج فيما فعل ؟ الا ان يردوا قول الله ، ويبطلوه بشهادتهم ، وذلك كفر بلا خلاف . وثالثها : انه قال : ﴿ واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ فقرن انعامه عليه بانعام الله عليه ، فكيف يكون منعما عليه ، وقد عشق امرأته بزعمهم يريد الفوز بها ؟ فكيف يجوز ان يأمره بامساكها ، ويميل بقلبه الى اطلاقه اياها ، ليخلفه عليها ؟ هذا صفة المنافقين ، الله تعالى نزه من اصطفاه على الناس كافة وختم رسالته عن مثله ، ولو انه كان ذكر انه اجرم ، او اذنب ، او ما يدل على ذلك ؛ لوجب ان يحمل ، ويتأول على احسن وجه ، وان يظن به ما يشاكل حاله من الاهدى والاحسن . فكيف وقد صرح تعالى ؛ بانه في ذلك غير محرم ولا مأثوم ؟ فاما تعلقهم بقوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ ففاسد ؛ لأن الله تعالى شرط ابداء ما اخفى ، ولم يبد ما قالوه من عشقه ، ولا شيئا مما قالوه ؛ وانما اخبر عن تزويج الله رسوله ـ صلى الله عليه واله ـ اياها فحسب ، بعد قضاء زيد وطره منها ، خلاف ما قالوه في هذا الباب ، فسقط تعلقهم بذلك . فاما معنى القصة ، فانه تعالى ابتدأ بذكر

انعامه ، وانعام رسوله على زيد ، فقال : ﴿ واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه ﴾ ، عني بانعام الله تعالى عليه : الاسلام وبانعام الرسول عليه : العتق ، ثم قال : ﴿ امسك عليك زوجك ﴾ فهو : وعظ ، وتذكير ، وامر بالمعروف . وقوله : ﴿ واتق الله ﴾ نهي وقوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ لفظ مجمل الا انه شرط ابدا ما اخفاه في الذي يبديه اليه من ذلك : هو الذي اخفاه في نفسه ، فلا خلف لوعده . فلو اضمر عليه السلام عشقا ، او ما يليق به ، لاظهره بعد وعده ابداء ذلك ، فلما لم يظهر الا ما احله الله له ، والا ما اسقط الحرج عنه فيه ، فان الذي اخفاه في نفسه : هو التزويج بها ان لم يمسكها زيد . وسنبين السبب في اضماره ذلك ، من بعد تبين وهاء تعلقهم ، والذي يبين صحة ما قلناه ؛ انه قال : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ ومن ظن برسول الله سوءا، فقد ظن بالله . وقد قال الله تعالى : ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ والذي يدل على ان ما ظنه واخفاه في نفسه ، لم يكن مما يلحق به عيبا او يوجب كونه ذنبا وقوله : ﴿ وتخشى الناس والله احق ان تخشاه ﴾ اي : وتخشى ملامة الناس في التزويج بها ، وقوله : والله احق ان تخشاه ، بعث على التزوج بها لانه تعالى امره : بالاعراض عن خشية الناس لملامتهم اياه : انه تزوج بامرأة من تبناه ، فامره بان يعرض عن خشيتهم ، وان يخشى الله في ترك اتمام ما نواه ، واخفاه في نفسه ، من التزوج بها . فلو كان التزوج بها معصية ، او شيئا يلحق رسول الله - صلى الله عليه واله - عيبا ؛ لما جاز بعثه على اتمام ذلك ؛ وانما عزم على التزوج بها من حيث اشار على زيد بامساكها ، وكان زيد كارها لذلك ، غير قابل اشارته ، فعزم رسول الله - صلى الله عليه واله - على التزوج بها ان لم يجر على اشارته في امساكها .

ثم قال : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ فقد بان بأنه تزوج بها بعد تطليق زيد اياها ، وبعد ان ملها ، وكرهها ، لا كما يقول المفترون على الله ورسله ؛ من انها حرمت عليه ساعة رآها رسول الله - صلى الله عليه واله - واستجلاها ، كيف يجوز ان يأمره بامساكها وهي محرمة عليه بزعمهم ؟ ثم

قال : ﴿ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ﴾ فبين ان السبب في التزويج بها ؛ ارتفاع الحرج عن المؤمنين في التزويج بحلائل الادعياء اذا طلقوهن ؛ وذلك لأن الله لما حرم حلائل الابناء ، كما انه جائز ان يتوهم انه تجري حلائل الادعياء مجرى حلائل الابناء ، فامر الله رسوله ان يتزوج بحليلة دعيه ؛ ليكون اسوة ، يقتدي به غير مأثوم ، ولا معيب ، فقد تقرر براءة ساحته مما قرفه القوم ، وفقنا الله لاتمام ما نوينا من الذب عنهم ، ودفع ما يحاولونه من الطعن فيهم ، فكم بين منزه رسله عما لا يليق بهم ، وبين قائل فيهم بكل شنيع فظيع ، وباسط لسانه بكل منكر قبيح . نعوذ بالله من الخذلان ، وقد روي عن جعفر بن محمد الصادق انه قال : خرج انس بن مالك خادم رسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ وكان مريضا منحنيا على عصاه حتى وقف على الناس ، فقال : يا ايها الناس ما لي اراكم اظهرتم الداء الدفين ، والدغل الكمين ، الذي اخفيتموه في زمن رسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ لو سمعت احدا يقول في رسول الله الا خيرا لقتلته ـ ولو بقي في جسدي دم قراد ـ قيل له : وكيف كان قصة زيد ورسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ قال : ان زيدا كان احد الاسارى في زمن رسول الله ـ عليه السلام ـ وكان من جملة من اسروه ، فلما قسم الاسارى ، وقع زيد في سهم النبي ـ عليه السلام ـ وكان يخدمه احسن خدمة ، ما كنت احسده على حسن خدمته ، فما لبث ان جاء اولياء الاسارى ؛ يستفدون الاسارى ، فاقبل ابو زيد فيهم ، فاتيت رسول الله ـ عليه السلام ـ فقلت يا رسول الله : ان ابا زيد اقبل يستفدي زيدا . أأفديه ؟ فقال ـ عليه السلام ـ « افد زيدا ان احب زيد » فاتيت زيدا ، وقلت له : ان اباك اقبل يستفديك ، واني اتيت النبي ﷺ ، فاخبرته ، فقال : « افد زيدا ان احب » . أأفديك ؟ فقال : لا اؤثر على دين الله دين الكفر ، ولا على اب مثل رسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ ابا كافرا .

قال : فاتيت النبي ـ صلى الله عليه واله ـ فاخبرته باتياني زيدا قلت بلى يارسول الله ، قال تبنيته تبنيته ثلاثا ثم اعتقه ، ودعا اصحابه ، وقال : « من احب ان يكون مني فليكرم زيدا » فاعطي من المال حتى استغنى .

قال : فبينما يوم من الايام اسير مع النبي ﷺ في بعض سكك المدينة ، فقال : يا انس ما قضيت حق زيد فقد سبقني الى الثاني وآثرني على ابيه قلت وكيف ؟ كان كافرا ، وقد هداه الله بك وعبدا فاعتقته ، وفقيرا فاغنيته ، وبعيدا فتبنيته فقال ـ عليه السلام ـ : « اني خطبت ابنة عمي زينب بنت جحش ، واني ازوجها به ، واؤثره على نفسي ؛ لأن لا يسبقني احد من امتي الى فضل » ثم مشى الى جحش وامرأته ، خاطبا لزيد ، فلما خرجت من عنده ، قلت في نفسي : كيف اخطبها لعبد ، وقد خطبتها لرسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ ثم قلت : ان لم ابلغ رسالة رسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ كفرت قال : فاتيت باب الدار فقرعته ، فقالوا من بالباب ، قلت : انس بن مالك رسول رسول الله ـ عليه السلام ـ فقالوا : مرحبا برسول الله ورسول رسول الله ـ عليه السلام ـ ، ثم دخلت فلما فتحت الحديث ، وخطبتها لزيد ، رأيت الماء يقطر من حدقة جحش ، وسمعت وراء الستر رنة عجيبة ، فبكيت لبكائهم ، فما اجابوني بلا ولا نعم ، ولم يزيدوا على البكاء شيئا ، فرجعت الى النبي ـ صلى الله عليه واله ـ واخبرته .

وانزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان تكون لهم الخيرة من امرهم ﴾ فأتيت جحشا ، فاقرأته (الآية) وقلت : اني اخشى عليك النفاق فقال : آتي رسول الله حبوا ، ونفسي وولدي اجابة لله ولرسوله ، فزوجت منه على هذه الحالة ، فلما بنى بها لم تساعده ، ونشزت عليه ؛ لاستحكام طمعها في رسول الله عليه السلام فشكاها الى رسول الله ـ عليه السلام ـ فقال له ـ عليه السلام ـ : « امسك عليك زوجك » . واخفى في نفسه انه كان خطبها بداء . وكذلك اوجب العقل ؛ لانه لو لم يخفها من زيد لتنغصت النعمة على زيد ، فكان تمام النعمة على زيد اخفاؤه ذلك في نفسه ، الا انها لما كانت نعمة على زيد ، لم يكن الا به ، كذا يعلم جلال قدرة نبي الله ـ عليه السلام ـ وانه بالمحل الذي اقتفى اثره قول عبد من عبيده ، حتى بلغ به المبلغ الذي اثره على نفسه ، فلما قص الله نبأه وعرفت الامة فضله وجلالته ، ثم لم تقنع الفئة الخاطئة بان يضربوا صفحا عن

ذكر فضله ، حتى غيروه وجعلوا مدحه مذمة ، فتضاعفت عليهم المحنة على اقدام ما ضاعفوه على انفسهم ، فلما قص الله تعالى نبأه بعد ان قضى زيد وطرا ، تزوجها رسول الله ﷺ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ ، قالوا : فلو ان له ذنوبا كثيرة منها : ما تقدم ومنها : ما تأخر ، ما جاز ان يقول : ليغفر لك الله (الآية) فثبت انه كان له ذنوب كثيرة .

الجـواب : انا لا ننكر ان يكون للانبياء ذنوب ، وانما ننكر ان يأتوا الكبائر التي تسقط عدالتهم ، فاما الصغائر فلا ننكر كونها منهم ، وليس في (الآية) ما يدل على ان ما وصفه الله به او اضافه اليه ، من الكبائر ، وهو موضع الخلاف .

على انا ندل على ان المراد به الصغائر دون الكبائر ، الدليل على ذلك : انه علق غفران ذنوبه كان متعلقا بالفتح له فتحا مبينا ليغفر له ، فقد بان ان غفران ذنوبه كان متعلقا بالفتح ، واذا كان كذلك ، فيجب علينا : ان نبين كيف يوجب الفتح غفران ذنوبه ؟ وما الذي يوجب غفران ذنوبه من الذنوب الكبائر ام الصغائر ام كلاهما ؟

فنقول : ان المفسرين اختلفوا في معنى الفتح في (الآية) فمنهم من ذهب الى انه يريد به فتح البلد ، ومنهم من قال : يريد فتح العلم ، وعلى ايهما حملت (الآية) ، وجب ان يكون المعنى به الصغائر ، لان فتح البلد ، وفتح العلم ، لا يوجب غفران الكبائر ؛ لأن غفران الكبائر لا خلاف انه لا يقع الا بالتوبة ، وانما يغفر الصغائر لاجتناب الكبائر ، ولكثرة الطاعات . واذا كان كذلك فالمراد به في (الآية) الصغائر ، لانه ان حملنا الفتح على فتح البلد ، اوجب ما يحتمله ، ومجاهدة الاعداء من كثرة ما يحصل له بذلك من الاجر ما يستحق غفران صغائره .

وان اريد به فتح العلم ؛ فلأن العلم بكيفية الكبائر ، وتحرزه منها

لمعرفته ، وعلمه بما فيها من عظيم العقوبة ، يبعث على اجتنابها ، فيوجب ذلك غفران صغائره ، واذا كان كذلك ، سقط تعلقهم (بالآية) في اثبات ذنوب له كبائر .

والذي يدل ايضا على صحة ما قلناه : انه لو كان المعنى به الكبائر ؛ لكان غراء بالمعاصي والكبائر ، والله تعالى لا يفعل ذلك ، فكيف وقد زجره الله عن الكبائر بابلغ الزجر ، ونهاه باغلظ الوعيد في قوله : ﴿ لئن اشركت ليحبطن عملك ﴾ (الآية) وفي قوله ايضا : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ (الآية) ، وفي قوله : ﴿ ولولا ان ثبتناك ﴾ الى اخر (الايتين) ؟ واذا كان كذلك سقط تعلقهم (بالآية) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ﴾ . قالوا : وليس يريد به الصغائر ، لانها لا توجب انقضاض الظهر ؛ وانما يجب ذلك فيما كان كبيرا .

الجـواب : انه لا تعلق لهم في الظاهر لأن الذنوب سواء كانت صغيرة او كبيرة ؛ فانها لا توجب انقضاض الظهر في الحقيقة . ومتى ما جروا على الظاهر وجب تفسيره على ذلك .

على ان اصل الوزر في اللغة : الثقل ؛ وانما سمي الذنب وزرا تشبيها بالثقل ، وكل ثقل يسمى وزرا ، قال الله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب اوزارها ﴾ اي اثقالها . واذا كان اصل الوزر الثقل ؛ فالتعلق به لا يصح ؛ لأن استعماله في الذنوب مجاز ، وترك الظاهر ، وذلك يوجب سقوط تعلقهم بالظاهر . واما معناها فيجوز : انه كان عليه ثقل ما كان يناله ، وينال اصحابه من جهة اعدائهم من الكفار ، وما كان مأمورا به من التبليغ مع احتمال الاذى ، والصبر على تلك الشدائد ، فكان قلبه من ذلك في ضيق ، وعليه ثقل عظيم ، لاحتمال ما كان يقاسيه من جهة القوم ، فلما فرج الله بما اباح له من الهجرة ، واطلق له من المحاربة ، كان ذلك شرحا لصدره ، ووضعا للثقل عنه .

ووجه اخر : وهو ان الوزر وان فسر على الذنب ، فليس يوجب ذلك ارتكاب كبيرة ؛ لأن الوزر قد يستعمل في صغائر الذنوب ، كما يستعمل في الكبائر ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ . وليس يريد به ان لا يحمل كبائره ؛ وانما يريد انه لا يحمل شيئا من ذنوبه كبيرا وصغيرا . وانما قال تعالى : ﴿ الذي انقض ظهرك ﴾ وان كان صغيرا ، وكان عليه وعنده بمنزلة الثقل العظيم ، فان الانبياء عليهم السلام كانوا يجزعون من صغائر الذنوب ، ويظهرون من التوجع بذلك ، والندم عليه ، والاستغفار منها ، بما كان يشاكل احوالهم في الطهارة ، والزكاة . وهذا ظاهر .

ووجه اخر : وهو انه يجوز انه عني به ما سلف من ذنوبه قبل النبوة ، وذلك لأن شرح الصدر ، ورفع الذكر انما وقع بالنبوة ، وكذلك وضع الوزر مع ذلك وقع ، والوزر يجب ان يكون متقدما للنبوة . وفيما ذكرنا من هذه الوجوه ما يوجب سقوط تعلقهم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ عبس وتولى ان جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ (الآيات) الى قوله : ﴿ كلا انها تذكرة ﴾ قالوا : فلامه على اقباله على الغني ، واعراضه عن الفقير الضرير ، وقال - في اخره - كلا زجرا عن مثله ، وردعا .

الجواب : هو انه ليس لهم في الظاهر تعلق ؛ لأنه تعالى لم يذكر في الظاهر انه اذنب ، ولا امره بما يوجب كونه ذنبا ، من التوبة ، والاستغفار ، والغفران ، ولم يوجد من جهة النبي - عليه السلام - ما يوجبه من الذنوب ، بما لا بد منه من الندم ، والتوبة ، والاستغفار ، خاصة من ذنوب الانبياء - عليهم السلام - ، وانما ذكر في (الآية) الاخبار عما فعله النبي - عليه السلام - من العبوس ، حيث اتاه الاعمى ، وتلهيه عنه ، وما اتبعه ذلك من الزجر عنه بقوله : ﴿ كلا ﴾ ، ليس يدل شيء من ذلك على كونه كبيرة ، ونحن نفسر (الآية) بما ينبيء عن سقوط تعلقهم بذلك .

واما معنى هذه الآيات : فانه تعالى وصف نبيه - عليه السلام - بحسن

الخلق ، وجميل المعاشرة ، فقال تعالى : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ ، وقال ايضا : ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (الآية) ، فلما ندر منه في بعض الاوقات ما يباين ذلك عاتبه ، وعرفه ان ذلك غير مرضي عليه ، واعلمه تعالى انه لا يرضى عنه الا بتبليغ الكافة ، والتسوية بين الغني والفقير ، وبين الشريف والوضيع . والنبي عليه السلام كما وردت به الاخبار ، كان يتكلم مع بعض اشراف قريش ؛ يستميله الى الاسلام استمالة ؛ رجاء ان يعز به الاسلام . فقد كان ذلك من باب الحرص على اسلام قومه ، كما وصفه الله تعالى به ، في قوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهٰذا الحديث اسفا ﴾ ، فخص هذا الاعمى ، وهو لا يشعر بمكالمة النبي - عليه السلام - ذلك الرجل ، فاشتد ذلك عليه اذا كان قطعا لكلامه ، وافسادا لما كان يحاوله من اسلام ذلك الرجل ؛ فاعرض عنه وعبس ، فنهاه الله عنه ، وامره بالاقبال على من اتاه من شريف ووضيع ، وغني وفقير ، وان لا يخص بدعوته شريفا دون دني ، ولا فقيرا دون غني ، اذ التبليغ للكل كان هو الواجب عليه دون القبول . فلم يكن عليه في امتناع من يمتنع عن قبول دعوته تبعة ، ولا عهده ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ (الآية) قالوا : فكان النبي يطرد المؤمنين ، وطردهم كانت كبيرة .

الجـواب : هو ان ليس في الظاهر انه طردهم ؛ وانما فيه النهي عن طردهم ، بل فيها الدلالة على انه لم يطردهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ ، فلو كان طردهم ؛ لكان الواجب : ان يقول : « فطردتهم فكنت من الظالمين » ولا تعلق النهي في ذلك ؛ لان النهي لا يدل على ان المنهى قد ارتكب ما نهي عنه ؛ لان النهي يجب ان يتقدم الارتكاب ، اذ لو لم يتقدمه ، لم يكن المرتكب منهيا عنه . واذا وجب تقدم النهي على الارتكاب ، سقط التعلق بما نهي عنه ، ولو دل على ذلك ؛ لوجب ان يكون جميع الانبياء والمؤمنين مرتكبين للكبائر ؛ لنهي الله تعالى الجميع عن ذلك .

وقد نهى الله تعالى نبيه - عليه السلام - وان لم يرتكبها نحو قوله : ﴿ ولا

تكن من المشركين ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿ ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تطع المكذبين ﴾ ، ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ ، فان قيل فما الفائدة في تخصيص طردهم بالنهي ، ان لم يكن فاعلا لذلك ؛ قيل له الفائدة في ذلك : كالفائدة في سائر ما نهاه عنه مما ذكرناه .

ويجوز ايضا ان يكون اشار به قوم المنافقين على النبي - عليه السلام - بذلك مظهرين ان تقريبه اياهم مما ينفر السادة ، والاشراف عنه ، ونهاه الله تعالى عن قبول قولهم ؛ فيكون ذلك زجرا للمشيرين عليه به ، وابطالا لقولهم : انما ارادوا من تنفير المسلمين عنه مثل هذا الكيد ؛ فجعل ذلك ردعا واياسا من ان ينفذ لهم حيلة بمثل ذلك في توهين الاسلام ، والتنفير لهم ، والتفريق بين المؤمنين ، وبين النبي - عليه السلام - ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ ، مع قوله : ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ، واذا كان كذلك سقط تعلقهم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ (الآية) فبين : انه تاب على النبي ، وبين انه بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ، فهذا يوجب انه اذنب ، والا لم يكن لهذا الكلام معنى .

الجواب : انه لا تعلق لهم بحال ؛ لانه تعالى لم يقل : انه اذنب بحال ، ولم يضف اليه ذنبا ، اوما يدل على ذلك . فاما قوله : ﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾ فليس في ذلك تعلق ؛ لأن معناه : الثواب ، والمدح ، والتعظيم ، والغفران ، وليس كل غفران ان يكون عن ذنب ؛ لأن الامة اجتمعت على قولهم : اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وليس ذلك بموجب كون جميعهم مذنبين . فاما قوله تعالى : ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ ؛ فانما اخبر بذلك عن بعض المؤمنين ، وليس النبي عليه السلام بداخل في ذلك .

على انه لم يذكر انهم زاغوا ، وانما ذكر انه كاد يزيغ قلوب فريق

بعضهم ، وقد بينا ان كاد تستعمل فيما تقرب من الشيء ، ولم يقع بعد . وما حدث ووجد فلا يستعمل فيه لفظة كاد ، واذا كان كذلك سقط تعلقهم بذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ، قالوا : فلولا انه اذنب ، ما وجب ان يؤمر بالاستغفار ؛ وذلك يوجب كونه مذنبا .

الجـواب : لا تعلق لهم في ذلك ؛ لانا لسنا ننكر ان يكون للنبي ـ عليه السلام ـ ذنب ، وانما ننكر ان يكون ذنبه من الكبائر ، والاستغفار من الصغائر واجب وجوبه من الكبائر . واذا كان كذلك سقط التعلق بها ، وليس كل غفران ، واستغفار ، يكون عن ذنب ؛ الا ترى الى قوله : ﴿ ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ﴾ والسبق الى الايمان ليس بذنب ، وكذلك هاهنا في قوله : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين ﴾ ، وليس كل المؤمنين مذنبين ؛ على انه لم يقل لكل ذنب ؛ وانما قال : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ يريد اذا اذنبت فاستغفر لذلك ، وهذا كقوله : ﴿ يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا ﴾ ، وليس يريد : انهم جميعا مذنبون ، وانما بعثهم على التوبة اذا اذنبوا فسقط التعلق بذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي ﴾ (الآية) قالوا : وتحريم ما احل الله من الكبائر .

الجـواب : التعلق بظاهره لا يصح ؛ وذلك ان تحريم المكلف على نفسه شيئا مما احل الله جائز ، وليس بذنب اصلا ، فكيف يجعل ذلك من الكبائر ؟ ولا خلاف في ان لنا ان نحرم ما اباحه لنا من المماليك على انفسنا ، ولو كان ذلك ذنبا لما اتبعه بالغفران من غير تجديد توبة ، ولا يجوز مغفرة العاصي الا بعد اظهار التوبة ، والاقلاع عنه . واذا كان كذلك سقط التعلق به .

فاما العتاب الواقع في ذلك ؛ فانما ورد لشيئين : احدهما : النهي ان

يفعل ذلك لابتغاء رضاء نسائه ، والاخر : ان يكون زجرا لهن عن مطالبته بمثل ذلك ، وذلك لان النبي ـ عليه السلام ـ كان متبوعا لا تابعا ، ومقتدى به ، ووجب ان يبتغى رضاه ، وان يطالب منه اتباعه رضاء غيره ، فزجره تعالى عن ان يتبع غيره ، او يؤثر رضاء من سواه على رضاء نفسه ؛ وذلك تفضيل للنبي عليه السلام ، وابانة لشرف حاله ، وانه المقتدى به في كل الاحوال ، المتبوع المبتغى رضاه في جميع الاسباب . وقد يقول القائل لغيره : لم تكبرن لامر فلان ، ولم تقتدي به ، وهو دونك ، ولم يؤثر رضاه وهو عندك . فليس هذا واشباهه عتاب ذنب ؛ وانما هو عتاب تشريف ، ورفعة وابانة عن فضله وليس لاحد ان يطلب منه امثال ذلك ، فلما طلبن منه تحريم مارية على نفسه ، عاتبه على ذلك من حيث كان مبتغيا بذلك رضاهن ، فامره ان يكفر عن يمينه ، وان يتحلل عن يمينه تشريفا ، وقطعا لمطمع نسائه ، في ان يعمل النبي عليه السلام على نسائه ومسألتهن ، وتخليصا له عن ان يؤذينه في كل وقت بمثل ذلك ، من حيث وبخه على ما فعل ، وامره بنقض ما عقد . فهذا عتاب تشريف وتعظيم ، لا عتاب تقريع على ذنب ، وذلك يسقط تعلقهم به .

ويجوز ان يكون انما امره بذلك ؛ تسوية بين نسائه ، ومماليكه ، وان يجري العدل بينهم ، ولا يؤثر رضاء بعضهن على بعض ، ولا يعامل بعضهن بمراد بعض ، على ما هو الواجب في باب الدين من العدل ، والانصاف ، والتسوية بين الجميع .

ومن ذلك ما قالوه ، وادعوه ، في شأن نبي ، وزعموا انه عدل عن النبوة ، متعلقين بقوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ (الآية) .

الجـواب : ان الواجب : ان الله لا يبعث نبيا يغير ويبدل ، لانه تعالى عالم بسرائرهم قبل بعثهم ، وانما يختارهم على علم منه بما يكون منهم ؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿ الله اعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ووصفهم بانه

اختارهم واصطفاهم ، فقال : ﴿ انهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ﴾ وقال ايضا تعالى : ﴿ ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ وقال ايضا تعالى : ﴿ انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ ، وقال ايضا تعالى : ﴿ ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ . فكيف يجوز ان يغير ويبدل من اختاره الله لرسالته على علم منه واصطفاه ، واختاره واثنى عليه بما اثنى ؟ وهذا محال .

فاما قوله تعالى : ﴿ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ (الآية) هذا صفة من كفر بعد ايمانه لان المنسلخ منها هو التارك لها . والذي يدل على صحة ما قلناه قوله تعالى في اخر القصة : ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا باياتنا ﴾ . فبين ان هذا وصف للكفار والمشركين المكذبين لآيات الله ، لا صفة الانبياء والرسل - عليهم السلام - فسقط التعلق بذلك منه .

ومنه ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ قالوا : فقد بين تعالى : انه كان ضالا قبل النبوة فهداه ، وهذا يبين فساد قول القديم : بالعصمة قبل النبوة .

الجواب : التعلق بالظاهر فاسد من وجوه : احدها انا بينا في فصل الجبر ان لفظ ضل الذي جاء منه ضال ، اذا اطلق ولم يقيد بمعنى هلك وضاع ، فالضال يكون بمعنى الهالك الضائع . واذا كان كذلك سقط التعلق به . وثانيها : ان لفظة ضل لا تستعمل في تعاطي الكبائر ؛ وانما يستعمل في باب الاعتقاد ما يجري مجرى ذلك ؛ واذا كان كذلك سقط التعلق به في اجازة الكبائر عليهم بذلك . وان تعلقوا بكونه ضالا كافرا فليس معناه ما يزول تعلقهم معه . فاما معناها فلفظ الضال فاعل ضل . وقد بينا ان لفظ ضل في اللغة يرجع الى اصل شيئين : احدهما ان يكون بمعنى ضاع وهلك ، والاخر ان يكون ضل الطريق ، وقعد فهو متحير لا يهتدي للمسالك . واذا كان كذلك فمعناه انه وجدك متحيرا ، غير عارف بما تدين ، جاهلا بما يجب عليك في باب الدين والشرع ، اذا لم يكن هنالك دين ، يجب عليه فعله ، وعلم ان

ما كان يدين به قومه من عبادة الاصنام ، وسائر ما كانوا عليه كان فاسدا ، باطلا ، لم يجز للعاقل ارتكابه ولا اعتقاده ، فرغب عن ذلك ، ولم يهتد بما يعمل عليه في باب الديانة . فهو معنى قوله : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ .

والذي يدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴾ ، فبين انه كان جاهلا بالشرائع التي كلف ، وان لم يكن يعرف الشريعة التي يجب عليه ان يعمل بها . وشبيه ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل . « اللهم اني اعبدك وابرأ ممن عبد دونك ولا ادري ما الذي يرضيك عني فاتبعه » فتسمية الله تعالى نبيه بذلك ، ووصف موسى عليه السلام نفسه بذلك ، كان على هذا الوجه : انهما كانا متحيرين ، غير عالمين بما يجب عليهما ، ولا لوم ولا مذمة عليهما في ذلك ؛ لأن حالهما كان حال الناظر المجتهد ، الطالب المسترشد . ولله الحمد والمنة على البصيرة في الديانة .

الباب الثالث والعشرون

في خلق الملائكة وتكليفهم العبادة وفي شيء من صفتهم

من كتاب النور : خلق الله الملائكة من نور ، وقيل من ريح ، وخلق الجان من النار ، والنار من النور . وسميت الملائكة لتبليغها رسائل الله تعالى الى انبيائه - عليهم السلام - ، اخذ من الالوك وهي الرسالة . ومن الملائكة من لو امره الله ان يبتلع السموات ، والارضين ، وما فيهن لابتلع ذلك والله اعلم .

(**مسألة**) : واختلف الناس في الملائكة : هل مكلفون ام لا ؟ فقال من قال : مأمورون منهيون ؛ لقوله تعالى : ﴿ ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وقال من قال : هم مقصورون مضطرون الى طاعة الله . قال بعض المسلمين وقولنا : انهم مجبولون على الطاعة ﴿ لا يعصون الله فيما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

(**مسألة**) : ومن شرح قصيدة الشيخ فتح بن نوح المغربي ، واختلفوا في تكليفهم العبادة : قال بعضهم : مكلفون ، ملزومون ، مأمورون ، مكتسبون ، وقال عمروس بن فتح - رحمه الله - : الملائكة تكتسب ، وليس عليهم تكليف . واستدل الأول بقول الله تعالى : ﴿ ومن يقل منهم اني اله من دونه ﴾ والله اعلم . ووجدت في بعض التفاسير : انها في ابليس اللعين ، حين دعا الى عبادة نفسه .

(**مسألة**) : فان قال الملائكة ملزومون ، قيل له نعم . كما قدمنا . فان

قال ما الدليل على ذلك ؟ قيل له : انا وجدناها تشفق وترغب ، ولا يجوز ان ترغب الا فيما هو موافق لطبعها ، ولا يجوز ان تشفق الا فيما تعلم ، وانها لا قوام لها معه ، فليس شيء ادل على كسب المكتسب من الاشفاق والرغبة . فان قال ثوابها الجنة وعقابها النار ، قيل له لما وجدنا خلقتها مخالفة لخلقتنا ، جاز ان يكون ثوابها غير ثوابنا ، وعقابها غير عقابنا . الا ترى انا لا نخاف عليها العقاب للخبر من الله عنها في قوله : ﴿ لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ؟ .

ومنه وفي الأثر من قال : ان الملائكة كلهم ذكور ، او اناث ، فقد اشرك . وهل يقال لهم رجال ؟ قال ذلك ثقيل عند بعض . وقال بعضهم : يجوز ذلك ؛ قال الله تعالى : ﴿ وعلى الاعراف رجال ﴾ في بعض الأقوال انهم ملائكة ، وسيأتي بيان هذه الآية في موضعه ان شاء الله .

ومن دعا الملائكة بالجنة ، او قال ثوابهم الجنة او استغفر لهم من العصيان كفر ، فيما ذكر في كتاب (السؤالات) عن بعض شيوخ اهل المغرب قال : وعلى الملائكة ان يخافوا الله خوف اجلال ، ورجاء ، ورحمة ، وقيل خوف ملامة توقيف ومحاسبة .

ومنه واختلفوا في الملائكة ايضا قال بعضهم : هم رسل الله عز وجل ؛ هذا مأخوذ من اسمهم ملائكة ؛ لان الألوكة : الرسالة ، كما قدمنا قبل هذا .

وقال بعضهم : ان بعض الملائكة رسل ، وبعضهم ليسوا برسل ، روحانيون وجبريل عليه السلام منهم . وبعضهم ليسوا برسل كروبيون . وفي بعض التفاسير ذكروا عن عبدالله بن عمر قال : ان الله خلق الملائكة والجن والأنس فجزأهم عشرة اجزاء تسعة اجزاء منهم الملائكة ، وجزء واحد الجن والانس ، وجزأ الملائكة عشرة اجزاء تسعة اجزاء منهم الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون . وجزء واحد منهم للرسالة ، والخزاينة وما يشاء من امره .

وجزأ الجن والأنس عشرة اجزاء : تسعة اجزاء منهم الجن ، والانس

جزء واحد ولا يولد من الأنس مولود الا ولد من الجن تسعة ، وجزأ الانس عشرة اجزاء تسعة منهم ياجوج وماجوج وسائرهم بنو آدم ، يعني ما سوى ياجوج وماجوج من ولد آدم . والجن كلهم من عند اخرهم من ولد ابليس .

(**مسألة**) : ويقال للملائكة عقلاء واما بلغ فهو ثقيل ، واما مجتهدون فقد اجازه في بعض الكتب ، ومنع منه في بعض ، قال : ويقال لهم راغبون في طاعة الله يحجون ويصلون ، ويصومون ، ولا يقال لهم تلزمهم هذه الاشياء ولا لم تلزمهم . وفي الحديث ان الملائكة قالت لآدم عليه السلام حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام . وفي الحديث ايضا : ان جبريل صلى بالنبي ﷺ ، والنبي يصلي باصحابه .

وأما التوحيد ، والولاية ، والبراءة ، والكف عن الذنوب ، فقد لزمتهم فيما ذكر في الكتاب ، وعلمهم إلهام ، وليس عليهم من شرائح بني آدم شيء ؛ وانما عليهم شرائع أنفسهم ، ولا يقال طبعوا على ترك المعصية ؛ وانما طبعوا طبع من لا يعصى . ولم نسمع أن رسولاً من بني آدم أرسل اليهم .

وهل يقال لجبريل عليه السلام نبي ؟ قال : انما يقال رسول . وجوز بعضهم أنبياء فيما ذكر أبو يعقوب في كتابه ، ومنع من ذلك آخرون . وقال النبوة في بني آدم خصوصاً ، وليسه عليهم من تغيير المناكر شيء ، ويتولون ويبرءون بالظواهر ، ويحضرون القتال عند ملتقى المؤمنين والكافرين ، ويقاتلون اذ أمروا ويكفون اذا نهوا ، وأمرهم كلهم يؤول الى الخير - صلوات الله عليهم أجمعين - .

فصـــل : وعلينا : ان نعلم ان لله جملة الملائكة ومن لم يعلم ذلك اشرك . والملائكة مأخوذ اسمهم من الالوكة وهو الرسالة ، وواحد الملائكة ملك فيزاد همزة .

قـــال الشاعـــر :

فلست بـــانسي ولكن لمـــالـــكٍ تنـزَّل من جـوّ السـماءِ يصـوب

قال آخر وهو لبيد : -

وغلامٍ ارسلتهُ امه باكولٍ فبذلنا ما سأل

والاكول والمأكلة الرسالة . وعلينا معرفة جملة الملائكة كما قدمنا ؛ ونقصد الى جبريل ونتولاه بالترحم دون الاستغفار ونعلمه باسمه كما ذكرنا قبل هذا ، ونعلم انهُ رسول الله الى محمدٍ ﷺ ، جاءه بالدين والقرآن والاسلام .

وفي آثار مشائخنا - رحمهم الله - بمنزلة الرسل . وفي كتاب (الجهالات) وعلى الناس : ان يعرفوا ان جبريل من الملائكة ، وانهُ رسول الى محمد - عليه السلام - .

وسألت عن رجل قال في جبريل - عليه السلام - : لا ندري أمن نسل آدم هو أم من غير ذلك ؟

الجواب : في ذلك انهُ مشرك لأن الملائكة غير بني آدم ، وهو في هذا الموضع راد على الله - عزَّ وجل - .

وقد سمى الله عزَّ وجل - : جبريل من الملائكة ومن سماه آدمياً ، أو نسبه الى الآدميين ، كان راداً على الله - عزَّ وجل - وكذلك من سمى محمداً ﷺ ملكاً كالذي سمى جبريل آدمياً .

ومعنى جبريل فيما ذكره ابو عبيدة القاسم بن سلام : عبدالله لأن جبرَ معناه : عبد وايل : الله - عزَّ وجل - ؛ قال الله تعالى : ﴿ولا يرقبون في مؤمن الاًّ﴾ في بعض أقوال أهل التفسير : انهُ الله - عزَّ وجل - وقيل ذمة . وقيل خلقاً وكذلك ميكائيل : أي عبدالله .

(مسألة) : وعلينا أن نعلم جملة الملائكة غير جملة الانس ، وغير جملة الجن ، وكذلك جملة الانس ، غير جملة الجن ، علينا معرفة ذلك ، وجملة

الجن مثل ذلك في المعرفة ، ومن لم يعلم ذلك الفرق أشرك ؛ فذلك من السؤالات غير الجن ، علينا معرفتهما على هذا الحال . ومن لم يعلم ذلك الفرق أشرك .

وفيما ذكر في (السؤالات) وان علمت جبريل وميكائيل واسرافيل ، أو جبريل واثنين من الملائكة فانك تشك لعلهم جملة الملائكة الذين كلفنا معرفتهم ، وكذلك الأنبياء اذا علمت محمداً وآدم واثنين من الأنبياء الذين يسع جهلهم ، يجوز ذلك ان تشك لعلهم جملة الأنبياء والرسل والمسلمين ، الذين كلفنا معرفتهم ، وكذلك ان علمت ثلاث آيات من القرآن ، أو ثلاث سور على هذا الحال ، يجوز ذلك ان تشك ، لعلها جملة القرآن أو ثلاث سور ، لعلها جملة الكتب فيما ذكر في السؤالات .

(مسألة) : وفي أثر مشائخنا - رحمهم الله - ومن قال : ان الملائكة تشم الأرياح فهو مشرك ؛ لانهُ وصفهم بالشهوة . وقال ابو يعقوب في كتابه : وذكر ابو قتادة صاحب رسول الله ﷺ : ان الملائكة تتأذى بالروائح الكريهة ، ويستلذون بالطاعات . وذكر عن رسول الله ﷺ انهُ قال : ان الملائكة تتباعد من الكذاب مسيرة ميل من نتن ما جاء بهِ . والله أعلم بهذا .

(مسألة) : وفي اثار أصحابنا من قال : ان الملائكة تجوع وتعطش فهو مشرك . وقال ابو يعقوب في كتابه وقال : لما روى ان الملائكة تأكل من شجرة الخلد . قال فعلى هذا قد ثبت قول ابليس اللعين لآدم وحواء - عليهما السلام - ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ .

(مسألة) : ومن وصف الملائكة بالتناسل والأنوثة فقد أشرك ؛ لانهُ رد على القرآن ، واشرك بالله العظيم . وقد ذم الله أقواماً سموهم بتسمية الانثى ؛ فقال : ﴿وجعلوا الملائكة﴾ . وأما من وصفهم بالتناسل فقد أشرك سماعاً .

(مسألة) : وفي آثار أصحابنا : ان الملائكة لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يوصفون باللحم ، ولا بالدم ، ومن وصفهم بشيء من هذا فقد أخطأ في صفتهم والخطأ في صفتهم شرك . وأوجه الخطأ في صفات الله - عزَّ وجل - على وجهين : ان واجه اشرك ، وا تأول نافق . واما من وصفهم بالتأنيث فقد أشرك ؛ كما قلنا . فقد قال - عزَّ وجل - ﴿أَلربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة اناثاً وهم شاهدون﴾ (الآية) .

وأما الامور المذكورة من الأكل ، والشرب ، والبول ، والغائط ، واللحم ، والدم ، فلا أدري لأي شيء حصل الشرك لقائله ؛ كذا الَّا ان كان كما قدمنا قبل هذا في جبريل - عليه السلام - : من شك فيه انهُ آدمي ، أو غير آدمي ، فقد أشرك ؛ لانهُ رد على الله - عزَّ وجل - ، وقد سماه الله من الملائكة ، ومن سماه آدمياً ، أو نسبه الى الآدميين كان راداً على الله - عزَّ وجل - ، فان كان الشرك حصل لهُ من هذه الجملة فالله أعلـــم .

(مسألة) : وفي آثار أصحابنا : ومن قال ان الملائكة يموتون في الدنيا كما يموت البشر فهو كافر ؛ لأن الملائكة لا يموتون الَّا مع فناء الخلق . وأما من قال : لا يموتون مع فناء الخلق فهو مشرك .

وقال ابو يعقوب : واختلفوا في موتهم وخلقتهم ، فقال بعضهم : موتهم وحياتهم واحدة بقول لم يسبق بعضهم بعضاً في الوجود ، ولا يتأخر بعضهم عن بعض في الموت .

وقال آخرون : خلقتهم متفاوتة ، فأول خلق خلق منهم حملة العرش ، ثم من دونهم ، ثم أهل السماء السابعة ، ثم من دونهم ، ثم أهل سماء بعد سماء ، الى أصحاب العنان ، بعضهم يخلقون الى الآن ، ولم تكن خلقتهم موقوفة الى وقت . وقال ان من قال : سبحان الله ، وبحمده ، سبحان الله العظيم ، خلق من كلمته تلك ملك يستغفر الله لهُ الى يوم القيامة .

(مسألة) : وفي كتاب (السؤالات) : وهل يجوز لي أن أشك انهم يعصون الله ؟ قال : انهم ﴿لا يعصون الله﴾ (الآية) ومن قال يعصون أشرك .

وسأل بعض أصحابنا أبا العباس العماني عن هاروت وماروت غير ما ذكرنا . والله أعلم بما تؤول اليه مقالة هؤلاء .

(مسألة) : وقال في كتاب (السؤالات) : يجوز ان اشك انهم يتناسلون بلحم ودم . ونشك لعل خلقتهم واحدا بعد واحد ، وموتهم واحداً بعد واحد ، ونشك لعل فيهم نساء ، والصبيان ، والمجانين .

وأما من شك : انهم كلهم نساءٌ ، وأطفالٌ ، أو مجانين ؛ فقد أشرك . والله أعلـم بهـذا .

وفي آثار أصحابنا من قال : ان الملائكة ينامون فهو مشرك .

(مسألة) : وفي الأثر من قال : ان الملائكة كلهم ذكور ، واناث ، فقد اشرك . وهل يقال لهم : رجال ؟ قال : ذلك تثقيل عند بعض . وقال بعضهم : يجوز ذلك قال ـ الله تعالى ـ : ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ في بعض الأقوال انهم : الملائكة وسيأتي بيان هذه (الآية) في موضعه ـ ان شاء الله ـ .

ومن دعا للملائكة بالجنة ، او قال ثوابهم الجنة ، او استغفر لهم من العصيان كفر .

فيما ذكر في كتاب (السؤالات) عن بعض شيوخ أهل المغرب : قال : وعلى الملائكة ان يخافوا الله خوف اجلال ، ورجاء ، ورحمة ، وقيل خوف ملامة توقيف ، ومحاسبة .

(مسألة) : الملائكة توصف كما قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿أولي أجنحة

مثنى وثلاث ورباع﴾ . وزعم بعضهم : ان رسـول الله ﷺ وصفهم بالجوارح ، والأفواه ، والعواتق ، والأرجل ، فقالوا عن رسول الله ﷺ قال : «اذن لي أن أحدث عن ملك من الملائكة زاوية من زوايا العرش على كاهله ، ورجلاه في تخوم الأرض ، وقيل اسمه : رزوقيل ، وقال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿باسطوا أيديهم﴾ . في بعض التفسير انها الملائكة . وقيل : انها في المنافقين ، وقال تعالى : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ ، وقال بعضهم : انها النغمة ، والصوت . ووصفهم بالكلام في قوله : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ . وبالأفواه : قوله عليه السلام : «ان العبد اذا قام في الصلاة دنا الملك حتى يضع فاه على فيه ، يلتقي القرآن اذا قرأ» .

في بعض الأحاديث : انما بين شحمة اذن اسرافيل الى عاتقه مسيرة خمسمائة عام . والله اعلم بهذا كله .

(مسألة) : ومن جواب الشيخ مسعود بن هاشم بن غيلان : وفي الملائكة حيث انهم في الجنة ألهم أزواج وملك مثل بني آدم أم لا ؟

الجـــواب : فلا أعلم لهم أزواجاً بل هم مجبولون على الطاعة ؛ كما قال الله فيهم : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي لا يضعفون ، ولا يسأمون ، قد الهموا التسبيح كما الهموا النفس أي لا يسأمون .

الباب الرابع والعشرون

في هاروت وماروت وما قيل فيهما

ومن جواب الشيخ خميس بن سعيد الرستاقي - رحمه الله - : وما تفسير هاروت وماروت ؟ وما الذي كان من أمرهما ؟ وما معنى يعلمان الناس السحر ؟ وهل هو كما سمعناه من العامة : انهما ملكان وعصيا ، وانهما معذبان ، وما الصحيح من خبرهما ؟

الجـواب : ان الذي جاء في التفسير عن ابن عباس وغيره : ان الملائكة رأوا ما يصعد الى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة ، وذنوبهم الكثيرة ، وذلك في زمان النبي ادريس - عليه السلام - فعيروهم بذلك ؛ قالوا : هؤلاء الذين جعلهم الله في الارض ، واخترتهم فهم يعصونه ، فقال الله - تعالى - لهم : «لو انزلتكم الى الارض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لركبتم ما ارتكبوا» ، فقالوا : - سبحانك - «ما ينبغي لنا أن نعصيك» ، قال الله تعالى : «اختاروا ثلاثة » فاختاروا عرابا لعله عرائيل ، وهو هاروت ، وعرابا وهو ماروت ، فركب الله فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم ، واهبطهم الى الارض ، وأمرهم ان يحكموا بين الناس بالحق ، ونهاهم عن الشرك ، والقتل بغير حق ، والزنا وشرب الخمر ، فاحدهم لما وقعت الشهوة في قلبه ، استقال ربه ، وسأله ان يرفعه الى السماء ، فأقاله ، ورفعه ، فسجد أربعين سنة ، ثم رفع رأسه ، ولم يزل مطاطيا بعد ذلك رأسه ، حياءً من الله - عزَّ وجل - .

وأما هاروت وماروت فثبتا على ذلك ، وكانا يقضيان بين الناس بالنهار ، فاذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا الى السماء ، فما مر عليهما شهر ، حتى افتتنا بامرأة ، يقال لها : الزهرة وكانت من أجمل النساء ، فلما

رأياها تعلقت قلوبهما بها ، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ، ثم عادت في اليوم الثاني ، وفعلا مثل ذلك فأبت ، وقالت : لا أفعل حتى تسجدا للصنم ، وتقتلا النفس ، وتشربا الخمر ، فقالا : لا سبيل لهذه الأشياء ؛ قد نهانا الله عن ذلك ، ثم عاودت في اليوم الثالث فشربا الخمر ، وسكرا ، ووقعا بها ، وقتلا النفس ، فلما أمسيا همَّا بالصعود الى السماء فلم يقدرا ، وعلما ما حل بهما ، فقصدا ادريس - عليه السلام - وسألاه : ان يشفع لهما الى الله - عزَّ وجل - ففعل ذلك ادريس - عليه السلام - فخيرهما الله - تعالى - بين عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ؛ لما علما : انهُ ينقطع فهما يعذبان ببابل : وهي قرية من قرى العراق ، قيل انهما معلقان بشعورهما الى يوم القيامة . والله اعلم بذلك ، وهو بكل شيء عليم .

(مسألة) : من زيادات كتاب بيان الشرع : ولا يجوز لأحد أن يقول : ان احداً من الملائكة عصى الله ، وان هاروت وماروت لم يعصيا الله . وليس القول فيهما على ما تقوله العامة ، ولا يجوز ان يقال : انهما ارتكبا المعصية ؛ فان الملائكة منزهون عن ذلك ؛ لقول الله تعالى : ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ . وكذلك الأنبياء أيضاً لا يظن فيهم ظن السوء .

(مسألة) : جواب من الشيخ ابي سعيد : وقلت ما تقول في الملكين هاروت وماروت اللذين يعلمان الناس السحر يبرأ منهما أم لا يبرأ منهما ؟ أم كيف الوجه فيهما ؟ انهما كانا من الملائكة ، فالملائكة - عليهم السلام - في ولاية الله ، وطاعته ، وقد قال الله - عزَّ وجل - : ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدوٌ للكافرين﴾ . فمن عادى ملائكة الله ، فقد عادى الله - عزَّ وجل - .

وقد عرفنا في قول الشيخ ابي الحسن - رحمهُ الله - في قول الله تعالى : ﴿يعلمون الناس السحر﴾ انما اولئك الشياطين ، وما انزل على الملكين معناه : انهُ ما أنزل السحر على الملكين هاروت وماروت وما يعلمان من احد

أي ما يعلمان هما أحداً السحر ؛ وانما كانا يقولان السحر كذا وكذا ، فلا تكفر . أي فلا تفعل كذا فتكفر .

(**مسألة**) : وسئل الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي عن هاروت وماروت ، وما ذكره القوم فيهما من الاخبار : انهما كانا من الملائكة ، وانزلهما الله ببابل ، وزنيا بامرأة تسمى الزهرة ، قال فلو لم يكن من الخلاف لهم لدين الله الا هذا الاعتقاد في هذا الدين - اعتقدوهما انهما من الملائكة - لكان كافيا لهم حتى يكونوا في حكم الكفار معنى ، لأن الله تعالى حرم رمي المحصنات من المؤمنات والمؤمنين بالزنا ، حتى يأتوا باربعة شهداء من اهل العدل ، يشهدون انهم رأوا العورة تدخل في العورة ، وان لم يأتوا باربعة شهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . اي هم في حكمه كاذبون ولو كانوا في عمله صادقين .

والمعنى تحريم ذلك عليهم وانهم ان فعلوا فقد تعدوا حدوده . ومن يتعد حدود الله بفعل ما حرمه الله عليه فاولئك هم الظالمون . وقال تعالى : ﴿ الا لعنة الله على الكاذبين ﴾ . فكيف يصح هذا في ملائكة الله تعالى اذا كانا من ملائكته تعالى ؟ وان كانا لا من الملائكة فكيف يجوز هذا من اهل زماننا اليوم بغير دليل من القرآن العظيم ، ولا صح عن النبي ﷺ ؟ بل قال الله تعالى : ﴿ لو ارسلنا رسلا من الملائكة ﴾ ، ولم يقل : وقد ارسلنا اليكم رسلا من الملائكة ، وآيات القرآن التي في ذكرهما كلها في الظاهر لفظها تصرح بالمدح لهما ، والثناء عليهما ، والصحيح معنا من معاني التأويل للآيات فيهما انهما رجلان كانا كبيري بلد بابل ، وانزل الله عليهما علم العزائم من سحر محرم ، ومن مباح جائز ، وعلم خواص الحروف والاسماء ، وامرهما الله ان يعلما الناس ذلك ، ويبينا لهم المحرم من الحلال لهم ، من ذلك ومن الفعل بذلك ؛ ابتلاء من الله تعالى لهما كما ابتلى جميع من تعبده بعبادته من العباد ؛ فقال تعالى : ﴿ لنبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ وقال حاكيا عنهما : انهما يأمران بالطاعة لله ، وينهيان عن الكفر بالله ؛ ولذلك جازت القراءة بكسر اللام من ملكين ؛ ليدل على انهما من الانس . وانما جاءت بالفتح ايضا دلالة عن الاخبار عنهما في

افعالهما بذلك العلم افعال الروحانية ، من خرق العادات ، واخبارا عنهما بصفاء نفوسهما ، وطهارة قلوبهما ؛ فاكتفى بالدلالة على ذلك بتسميتهما ملكين باسم الملائكة . ولو كانا في الاصل من الملائكة لم تجز القراءة بكسر اللام ، وقد اتفقت العلماء القراء على جواز ذلك ، ولا يصح لهم ذلك الا ان يكونا معهم انهما من الانس . والدليل الثاني : قوله تعالى : ﴿ وما انزل على الملكين ﴾ فلو كانا من الملائكة ، لقال وما نزل به الملكان ، لانهما هما نزلا بذلك لا انزل عليهما . ولما قال انزل عليهما دل : على انهما من الانس . وغير هذا غير صحيح . وما التوفيق الا بالله .

(مسألة) : ومن (كتاب ركن الدين) فيما قالوه : في الملائكة - عليهم السلام - تقدم اولا ما وصف الله تعالى به ملائكته - عليهم السلام - ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وله من في السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ . وقال ايضا تعالى في صفاتهم : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول ﴾ (الآيات) . وقال ايضا تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ . وقال ايضا تعالى : ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ . وقال ايضا جل جلاله : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

وقد بين الله تعالى الفرق بينهم وبين الجن ، وانهم ليسوا من الجن ؛ بقوله تعالى مخاطبا للملائكة في دار الآخرة في الموقف : ﴿ أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ﴾ ثم ذكر جواب الملائكة - عليهم السلام - الذين يجيبون الله تعالى به : ﴿ قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ﴾ . فلو كانت الملائكة من الجن والجن منهم ، لم يكن لقولهم معنى ؛ بل كانوا يعبدون الجن نفيا لعبادتهم اياهم ، واذ قدمنا ما يجب تقديمه في هذا الفصل ، فنذكر ما يتعلق القوم به في بابهم .

فاول ذلك في الرد على الحشوية المفترية على الله ، وعلى ملائكته ،

ورسله - عليهم السلام - في زعمهم : ان ابليس كان من الملائكة فكفر ، واستكبر ، وعصى ، وخرج من بينهم ، فاهبط الى الارض . وتعلقوا في ذلك بقوله تعالى : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ﴾ قالوا : فلما استثنى ابليس من جملتهم ، دل على انه منهم ، او من جملتهم .

الجـواب : انه لا خلاف في كفر ابليس ؛ وانما الخلاف في كونه من الملائكة . والذي يدل على انه ليس منهم ؛ قوله تعالى : ﴿ الا ابليس كان من الجن ﴾ فصرح بانه من الجن ، والجن ليس من الملائكة على ما بيناه ؛ فابليس ليس من الملائكة . وبعد فان قوله : ﴿ الا ابليس كان من الجن ﴾ ينبيء عن انه لم يكن منهم ؛ حيث بين كونه من الجن ؛ لسبب عصيانه ، وقرن بكفره وفسقه ، كيلا يؤدي ذلك الى دفع ما اخبر به ، من طهارة الملائكة ، وبعدهم من العصيان والتمرد .

فاما تعلقهم بقوله : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ﴾ فليس يوجب كونه منهم بذلك ، لانه ليس في اخباره انه آمر الملائكة بالسجود ، وما ينفي كونهم غير مأمورين ؛ فان المتروك لا يجب ان يكون خلاف المذكور ، بل يجوز ان يكون خارجا ؛ وانما هو موقوف على الدليل ؛ الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ وغير الرسل داخل في هذا الحكم ؛ قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ﴾ ويجب على غير المؤمنين ان يطيعوه ويطيعوا رسوله على انا نبين جواز الاستثناء من غير الجنس المذكور في اللغة ؛ فاذا كان كذلك ، ودل الدليل على انه ليس من جملتهم ، سقط التعلق بالآية .

والذي يدل على جواز استثناء الشيء من غير الجنس المذكور : قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ﴾ والسلام ليس من اللغو ، وقوله تعالى حاكيا عن ابراهيم - عليه السلام - : ﴿ فانهم عدو لي الا رب العالمين ﴾ فاستثنى ربه من جملة اعدائه ، وليس الله تعالى من جنس خلقه ، وقد جاء في غير القرآن وذلك كثير . قال الشاعر :

وبلدة ليس فيها انيس الا اليعافير والا العيس

واليعافير والعيس ليسا من جملة الانيس . وقال النابغة :

وقفت فيها اصيلا كي اسائلها اعيت جوابا وما بالربع من احد
الا اواري لايا ما ابينها والنوى كالحوض بالمظلومة الجلد

والاواري ليس من جملة الاحد ، وهذا ظاهر شائع في اللغة . واذا كان كذلك سقط تعلقهم بالاستثناء ، وفي سقوط ذلك سقوط تعلقهم بالآية .

ومن ذلك ما زعموا في شأن هاروت وماروت فادعوا انهما ملكان من الملائكة وانهما اطلعا الى اهل الارض فلما نظرا الى ما يصنع اهل الارض من المعاصي انكرا ذلك ، واكبراه ، ودعوا على اهل الارض ، فاوحى الله اليهما اني لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم من الشهوات لعصيتماني ، فقالا يا رب لو ابتليتنا لم نعصك ، فجربا فاهبطهما الله تعالى الى الارض ، وابتلاهما بالشهوات التي ابتلى بها بني آدم ، فمكثا في الأرض ، وامر الله الكوكب الذي يقال له الزهرة في صورة امرأة ، والملك في صورة رجل ، ثم امرت الزهرة فتشوقت لهما ، واتخذت منزلا ، واظهرت انها تدعو الى الفاحشة ، ونصب الملك نفسه في منزلها في امثال صنم ، واقبلا الى منزلها ، ودعواها الى الفاحشة ، فابت عليهما الا ان يشربا الخمر ، فتأبيا ساعة ، وقالا : لا نشرب الخمر ثم غلبت الشهوة عليهما فشربا ، ثم دعواها الى ذلك ، فقال : بقيت خصلة لست امكنكما من نفسي ، حتى تفعلاها ، قالا وما هي : فقالت تسجدان لهذا الصنم ، فقالا : لا نشرك بالله ، ثم غلبت الشهوة عليهما فقالا نفعل ثم نستغفر فسجدا للصنم وارتفعت الزهرة وملكها الى موضعها من السماء ، واقبلا عليهما يوبخانهما ، ويشتمانهما ، ويقولان اصابكما هذا بتعييركما بني آدم .

وقيل في غير هذه الرواية : ان المرأة كانت فاجرة من اهل الارض وانهما واقعاها بعد ان شربا الخمر ، وقتلا النفس ، وسجدا للصنم ، وعلماها الاسم الذي به يعرجان الى السماء ، فتكلمت وعرجت الى السماء ، وكان

اسمها يبدحت ، فمسخت الزهرة ، ثم ان الله تعالى عرفهما ما صنعا ، وقبيح ما فيه وقعا ، ثم خيرهما بين عذاب الدنيا ، وعذاب الاخرة آجلا ، وبين عذاب النار عاجلا ، فاختارا عذاب الدنيا عاجلا فجعلهما ببابل منكوسين في بئر الى يوم القيامة . وهما يعلمان الناس السحر ويدعوان اليه من ليس يراهما الا من جاء لسحر خاصة . وتعلقوا في ذلك بقوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ الى آخر (الآية) .

الجـواب : انه لا تعلق لهم في الظاهر ، وذلك لانه ؛ ليس في القرآن مما ذكروه وما يدل ويشير الى هذه القصة . وليس فيه اخبار عن دينهما ، ولا ما يدل عليه من توبيخ ، او تعذيب ، او توبة ، او استغفار ؛ على ان ما حكوه عنهما يبطل ما وصف الله به ملائكته من ائتمارهم لأمره ، وتركهم عصيانه ، وانهم دائمون على ذلك لا يفترون ، ولا يسأمون .

وبعد فان قولهم : انما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الاخرة غير صحيح ؛ لأن الاولى ان يخيرا بين التوبة وبين العذاب . والله تعالى خير بينهما من اشرك طول عمره ، ونابذ انبياءه بجهده . على انه لا يجوز ان لا تقبل توبة المذنب ، وان لا يبعث عليه ويدعو اليه . ما دام المذنب مكلفا اذ ترك قبول توبته يوجب التكليف سفها على ما بيناه في موضعه .

ومن اعجب الامور زعمهم انهما يعلمان السحر في حالة كونهما معذبين ، ويدعوان اليه وهما معاقبان ، ثم زعمهم : انه لا يراهما الا من جاء للسحر خاصة . واي حجة على ذلك ؟ ولم كان الذي يجيء للسحر يراهما وهو فساد ؟ والذي يجيء لغير ذلك لا يراهما وهو صلاح ؟ وامثال هذا الكلام قول من لا برهان له ، ولا تعلق لهم في قوله : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ ؛ لأن التعليم قد يكون على وجه البيان . الا ترى ان رجلا لو علم آخر كيفية اللواطة والسرقة مع نهيه اياه عن ذلك لم يكن ذلك مذموما ، ولا عد ذلك منه ذنبا . ويدل على انه كان منهما على هذا السبيل قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ فهذا تصريح

بنهييهما عما يعلمانه من ذلك . والنهي مع التعليم لا يكون الا بأن يكون التعليم على سبيل البيان . واذا كان كذلك سقط تعلقهم (بالآية) .

والذي يدل على ان التعليم على سبيل البيان حسن غير قبيح ، هو ان العلم بالقبيح كالعلم بالحسن في انه حسن . ولن يتم التكليف الا بهذين العلمين ؛ لأن من لا يعرف الشر لا يمكنه ان يتحرز منه على الوجه الذي كلف ؛ ولذلك عرفنا الله بعقولنا ، وبادلة السمع القبيح والحسن ؛ قال الله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي : طريق الخير والشر ، واذا كان العلم بها حسنا غير قبيح كان التعليم ايضا على ذلك الوجه حسنا . واذا كان كذلك صح ان التعليم على هذا الوجه حسن غير قبيح .

واما تأويل (الآية) فيحتمل : وجوها احدها : انه قرأ الحسن ـ رحمه الله ـ ملكين بكسر اللام . . وكانا علجين يعلمان الناس السحر ، وعلى هذا الوجه لا تعلق فيه بحال .

وثانيها : ما ذهب اليه بعض اهل التفسير : انهما كانا يعلمان الناس السحر على وجه البيان . وذلك ان السحرة كثرت في ذلك الزمان . وذلك انهم كانوا يزعمون انهم يأتون بمثل ما أتت به الانبياء ـ عليهم السلام ـ من المعجزات ، وان معجزاتهم من جنس ما يتعاطونه من السحر ، وان ما أوتي سليمان من جنس ذلك . فانزل الله تعالى ملكين يعرفان الناس كيفية مخاريفهم ، ويكشفان عن تموههم كي لا يغتر بذلك مغتر ؛ وليبين للناس كذبهم ، وقد بينا ان تعليمهما للناس كان على ذلك الوجه ؛ فان التعليم على ذلك الوجه حسن غير قبيح لا يلزم فيه لائمة .

فان قيل كيف جاز انزال الملكين مع قوله تعالى : ﴿ ولو انزلنا ملكا لقضي الأمر ﴾ (الآية) . قيل له يجوز ان يكونا انزلا على صورة رجلين من البشر ؛ فلا يوجب ما ذكرت كما قال تعالى : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ﴾ ويجوز ان يكون ذلك في ايام سليمان ـ عليه السلام ـ حيث الجن والشياطين فيه ظاهرة ؛ فكان انزال الملك في ذلك الوقت لا يوجب ما ذكرت ،

وجاز ايضا انه كان انزلهما على الجن دون الانس ، ليعرف الجن ما كانت الشياطين تلبس عليهم من السحر . وهذا اقرب الوجوه .

فان قيل كيف يجوز انزال الملكين في صورة رجلين ؟ مع قوله تعالى : ﴿ لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ . قيل له ان التلبيس في ذلك انما يقع متى ما انزل ملكا في صورة رجل ، وبعثه رسولا فمعنى (الآية) : انه لو انزلته في صورته لارتفع الانظار ، ولو انزلته في صورة غيره وهو صورة رجل من البشر ؛ لكان يقع من التلبيس ما يقع في الرسول من البشر ؛ اذ ليس يستدل بصورته على كونه رسولا . فالتلبيس انما يقع متى ما ادعى الملك انه ملك ، او رسول ، وهو في صورة الانس .

فاما معنى ما ورد لتبيين امر لم يقع هناك تبيين . الا ترى ان جبريل عليه السلام لما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم على صورة دحية الكلبي ورآه اصحابه لم يقع هناك تبيين ، لانه لم يدع انه رسول او ملك بل سأله عن مسائل كذلك هذا .

فاما قوله تعالى : ﴿ يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ يحتمل لوجوه : احدها من جهة الديانة ، وثانيها من وجه الجبر والاكراه ، وثالثها بالحكم ، ورابعها بالتمويه والاحتيال . ومعلوم ان تعليمهما لو لم يعلم منهما لم يكن التفريق بينهما على سبيل الأيجاب ، وعلى سبيل الجبر والاكراه ، ولا على سبيل الحكم . واذا بطلت هذه الوجوه وجب انه كان على سبيل التمويه والاحتيال ، وعلى سبيل الديانة ، وهذا اصح الوجوه . وذلك لأنه ؛ اذا كانت الديانة توجب ذلك ، كان عبارة عن الكفر الموجب للتفريق بينهما على سبيل الفساخة ؛ فان المشركين كانوا يقولون للنبي - عليه السلام - انه يفرق بين المرء وزوجه ، والاب وابنه ، من حيث كان يدعوهم الى الاسلام . فكان كل من اسلم تبين به امرأته من جهة الديانة . واذا كان لا يجوزان تكون المشركة تحت المسلم فقيل : انه يفرق بين المرء وزوجه ، والدليل على ان المراد في هذه (الآية) هذا الوجه دون غيره .

ان السحر ليس بمقصور على التفريق بينهما اذ هو واقع بزعمهم ، وزعم خصومهم على اشياء كثيرة ، فلما جعل ذلك عبارة عن السحر وقوله تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ كأنه قال يتعلمون منهما السحر فلما جعل ذلك عبارة عنه ، لم يكن السحر مقصورا عليه ، وجب ان يكون عبارة عنه من جهة كونه كفرا موجبا للتفريق بين الزوجين من جهة الديانة ، وهذا ظاهر فسقط التعلق بذلك .

وثانيها : هو ان يكون قوله تعالى : ﴿ وما انزل على الملكين ﴾ عطفا على قوله ملك سليمان اي : افتروا على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين ، ويجوز ان يكون ما في قوله تعالى : ﴿ وما انزل على الملكين ﴾ معطوفا على قوله ﴿ وما كفر سليمان ﴾ كأنه قال : لم يكفر سليمان ولم ينزل على الملكين ، وما فيهما حجة ؛ وذلك ان السحرة كانت تضيف السحر الى سليمان . وتزعم انه ما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وانهما يعلمان الناس السحر مثل ما يزعمه هؤلاء الحشوية ، فرد الله تعالى عليهم ، وبين ان سليمان لم يكفر ، وان السحر عليهما لم ينزل ، فيكون قوله في هذين الوجهين ﴿ وما يعلمان من احد ﴾ ما للجحد ايضا لا يعلمان احدا بل ينهيان عن ذلك اشد النهي .

واما قوله تعالى : ﴿حتى يقولا انما نحن فتنة﴾ فمعناه انهما ينهيان عن ذلك ولا يعلمان احدا منه شيئا ؛ حتى يقولا انما نحن فتنة أي : ابتلاء وامتحان ؛ فلا تكفر ، وهذا نحو قولك ما امرت فلانا بكذا ، حتى قلت له ان فعلت كذا وكذا نالك كذا اي لم آمره به ، بل نهيته عنه وحذرته ؛ حتى قلت له ان فعلت كذا نالك كذا وكذا .

واما قوله تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ فليس في ذلك بيان ما يتعلمون ؛ لانه يجوز ان يكون الاسلام المفرق بينهما على ما بيناه ؛ فيكون معنى الآية : ان السحر لم ينزل على الملكين ، وانهما لم يعلما احدا ذلك ، بل نهيا عنه بابلغ النهي حتى حذرا منه ، وحذرا من الكفر

فيتعلمون منهما الاسلام المفرق بين الزوجين .

وهذا وجه ظاهر ؛ لأنه لا يجوز ان ينزل الله السحر ، ولا يجوز ان يعلم الملك السحر الا ان يكون ذلك على وجه البيان ، على ما بيناه فيما قبل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وما جعلنا أصحاب النار الّا ملائكة﴾ (الآية) قالوا : فدل على ان الملائكة يعذبون لان أصحاب النار انما يكون من يعذب فيها ؛ كما قال تعالى : ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

الجـواب : الظاهر لا تعلق فيه ؛ لأن قول القائل : فلان صاحب كذا لا يفيد انه يعذب به ؛ وانما يفيد في الظاهر ؛ انه مالكه ، كما يقال صاحب الدار ، وصاحب الدابة . وان استعمل في غير ذلك فهو على سبيل المجاز . والظاهر والحقيقة ما قلناه . ولم يعرف بقوله : اولئك اصحاب النار انهم معذبون للفظ مفردا ؛ وانما عرفناه بما اقترن به من قوله : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ .

وأما معناها فان قول القائل : فلان صاحب كذا يستعمل على وجوه : احدها ان يقال : صاحب الدار اي مالكها ، وصاحب تجارة اذا كان مشتغلا بها ، وصاحب فقه ، وصاحب نحو اذا كان عارفا به ، وصاحب صيد ولهو اذا كان مقبلا عليه مستعملا له ، وصاحب الديوان وصاحب القضاء اذا كان واليا عليه . فقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة ﴾ اراد به خزنتها والقوام عليها ؛ يدل على ذلك قوله تعالى قبل ذلك : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ يريد في النار فهذا معنى التولية وذلك يوجب سقوط تعلقهم . (بالآية) .

فصـــل : ومنه فيما وصف الله تعالى به ملائكته - عليهم السلام - فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وله من في السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ . وقال ايضا تعالى في صفاتهم : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول ﴾ (الآيات) وقال ايضا تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ . وقال ايضا تعالى : ﴿ والذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ .

وقال ايضا - جل جلاله - : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وقد بين الله تعالى الفرق بينهم وبين الجن وانهم ليسوا من الجن بقوله تعالى - مخاطبا للملائكة في دار الاخرة في الموقف - : ﴿ أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ﴾ ثم ذكر جواب الملائكة - عليهم السلام - الذين يجيبون الله تعالى به : ﴿ قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ﴾ فلو كانت الملائكة من الجن ، والجن منهم ، لم يكن لقولهم بل كانوا يعبدون الجن نفيا لعبادتهم اياهم .

الباب الخامس والعشرون

في القول في الملائكة والانس أيهم أفضل

ومن كتب بعض أهل المغرب : واختلفوا في الملائكة ، أيهم أفضل هم أم المؤمنون من بني آدم ؟

قال بعضهم : الملائكة أفضل من بني آدم ؛ لقول الله - عزَّ وجل - ﴿عباد مكرمون﴾ ، ولقوله : ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ (الآية) ولقول نوح - عليه السلام - ﴿ولا أقول اني ملك﴾ ولقول رسول الله ﷺ : «ولا أقول لكم اني ملك» ولقول النسوة : ﴿ما هذا بشراً ان هذا الَّا ملك كريم﴾ . فلما وقع التشبيه والتمثيل اليهم ضم لهم التفضيل .

وقال بعضهم : المؤمنون من بني آدم افضل من الملائكة . واستدلوا بقول الله - عزَّ وجل - : ﴿نحن أولياءكم في الحيوٰة الدنيا وفي الآخرة﴾ يريدون انهم خدمهم ولقول رسول الله ﷺ فيما يروى عنهُ : «المؤمن من بني آدم افضل عند الله من جميع الملائكة» وحكي عن ابي حرر . قال : [المسلم عند الله افضل من الملك] . وقد قال بعضهم شعراً : -

حرمة المسلم فاقت حرمة البيت الحرام
ولهُ الاغرار في الدنيا وفي دار المقام
وهو أعلى عند مولاه من أملاك كرام

(مسألة) : ومن كتاب ركن الدين - تأليف ابي طاهر - : فيما تعلقوا بهِ في ان الأنبياء صلوات الله عليهم - أفضل من الملائكة - عليهم السلام - ؛ والذي

يدل علىٰ ان الملائكة عليهم السلام افضل منهم ؛ قول الله ـ تعالى ـ : ﴿لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ ؛ وانما نذكر ذلك اذا كان الثاني افضل من الأول ، الا ترى انهُ يقول القائل : اني لا أخافك ، ولا أخاف الأمير ، وانما يذكر الأمير ثانياً اذا كان افضل من المخاطب ، والاَّ لم يكن للكلام معنى ، والذي يدل على ذلك ايضاً : قوله ـ تعالى ـ حاكياً عن ابليس : ﴿ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة الاَّ ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ فلو لم يكن الملك افضل من آدم ؛ ما كان لدعائهم الى أكل الشجرة لكي يكونا ملكين معنى ولا فائدة .

والذي تعلقوا بهِ في كونهم افضل من الملائكة قوله تعالى : ﴿ان الله اصطفى آدم ونوحا﴾ (الآية) الى آخرها . قالوا والملائكة من جملة العالمين ، فيجب ان تكون الأنبياء المذكورون مصطفين على الملائكة ، واذا كانوا كذلك كانوا افضل منهم .

الجواب : انهُ اختلف في لفظ العالم فقيل : هي جماعات الناس ، وقيل انهُ يقع على جميع من يعقل ، فلما لم تدخل الملائكة في لفظ العالم لم يصح تعلقهم بذلك ، لان الاسم اذا ثبت كونهُ مقيداً لشيء ولم يقطع في غيره على انهُ المراد ؛ فالاصل انهُ ليس بمراد الاَّ بدليل ، على انهُ لو ثبت وقوع لفظة العالم على الملائكة ، لم يدل ظاهر الكلام على ان الأنبياء أفضل من الملائكة ؛ لأن اصطفاءه عليهم هو اختياره اياهم دونهم لرسالته ، وليس في اختيار رسول الله ﷺ من بين جماعة ؛ ما يدل على انهُ افضل من غيرهم ممن لم يرسل ؛ وانما عرفنا كون الرسل افضل من سائر الناس لا لارسال الله اياهم ؛ ولكن لدلائل آخر من الاجماع وغيره ، وبعد فلو وجب كون الرسول افضل ممن ارسل اليه لوجب كون الملائكة افضل من الأنبياء ، من حيث ارسلوا اليهم . واذا كان كذلك سقط التعلق بذلك .

(مسألة) : ومن كتاب احياء علوم الدين في وصف الملائكة : «فقال وقد اصلح الله بهم الأنبياء ، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ، ويلي درجتهم

الأنبياء ، فانهم في انفسهم اخيار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق ، وتتم بهم حكمته واعلاهم رتبة نبينا محمد ﷺ ؛ اذ أكمل بِهِ الدين ، وختم بِهِ النبيين .

قال غيره ولعله سليمان بن سعيد بن احمد الكندي العماني:فيما احسب معي - ان الأنبياء اشرف من الملائكة عليهم جميعاً - الصلاة والسلام - ؛ لأن الأنبياء قد ابتلوا بالشهوات ، ومخالفة الأهواء المضلة ، والشياطين من الانس والجن ، وبالدنيا وزخرفها ، وبارشاد من قدروا على ارشاده من الخليقة ، فصبروا على مخالفة ما أمرهم الله بمخالفته ، وابتلاهم بمفارقته ، فصاروا طول حياتهم في ايام تعبدهم الى انتهاء مماتهم ، يجاهدون أنفسهم الأمارة بالسوء ، واهويتهم المضلة ، وشياطينهم المغوية ، ودنياهم المزخرفة ، المتبخترة في خيال السرور ، المتدلية بحبال الغرور ، وبمعاندة من خالفهم ، وقاتلهم من الكفار والمشركين اشد المجاهدة ؛ لقول النبي - عليه السلام - : «رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر» وقوله ﷺ : «ليس الشديد من يصرع الرجل وانما الشديد من يصرع هواه فيقمعه» .

والملائكة بمعزل من هذه المحن ، والبلايا ، والفتن ؛ لانهم قد خلقت لهم عقول بلا شهوات ، ولم يبتلوا بها كما ابتلي بنوا آدم ، ولم يكن للشيطان عليهم سبيل ، ولا في الدنيا لهم مأرب ؛ وانما هم قابضون على عنان العبادة فقط ، لا تشغلهم مجاهدة هذه المهلكات ، ولا مكافحة المضلات ، واظن ظناً ان علمهم لا يكون الاَّ وحياً لا باجتهاد وتعلم ، وكذلك عقولهم لم تكن باكتساب وتحلم ؛ وانما هي جبلة وخلق ؛ لانهم مشغولون بالعبادة ، مجبولون عليها ، وليست معهم كتب ؛ فيتداولونها ولا مدارس فينتهون اليها ، ولا معالمة فيستقون منهم ، والعلم يحتاج اليه المتعبد ، المأمور ، المنهي ؛ ليقف على حقيقة ما أمر بِهِ ، وما نهي عنه ؛ وليعرف من امره ونهاه ؛ وليعرف نفسه وربه .

وأما بنوا آدم فانهم لم تكن عقولهم ، وعلمهم ، الاَّ استدراراً واكتساباً ، شيئاً بعد شيء ، فمنها يزيد بالنقل ، ومنها بالعقل من بعضها بعض ، من

كثرة الممارسة والمجاهدة ، ولم يكن في بدء الأمر الاَّ قدراً يسيراً ، ومنهم من يستمد بنور ربه ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم﴾ ومنهم من يغترف من بحار علمه ، حتى منهم كان لهُ ملك يسدده ، ومنهم من دون ذلك على قدر اجتهاده ، ورزقه من ربه ، وتوفيقه لهُ ـ تبارك وتعالى ـ واين رتبة المبتلي الصابر من رتبة المعافى الشاكر ؟ فبينهما البون العظيم عند من انفتحت بصيرته . وينبئك عن ذلك انهم يكونون في الجنة ثواباً لأولياء الله ـ تعالى ـ لا مثابين ، وآخرون منهم عقاباً لاعدائهِ ليسوا بمعاقبين ؛ لقولهُ تعالى : ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ .

وقال في ضدهم : ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ ولعل الثواب ؛ انما يكون على قدر الصبر على ترك المناهي ، وعلى الصبر على البلايا ، اكثر من الثواب على امتثال الأوامر ؛ لما في ذلك من مخالفة النفس وهواها ، ما لا يكون في الآخر . وقد يكون ذلك النهي اثقل على النفس من الأمر . وناهيك من ذلك قوله تعالى : ﴿انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب﴾ مع (الآيات) التي وردت في فضل الصبر ، وجزيل ثوابه ؛ حيث ذكره في نيف وسبعين موضعاً . وفي كتابه كلها محمودة كذلك العقاب ؛ انما يكون على قدر الجرأة على المعاصي ، وارتكاب الكبائر اكثر مما يكون على ترك الأوامر : من الصلاة والصوم ، حتى قبول التوبة ؛ اذا صحت بجميع شروطها ، يكون من ذلك ارجى ؛ لأن حقوق الله تعالى اقرب الى الغفران عند التوبة الصحيحة ، وارجى الى العفو من الله تعالى ؛ فانظر الى شياطين الانس كم تراهم يصلون ، ويصومون ، ويحجون ويقرءون القرآن ، ويتعلمون العلم ، ويطالعون الكتب ، ويختلفون الى العلماء ، فلم ينفعهم ذلك ؛ حيث لم ينتهوا عما نهاهم الله عنهُ من قبيح السيآت ، وانتهاك المحارم والخطيئات ، وارتكاب الكبائر ، واصرارهم على الصغائر ، وكان ذلك اثقل على نفوسهم تركه واجتنابه ، وكانت الأوامر اخف على النفوس الأكثر منها . والأولياء والعلماء والصالحون اشبه بالأنبياء ، والرسل ، من الماء بالماء ، ومن التراب بالتراب ؛ لانهم لم يعلوهم الاَّ بدرجة النبوة التي ليست من فعلهم بل من اصطفاءِ الله

- تعالى - اياهم ، والله يختص برحمته من يشاء .

ومن ثم انهُ قيل : (ان العلماء ورثة الأنبياء) والوارث قريب من الموروث في هذا المعنى ؛ لانهم لم يخلفوا ديناراً ولا درهماً ؛ وانما خلفوا العلم فمن اخذ العلم بحقه ، وعمل بهِ ، واقتبس بنورهم ، واقتفى أثرهم ، فقد ورثهم ، وقد امره الله - تعالى - بذلك حيث قال : ﴿فبهداهم اقتده﴾ فقد بينا هذا واطلنا القول فيه من غير استخفاف منا بفضل الملائكة - عليهم السلام - ؛ حيث انهم : كرام بررة ، وقد اصطفاهم الله تعالى ، ووالاهم ، وشرفهم واجتباهم ، ولا نخطي من يقول : انهم : افضل من بني آدم ، ولا تزكية منا لأنفسنا ، ولا ترفع منا عليهم ؛ حيث انهم ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وفي موضع آخر قال : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ ، بل نقول انهم بجملتهم افضل منا كلهم ؛ قد اشتملتهم الطاعة لقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وما منا الاَّ لهُ مقام معلوم﴾ ، ولم يكن منا الاَّ نوادر ، وقليل ما هم ، واكثرنا العصاة اشر من البهائِم ، بل هم أضل سبيلاً . وقولنا قول المسلمين أهل الاستقامة في الدين . ونستغفر الله - تعالى - مما خالفنا فيه الحق والصواب .

(مسألة) : عن الشيخ حبيب بن سالم : وفيمن قال ان عيسى - عليه السلام - أفضل من محمد ﷺ .

الجواب : لا أقول فيه شيئاً ولا يبلغ فيه الى شيء . والله أعلـــم .

(مسألة) : سأل الشيخ ناصر بن ابي نبهان بعض أهل الخلاف عن الزيدية : هل يبرءون من ابي بكر وعمر وعثمان ؟ فقال لهُ : اما في الزمن القديم فان علماءهم العارفين يقدمون علياً . وأما الآن لما صنف القاضي محمد بن علي الشوكاني الزيدي قاضي صنعا كتابه المسمى : «ندب العبي عن ذم عرض اصحاب النبي» ، قدموا ابا بكر وسكتوا عن الباقين ، واما جهالهم فسكتوا عن السب ، والذم لهم . وقال غيره ان الزيدية : افترقت فرقتين فرقة بقت على مذهب الامام زيد وفرقة لحقت بالرفض والله اعلـــم .

البـاب السـادس والعشرون

في عدد الملائكة الحفظة على العبد وما يحفظون على العهد من الأعمال ، وفي شيء من صفتهم

من كتاب النور : قال الله تعالى : ﴿وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين﴾ قيل : لكل واحد من بني آدم عليه السلام ملكان عن يمينه ملك يكتب الحسنات ، وعن شماله ملك يكتب السيئات قلمهما لسانه ، ومدادهما ريقه ، ومجلسهما شاربه ، فالذي يكتب الحسنات على اليمين ، والآخر على الشمال ؛ فاذا عمل العبد حسنة كتبها الملك صاحب اليمين ولم يشرط على صاحب الشمال . واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال قف سبع ساعات ، لعله يستغفر ويتوب فاذا لم يستغفر ، ولم يتب من بعد سبع ساعات كتب واحدة .

وكلَ الله بكل عبد ملكين بالنهار ، وملكين بالليل يتعاقبان .

(مسألة) : ومن شرح قصيدة ابي نصر المغربي واختلفوا في عدد الحفظة قال بعضهم : اثنان كما قال ـ عزَّ وجل ـ : ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ ، فصاحب اليمين وصاحب الشمال . وقال بعضهم اربعة كل يوم وليلة ، والاثنان الأولان قعيد ، والثانيان اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، وقال بعضهم ستة بالليل وستة بالنهار ، وقال بعضهم لا يقصرون على عدد مرسوم ؛ قد يكثر العدد ويقل ، واستدلوا بقول رسول الله ﷺ ؛ وذلك ان رسول الله ﷺ : صلى بأصحابه وفيهم اعرابي يستمع القراءة فلما هووا الى الركوع ورفع قال سمع الله لمن حمده فقال الاعرابي ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فلما قضى عليه السلام صلاته ، قال ايكم صاحب الكلمة :

فقال الاعرابي ها أنا ذا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها ايهم يكتبها أولاً» .

وقال الغزالي وحكي عن رسول الله ﷺ : انه قال : «لكل مسلم مائة وستون ملكاً يحفظونهُ من الشياطين ولو نظرتم اليهم على رؤوس الشعاب والآكام» .

(مسألة) : واختلفوا فيما يكتبان عليه ؛ فحكي عن مجاهد : يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه ، وحكي عن عكرمة انهُ قال : لا يكتبان عليه الاَّ ما يؤجر بهِ ، أو يؤزر عليه . وروى مخالفونا عن رسول الله ﷺ : ان الله وكل بعبده الكافر ملكين يكتبان عمله ، فاذا مات قالا ربنا : قد مات فلان فاذن لنا ان نصعد الى السماء ، فيقول الله تعالى : ان سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فيقولان : ربنا فنقيم في الارض فيقول الله تعالى ان ارضي مملوءة من خلقي يسبحونني فيقولان ربنا فاين نكون فيقول الله ـ تعالى ـ قوما على قبره والعناه الى يوم القيامة .

وزعموا عن رسول الله ﷺ قال : «لسانك قلمها وريقك مدادها وانت تجري فيما لا يعنيك فلا تستحي من الله ولا منهما» ، وذكروا عن ابي امامة قال : قال النبي ﷺ : «كاتب الحسنات عن يمين الرجل ، وكاتب السيئات عن يسار الرجل . فكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، فاذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح ، أو يستغفر ، وذكروا عن الحسن قال : ان الملائكة يجتنبون الانسان على حالتين عند غائطه ، وعند جماعه . والله أعلـم .

(مسألة) : واختلفوا ما الذي يحفظ على بني آدم من أعمالهم قال بعضهم انما : تحفظ جميع أعمال العباد ظاهراً وباطناً ؛ لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وان عليكم لحافظين﴾ الى قوله : ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ ، فعم ولم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخص ، وقال بعضهم : لا علم لهم بغيب العباد ، ولا يعلم الغيب الاَّ الله ؛ لما روي من قول الله تعالى : «انتم الحفظة على اعمال عبادي وأنا الرقيب على ما في قلوبهم انتم لا تدرون ما اراد بهِ عبدي ، وانما اراد غيري ، ارجعوا واضربوا بهِ وجهه» ، وذكروا عن عائشة رضي الله عنها قالت : الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يضاعف تسعين ضعفاً فاذا كان يوم القيامة قال الله للعبد : ان لك عندي كنزاً لم يطلع عليه احد غيري : وهو الذكر الخفي .

مسألة) : ومن تأليف الشيخ ابي نبهان جاعد بن خميس الخروصي في وصف المولود فقال : حتى اذا كملت لهُ سبع سنين قرن الله بهِ الملك صاحب الشمال ، فاقعده على شماله يلهمه ، ويقويه ، ويؤيده ، ويحفظه . والكل من الناس الأحياء قد وكل بكل واحد منهم اثنان من الملائكة يحرسانه ، ويحفظانه ، ويسددانه ، ويمنعان عنه ويدفعان اذى كل مؤذ . هذان هما اللذان يكتبان الحسنات والسيئات على العباد . ومن العباد من كل متعبد على كل متعبد ، كم ؟ قال الله تعالى : ﴿وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ ، قيل من جميع الأحوال الظاهرات والباطنات ، وقيل الظواهر لا غير من الأقوال والأفعال ، وهذا هو الأصح معنا ، والأرجح في العقل ، انهُ لا يطلع على علم ما انطوت عليه الضمائر ، واختلجت بهِ الأفكار ، وشحنته الصدور ، واعتقدته القلوب ، وتحدثت بهِ النفوس ، وتصور في العقول الاَّ الله - تعالى - .

ومن اطلعه الله على ذلك بوحي - وقد يؤيد هذا ويؤكده - : ما روي عن النبي ﷺ انهُ قال : تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة ، وصيام ، وحج وعمرة ، وخلق حسن ، وصمت وذكر الله ، وتشيعه ملائكة السماوات حتى يقطع الحجب كلها الى الله - عزَّ وجل - ؛ فيقفون بين يديه يشهدون لهُ بالعمل الصالح المخلص لله تعالى ، فيقول الله تعالى : انتم على عمل عبدي ، وانا الرقيب على ما في قلبه . انهُ لم يردني واراد بهِ غيري ، فعليه لعنتي ، فتقول الملائكة عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقول السماوات عليه لعنة الله

ولعنتنا ، وتلعنه السبع السماوات ومن فيهنّ ، وهذا من أقوى الحجج ، وادل الدلائل ، وابين البيان ، على ان قول من يقول : ان الحفظة لا تعلم البواطن ، وانها لا تعلم غير الظاهر من اعمالهم اصح ولا شك عندنا ان ذلك من الغيب . ولا ريب انهُ لا يعلم الغيب الاَّ الله : كما قال - تعالى - : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الاَّ هو﴾ فصح معنا : ان الحفظة لها ما ظهر ، وعلى الله ولهُ ما بطن وظهر .

واذا صعدت الحفظة بعمل العبد الى السماء تلقى ذلك منهم ملائكة اخرى ، وهو معنى قول الله - تعالى - : ﴿اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الاَّ لديه رقيب عتيد﴾ ، ولا يثبت من ذلك الاَّ ما اراد الله اثباته بها قد ثبت في اللوح المحفوظ السابق بهِ القلم من الله ، ويمحو من ذلك ما يشاء ان يمحوه مما لا يثبته فيه . ولا يكتب المتلقيان اذا تقابلتا النسختان ، الاَّ ما ثبت عن الله في ام الكتاب ، وانظر الى فضل ذي الجلال والاكرام كيف اخترع الانام ، واكرم العباد هذا الاكرام الذي تفضل بهِ عليهم : ان وكل بهم الملائكة البررة الكرام ؛ يحفظونهم من شر كل ذي شر من جميع الأنام ، واسعفهم بالطاف ولطف منهُ بهذه الألاء التوام ،والمنن الكاملات العظام ، ولقد قال في محكم كتابه المقدس العزيز : ﴿لهُ معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ اي : بأمره وقيل : ذلك الحفظ من أمره . وهذه الآية قد قيل : انها خصت محمداً - عليه السلام - ، وقال : انها عامة لجميع الخلق الذين خصوا بذلك . والمعقبات يتعقابون بالليل ، والنهار ، يحفظون من قد وكلوا بحفظه . وفي (الرواية) عن النبي ﷺ انهُ قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون في صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بذلك منهم - كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون ، فهم يحفظونهم من أمره ، وبأمره من شر كل الطوارق الطارقات المرديات ما لم ينزل قضاؤه ، فاذا نزل القضاء بوقوع شيء من الأشياء المضرات بهِ ، وكانت هنالك وسائط شيء من الأسباب من شيء من المحدثات ؛ تنحت الحفظة عنهُ

في ذلك الحال ، مع قصد تلك الأسباب ؛ فتقع عليه تلك الأسباب ، فيصير ما قد قضى وقدر ان يصيبه رب الأرباب ، وما لهُ من الله من واق .

وقد وقع التفاوت بين أهل العلم في عدد الحفظة . وروي عن النبي ﷺ انهُ قال : ان لكل مسلم مائة وستين ملكا يحفظونه من الشياطين . لو نظرتم اليهم على رؤوس الشعاب والآكام . وقد كان البعض من أهل العلم يقولون : انهم يقلون ويكثرون ، وليس لهم عدد معلوم عليه يقصرون ، وبحديث جاءَ عن النبي ﷺ مروياً بهِ على ذلك يستدلون ؛ انهُ كان ذات يوم يصلي بأصحابه واعرابي يستمع القراءة فلما ركع النبي ﷺ ورفع رأسه من الركوع ، وقال سمع الله لمن حمده ، فسمع الاعرابي ذلك منهُ فقال : ربنا لك الحمد حمداً طيباً مباركاً فلما قضى النبي ﷺ صلاته ، قال ايكم صاحب الكلمة ؟ فقال الاعرابي : ها أنا ذا يا رسول الله فقال ـ عليه السلام ـ : والذي نفسي بيده لقد رأيت نيفاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها ايهم يكتبها أولاً ، وكل هذه الاقاويل ليس فيها شيء يعارض (الآية والرواية) ؛ اذ المعنى منها يخرج على معنى المطلق في العدد لا التقييد لعدد معلوم ؛ الاَّ ان قول من يقول بالاثنين غير داخل في هاتين (الآية ، والرواية) التي نص فيهما ذكر المعقبات ؛ لانهُ عار من التعاقب في الليل ، والنهار مصمم الى الاثنين لا غير ؛ ولا يخرج من معنى (الآية) التي نصت في الباسقات . وهي التي استشهد بها عند ذكر المتلقيين عن اليمين ، وعن الشمال قعيد ، فاستمع اليها فانا قد اوردناها لتعرفها .

وقد تحتمل هذه الآية تلك الأقوال التي مضت ؛ لانها ليست بنافية التعاقب ؛ ولأن المعنى عندنا في القعيد هاهنا يصلح للجمع ، كما انهُ يصلح للواحد ، والتثنية ، وليس في (الآية) دليل يمنع الجمع ، ولا التعاقب ، فصارت كل هذه الأقاويل المختلفة والآراء المتفاوتة غير خارجة من الكتاب ، ولا من الصواب ، وكلها لها اصول عليها تبتنى واليها تنتهي ؛ الاَّ ان الأقوال التي قد اثبتت التعاقب اصح ؛ لثبوت الحجة لها ، والدلائل من الكتاب

والسنة صراحاً . وقول من منع من التعاقب اشد ؛ لعدم الادلة التي تقطع بتصريح ذلك ، كذلك ، دون التعاقب فهذا الذي جرى في هذا من الكلام .

(مسألة) : ومن غيره من الأثر ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول الاَّ لديه رقيب عتيد ﴾ ، تكتب الأشياء كلها حتى قول الرجل : يا جارية ضعي الاناء ، ويا جارية اصنعي لي وضوءا ، ويا جارية ناوليني نعلي ، ناوليني ردائي ، وحتى صفير الرجل لدابته ؛ لتشرب ، وحتى ان هذا اسود وان هذا ابيض . وبلغنا ان الملكين - عليهما السلام - افرح بمحاسن العبد منهُ اذا تكلم ، وعمل الحسنات ، وانهما أشد حزناً منهُ بمساويه ، ويقولان : اللهمَّ وفقه وسدده ؛ حتى يملي علينا خيراً ويقال : ما خطا عبد خطوة قط الاَّ كتب لهُ حسنة ، او سيئة . والله أعلـــم .

(مسألة) : ومن جواب الشيخ الفقيه صالح بن سعيد النزوي : وهل يجوز ان توصف الملائكة الكرام عليهم السلام الذين يحضرون لقبض ارواح الكافر والذين هم خزنة جهنم - نعوذ بالله منها - بأنهم سود الوجوه .

الجواب : على ما سمعناه من الاثر : انهم يتصورون على صورة وحشة سود الوجوه ، ولم احفظ انهم يجوز وصفهم بسواد الوجوه على الاطلاق . والله أعلـــم .

(مسألة) : الصبحي : واذا احدٌ حدثته نفسه بأشياء وسواساً أيكتب عليه مثل هذا اذا كان حديثا غير جائز ؟ قال : اذا لم يحققه ولا اعتمد عليه ؛ فلا شيء عليه ولا لائمة ، وقيل ان حديث النفس من المنسوخ الذي عفا الله عنهُ . والله اعلـــم .

ومن ارجوزة الصايغي : -

قلت لـهُ مـلائـك الـرحمـان	من اي شيء خلقـوا افتـان
بـانهم قـد خلقـوا من نـور	قـد جاءَ في التفسـير والمأثـور
والناس من صلصال كـالفخار	والجن هم من مـارج من نار

الباب السابع والعشرون

في اشتقاق اسم النبوة وفي شيء من صفات الانبياء والرسل عليهم السلام

من كتب بعض اهل المغرب : من اصحابنا اختلف الناس : في اي شيء اشتقت النبوة ؟ قيل من الانباء وهو الاخبار انبأ ينبىء انباء فهو منبىء ومعنى النبي هو المخبر عن الله عز وجل ، المؤيد بالمعجزة الدالة على صدقه ، الظاهرة بالدلائل ، فهو النبىء بالهمزة . ومعنى المعجزة كل امر خارق للعادة يظهر على يدي مدعي النبوة ، زمان التكليف ، مقترنا بالتحدي من دعوة النبوة ، على جهة الابتداء ، متضمنا لتصديقه . فهذا مذهب من همز الياء وهو قول ابي الربيع ، واستدل بقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ عم يتساءلون عن النباء العظيم ﴾ اي الخبر قيل : انه القيامة . وقيل : للنبي ﷺ ، واحسب انه القرآن في بعض الأقوال ، قال الله تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ (الآية) . وقال :

الم تـأتيـك والانبـاء تـنـمـي ... بمـا لاقـت لـبـون بـني زيـاد

ويجمع على نبأ كحكيم وحكماء وعليم وعلماء وعلى انبياء كولي واولياء وصفي واصفياء ، وقال اخرون مشتق من نبا ينبو نبوة اذا ارتفع وقال : « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد » اي رفيع القدر .

(**مسألة**) : وفي كتاب ينسب الى ابي الربيع سليمان بن يخلف اعلم ان النبوة والرسالة صفات الانبياء والرسل ، وهما اضطرار ، حالتان في الانبياء والرسل كحلول الاستطاعة في المستطيع والزمانة في الزمن ؛ لانها لو كانت اكتسابا قال : لجاز على العباد ان يختاروه ، فمن اراد ان يكون نبيا كان نبيا ، ومن اراد ان يكون رسولا كان رسولا ، وقال وفي عجزهم ان يكونوا انبياء بارادتهم ، ورسلا بارادتهم ، كما يثبت ان النبوة ، والرسالة ليستا بأفعالهم ،

وهما فعل الله ليس للعباد فيه فعل . قال : وذكر الشيخ جوابا غير هذا : ان النبوة اضطرار ، والرسالة اكتساب . والله اعلم واحكم بالصواب .

واما قولهما:وتبليغ الرسالة بذلك اكتساب من الانبياء والرسل ، وقيل انها اكتساب ، فمن ذهب الى الرسالة اضطرار ذهب بها الى معنى الارسال من الله عز وجل ، ومن ذهب الى ان الرسالة اكتساب ، ذهب الى معنى التبليغ من الرسل ؛ فلأن الرسالة تنصرف على وجهين : على معنى الارسال من الله عز وجل ، الثاني : على معنى التبليغ من الرسل ، وقيل في النبوة ايضا : انها علامة في اجساد الانبياء - عليهم السلام - والله اعلم .

ويقال : لكل رسول من بني آدم نبي وليس لكل نبي رسول . وقال بعضهم : بل فيهم انبياء وهم رسل وانبياء من المرسلين . ولم يختلفوا في هذا . وقال بعضهم : هما جملتان على الناس معرفتهما كل واحدة منهما على حدتها ؛ واستدل هؤلاء بقول الله عز وجل : ﴿ قالوا آمنا بالله ﴾ الى قوله : ﴿ وما أوتي النبيون من ربهم ﴾ وهذا القول هو الصحيح عند اصحابنا ، وقال الكسائي : كل نبي مرسل ، وكل مرسل نبي ، وقال بعضهم : ما من رسول ارسل الى بني آدم الى قومه الا وقد ارسل الى الناس كافة ، والجن كافة ، وقال بعضهم : ليس برسول الا الى قومه ، وهود الى عاد فاهلكهم الله بالريح العقيم ، وصالح الى قومه ثمود فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، وكذلك كل نبي وامته ، وانما أهلك الله من كذبه ولم يؤمن به من ارسل اليه ، فهذا من كتاب ابي يعقوب .

(مسألة) : قال الله تعالى : ﴿ وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم من اهل القرى ﴾ استدل بعض العلماء بهذه (الآية) ان الله تعالى ما نبأ عبدا ولا امرأة ولا رجلا من اهل البادية ، وقال آخرون : ان الله انبأ لقمان الحكيم وهو عبد ، ونبأ يعقوب عليه السلام ، وبنيه وهم من اهل البدو ، وقال الله تعالى : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ وقيل انه اسم بلدة . والله اعلم ، وبعضهم يقول نبأ الله مريم بنت عمران ؛ واستدل بقوله : ﴿ فارسلنا اليها روحنا ﴾ (الآيات) . ونبأ سارة امرأة ابراهيم لقوله : ﴿ وامرأته قائمة

فضحكت فبشرناها باسحاق ﴾ ونبأ أم موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ لقوله : ﴿ وأوحينا الى ام موسى ﴾ (الآية) وعامة الفقهاء على ما ذكرنا اولا : ان الله تعالى ما نبأ عبدا ولا امرأة ولا رجلا من اهل البادية لقوله : ﴿ من اهل القرى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء اموالكم ﴾ في بعض اقوال اهل التفسير انهم : النساء والعبيد . ولا يجوز ان يتأمن الله على رسالته ووحيه من سماه سفيها ، هذا ما وجدت في الاثر . والله اعلم .

(**مسألة**) : نقلتها من كلام بعض اهل الخلاف : والفرق بين الرسول والنبي ان الرسول من الانبياء جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وانما امر أن يدعو الناس الى شريعة من قبله ، وقيل في موضع ان الرسول هو الذي يرسل الى قوم مشركين والنبي ان يبعث في قوم مسلمين يبين لهم شريعة نبيهم ، لئلا يختلفوا فيها أو اذا اختلفوا فيها .

ومن ارجوزة الشيخ سالم بن سعيد الصائغي

قلت لـه ما صفـة البرهـان ... الـذي رآه يـوسـف العـبـران
فـقـال لي عصـمـة ذي الآلاء ... لـه مـن الفـحـشـاء والخـنـاء
وقـيـل كـف مـا بـه ذراع ... فيـه كتـاب لـلذنـوب راعـوا
وقـال بعض قـد رأى يعقـوبـا ... عض عـلى ابهامـه غضـوبـا
يقول يا يـوسف لا تفعل كـذا ... لا تعص مولاك ودع عنك البذا
وقـال بعض هـاتف قـد هتفـا ... وقـال لا تفعل كفعـل من هفـا
وقـال بعض صنم قد كـانـا ... لهـا فغطتـه وما قـد بـانـا
قـال لهـا ذلـك مـن جمـاد ... خـلا من الضـر او الـسـداد
وانت منـه تستحي كيـف انـا ... لا استحي من خـالق ارشـدنـا
فـبـادر البـاب وولى هـاربـا ... من ان يكـون للمعاصي راكبـا
همت زليـخـا منـه بـالـقـرار ... ويـوسـف قـد هم بـالـفـرار
من دبـر قـدت لـه قميصـا ... وقـد رأى عن فعلهـا محيصـا
فسجنتـه بعـد مـا قـد كـانـا ... مـعـتـصـما بـربـه مـولانـا

وكان منه حين ما قد سجنا ... طب وانس للذي قد خزنا

الهمه خالقه تعبيرا ... الاحلام قد كان لها بصيرا

وكان ذاك سببا ان يخرجا ... من سجنه اعطاه ربه النجا

ما ضره ذاك اذا اطاعا ... خالقه ما دينه اضاعا

منزلة عالية قد نالا ... لما انقضى من سجنه ما طالا

ملكه خالقه رقابا ... عباده والملك فيه طابا

قلت له ما صفة السقاية ... قال انه قد جاء في الرواية

وهو الذي قد كان فيه يشرب ... ملكهم في غيره لا يرغب

وقال بعض انه مكيال ... من فضة كان به يكال

جعلها في رحلة ليأخذه ... في دينه فكان منه اخذه

وفي الذبيح عندنا اختلاف ... ما بين اهل العلم لا ائتلاف

في قول بعض انه اسحاق ... وقيل اسماعيل لا اتفاق

وهو الصواب عندنا واكثر ... الاقوال فيه هكذا قد يذكر

وقال لي ان عزيرا كانا ... من انبياء ربنا مولانا

ازال عنه ربه النبوة ... فيما عرفنا عن اولي المروة

اذ سأل الباري له عن القدر ... وكان قد خالفه فيما امر

وقال لي بان ذا القرنين ... كان نبيا ما به من مين

وقال بعض كان عبدا صالحا ... وطائعا لربه لا طالحا

عضده خالقه بالخضر ... مؤازرا كذا اتى في الاثر

البـاب الثـامن والعشرون

في ذكر نبينا محمد عليه افضل الصلاة والسلام انه ارسل الى الجن والانس

من كتب بعض اهل المغرب : والدليل على ان محمدا انه ارسل الى الثقلين : قول الله عز وجل : ﴿ يا معشر الجن والانس ﴾ وقول النفر الجنيين : ﴿ اجيبوا داعي الله وآمنوا به ﴾ وقول الله عز وجل : ﴿ يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ اي : من الانس كما قال : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ اي : من البحر المالح دون الحلو . ولكن لما شملهم الخطاب فيما مضى شملهم في غير ذلك . وقال غيلان :

عينـا مطحلبـة الارجـاء طـامـيـة   فيها الضفادع والحيتان تصطخب

فجعلهما يصطخبان جميعا والصخب انما يكون للضفادع وهو : كثرة الصوت والحيتان لا صخب لها وقيل المعنى : الرسل من بني آدم لا من الجن . ومن السنة قول النبي ﷺ : « بعثت الى الحمر والاسود » عن ابي عمر : والحمر الجن والاسود الانس . وقيل الحمر : العجم والاسود : العرب .

ومن كتاب السؤالات : كل نبي ارسل الى بني ادم والجن هل علينا معرفته ؟ . قال لا الا محمدا عليه السلام فقد اجتمعت الامة على انه ارسل الى الناس كافة والجن كافة ، اما الى الجن : فيقول الله عز وجل : ﴿ واذ صرفنا اليك نفرا من الجن ﴾ كما قدمنا قبل هذا وجدت في الاثر : ان رسول الله ﷺ خرج هو وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه خرجا ذات ليلة حتى اتيا وادي الجن ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود : اجلس انت ها هنا ولا تبرح

من مكانك وخط رسول الله ﷺ حوله خطا ، وامره لا يبرح ، ولا يفزع من الجن وقال : انهم سيأتيك منهم رجال ويفزعونك ، ويبرقون عليك اعينهم ، ولا يستطيون ان يخلصوا اليك ؛ فخط رسول الله ﷺ حوله قدر رمية الحذف . فانطلق رسول الله ﷺ الى الوادي فدعاهم وقرأ عليهم القرآن فلما حضروا قالوا انصتوا ، فبلغنا ـ والله اعلم ـ ان الله تبارك وتعالى ارسل ملائكة في تلك الليلة الى اطراف الارض الى منتحى البحر ، ومطلع الشمس ، ومغربها فلم يدعوا احدا من الجن الا طردوه فجمعوهم في ذلك الوادي ورسول الله ﷺ يراهم لا يخافهم ، فلما حضروا اذا لهم جلبة وكلام شديد ، وصوت ؛ حتى ظن رسول الله ﷺ ان الارض ستنصدع من جلبتهم واصواتهم ، فقال المسلمون منهم حين حضروا القرآن انصتوا فابى الفساق منهم ان ينصتوا ، فلما رأى المسلمون منهم ان القوم لا يسكتون ؛ اشتكوا الى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ اللهم اصرف افواههم كلهم ، فسكتوا عند ذلك ، ثم ان رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن ، حتى كادوا يكونوا عليه لبدا اي (جماعات) واحدها (لبدة) ومن هذا اشتقاق اللبود التي تفترش .

ووجدت في بعض الكتب كادوا يكونون عليه لبدا . اي (كادوا ان يركب بعضهم بعضا او يركبونه) الشك مني حرصا على استماع القرآن فقالوا : عند ذلك لرسول الله ﷺ لو انك مكثت كما مكثت في الأنس فقال رسول الله ﷺ : وانما أمرت ان ابلغكم ثم أوصاهم : « ان يمتنعوا من كل طعام وشراب يذكر اسم الله عليه » ، فقال لهم لا سبيل لكم على شيء حرمه الله على امتي ، فاطعمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة طعاما بان قال لهم : « كل روثة تقع لكم من دابة فانها تعود لكم علفا لدوابكم وابلكم ، لا ينقص منه شيء ، وكل عظم يقذفه بنوا آدم يعود لكم لحما لا ينتقص منه شيء وكل ما لم يذكر اسم الله عليه مما حرم الله على امتي ولا لكم عليه سبيل » فانطلق كل مسلم الى اخيه من الكفار ، والفساق ، يقولون : ﴿يا قومنا انا سمعنا كتابا﴾ (الآيات) كلها ثم انصرف رسول الله ﷺ الى عبدالله بن مسعود فدخل عليه الخطة فأيقظه ثم انه وضع رأسه في حجر عبدالله بن مسعود ؛ وكان سهر تلك

الليلة ، فبينما هو كذلك اذ جاءته الملائكة امثال النجب يطرن باجنحتهن عليهن لباس البيض حتى دخلوا الخطة فقال بعضهم اضربوا لهذا الرجل مثلا ، فاقبل بعضهم لبعض يردد الى صاحبه ، بل انت فاضرب ، فقال جبريل عليه السلام : انا اضرب له مثلا ان هذا الرجل يرانا بقلبه ، ولا يرانا بعينه ، فعينه قد ثقلت من النعاس ، وقلبه مستيقظ ، وان مثل هذا العبد كمثل سيد بنى دارا ، فاحسن بناءها ثم شرفها فلم يأل ان يستجيدها ما استطاع ، ويزينها بكل شيء من الزينة ، والوان الثياب والازواج ، والخدم ، والغلمان ، والطعام ، والشراب ، فاحسن كل ذلك وصنع كل شيء من ذلك على حياله ، وعلى موضعه الذي ينبغي له ، ثم انه قال : لعبده انطلق فادع الي قومي ، فانطلق العبد الى قومه ، فقال لهم : ان سيدي يدعوكم الى وليمته فأجيبوه ، فمنهم من اتبعه واجاب دعوته ، ومنهم من ابى ولم يعرف له حقه فان مثل هذا العبد كذلك ، وان الله هو السيد ، وان داره الجنة ، وان عبده ارسله الى قومه هو هذا وقومه عباده ، ارسله اليهم ؛ ليدعوهم الى الجنة ، فمنهم من عرف له حقه فاجابه ، وهم المؤمنون اجابوا دعوة ربهم . ومنهم من ابى ولم يعرف له حقه ، وهم الكفار تولوا عنه ، والله غني حميد .

كتبت هذه القصة ليستروح اليها القارىء ويعلمها ، فان قال قائل : الجن يأكلون ويشربون؟ قيل له : الحديث كما سمعت وهو مستفاض في الأثر ، وفي حديث اخر ان عمر رضي الله عنه سأل المفقود الذي استهوته الجن . ما طعامهم ؟ قال الفول ، وما لم يذكر اسم الله عليه ، قال وما شرابهم ؟ قال الجدف ، وهو ما لم يغط ، وقيل : نبت معروف باليمن وفي بعض الاحاديث اذا اكل الانسان ولم يذكر اسم الله اكل معه الشيطان واذا شرب شرب معه ، واذا نام ولم يذكر اسم الله نام معه ، ووجدت في تفسير قول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿ وشاركهم في الأموال والاولاد ﴾ انها اموال الحرام واولاد الزنا والله اعلم غير ان بعض الشعراء قال :

ونـار قـد حـظأت بعيد وهن بـدار ما اريـد بها مقـامـا
سـوى ترحيـل راحلة وعـين اكـالبهـا مخـافـة ان تنـامـا

اتــوا نــاري فقلت منــون انتم — فقــالوا الجن قلت عمــوا ظلامــا
فقلت الى الـطعـام فقــال منهم — زعيم يحسـد النـاس الـطعـامـا
لقـد فضـلتم بـالاكـل فينـا — ولكن ذاك يـعقـبكـم سقـامـا

اعلم ان الجن بأسرها : في قول اكثر العلماء هم : ولد الجان وهو ابليس اللعين ، فهم كما حكى الله عنهم : ﴿ وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ الى اخر (الآية) وهم فرق شتى كما قال عز وجل ذلك : ﴿ كنا طرائق قددا ﴾ اي فرقا مختلفة . فمن تبع ابليس من ذريته ، ومن ذرية آدم عليه السلام ، فهم جميعا في النار ، ومن خالفه منهما فهم في الجنان ، قال فما ثوابهم في الجنة ؟ قيل له : الله أعلم ، غير اني : وجدت في كتب بعض المخالفين قال : الجن في الدنيا في الصحاري ، وفي الاخرة يثابون في صحارى الجنة والله اعلم ، وقال عز وجل : ﴿ سنفرغ لكم ايها الثقلان ﴾ اي : سنعمد لكم . وقيل سنحاسبكم والثقلان : الجن والانس سموا بذلك ؛ لانهم ثقلوا على وجه الارض . والله اعلم .

فصل : محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين من السنة قول رسول الله ﷺ « لا نبي بعدي ولا امة بعدكم » . وقوله : « ارسلت الى الناس كافة وختم بي النبيون » وقوله : « بعثت حين بعث الي اسرافيل » ومثل هذا كثير .

فان قال ليس بخاتم النبيين ما منزلته ؟ قيل له في كتب اهل المغرب : عن ابي خرز انه مشرك ، وكذلك في كتاب (الجهالات) ، واما الموجود في كتب مشائخ اهل الجبل : عن ابي يحيى يوسف بن زيد الادرفي وغيره قال : هو منافق لقول الله تعالى : ﴿ وخاتم النبيين ﴾ يقول في تأويله وخاتم النبيين سيجزى بعد وعند الأولين الواو هاهنا واو النسق ، وذكر ابن الحسين في كتابه : ان يزيد بن انيسة : رجلا يزعم ان من الاباضية قال : ان الله سيبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا ينسخ به شريعة محمد ﷺ والذي عندي والله أعلم ان هذا : متأول منافق بتأويله ؛ بمنزلة من قال في قول الله عز وجل : ﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ﴾ فقال في الدنيا واما في الاخرة فلا . وكسائر المتأولين والله اعلم . وقولنا في تبع كقول المسلمين .

وقال في كتاب (الجهالات) : وعلى الناس ان يعلموا ان محمداً رسول الله ﷺ ارسل الى الناس كافة ، والجان كافة ، وانه خاتم النبيين . وذكر في كتاب (الجهالات) : قال : وقد وقفت في بعض الكتب احسبه : من كتب سليمان بن حفص الفراء يقول : على الناس المعرفة بجملة النبيين ، والمعرفة بأن للنبيين اولا ، واخرا واولهم : آدم وآخرهم محمد ﷺ ، ومن غيره وعن بعض قومنا : نبوة آدم عليه السلام فبالكتاب الدال على انه أمر ، ونهي ، مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي اخر ؛ فهو بالوحي لا غير وكذا السنة ، والاجماع ، فانكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفرا ، قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي : اختلف العلماء في آدم انه نبي او انه ولي ؟ والشك مع الاختلاف لا يكون كفرا ، اذ لم يصح تصريح نبوته نصا في القرآن ، ولا قامت الحجة بالصحة : انه نبي من السنة ولا صح فيه اجماع ، وابلغ معجزة معجزة النبي صلى الله عليه وسلم : وهو القرآن العظيم اذ كل معجزة نبي لم تبق بعد موته . والله اعلم .

رجع : وعن النبي ﷺ ان اول نبي ارسل نوح . قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : هذا ليس يدل على ان آدم ليس بنبي لأن آدم لم يرسل الى قوم مشركين ، وانما جعل نبيا ورسولا لمن يلده ، ومختلف فيه والله اعلم .

ومن ارجوزة الصايغي :

سألته عن دعوة الرسول ... للجن مثل ما ليا في القول
قال نعم للثقلين ارسلا ... الجن والانس رسولا حصلا

الباب التاسع والعشرون

في ذكر الجن ومساكنهم وغير ذلك من صفاتهم وفي الدجال وما قيل فيه

حفظت : ان الله لما خلق الارض اسكنها الجن ، وارسل اليهم الرسل وانزل عليهم الشرائع فعملوا بها ما شاء الله ، ثم عصوا وبدلوا ما شاء الله ، ثم انزل عليهم الملائكة فطردوا منهم من طردوا ، وسبوا منهم من سبوا ، وكان عزازيل وهو ابليس فلذلك رقا بمراقي الملائكة وتأدب باداېهم ، وعبد الله مثل عبادتهم ، وقد قيل : انه عبدالله مائتي الف سنة . وقيل ثمانين الفا . وقيل بقي ثلاثمائة سنة يريد الدخول على آدم عليه السلام ، وأقام آدم خمسمائة سنة في الجنة . وقيل كان بين ولد آدم وولد الجان محبة ومودة ، ومخالطة في ظاهر امرهم ، بعد ما كان من ابليس في آدم ، حتى قتل قابيل اخاه توهمت الانس انه من ابناء الجان فانتقض الصلح واظهر الانس العداوة الطبيعية حتى شرد الانس الجن بكل حيلة من الدخاخين والعزائم ، الى ان بعث الله ادريس - عليه السلام - فصالح بينهم ، ثم تآلفوا الى ايام ابراهيم ، ثم انتقض الصلح بعمل المنجنيق الى ان بعث الله موسى . والله اعلم ولهذا اخبار طويلة .

(مسألة) : عن الشيخ احمد بن مفرج : واما الجن فهم سكان الاودية والخرابات ، ولهم ابل وغنم ويحلون ويظعنون واما البصور فقد جاء فيه الاختلاف : فبعض يثبته ، وبعض يبطله ، والله اعلم .

(مسألة) : وأما أم بلقيس : انها من الجن فلا صح ذلك . والله اعلم .

(مسألة) : ومنه وفي اولاد الشياطين اكثر القول انه يفرخون . والله اعلم .

(**مسألة**) : مسكن الجن الخرابات ، وفي اطراف الارض ، ومنهم مع بني آدم ، ووجدت انهم فوق الارض ، وتحتها ، وقيل : لهم المواشي وقيل سكونهم النيران ايضا .

(**مسألة**) : عن الشيخ حبيب بن سالم البوسعيدي (النزوي) : في سكان الارض الذين كانوا قبل آدم عليه السلام : اهم مسلمون ؟ ام من الكافرين ؟ وان كانوا مسلمين فما صفة عبادتهم ؟ وما صفة قيام الحجة عليهم وبلوغ الدعوة اليهم ؟ وهل ارسل الله فيهم رسلا ؟ وابليس من الجن ام من الملائكة ؟ واسم ابليس عربي او عجمي ؟ وهل كفر - جزاه الله - جهلا او عنادا ؟ وهل كان قبل ابليس كافر ام لا ؟ .

الجواب : ان سكان الارض قبل آدم عليه السلام هم الملائكة وهم مؤمنون لا يعصون الله طرفة عين . وقيل : الملائكة ، الجن يعصون الله بعد الحجة ، وبعد الانذار والاعذار . وقيل ان ابليس كان منهم ، وفي ابليس اختلاف : قول انه من الجن ، وقول انه من الملائكة ، والاصح انه من الجن ، وانه اب الجن : وهو الجان واسمه عزازيل عجمي لا ينصرف ، ولما كفر الجن وضلوا سلط الله عليهم الملائكة ، فاهلكوهم واسكنهم الارض بعد الجن الى آدم - عليه السلام - ، واسم ابليس لا ينصرف ، واشتقاقه من ابلس اذا افلس من الخير . ووزنه افعيل فلهذا الوزن لم ينصرف . والله اعلم .

(**مسألة**) : وعن مناظر ناظرني فقال : ما كان دين الله تبارك وتعالى قبل ان يخلق الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والارض ؛ الى ان خلق الله آدم عليه السلام فما جوابه ؟ قال ابو سعيد - رحمه الله - : معي ان دين الله لا يتغير ولا يتبدل وهو العدل بلا اختلاف فيه في حال من الاحوال ، ولا زمان من الازمنة . فان اجيب ان دين الله الاسلام كان جوابا كافيا ، وان قيل له : ان دين الله العدل كان مجزيا ، وان قيل له طاعته كان جوابا كافيا ؛ لأن دينه طاعته ، وطاعته دينه ، واسم ذلك على الاسلام . والله اعلم .

(**مسألة**) : ونسمع حديثا للعامة : ان للجن بلدانا مخفية فيها نخيل ،

واشجار ومواشي . هذا هذا صحيح عندكم ؟ ، فان كان صحيحا هل هذه النخيل التي لهم والاشجار والمواشي مثل نخيلنا واشجارنا ومواشينا ام هي مخالفة ؟ ، والمسلمون من الجن هل هم فرق على مثل فرق بني آدم من امة محمد ﷺ ؟ ام كلهم على فرقة واحدة ؟ ، وما الفرقة التي هم عليها ؟ ، وهل هم كانوا قبل نبينا محمد ﷺ على دين الانبياء الذين قبله ام لا ؟ . قال : وجدت في آثار المسلمين من اصحابنا رحمهم الله ؛ ان للجن المواشي والأموال ؛ وانهم على فرق شتى ، ومذاهب شتى ، واهوية مختلفة مثل بني آدم ، منهم القدرية ، ومنهم المرجئة ، والجبرية ، والرافضة وغير ذلك من الفرق ، ومنهم المؤمنون مثل بني آدم ، ومنهم من يسكن الجبال ، والاودية ، والغيران ، والخرابات ، والمواضع الخالية ، ومنهم من يسكن الارض ، ولعل بعضا بالهواء فيما قيل ،ولعلهم كانوا كذلك قبل مبعث النبي ﷺ ، لقوله تعالى حكاية من قولهم : ﴿ وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ﴾ وانهم مخاطبون مثل بني آدم ، لهم الثواب ، وعليهم العقاب . والله اعلم بتأويل كتابه وصحة اقاويل العلماء والفقهاء فيهم . والله اعلم .

(**مسألة**) : وسئل عن ربنا تبارك وتعالى : هل كان له خلق في الارض قبل آدم عليه السلام ؟ قال : الله اعلم بذلك ولا يتعرى ان يكون له خلق كما يشاء ، وان كنت تعني عن المتعبدين ، فقد قيل : انه كان له خلق من المتعبدين في الارض قبل آدم : وهو ولد الجان ، فقيل انهم كانوا من المتعبدين بالطاعة ، فعصوا وسفكوا الدماء ؛ فاهلكهم الله كلهم الا ابليس ـ لعنه الله ـ كان منهم ـ ؛ وهو ولد الجان فيما قيل من اولئك الخلق ؛ الذين كانوا في الارض قبل آدم ؛ ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ والجان خلقناه من قبل ﴾ ؛ فهذا يدل انه كان قبل آدم . وقلت ان كان له خلق قبل آدم فما اولئك الخلق ؟ . وقلت وهل لهم نبي او كان لهم دين ؟ قال اما الانبياء ؛ فلا نعلم ان الانبياء كانوا الا من ولد آدم ﷺ ، واما الدين ؛ فلا يجوز ان يتعبدوا بالطاعة والمعصية الا على اصل دين ، قلت ان كان لهم دين فما كان دينهم ؟ قال : معي : ان الدين عند الله الاسلام ، وكل من اطاع الله بدين ، فانما هو

دين الاسلام . ولا يطاع الله الا بالاسلام وسوى الدين من الاسلام فهو ضلال وباطل ؛ لقول الله : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين ﴾ . وقال : ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ﴾ فلم يعبد الله على الحقيقة الا بالاسلام من اول الدهر الى اخره .

(**مسألة**) : ويقال ان ابليس لعنه الله ابو الجن كما ان آدم ﷺ ابو البشر . وقيل ان ابا الجن غير ابليس لعنه الله . وابليس ليس من الملائكة ، لان الملائكة لا يعصون الله . والجن مكلفون كالانس ، ودليل تكليفهم في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والانس ﴾ ؛ وقوله : ﴿ سنفرغ لكم ايها الثقلان ﴾ وهما الجن والأنس . والشياطين هم كفرة الجن ، وحجة المسلمين على تكليفهم ؛ قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ اي : لأمرهم ان يعبدون . والله اعلم .

(**مسألة**) : اختلف في الجن يدخلون بني ادم ام لا ؟ فقال : من قال : محال ان يدخل الجسم في الجسم ؛ فيكون جسمان في حيز واحد ، فيسكن الجسمان في حيز واحد محال ، وقال آخرون : يجوز دخول الجن في الناس ؛ واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ يتخبطه الشيطان من المس ﴾ قلة علم منهم بالتأويل ، وقال آخرون : يجوز هذا ويجوز هذا الا انه لا اعلم بذلك . والله اعلم .

(**مسألة**) : وقيل : ان ابا الجن سأل الله : ان يرى ولا يرى ، وان يكون مسكنه تحت الثرى ، فجعل له ذلك ، فمن قال : ان الجن يرون فقد كذب القرآن ؛ لأن الله تعالى : يقول : ﴿ انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ . واما القاء الشياطين الاحاديث على الكهان ؛ فانه قيل قد كان ذلك قبل مبعث رسول الله ﷺ : كانت الشياطين تسترق السمع من السماء وتلقيه على الكهان فيزيد الكهان فيه كلاما من قبلهم . والله اعلم .

(**مسألة**) : قال ابو محمد : من قال : ان الجن يراهم بنوا آدم

ويكلمونهم ، وان السحرة ينقلبون حماما ، فان تاب والا بريء منه ، ولا يجوز لاحد ان يقول : ان احدا من بني آدم يرى ابليس ـ لعنه الله ـ لأن الله تعالى يقول : ﴿ انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ والله اعلم .

(مسألة) : ابو سعيد رحمه الله : ان ظواهر القول : ان الجن قد يكون منهم انهم يتصورون في صور الدواب ، والطير ، ويطيرون على هيئة الطير ، ويتشبهون في صورالانس . وكذلك بعض الانس ممن يضاف اليه السحر ممن يكون منهم نحو هذا ، وليس ذلك بمعدوم عندي من الانس ، كما ليس بمعدوم من الجن ، ولسنا نثبت ذلك في الحقيقة ، ولا ننفيه على الحقيقة ، الا ان يصح ذلك . والله اعلم .

(مسألة) : ومن جواب الشيخ صالح بن وضاح رحمه الله : ومن قال ان الجن يراهم بنو آدم ، ويكلمونهم ، او ان السحرة ينقلبوا حماما ـ من كتاب الضياء ـ ان تاب والا بريء منه . والله اعلم .

قال محمد بن علي :

ومعتقـد اني ارى الجن جهرة ... واسمع منهم نطقهم وكـلامـا
وان اولي السحر القبيح تصوروا ... وينقلبـوا جهـرا هنـاك حمـامـا
فنبـرأ منـه عنـد ذاك واننـا ... اذا لم يكن يجعله ذاك ظـلامـا

قال محمد بن علي بن عبدالباقي : ووجدت في بيان الشرع في قطعة النيات في القطعة السادسة : انه لا يبعد ذلك . والله اعلم . قال المؤلف : احسب ان المسألة الاولى التي من كتاب الضياء : عن الشيخ ابي محمد ، واما ما يوجد في كتاب بيان الشرع : عن ابي سعيد وعمن خطأ : من قال : ان الجن ، واما حاله ، قال فيعجبني الامساك عن هذه المسألة واغلاق امرها ، وترك التكليف ، وقولنا فيها قول المسلمين .

وعنه ايضا : ومن قال : ان الجن يتصورون في صورة الدواب فمعنى ، ان ظواهر الاخبار : ان الجن منهم ذلك يتشبهون بصورة الانس ، والدواب ، والطيور ، وانهم يطيرون على معنى الطير ، في معنى صورة الطيور . والله اعلم

بذلك ، ولا معنى يدل على عدم ذلك ؛ لأن الله يفعل ما يشاء في خلقه ، وبخلقه ، ولخلقه ، وكذلك قد يروى في بعض الانس ممن يضاف اليه السحر ، ممن يكون منه نحو هذا وليس ذلك بمعدوم من الجن ، ولا فيهم ، بل لسنا ممن يدعي ذلك على الحقيقة ، ولا ننفيه على الحقيقة ، الا ان ثبت ذلك معناه .

(مسألة) : وقيل ان الله تعالى خلق الشياطين في اقبح صورة ، واشنع هيئة ، فلو جعلهم الله ظاهرا لخافهم بنو آدم ، وتوحشوا منهم ؛ ولكن اخفاهم الله تعالى ؛ رحمة منه لبني آدم ورأفة منه لهم . فالمؤمنون لهم اعداء ظاهرون ، وباطنون . فالظاهرون : هم الكفار من بني آدم ، والباطنون : هم الشياطين مستورون . فامر الله المؤمنين بجهاد الكفار ظاهرا ، وجهاد الشياطين باطنا ؛ لينالوا فضل الجهاد الظاهر ، والباطن . والله اعلم .

(مسألة) : ولا يمكن قول من قال : ان الجن يعلمون الغيب ؛ لأن الله يقول : ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ .

واختلف في الشياطين فقيل : انهم يعلمون ما يحدث في قلوب بني آدم ، وليس ذلك بغيب ؛ لأن الله جعل على ذلك دليلا . وقيل : انهم : كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم يسترقون السمع من السماء ، ويلقونه الى الكهان ، فتزيد فيهم الكهان من قبلهم كلاما يجعلونه منهم كهانة وعلما وفراسة والله اعلم .

(مسألة) : ان قال قائل ان ابليس لعنه الله من خلقه ؟ قلنا له : ان الله خالق كل شيء ولا خالق غيره - سبحانه وتعالى - . فان قال : هو خير ام شر ؟ قلنا له ان كنت تعني بدن ابليس : فهو شر ؛ لأنه كثير الشر ، ومحب للشر ، وقيل : كان عبدا صالحا مؤمنا ، فانتقل من الايمان الى الكفر بسوء اختياره ، ولم ينتقل من خلقته الى غيرها ، وانه عبد الله تعالى قبل خلق آدم بثمانين الف سنة ، ثم كفر بسبب سجدة لآدم ، وتلك السجدة كانت طاعة لله تعالى ، فكفر وتولى واصلاه الله جهنم ، وساءت مصيرا ، وانما خلقه الله

كما خلق غيره من الخلق ؛ ليأمرهم بعبادته امرا اختياريا ؛ فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، فمن آمن فبفضل الله تعالى عليه ومنته وهدايته له وتوفيقه اياه اختار الايمان على الكفر . ومن كفر بسوء اختياره الكفر ، ومحبته له وشغله به ضل وكفر ، ولم يجبر احدا من خلقه على طاعة ولا معصية .

وقد امرنا الله بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، فقال : ﴿ قل اعوذ برب الناس ﴾ و﴿ برب الفلق ﴾ اي امتنع بالله ، ولذ به ، واستعن به ، فامر الله واجب علينا ان نقبله . والله اعلم .

(مسألة) : عن النبي ﷺ قال : « ذرية ابليس اكثر من ذرية آدم » وقال : « الملائكة اكثر من ذرية ابليس ـ لعنه الله ـ » . قال : « والدجال من ولد آدم وامه من ولد ابليس . وهم على دين اليهودية » والله اعلم .

(مسألة) : وعن الجن : هم من ولد ابليس او لهم اب سوى ابليس ؟ فمعنا : انهم من ولد ابليس فيما سمعنا . وانه قيل لا يولد ولد من ولد آدم الا ولد مثله من ولد ابليس . قال : من قال سبعة اجزاء ، وقال من قال عشرة اجزاء . ولعل اكثر القول يدور على عشرة اجزاء ، وكذلك قيل : لا يموت ذلك المولود الا مات اولئك الذين ولدوا لولادته من ولد ابليس . ولم نعلم انه معمر معه من ولده احدا الا هو . والابالسة والشياطين وليس فيهم احد مطيع على ما قيل ؛ وانما الصالحون من الجن .

(مسألة) : وسألت عن القول في المؤمنين من الجن : ألهم ثواب كثواب الآدميين ام لا ؟ الجواب : فنعم الثواب للمؤمنين من الجن والانس ، والعقاب للكافرين من الجن والانس . والله اعلم .

(مسألة) : من (كتاب الاشياخ) : وعن القول في الدجال احق ام باطل ؟ قال لم يجيء في كتاب الله له شيء يعرف به ، واما الاحاديث والروايات ؛ فقد جاءت به ، وذلك ما لم يتعبدنا الله فيه بشيء ؛ يجب علينا علمه ، والعمل به الا البراءة من كل ظالم سمعنا به ، ونحن دائنون لله بالبراءة من اهل تلك الصفة ، والدجال مما يسعنا جهله ؛ ان لا نعلم انه حق ام

باطل ؟ وقولنا فيه قول المسلمين . والدجال من الجبابرة الظالمين ان كان حقا . وهؤلاء الجبابرة والدجاجلة والمفارقة لهم واجبه . ولا يدري ما يأتي الله به في عصرنا ولا بعدنا ؛ وذلك الى الله ، والناس مختلفون فيهم ، فانكرهم قوم وثبتهم اخرون .

(مسألة) : ومن جواب الشيخ خميس بن سعيد رحمه الله تركت السؤال .

(الجواب) : جاء في التفسير وفي كتب اللغة ان الدجال رجل يهودي مموه ساحر يخرج في هذه الأمة . ويقال : انه من اشراط الساعة وهو كذاب جائر والله اعلم .

ومن ارجوزة الصايغي :

قلت له الدجال ممن اصله ... فقال من آدم يا ذا نسله

وامه اولدها ابليس ... تبا له اذ شأنه التلبيس

قلت له ما صفة الابالسة ... قال الشياطين اولو المدالسة

وليس فيهم احد مطيع ... وكلهم لدينه مضيع

والصالحون هم من الجن كذا ... في قول اهل العلم دع عنك البذا

والقول في حقيقة الدجال ... يعلمه الرحمان ذو الجلال

لانه ما نص في الكتاب ... عنه ولا في سنة الاواب

وواسع فيما اراه جهله ... ان لم يبن باطله وعدله

قلت له ابليس والجنود ... معمرون كلهم وجود

فقال لي هو الذي قد عمرا ... بنفسه وفي المعاصي دمرا

على العصاة كلهم سلطان ... له فع ما قلت يا سلطان

وام بلقيس بها اختلاف ... قيل من الجن روى الاسلاف

وقال بعض لا يصح ذاكا ... وهو الصحيح فاحذر الهلاكا

قلت نكاح الانس هل يصح ... بالجن والعكس وما اصح

الاقوال ان كان به اختلاف ... اجب كفاك الله ما تخاف

فقال لي في اكثر الاقوال … بحجره تفاوت الاشكال

وحكم ما صح من الغيبات … بينهم لا شك يا سرات

وقال بعض ان ذلك يمكن … وهو صحيح عندنا يا محسن

قلت له هل يحسن الدخول … للجن في الأنس وما تقول

فقال لي في ذلك اختلاف … اورده قدوتنا الاسلاف

في قول بعض انه محال … دخول جسم مثله يقال

وقال بعض ان ذاك جائز … وهو صواب والمطيع فائز

قلت له الجن يتناكحونا … كمثلنا ويتناسلونا

قال نعم ومنهم الكفار … والمسلمون جاءت الاثار

وقال لي هاك جوابا عني … عما أتى في اغنياء الجن

عليهم من الزكاة مثلما … على اغنياء الانس منا لزما

وهكذا في الحج والصلاة … والصوم فيما قيل والصلاة

حتى يصح عذرهم من بعض … ما قد ذكرنا من سقوط الفرض

والآدميون يرون الجنا … ام لا ما قال العلماء منا

فقال لا من قال هذا كذبا … القرآن في بحر الضلال عطبا

الباب الثلاثون

في الساحر وما قيل فيه وذكر ركوب الضباع

من كتاب بيان الشرع : وعن رجل سحر امرأة حتى وقع عليها فاخبرك : ان معاوية كتب في ذلك الى المدينة وجمع رأي ابن عباس وابن عمر على قتل الساحر وتترك المرأة ، ومما يوجد عن جابر بن زيد - رحمه الله - .

(مسألة) : وعن رجل : ادرك امرأته يصنع بها الضبع كما يصنع الرجل بامرأته . هل يرثها وترثه ؟ قال لا . قلت فهل يحل المقام معها ؟ قال لا . قال غيره الذي معنا انه اذا امكنت الضبع من نفسها فهي زانية ، لا تحل له ، ولا يرثها ، ولا ترثه ، اذ حرمت عليه .

(مسألة) : وعن رجل رأى امرأة على ضبع هل يحل له ان يتزوجها ؟ قال لا . قلت له فهل يحل له قتلها ؟ قال لا ارى ذلك . قال غيره الله اعلم لا يصح بركوبها الضبع ؛ انها ساحرة فتحرم عليه ، الا انه ان ترك ذلك تنزها فحسن وهو موضع تهمة ، ومن رأى امرأة يركبها الضبع فلا يحل دمها ، لانها ربما حملت عليه كرها .

(مسألة) : ومن جواب العلاء بن ابي حذيفة : وسألت عمن اظهر سحره هل يحل قتله ؟ فيحل دم من اشرك بالله وقتل بسحره .

(مسألة) : قال ابو سعيد يروي عن النبي ﷺ انه قال : « اقتلوا الساحر والساحرة » فاختلف اهل العلم في تفسير ذلك . فقال من قال : انه يقتل الساحر والساحرة اذا صح عليهما ممن كان من اهل الشرك ، او من غيرهم من اهل الاقرار ، وقال من قال : لا يقتل الا ان يكون من اهل الشرك ، وقال من قال : من اهل الشرك والمجوس .

(**مسألة**) : ومن خطأ من قال : ان ما في الدنيا سحر ما تكون حالته فلا اعلم معنى في كتاب ، ولا سنة ، ولا اجماع يدل على خبر يثبت السحر موجودا في وقت من الاوقات ، في شخص بعينه ، ولا في مجمل ، ولا يوجب نفي ذلك وعدمه ، والمتكلف لاثبات ذلك او لنفيه عندي متكلف ، لما لا يدركه بصحة دليل ؛ الا انه ان نفى انه لا سحر ؛ كان بذلك عندي مبطلا ؛ وان قال انه لا سحر اليوم كان بذلك مقلدا بما قال ، فان خطأ من قال : انه سحر فعندي انه مبتدىء بالتخطئة ؛ لما لا حجة له فيه ، وهو أولى بالتخطئة ، يوجب الخطأ بالتخطئة على ما هو اولى به منها . في ظهور معاني ثبوت ما يستدل به على ان السحر قد ثبت في الناس وما يثبت فيهم ؛ فلن يزول عنهم الا بدليل يوجب ذلك .

(**مسألة**) : ويقال ويقتل الساحر ، والساحرة مجوسا كانوا او مصلين ، او من اهل الكتاب : الساحر بين سحره ، قال : يقتل اذا قامت بينة عدل ، او اقر بامر لا شبهة فيه . انقضى الذي من كتاب بيان الشرع .

(**مسألة**) : الشيخ سليمان بن محمد بن مداد : وهل يصح عندك ان السحرة يأكلون لحوم البشر ، وانهم يركبون الضباع ، ويطيرون ، ويقبضون النفوس ، فيتركون مكان الشخص صورة من خشب ، فيكون في اعين الناس انه ميت . وهل سمعت انسانا تثق به انه رأى انسانا بعد موته في الحياة ؟ ام هذه الاحاديث ملفقة ، واباطيل منحرفة ؟ قال : اما السحر فحق . وأما ما ذكرته من اكل البشر وغصب الارواح ، والطيران ، وركوب الضباع فلا نسمع الا كما تسمعون ، ولا ندري أهل هذا صحيح ام لا ؟ وهي اخبار متواترة عنهم انهم : يركبون الضباع ويأكلون لحوم البشر ، ويغصبون الارواح في اعين الناس ، ويطيرون . ولعله يشبه الصحيح من الاخبار لكثرة الاخبار به ، والشهرة عنهم ، والسحر امر خفي لا يعلمه الا الله . وسينكشف غدا ان شاء الله يوم لا ملجأ من الله إلا اليه ؛ ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ والله اعلم .

(**مسألة**) : عن الشيخ احمد بن مفرج : وفيما يقول الناس من السحر

اهو حق ان بشريا يأكل بشريا ؟ ووجدته في الاثر ؟ انهم يركبون الضباع ؟ ام هذا الا زخاريف العوام ؟ .

الجـــواب : السحر حق وقوله عليه السلام : « السحر حق كما انني حق » - ﷺ - وكذلك يأكلون البشر ويركبون الضباع ويطيرون . كله حق والله اعلم .

(**مسألة**) : لغيره وفيمن يقول : في الجن ان بني آدم يرونهم عيانا ، ويكلمونهم شفاها وفي السحر من الانس انهم : ينقلبون طيورا . ما يكون حاله عند من سمعه يقول هذا وما يكون من نحوه ؟ قال : قد قيل فيه انه ان تاب والا بريء منه . وقيل : انه لا يبعد ؛ لأنه من الممكن ولا معنى يدل على عدله والله اعلم . بالعدل في هذا وغيره من قول اهل الفضل وفي حفظي من الاثر عن بعض المسلمين : انه قال : ولقد رأيت اثنين طائرين ضحوة من النهار وانا يومئذ صغير ، العب مع الصبيان ، ولو طارا اليوم لوقعا وما قد رأى زعم بعض ان شيخه .

(**مسألة**) : رأى احد من الناس راكبا على ضبع واخبره بمن يراه ان فلان بن فلان والله اعلم بالصواب .

(**مسألة**) : عن الشيخ سعيد بن بشير الصبحي : ونسمع من عوام الناس كلاما ان الزيبق اذا اطعم احدا من البشر وكان متهما بالسحر ويأكل لحوم البشر ان ذلك يقتله ، والذي ما فيه سحر ما يضره . ايجوز استعمال ذلك اذا لم يتعمد لأحد معروف ولا مراده لقتل احد من الناس ، ونسمع ان الاطفال الصغار يطعمون ذلك ، ولا يضرهم ، وما السحر الذي يجوز قتل صاحبه ؟ عرفني سيدي - رحمك الله - .

الجـــواب : لا يعجبني استعماله خوف المضرة . واما الساحر والساحرة اللذان ورد جواز قتلهما هما اللذان سحرهما سحر شرك . والله اعلم .

(**مسألة**) : عن الشيخ عبدالله بن محمد بن بشير المدادي : وسمعنا من عوام الناس ان الساحر اذا سقي ماء فيه زيبق يقتله ، والذي ما فيه سحر لم

يقتله . ايجوز سيدي ان يطعم ذلك احد على هذه الصفة ؟ واذا اصابه شيء يكون سالما بينه وبين الله ام لا ؟ . ووجدنا رواية ترفع عن النبي ﷺ قال : « اقتلوا الساحر والساحرة » ما تفسيرها على ظاهرها ام لها وجه غير ذلك ؟ وهل يجوز قتل الساحر اذا تبين سحره ؟ وهل يعرف السحر من سحر الشرك الى سحر النفاق بشيء من الاسباب ام لا ؟

الجــواب : وبالله التوفيق : فاعلم شيخنا ان مثل هذا من الامور العظيمة ، وامر هذا الى الله عز وجل . فان صح من احد بعينه انه ساحر ، وانه يأكل بني آدم ، او يغصب ارواحهم باقرار منه بذلك ، او بشهادة عدلين من المسلمين ؛ فجائز قتله ، ويكون على يدي امام المسلمين ، فيأمر بقتله امام المسلمين اذا صح معه ذلك ، وان لم يصح بشهادة ، وصح عند احد ، فجائز له ان قدر على قتله سريرة فيما بينه وبين الله ولا يقتله علانية ، فيستبيح من نفسه القصاص والدية ، وان لم يصح ذلك وانما يتهم بالسحر فلا تجوز اباحة الانفس بالتهم ، ولا بالظنون ، والظن فلا يغني من الحق شيئا .

وأما سقي الزيبق لمن يتهم بذلك فلا اقدر اقول باجازة ذلك ؛ لأن مثل هذا لا من الاطعمة المعتادة ، والاغذية النافعة ، ولا من الادوية المجربة . فان كان ذلك مما صح انه لا يضر الا الساحر ، ولا يضر الناجي منه فالساحر حقيق بما هو اعظم ، واشد منه ؛ وذلك لصحيح الرواية عن النبي ﷺ انه قال : « اقتلوا الساحر والساحرة » وقول الله تعالى : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الاخرة من خلاق ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ . وقد قتل احد من افاضل المسلمين ساحرا بحضرة بعض خلفاء بني امية ؛ ولعل فيما قيل : انه يريهم انه يقتل نفسا ثم يحييها فضرب عنقه بالسيف وقال له : احي نفسك ان كنت صادقا ، فلم يعب عليه احد من المسلمين ؛ بل صوبوه . وذكرت هل يعرف سحر النفاق من سحر الشرك ؟ فلا ابصر الفرق في ذلك والسحر كله باطل ، لا يجوز . ولعل يقال ان السحر شيء باطل لا يجوز استعماله ، او القول به ، واذا استعمله او عمل به ، او قال به ، فقد دخل في الشرك ، وهذا من الامور الغامضة وامر ذلك ومرده الى الله ، والله اعلم

بضمائر عباده ، وسرائرهم ، وظواهرهم ، وهو علام الغيوب . وغدا تنكشف السرائر والضمائر ، والله خبير بما يصنعون .

(**مسألة**) : عن الشيخ ناصر بن سليمان المدادي : ونسمع احاديث من عوام الناس ان الساحر اذا أكل الزيبق يقتله ، والذي ما فيه سحر ما يقتله ، اذلك صدق ام لا ؟ وهل وجدتوه في شيء من الكتب ؟ وهل يجوز ان يطعم احدا من الناس على هذه الصفة ام لا ؟

الجــواب : فالله اعلم ـ انا لم نجد ذلك في الكتب ، والله اعلم بصحة هذا الخبر وثباته ، واما من طريق الجائز ان كان هذا الزيبق لا يضر اكله فلا بأس باكله ، وان كان يضر وتتولد منه مضرة ظاهرة او باطنة ، فانه لا يجوز لاحد ان يتعمد في نفسه لادخال الضرر على نفسه ، ولا على غيره من سببه ، والسلامة اسلم . والله اعلم .

(**مسألة**) : عن الشيخ خلف بن سنان الغافري : وهل يجوز سيدي استعمال الزيبق لانا نسمع من كلام العامة انه يقتل الساحر والذي ما فيه سحر ما يقتله ؟ ايجوز سيدي ان يسقى من يتهم بذلك ام لا ؟ وهل يجوز قتل الساحر اذا تبين سحره لقول النبي ﷺ : « اقتلوا الساحر والساحرة » ؟ وهل يعرف سيدي سحر النفاق من سحر الشرك بشيء من الاسباب ؟ وهل يجوز ان يطعم الاطفال الصغار ، والكبار ، اذا لم يتعمد لقتل احد بعينه ؟ .

الجــواب : ان الزيبق اذا خلط القليل منه في شيء فانه يقال لا يضر ، وانه مجرب وانه ينفر منه الساحر ، ويجوز قتل الساحر ، ويجوز ان يسقى من يتهم على نية انه ان كان غير ساحر ، فهو دفع للساحر عنه وان كان ساحرا فلكف شره .

(**مسألة**) : عن الشيخ صالح بن سعيد النزوي : وفيما يقول الناس من السحر احق ان بشرا يأكل بشرا ، وانهم يركبون الضباع ، ويطيرون مثل الطير ، وان ناسا ماتوا يرونهم الاحياء رؤ يا العين ؟ .

الجــواب : اما على ما نسمع من الاثر : ان الذين نسب اليهم السحر

من بني آدم انهم يركبون الضباع ، واما اكلهم البشر ، فلم نسمعه صحيحا من الاثر ، ولا نقدر ان ننفي ذلك على الحقيقة . الا انه ليس في طاقة الساحر ان يحيي من مات ، فان قال احد : ان احدا حيي بعدما مات ، فهو عندي كاذب ، الا ان يكون لهذا الساحر حيلة يحتال بها على الناس في نظرهم المسحور من قبلها ميتا ، وهو غير ميت في الحقيقة . فعسى : ان يكون ذلك ؛ لأن الله يفعل في خلقه ولخلقه ما يشاء ويريد .

الباب الحادي والثلاثون

في ذكر القول ان الله تعالى قد اخذ الميثاق من بني آدم واشهدهم على انفسهم في ظهور آبائهم

ومن جواب الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي : وسئل عن قول الله تعالى : ﴿ واذا اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى ﴾ (الآية) ما هذا الأخذ سيدي وما معناه وهذا الاشهاد حقيقة على ما يرويه القوم ام لا ؟ بين لي ذلك بيانا واضحا ؛ يرحمك الله .

(الجواب) : اختلف الناس في معنى هذه (الآية) : فاما اهل المذاهب الاربعة ، فاكثرهم تأولوا ان الله تعالى خلق بني آدم كلهم مثل الذر من ظهر آدم - عليه السلام - ، واشهدهم عى انفسهم الست بربكم قالوا بلى . ولو قالوا نعم لكفروا ، وعاهدوه بعبادته وطاعته ان اخرجهم في اوقات خروجهم فهو يؤاخذهم بذلك الاشهاد ، وذلك الاقرار وذلك العهد .

وقال الشافعي فيما يروى عنه :

بموقف ذلي دون عزتك العظمى ... بمكنون سر لا احيط به علما
باطراق رأسي باعترافي بذلتي ... بمد يدي استمطر الجود والرحما
باسمائك الحسني التي بعض وصفها ... لعزتها تستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من الست بربكم ... بمن كان مجهولا فعلمته الاسما
اذقنا شراب الوصل يا من اذا سقى ... محبا شرابا لا يضام ولا يظما

وقال المعتزلي : ليس التأويل الصحيح كذلك وفي الآية معنى يدل : على ان الحق غير ما تأولوه ؛ لقوله تعالى : ﴿ واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ ولم يقل واخذ من بني آدم من ظهره ذريته او ذريتهم يدل :

على انه اخذ ذرية بني آدم كل احد من ظهور ابائه ، وامهاته ، وركب فيهم عقولا تعرفه ، متى خطر بها شيء من معرفته ، وفهمت المعنى عرفت الله وصفاته ، بالحق في ذلك ، فهي تعرف ان الله تعالى هو خالقها ، وربها ، ومالكها ، ومصرفها ، وخالق جميع الاشياء ، وتعرف ان من كان كذلك وصفه تجب عبادته ، فهي شاهدة مقرة بالمعرفة : ان الله تعالى ربها ، ورب كل شيء . ولو انكرت بالفعل . فالله يؤاخذ بني آدم بهذه المعرفة : ان عبادته وطاعته واجبة ، وقد تكلم الشيخ ابو سعيد رحمه الله في معنى هذه (الآية) ولم يحضرني ما قاله في ذلك في حين رسم هذا .

(**الجـواب**) : وكل عالم تأول القرآن على ما يراه عقله ، ولا يهلك في خطائه الاصح من التأويل بهذه الأقاويل ، وانا ممن يرى رأي المعتزلي اصح واقوى من غير ان اخطيء من قال بخلاف ذلك ، ومن لم ير الاصح في ذلك فغير متعبد بمعرفة الاصح في ذلك ؛ لأنه مما لا يلزم معرفة معنى هذه الآية من لم يعرفه . والله اعلم .

(**مسألة**) : ومن كتاب ركن الدين : تفسير متشابه القرآن الكريم : تأليف المعتزلي ينظر فيما نقلته منه في هذا الكتاب : ثم لا يؤخذ منه الا ما وافق الحق والصواب : الذي تعلقوا به من اخراج الله تعالى جميع بني آدم من صلبه ، واخذ الميثاق على جميعهم ، وتعلقوا في ذلك بقوله : ﴿ واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ﴾ (الايتين الى اخرهما) . قالوا : فاخرج جميع ما هو خالق منهم الى يوم القيامة من صلب آدم فجعلهم ازواجا ، ثم صورهم ثم استنطقهم ، واخذ الميثاق عليهم ، واشهدهم على انفسهم ، ﴿ الست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ (الآية) قال فاني اشهد عليكم السموات السبع ، والارضين السبع ، واشهد عليكم اباكم آدم ان تقولوا يوم القيامة لم نعلم هذا . هذا قول ابي العالية . وقال مقاتل : ان الله تعالى مسح ظهر آدم بيده اليمنى ، فاخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ، ثم مسح صفحة ظهره بيده اليسرى ، فاخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فيهم الف امة ، وقال

يا آدم هؤلاء ذريتك اخذ ميثاقهم على ان يعبدوني ولا يشركوا بي شيئا قال : نعم يا رب : فقال الله تعالى لهم : ﴿ الست بربكم قالو بلى شهدنا بانك ربنا ، فاشهد عليهم الملائكة ، ثم افاضهم افاضة القراح ، فقال للبيض : هؤلاء في الجنة وهو برحمتي ، وهم اصحاب اليمين ولا ابالي ، وهؤلاء في النار ولا ابالي ، وهم اصحاب الشمال ثم اعادهم في صلبه ، وتعلقوا في ذلك (بالآية) .

(الجـواب) : انه لا تعلق لهم في الظاهر من وجوه : احدها ان ظاهر اللفظ يوجب ان يكون اخذ ذرية بني آدم من ظهورهم ، لانه تعالى لم يقل واذ اخذ ربك من آدم من ظهره ؛ وانما قال من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . فهذا خلاف قولهم . ومنها انه يوجب ان يكون المأخوذ عليهم : هم ذرية بني آدم لصلبه ولا يدخل فيه أبناء الابناء ومن بعدهم فيه ؛ لأن الذرية في الحقيقة ، انما يطلق على ولد الصلب ، وما عداه فانما يطلق عليه مجازا ، ويعرف ذلك بدليل آخر دون ظاهر اللفظ ، ومنها ان الاشهاد انما يصح ممن يعقل ، ويفهم من الغير ، ويكون الجواب غير مستحيل ، فهو يوجب ان يكون هذا الاشهاد في حال يصح منهم ان يعقلوا ما يقال لهم ، ويصح منهم الاقرار . وما ذهبوا اليه حالة لا يصح منهم معرفة الخطاب ، ولا اقرار ولا شيء من ذلك . والله تعالى رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ مع كون بعض الصبيان كيسا ، يبيع ، ويشتري ، ويخدع الرجال ، ويفهم عن الغير ، ويحتال ، ويكتسب العلم ، فلم يكلفه شيئا ولم يلزمه معرفته من حيث لم يكمل عقله ، والله تعالى أرأف من ان يكلف عباده ما لا يطيقون ، وكيف يجوز ان يلزم هذا الاقرار وان يشهد على نفسه بشيء وهو بعد لم يخلق ، وهو بعد في صلب ابيه بل في صلب جد الجد بل في صلب آدم ، وبينه من الاباء بعد بعيد ؟ . ومنها انه اخبر انه انما فعل ذلك ؛ لكي لا يقولوا يوم القيامة : ﴿ انا كنا عن هذا غافلين ﴾ : عن هذه الشهادة والاقرار ، ويحيلوا شركهم على آبائهم . فيجب ان يكون هذا الأمر معلوما للكل ، غير غافلين عنه ، متذكرين له في جميع الاحوال ، غير ناسين ، ولسنا نجد احدا من اهل العصر

من يذكر هذا الاشهاد والاقرار ، ولا حكي عن احد من المتقدمين : انه ادعى ذلك ، ومن ادعى ذلك فحكمه حكم السوفسطانه في العبود ، فكيف يجوز الاحتجاج على المشركين بشيء لا يعلمه احد منهم هذا ظاهر السقوط .

ومنها انه محال اجتماع جميع الخلق في صلب واحد . وان كان الالف منهم في مقدار الذر فكيف اذا كانوا امثال الذر ؟ فهل يتسع لذلك الفضاء الكبير ؟

ومنها انه معلوم ان الولد يخلق من المني ، وليس في صلب كل واحد من الاباء جميع ما يكون من نسله وعقبه ؛ لأن المني انما يحدث من الانسان حالا بعد حال ، ويستحيل من الاطعمة والاشربة ، فكيف يجوز ان يجتمع في صلب واحد جميع ما يكون من عقبه الى يوم القيامة من المني ؟ ولو كان كذلك لوجب ان يكون في صلب الرضيع ، بل الجنس من المني بمقدار ما سيحدث ويولد من عقبه ، ونسله . وهذا محال .

ومنها ان لفظ الذرية انما يقع على المولود ولا يسمى ما يكون في صلب الاب ذرية ولا ولدا . واذا كان كذلك فظاهر اللفظ يبطل قولهم .

ومنها لا يخلو من ان يكون اقرارهم بذلك كان عن معرفة ضرورية او عن استدلال ، اوعن جبر واكراه ، فلو كان عن جبر واكراه ، لما جاز ان يجعله حجة عليهم مع كونهم مكرهين على الاقرار ، وان كان عن نظر واستدلال ؛ فكيف يجوز ان يستدل وينظر ويعرف ما ليس بحي ولا عاقل ؟ وكذلك معرفة الضرورة ؛ وانما يصح حصولها في العاقل ، فقد دلت هذه الوجوه على فساد ما ذهبوا اليه وتعلقوا به .

فاما معنى الآية فقد اختلف المفسرون من اصحابنا فقال الشيخ ابو علي - رحمه الله - انه في قوم مخصوصين ؛ لأنه قال من بني آدم من ظهورهم فخرج منه اولاد آدم من صلبه ، وخرج منهم المؤمنون ؛ لقوله تعالى انما اشرك اباؤ نا من قبل ؛ فهذا الاحتجاج على المشركين . وخرج منه من لم يكن له اب مشرك يحيل بالشرك عليه ؛ لانه قال انما اشرك اباؤ نا من قبل وكنا ذرية من

بعدهم ، فهي مخصوصة في قوم من بني اسرائيل : اشهدهم على انفسهم عند البلوغ ، وكمال العقل ، فقال لهم على لسان بعض الانبياء : الست بربكم قالوا بلى شهدنا بذلك واقررنا به ، وقيل انما اشهدهم على انفسهم ؛ بأن بعث اليهم الرسل ، واحتج عليهم بهم ؛لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وهذان غير صحيحين ؛ لان الناس كلهم لم يقروا للرسل ، ولأن الاقرار باللسان غير معتمد من حيث يكون منه الصدق والكذب ، ولأن معرفة الله تعالى متقدمة على معرفة الرسول ، ومعرفة الرسول متأخرة عن معرفة المرسل ؛ فلا يصح ولا يجوز ان يعرف المرسل من جهة الرسول ، والصحيح من ذلك : انه اشهاد دلالة والجواب جواب اعتبار ، لا جواب جوار ؛ وذلك ، ان الله تعالى خلق كل مكلف خلقة دالة على خالقه ، والزمه النظر في مخلوقاته ؛ ليدله على صانعه ، ولم يأمر احدا منهم بتقليد غيره ، وكل مكلف محجوج بنفسه ، وسائر ما يشاهده من فنون مصنوعاته . فتلك الدلالة القائمة في نفسه ، وفي غيره ، ناطقة بصنع الله ، معبرة عن ان لجميعه خالقا لا يشبه شيئا من ذلك . يعني : اني انما بنيت كل انسان هذه البنية الدالة على الصانع ، وخلقته خلقة دالة على معرفتي بأني خالقه ؛ ليكون كل انسان محجوجا بنفسه ولا يحيل واحد منهم بشركه على غيره ؛ لانه غير مقبول من حيث استوى الكل في وجوب النظر عليه ، وفي كونه دلالة على الصانع . وهذا تفسير مطرد على نمط واحد ، وقد بينا فيما تقدم انهم يجعلون الدلالة نطقا ، وقولا ، والاشارة كلاما : قال الله تعالى ـ مخبرا عن عيسى ـ قال لامه : ﴿ فاما ترين من البشر احدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا ﴾ كان هذا القول اشارة منها الا ترى الى قوله : ﴿ فاشارت اليه ﴾ لانها لو تكلمت بما قال لها عيسى بكلام مسموع ، لكانت ابطلت صومها ، وهذا كثير معروف في الشعر والقرآن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ قالوا : وانما يريد به تقدم الميثاق ، حيث اخرجهم من صلب آدم عليه السلام .

(الجـواب) : انه لا دلالة في ظاهره على شيء مما قالوه ؛ وانما هو

تحكم . ومن اين هذا الميثاق كان في ذلك الوقت ، وبعد فقد دللنا على فساد ذلك ، وانه لا يصلح اخذ الميثاق في ذلك الوقت ، فليس يوجب اللفظ ان يكون اخذ الميثاق عليهم في وقت واحد ، في مكان واحد ؛ لقوله تعالى : ﴿ واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ ؛ لانه يجوز ان يكون اخذ ذلك متفرقا ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين ﴾ . وان كان اوحى اليهم متفرقا ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وما أوتي النبيون من ربهم ﴾ كان الايتاء متفرقا ، وقد بينا فيما تقدم : ان الواو توجب الاشتراك في اللفظ ، ولا توجب الجمع ، ولا الترتيب ، واذا كان كذلك سقط التعلق به ، ومعناها في قوله تعالى : ﴿ واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ ؛ فانما اخبر انه اخذ عليهم الميثاق ؛ لما اتاهم من الكتاب والحكمة لا لما يقولون فاخذ الله الميثاق على انبيائه ؛ انما يكون بما اتاهم من الكتاب ، والوحي والرسالة ، وهذا ظاهر مكشوف . انقضى الذي نقلناه من كتاب المعتزلة .

(**مسألة**) : عن الشيخ خميس بن سعيد الرستاقي رحمه الله وفي قوله تعالى : ﴿ واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ ما معناه ، وما تفسير ذلك ؟

(**الجواب**) : جاء في التفسير في ذلك : انه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسح ظهره واخرج ذريته كلهم كهيئة الذر ، فخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سوداء فقال لهم : « ادخلوا النار ، ولا ابالي وقال لهم جميعا : اعلموا انه لا اله غيري ، وانا ربكم لا رب لكم غيري ، فلا تشركوا بي شيئا ، واني مرسل اليكم رسلا يذكرونكم عهدي ، وميثاقي ، ومنزل عليكم كتبا » فتكلموا وقالوا : شهدنا انك ربنا ، والهنا ، لا رب لنا غيرك ، فاقروا يومئذ كلهم طائعين ، فاخذ بذلك مواثيقهم ، ثم كتب آجالهم ، وارزاقهم ، ومصائبهم ، فنظر اليهم آدم - عليه السلام - ، فرأى منهم الغني ، والفقير ، وحسن الصورة ، ودون . فقال : يا رب لولا ساويت ، فقال : اني احببت ان اشكر قيل . وفيهم الانبياء مثل : السرج . فلما اخذ الله الميثاق على ذرية

ادم ، واشهدهم على انفسهم ، الست بربكم قالوا بلى انت ربنا ثم نسوا ذلك ، وسيذكرونه يوم القيامة ، ويعلمون قيام الحجة عليهم ذلك اليوم قال غيره وحفظت انا في تفسير هذه الآية : ان معناها ان الله عز وجل الهم كل ذي عقل ان الله ربه . فالله اعلم بالاصح من ذلك .

الباب الثاني والثلاثون

في كلام الجوارح يوم القيامة

من كتاب الدلائل والبصائر : قال الله : ﴿يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون﴾ . قال : من الحجة على ذلك انهُ يجوز أن يقلب فيشهد بنطق يكون فعلها ، ويجوز أن يكون شهادتها على مجاز اللغة بأشياء يظهر فيها ان الأمرين جائزان في القدرة ، والحكمة . والعرب تقول : رب عين انطق من لسان . . وتقول عينك تشهد عليك بشهودك .

(مسألة) : فان قال قائل : ما الحاجة الى شهادة الجوارح وعند من تشهد ؟ .

جواب ؛ قيل لهُ هذا باب آخر وأهون منه : ان يقول وما معنى المخاطبة ؟ وما معنى قراءة الكتب يوم القيامة ؟ وما معنى التقرير والتوبيخ ؟ وما معنى الامتحان ؟ ـ وقد علم الله ما يكون ـ .

والجواب عن هذا كله : ان الله تعالى لم يعامل خلقه من جهة هذا كله ، ولا من جهة التسليط ، ولا على العلم بما هم فاعلون ؛ بل انما عاملهم من جهة الانصاف ، وعلى ما يعامل بعضهم بعضا في الحق ، والقاء الحجة ، ورفع الخاطر الشبيه بما يستعمل العدل انقضى .

(مسألة) : ومن بعض الكتب : وقال ـ عزَّ وجل ـ : ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ . قال : يقول المنافق كتب علينا الحفظة ما لم نعمل قال فدعا بكتاب غير كتاب الحفظة فيقرأ عليهم : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ أي : فيه ما ليس في كتاب الحفظة ، وما في كتاب

الحفظة انقضى . الضياء : ابن عباس في قوله - عزّ وجل - : ﴿ان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم بهِ الله﴾ كان يقول اذا ادعى الناس يوم الحساب ، اخبرهم الله بما كانوا يسرون في أنفسهم ، وما يعلمونه يقول : انهُ لا يغيب عني شيء واني سأخبركم بما كنتم تسرون ، ولم يكن كتابي من الملائكة يطلعون على ذلك فسأخبركم بهِ اليوم . قال ابن عباس : فهذه المحاسبة قيل : ان ابن عمر قرأ هذه (الآية) فبكى ، ثم قال : وانا لمتبعون بما نحدث بهِ أنفسنا فبلغ ذلك ابن عباس قال : يرحم الله أبا عبدالرحمن ، قد ظن ذلك أناس من أصحابه . فقال : يا رسول الله انا نتحدث بالشيء - لأن يقع أحد من السماء أحب أن يتفوه بهِ - فقال ﷺ : أوقد وجدتم ذلك صريح الايمان ؟ فقال ﷺ ان الشيطان ليأتي لعله ابن آدم بما يخبر بهِ من علمه فاذا اعياه رفعه فيما هنالك فينسخ الله حديث النفس ، ابو هريرة : عن النبي ﷺ انهُ قال : ان الله يجاوز لأمتي كل شيء تحدث بهِ انفسها ما لم يتكلم بهِ ، أو يعمل بهِ انقضى .

قال المؤلف : وحفظت من آثار المسلمين : ان العزم على الايمان ايمان ، والعزم على الكفر ليس بكفر ، حتى يفعل وقيل : ان العزم على المعصية غير حديث النفس بها ؛ لأن العزم عليها من مات على العزم عليها مات هالكاً حتى يقلع ، ويتوب مما قد عزم عليه ان يفعله مما عزم عليه ان يفعله مما عزم عليه من المعصية .

الباب الثالث والثلاثون

في تسبيح الجمادات وتكليفها ونطقها وكذلك البهائِم

ومن كتاب ركن الدين الذي هو عن المعتزلة قال : من ذلك فيما ادعوه : من أن جميع الأشياء تسبح ، وان لجميع الحيوانات نطقاً ، وكلاماً ، فمما تعلقوا بهِ : في قوله تعالى : ﴿سبح لله ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿وان من شيء الاَّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ ، قالوا : فدل ذلك على أن جميع الأشياء تسبح لله وتحمده ؛ وهو ما نقوله .

الجواب : انهُ ليس يخلو الخصم من أن يريد بقوله : ان جميع الأشياء تسبح التسبيح المعقول ، الذي هو قول القائل سبحان الله . او التسبيح من جهة الدلالة ، أو تسبيحاً غير معقول . فان اراد التسبيح الذي هو مسموع ، فذلك غير صحيح ، ولا يجوز ذلك من الجماد ، لانهُ لو كان للجماد نطق لم يكن بين الجماد ، والحيوان فرقاً . وانما فرقنا بينهما بأفعال الحيوان ونطقها . وبذلك يعرف الفرق بين الحي والميت . وثانيها : ان الكلام المسموع انما يقع من المحدث بآلة مخصوصة ، مع سلامة الالة بذلك عليه ان فقد الالة أو عند اعترائها آفة يستحيل منهُ الكلام . فلو كان الكلام يصح منه عندما يذهب حسه وتعروه آفة لما منعه ذلك من الكلام . وفي علمنا ببطلان كلامه عند اعتراض الآفة : ما دل على ان مع فقد اللسان لا يصح الكلام . وثالثها : ان الكلام انما يسمع من العالم اذا كان قادراً عليه . ومهما كان الكلام منتظماً دل على كونه عالماً . وباختلاط كلامه يحكم على قائله بالحمق ، والعمى ، والجهل ؛ وبذلك يفصل بين العالم والجاهل . فلو كان يصح من الجماد الكلام المنتظم ، كما يصح من الحيوان ، ويصح من الجاهل صحته من

العالم ، ويصح من الأحمق صحته من العاقل ؛ لم يكن لنا سبيل الى الفرق بين هؤلاء بأفعالهم ، وأقوالهم ، وفي صحة استدلالنا بما ذكرناه على الفصل بينهم ، اوضح دليل على فساد قول من اجاز الكلام منهم . ورابعها : انا انما نعرف كون الغير حياً بكونه جائزاً منهُ الفعل والعمل ، ونعرف كونهُ عالماً بأفعاله المنتظمة ، وصحة كلامه ، وترتيبه ، ونعرف كونه قادراً بجواز الفعل منهُ ، فلو صح الكلام على ترتيبه من غير الحي لم يكن لنا السبيل الى معرفة كون الغير حيا ، والفصل بينه ، وبين ما ليس بحي .

والذي يدل ايضاً على انهُ لم يعن بهِ تسبيحاً مسموعاً لو اراد بذلك تسبيحاً مسموعاً ؛ لقال : ولكن لا تسمعون تسبيحهم . فلما قال : ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ : دل على انهُ يسبح من غير جهة النطق ، والذي يدل على ذلك ايضاً : انهُ لو اراد ان للجماد كلاماً مسموعاً ، ولكل شيء مثل ذلك ؛ لوجب ان نسمع ذلك لوجب ان نسمعه من حواسنا ، وجوارحنا ، وفي علمنا بفساد ذلك دليل على فساد قول القائل بذلك .

وان ذهب الخصم الى كلام لا يعقل فهو فاسد لانا بينا في فصل التوحيد : فساد ما لا يعقل بما فيه غنية . وسواء اثبات ما لا يعقل ونفيه ؛ لانهما في الدلالة والجواز سواء في جميع الأبواب . واذا كان كذلك صح : ان المراد بهِ تسبيح الدلالة . ولا خلاف في أن جميع المخلوقات تسبح الله بالدلالة ، على ان لها صانعاً لا يشبهها ، ولا تشبهه فذلك تسبيحها ، وقد بينا فيما تقدم ، ان من عادتهم ان يجعلوا الدلالة نطقاً ، وقولاً ، واثبتنا في ذلك ما يغني عن الاعادة .

(فصــل) : ومنه في ان جميع الحيوانات مكلفون وان لكل جنس نبياً منهم من جنسهم ؛ الذي تعلقوا بهِ آيات فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الّا امم أمثالكم﴾ ، (الآية) ثم قال : ﴿وان من أمة الّا خلا فيها نذير﴾ قالوا : فأوجب بالآية في الأولى ان كلاً منها امثالنا .

وبالثانية : ان لكل أمة نبياً ونذيراً ؛ وذلك يوجب ان لكل منها نذيراً ، وانهم مكلفون .

الجواب : ان هذا من التأويلات الملفقة التي ذكرناها في الفصل الأول . وظاهر اللفظ يقتضي ان كل دابة ، وكل طائر ، امم أمثالنا ؛ لانهُ تعالى لم يقل ان كل جنس منها أمة أمثالكم ، بل اخبر ان كل واحد منها امم . وهذا ظاهر الفساد . وبعد . فان لفظة الأمة متشابهة ، محتملة لمعان شتى ، فليس لاحد ان يرده الى وجه مخصوص بغير دليل ؛ وذلك ان الأمة تقع على الجماعة ؛ قال الله تعالى : ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي : جماعة وكل جماعة تسمى أمة ، وثانيها : اتباع الأنبياء عليهم السلام ؛ ولذلك يقال أمة محمد وأمة موسى ـ عليهما السلام ـ ، وثالثها : الأمة بمعنى الدين قال الله ـ تعالى ـ حكاية عن المشركين : ﴿انا وجدنا آباءنا على أمة﴾ يعني : على دين وملة .

قال النابغــة :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة　　　وهل يأتمن ذو امة وهو طائع

ورابعها : بمعنى (المدة والزمان) كقوله تعالى : ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة﴾ ، وخامسهـا : [بمعنى النسيان] . قـال الله ـ تعالى ـ : ﴿وادكر بعد أمة﴾ أي بعد : نسيان ، وسادسها : بمعنى : القامة يقال : فلان حسن الامة اي حسن القامة ، وليس يصح ان يفسر قوله ـ تعالى ـ : ﴿الاَّ أمم أمثالكم﴾ (الآية) بمعنى الجماعة ؛ لأن سائر الوجوه لا يصح في ذلك ؛ بمعنى ان كلاًّ منها جماعة امثالنا في الصورة ، والخلقة ، وليس يقتضي ان كلاًّ منها في مثل احوالنا في جميع الوجوه . وقوله تعالى : ﴿وان من أمة الاَّ خلا فيها نذير﴾ أي : ما من قرن سلف الاَّ وقد كان لهم نذير ينذرهم ، وليس يعني بهِ غير الناس .

والدليل على ان التكليف مقصور على الجن والانس من أهل الارض :

قولهُ ـ تعالى ـ : ﴿يا معشر الجن والانس﴾ . وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ايها الثقلان﴾ ولم يذكر في القرآن مخاطبة غير هذين الجنسين ؛ ولأن شرائط التكليف لا يصح حصولها للبهائِم ، والطيور ، وغيرهما ، ولذلك شبه الله ـ تعالى ـ الكفار ، والجهال بها . فقال : ﴿أولئك كالأنعام﴾ ولو كانت الانعام ؛ لكان فيهم المؤمن العاقل ؛ ولما جاز تشبه الكفار بهم .

فصـل : ومنه في نطق الحيوان من ذلك : قوله تعالى : ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ . قالوا : فأخبر انها تكلمت بكلام مفهوم ، وحذرت من حطم سليمان وجنوده اياهم ، وعرفت الرئيس من المرؤوس ، وبينت انهم يكونون معذورين في ذلك من حيث لا يشعرون بها .

الجواب : لا تعلق في ذلك لانا بينا من عادة العرب : ان تجعل كلما تقع بهِ الافهام او تدل على شيء قولاً ، وكلاماً ، ونطقاً ، وأوردنا في ذلك من الشعر بما فيهِ غنية . وقد قال ابو تمام وهو طائي من مخ العرب :

الـدار ناطقـةٌ وليست تنطقُ   بـدثورهـا ان الجديـد سيخلقُ

فأخبر ان الدار ناطقة ، وان الجديد سيخلق ، ولكن بيَّن وجه نطقها فقال بدثورها مع اعترافه بأنها لا تنطق ، وقد قال الله ـ تعالى ـ : حاكياً عن عيسى حيث خاطب امهُ وقت ولادتهِ : ﴿فإما ترين من البشر أحداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً﴾ (الآية) . ثم كان هذا الكلام بطوله بالاشارة ألا ترى الى قولها : لما سئلت عن عيسى : اشارت اليه ؛ فكانت بهذه الاشارة مخبرةً عن صومها ، قائمةً مقام ذلك الكلام على طوله ، مقيدة مثل ذلك القول . ولا يدل قوله : ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ على انهُ كلام بالحقيقة ؛ لان القول متى كان عبارة عن الفعل ، والاشارة فكان تبسم من حيث اشارت اليهم ، بما دل على ذلك المعنى ، ولا بد من أن يكون لهم اشارات ، واسباب يفهم بعضهم عن بعض ، وان لم يكن ذلك كلاماً كالحروف مسموعة ،

ومنظومة مفيدة المعنى ؛ ومن ذلك : قوله ـ تعالى ـ : ﴿علمنا منطق الطير﴾ . قالوا : لولا انهُ للطير منطق معلوم ، وكلام مفهوم ، ما كان لتعليم الله اياه معنى .

الجواب : انا بينا ان النطق كله : ليس هو بكلام مفهوم ، وانهم يصفون الدلالة ، وما بهِ يفهم المقاصد من الاشارات ، وغير ذلك كلاماً ، ونطقا ، وقولاً . ولا بد من أن يكون للطير أسباب يفهم بعضها عن بعض منطقاً ؛ وهو الذي اختص سليمان بتعليم الله إياه ذلك . ومنه : ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ . وكذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ . وكذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وقيل يا أرض ابلعي مائك ويا سماء اقلعي﴾ قالوا : فاخبر : ان هذه الأشياء تفهم ما يقال لها ، وتجيب عما تسأل .

الجواب : ان القوم بفساد تعلقهم ، وسوء مذهبهم يرتكبون كل فاسد ، ويقولون كل باطل ، ولا يعرفون ما يؤدي اليه القول من لزوم القائل بمثله ارتكاب الجهالات ، وتجويز المحالات ومذهبهم من ذلك قريب من مذهب المتجاهلة السوفطانية ، بل هو بعينه ، وذلك ؛ لانهُ لو كان الجماد مما يفهم الكلام ، ويجيب عما يسأل ، لم يكن بين الحي ، والجماد ، فرق ؛ وانما فرق بينهما من حيث ان الجماد لا يشعر بما يحله من ضرب ، وكسر ، وغير ذلك ، ولا يفهم ما يقال لهُ ؛ وبذلك يفرق بين الحي ، والميت فمن انزل الميت منزلة الحي في العلم والشعور ، والفهم والافهام ، ابطل الفرق بينهما ؛ وذلك دخول في مذهب المتجاهلة ؛ فلو كان الجماد يفهم عن من يخاطبه ؛ لوجب ان يفهم عنا اذا خاطبناه ، وان يجيبنا اذا سألناه ، الاّ ان يدعي القوم انهُ : يفهم بلغة غير معقولة ، وخطاب غير معروف وقد بينا فساد ذلك .

وأما معنى هذه (الآيات) : فقد بينا فيما سلف ، ودللنا على انهم يجعلون الدلالة ، والاشارة قولاً ، والانفعال لما يفعل بهِ سجوداً ، وجواباً ، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض فأقامه﴾ فسمى ميله

للانقضاض : ارادة اذا كانت الارادة لا تجوز على الجدار ، والاستحالة بفهم الجواب من الجماد ، واجابته عما يسأل أهل التفسير في قولهِ ـ تعالى ـ : ﴿واسأل القرية﴾ على أن المراد بهِ أهل القرية ، من حيث أحالوا سؤال نفس القرية ، فأما هذه الآيات ، فانما اخبر عن تكوينه للأشياء بلفظ القول ، وعلى سبيل الأمر اخباراً عن سهولة فعله ، وانهُ لا يتعذر عليه شيء من ذلك ، واخبر عن تكوينه على ما اراد بلفظ الاجابة وقد بينا في المقدمات انهم يضعون الخبر موضع الأمر تارةً ، والأمر مكان الخبر تارةً ، على سبيل الفصاحة وذلك يسقط تعلقهم بما تعلقوا بهِ .

الباب الرابع والثلاثون

فيما تعلقوا بهِ في اثبات المعراج من كتاب ركن الدين

فمن ذلك : قوله ـ تعالى ـ : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام﴾ الى آخرها وذكروا في ذلك خبراً طويلاً يوردونه في تفسير (الآية) في ذكر المعراج .

الجواب : هو ان التعلق بهذه الآية في اثبات المعراج فاسد ؛ لانهُ ليس في الآية أكثر من اسرائهِ من مكة الى بيت المقدس ؛ لأن المسجد الاقصى هو بيت المقدس بلا خلاف بين المفسرين ، وبين الأمة ؛ ولانهُ قال اسرى ، ولم يقل عرج . وليس فيها ذكر عروجه وذكر السماء . وبعد : فان (الآية) على ابطال دعواهم ادل منه على تصحيحه . وذلك ؛ لانهُ لا يجوز ان يذكر الله ـ تعالى ـ ما هو أصغر في الأدلة ، واحقر في الاعجوبة ، ويعرض عن ذكر ما هو اجل من ذلك بكثير ، ولا يخفى بأن العروج الى السماء والنزول منها في بعض ليلة اعجب في العقول ، من خروجه من مكة الى بيت المقدس . فلما ذكر اخراجه الى بيت المقدس في ليلة على سبيل التعجب . من ذلك ، والحث على الاستدلال بهِ على قدرته ، وصحة نبوة نبيه ، ولم يذكر من شأن المعراج ما ذكروه دل على وهاء دعواهم ، وفساد خبرهم ، فأما ما يذكرونهُ من الخبر المروي في هذا الباب ففاسد من وجوه . احدها : انهُ من أخبار الاحاد الذي لا اعتماد عليه في باب ايجاب العلم ، وثانيها : انهُ ليس من الصحاح عند القوم ، وثالثها : ان فيه التشبيه وذكر الحجاب ما لا يجوز على الله . ورابعها : انهُ يتضمن من ايجاب البدء على الله ـ تعالى ـ لانهُ بزعمهم على ما يروونهُ في هذا الخبر نسخ خمسين صلاة الى خمس صلوات شيئاً بعد شيء . ونسخ الشيء

قبل وقت فعله ، وقبل وقت معرفة المكلف بـهِ بداء ، والبـداء على الله مستحيل .

(مسألة) : ومن جواب الشيخ صالح بن سعيد الزاملي : وقوله عليه السلام : رأيت ليلة أسري بي ، ما هذا الاسراء وهو صحيح أم لا ؟

الجواب : صحيح ولعله الرؤ يا بمنزلة العلم ها هنا . والله على كل شيء قدير .

(مسألة) : قال الشيخ النسفي وهو من اهل المذاهب الأربعة : والمعراج للرسول عليه الصلاة والسلام في اليقظة لشخصه الى السماء ، ثم الى ما شاء الله من العلي حق . من الشرح اي : ثابت بالخبر المشهور ؛ حتى ان منكره يكون مبتدعاً ، وانكاره وادعاء استحالته ؛ انما يبتني على اصول الفلاسفة ، والاّ فالخرق والالتئام على علي السماوات جائز ، والأجسام متماثلة يصح على ما يصلح للآخر ، والله ـ تعالى ـ قادر على الممكنات كلها . وقولهُ في اليقظة اشارة الى الرد على من زعم ان المعراج كان في المنام . على ما روي عن معاوية انهُ سئل عن المعراج فقال : كانت رؤ يا صالحة ، وروي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : ما فقد جسد نبينا محمد ليلة المعراج ، وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وما جعلنا الرؤ يا التي أريناك الاّ فتنة﴾ ، وأجيب بأن المراد من الرؤ ية : رؤ ية العين . والمعنى ما فقد جسده عن الروح : بل كان مع روحه ، وكان المعراج للجسد والروح معاً ، وقوله لشخصه اشارة الى الرد على من زعم : انهُ كان للروح ولا يخفى ان المعراج في المنام ، أو الروح ليس مما ينكر كل الانكار ، والكفرة انكروا أمر المعراج غاية الانكار . بل كثير من المسلمين قد ارتدوا بسبب ذلك : قوله الى السماء اشارة الى الرد على من زعم : ان المعراج في اليقظة لم يكن الاّ الى بيت المقدس ؛ كما نطق بهِ الكتاب قولهُ : والى ما شاء الله من العلا اشارة الى اختلاف اقوال السلف . فقيل الى الجنة ، وقيل الى العرش ، وقيل فوق العرش ، وقيل الى طرف العالم ، فالاسراء من المسجد الحرام الى البيت المقدس قطعي ثبت بالكتاب . والمعراج من الارض الى

السماء مشهور . ومن السماء الى الجنة أو العرش أو غير ذلك آحاد . ثم اتضح انهُ ـ عليه السلام ـ انما رأى ربه بفؤاده لا بعينه وقال اللقاني في شرحه لارجوزته : وجزم السعد ان من انكر المعراج حكم بتعديه ، وتفسيقه ، وهو صواب في خصوص المعراج .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان الأباضي : ان خبر الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ـ وهو البيت المقدس ـ قد نطق بهِ التنزيل ، ولا يجوز الشك فيه بعد الحجة بصحته على من قامت عليه الحجة بمعرفته ، وهو من قسم ما لا تقوم بهِ الحجة الاَّ بالسماع ، كما سيأتي بيانهُ ان شاء الله ـ تعالى ـ ، واما خبر وقوع معراج النبي ﷺ برؤية عقله في اليقظة فممكن والأصح وقوعه ، لقوله ـ تعالى ـ : ولقد رآه أي جبريل عليه السلام نزلة اخرى ﴿عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى﴾ ﴿افتمارونهُ على ما يرى﴾ . وقد جاء ان من تلا ليلاً ونهاراً لا ينام الاَّ عن غلبة اسم الذات الذي لا يتوجه مطلوبه اي الاسم الاَّ الى الذات اربعين يوماً بشروط الرياضة كلها ، ففي السبع الاولى يرى كلما اخذته سنة ، أو اخذه نوم بين اليقظة والمنام عجائب الارض ، وفي السبع الثانية عجائب السماوات ، وفي كل سبع يرى اعلى من التي قبلها ، حتى يتم الاربعين يوماً اعطاه الله التصريف بالاسم الأعظم ؛ وبهذا الاسم يكشف المتصوفون ما يريدون كشفه ، وقيل : ان قول النبي ﷺ : « من اخلص لله اربعين صباحاً أجرى الله ينابيع الحكمة على قلبه » ، اراد بهِ هذا المعنى الذي ذكرنا انهُ عن الصوفيين ، واذا كان هكذا في حق غير نبي ؛ فكيف بالأنبياء ؟ وكيف بالنبي الأكرم محمد رسول الله ﷺ وقلبه لا يغفل عن ذكر الله ليلاً ، ولا نهاراً ، في يقظة ، ولا في منام ، طرفة عين ، لقوله ﷺ : « تنام عيناي ولا ينام قلبي » .

وأما معراج النبي ﷺ الى السماوات بجسده وبروحه معاً ، أو بروحه التي بها حياته ، او بعقله مفارقاً لجسده ، فأما بروحه التي بها حياته مفارقة

للجسد ، أو بعقله مفارقاً للجسد . فلا يصح ؛ لانهُ بمفارقة الروح الجسد يصير الجسد ميتاً ، وبمفارقة العقل الجسد يصير مغمياً عليه كالميت ، وأما معراجه بجسده وروحه معاً الى السماء أو الى ما هو أعلى فلم يأت صريح التنزيل بذلك ، ولا قامت الحجة بصحيح السنة ، ولا يصح فيه الاجماع الذي لا يجوز خلافه الاَّ : إما بصحة تأويل تنزيل ، أو بصحة سنة . والصحيح لا يحتمل الوجهين الوقوع ، وعدم الوقوع ، وهو من الممكن كونهُ ، وعدمه ، والله - تعالى - قدير على فعل كُل ممكن فعلى هذا فلا يلزم اعتقاد كون وقوعه انهُ واقع ، ولا انهُ غير واقع ، ومن صور لهُ عقله انهُ واقع فقال : انهُ صحيح فجائز لهُ ما لم يدن بذلك ، وما لم يخط أحداً قال بخلافه ، ومن دان بذلك ، او فسق من قال بخلافه ، فلا شك انهُ هالك ، آثم ، ظالم فاسق ، وكذلك من رأى في عقله انهُ غير صحيح فقال : انهُ يراه في نفسه غير صحيح ، فجائز لهُ ما لم يدن بذلك أو يخطىء من قال بخلافه في دينه . ومما يستحسن ان لا يقطع انهُ غير صحيح ، وان قطع كذلك لفظاً وفي نفسه يريد انه هو يرى كذلك ، وان لم تحضره نباهة لم يكن اثماً ، اذا كان في اصل عقيدته ان القطع بعلم الغيب على التحقيق لا يجوز ، وان لم ينتبه الى هذا كله فلا بأس عليه .

وفيما يدل عليه ؛ كلام عائشة - رضي الله عنها - على انهُ لم يعرج بجسده وان حاول هذا الشارح له تفسيراً غير هذا فالأصح أن تفسيره غير ما فسره هو ؛ وانما استجلب له معاني ؛ ليكون على وفق مذهبه . ولو كان مذهبه غير التقليد ، لرأي ان الحق في تفسيره كما ذكرناه ، فنفسي تميل الى انهُ لم يسر بجسده ، وان جميع ما ذكروه فيه من رؤيته في السماوات الأنبياء ، وذكر تخفيف الصلوات ، وتردده على الله - تعالى - غير صحيح ، والله - تعالى - أسرى بِهِ بجسده ، وروحه ، من المسجد الحرام ، الى المسجد الأقصى ، وانزل في كرامته له هذه تنزيلاً في ذكرها ؛ لنؤمن بهما فيه . فكيف لا يذكر الباري تعريجه من الأرض الى السماوات أو الى اعلى من السماوات في تنزيله ؟ ولو كان صحيحاً لأنزل ذكر ذلك الباري في تنزيله . وجهل علم وقوع المعراج مما يسع فليس هو من العقائد الدينية . والله أعلـم .

الباب الخامس والثلاثون

فيما تعلقوا بهِ في اثبات اللوح المحفوظ من كتاب ركن الدين تأليف المعتزلي

ذهب قوم الى ان الله خلق لوحاً ، وسماه اللوح المحفوظ ، وكتب فيه جميع ما هو كائن الى يوم القيامة ، وتعلقوا في ذلك بآيات ، فمن ذلك قوله - تعالى - : ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ ، قالوا : فبين انهُ في لوح محفوظ .

الجواب : انهُ قال في لوح محفوظ ولم يقل في اللوح المحفوظ فنكره ولم يعرفه بالألف واللام ، ولو عني بهِ ما ادعوه لوجب ان يعرفه ؛ لانهُ مقصود مخصوص ؛ وانما ينكر الشيء متى كان ذا جنس واشتباه وامثال . واصل اللوح في اللغة من التلألؤ يقال لاح الشيء يلوح لوحاً والشيب يلوح في الرأس .

وقال الأعشى :

فلئن لاح في الذوائب شيبٌ　　　نال نكراً وانكرتني الغواني

وكل من لمع بشيء فقد لاح بهِ ، يقال : لاح البرق فهو مليح ويعني بقوله : بل هو قرآن مجيد ، اي شريف في نظم عجيب يتلألأ حسناً محفوظ عن ان يؤتى بمثله ، او يبطل بوجه . قال الله - تعالى - : ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ ومن ذلك قولهُ تعالى : ﴿وانه في أم الكتاب لدينا﴾ (الآية) . قالوا : ويعني بام الكتاب : اللوح المحفوظ .

الجواب : انهُ لا تعلق لهم في ذلك ؛ لانهُ ليس ام الكتاب هو اللوح بل ام كل شيء اصله ؛ قال الله - تعالى - : ﴿لتنذر ام القرى ومن حولها﴾ يعني

اصلها ، ومنه سميت الوالدة اماً لانها اصل الولد ، وقد بين الله ـ تعالى ـ ام الكتاب ، وفسره تفسيراً لا يحتاج معه الى غيره ؛ فقال : منه آيات محكمات هنَّ ام الكتاب﴾ فبين ان ام الكتاب : الآيات المحكمات دون غيرها ، ومعنى لدينا اي في حكمنا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وما من غائبة في السماء والارض الاَّ في كتاب﴾ (الآية) .

قالوا : فقد بين ان جميع ذلك مسطور في كتاب مبين ظاهر ، وليس يعقل ذلك الاَّ في اللوح المحفوظ .

الجواب : ان اللوح لا يسمى كتاباً بوجه من الوجوه ؛ واذا كان كذلك فالمتعلق بذلك عادل عن الظاهر ، وقائل ما لا يوجبه الظاهر ، وذلك يسقط تعلقه ومعناها على وجهين : أحدهما : ان يعني بِهِ انهُ عالم بِهِ ، لا يخفى عليهِ شيء ، وهو محفوظ لا يهمل شيئاً منه ، لان الكتاب لما كان يقيد العلم بالشيء ، ويقتضي حفظه ؛ اقيم مقام العلم ، كما بيناه في غير موضع من اقامتهم ؛ ما يؤدي الى شيء مقامه ، كما اقيم العلم الذي يحصل عند وجود الفعل مكان الفعل ، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ ؛ ويدل على ذلك انهُ اخبر مثل ذلك عن انكارهم البعث فقال ـ تعالى ـ : ﴿ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين﴾ ، ثم قال : ﴿قل عسى ان يكون ردف لكم﴾ (الآية) . ثم قال بعد ذلك : ﴿وان ربك ليعلم ما تكن صدروهم﴾ (الآيتين) الى آخرهما فاخبر انهُ عالم بجميعه ، وانهُ لا يخفى عليه شيء ، وانه لا غائبة في السماء والارض الاَّ وهو عالم بِهِ ، والوجه الآخر ان يعني بالكتاب المبين القرآن ، وقد وصفه بذلك في غير موضع . فكأنه قال لا غائبة في السماء والارض الاَّ وهو مبين في القرآن ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ . ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وكل شيء أحصيناه في امام مبين﴾ ، قالوا يعني اللوح المحفوظ ؛ لان جميع الاشياء تحصى فيه دون غيره .

الجواب : ان المراد بِهِ القرآن كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ما فرطنا في الكتاب

من شيء﴾ وبعد فاللوح لا يسمى : اماماً والقرآن يسمى : اماماً . انقضى الذي من كتاب ركن الدين . ومن غيره وقيل ان اللوح المحفوظ : من درة بيضاء ، مسيرة خمسمائة عام ، ومثل ذلك عرضاً ، وقيل جبهة ملك ، والأصح ان اللوح المحفوظ هو : عالم المثال وكل من تمثل لهُ شيء في عقله من علم ، او صناعة شيء ، فانما هو قد رآه من اللوح المحفوظ والله اعلـــم .

البـاب السـادس والثلاثـون

فيما تعلقوا بهِ من معرفة قارون الكيمياء من كتاب ركن الدين

الذي تعلقوا بهِ من ذلك قوله تعالى : ﴿انما أوتيتهُ على علم عندي قالوا عني بهِ﴾ الكيمياء .

الجواب : ان التعلق بذلك فاسد وذلك ؛ لانهُ لم يقل بعلم عندي وليس في اللغة ان يقال اعطيت كذا على علم ان يكون العلم شيئاً للعطية ، على ان العلم يجوز رده الى أشياء كثيرة ، فمن اين المراد بهِ الكيمياء ؟ وليس في الآية ذكر لذلك ، ولا دلالة عليهِ . وسنفسر العلم على وجه معلوم دون الكيمياء . على ان اثبات الكيمياء غير صحيح . وقد دل المتكلمون على فساد ذلك بما فيهِ غنية وكفاية . ولولا ان الكتاب ليس من شرط امثال ذلك ؛ لاوردت منه ما يكون كافياً ، وفيما ذكر شيخنا ابو زيد البلخي في كتابهِ : في تقاسيم العلوم غنية ، وكفاية في هذا الباب .

فاما معنى (الآية) فيحتمل وجهين : احدهما : ان الله ـ تعالى ـ اخبر بمثل ذلك عن كل من يؤتيهِ الله مالاً ، انهُ يقول مثل ما قال قارون . ألا ترى الى قولهِ ـ تعالى ـ : ﴿انما أوتيته على علم بل هي فتنة﴾ ، فقد اخبر ان الكل يقولون : مثل ما قال قارون بمعنى ان المعطي آتانا ذلك اعطانا على علم باستحقاقنا ذلك ، ولو لم نكن لهُ اهلاً ما اعطانا الله ؛ فرد الله ذلك بقولهُ : ﴿بل هي فتنة﴾ فاخبر ان الذي اعطاهُ الله امتحاناً لهُ ، وليس عن استحقاق . ولا تعلق في ذلك بقوله : ﴿عندي﴾ لانهُ يريد ان هذا كما قلتهُ فيما اراه او توهمه . ويقال ان موسى ـ عليه السلام ـ قد كان اخبر قارون بهلاك قوم فرعون في الوقت الذي هلكوا فيه ، فاستعار منهم ما امكنه ان يستعير ،

واستلف منهم كل ما وجد ، واشترى منهم كل ما بيع واحتال في ذلك بجهده ، فلما هلكوا خلص لهُ جميع ذلك . وهذا اولى مما قالوا من العلم بالكيمياء الذي لا دليل عليه .

فصــل : ومنه : فيما ادعوه من رفع عيسى ـ عليه السلام ـ الى السماء فمن ذلك : قولهُ ـ تعالى ـ في وصف ادريس : ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ . قالوا : والمكان العلي : هو السماء وقصوا في ذلك قصة طويلة .

الجواب : انهُ لا تعلق لهم في الظاهر ؛ لانهُ لا يقال : رفعت فلاناً السطح ، او رفعتهُ مكاناً علياً ؛ انما يقال : رفعته الى السطح ، او الى مكان عال ، ولان رفع الشيء الى العلو ليس بمدح لهُ ، ولا شرف . ولو كان كذلك ، لكان من على جبل ارفع حالاً ممن في الحضيض . واذا تقرر ان المراد بهِ ليس هو المكان ، وانما يراد بهِ المنزلة ، والحالة ، والقدر ، كما يقال : انت مني بالمنزلة العلية ، والمكانة الرفيعة ، ولفلان عندي مكانة رفيعة ، ومنزلة عالية ، ويقال هو أرفع منهُ حالاً ، واعلى مكاناً ، وذلك يوجب سقوط تعلقهم بذلك ، ومن ذلك قولهُ ـ تعالى ـ في وصف عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه﴾ قالوا فأخبر : انهُ لم يقتل ، وانما رفعه الله اليه ؛ والرفع اليه يكون رفعاً الى السماء .

الجواب : الظاهر لا تعلق لهم فيه ؛ لانا بينا : انهُ ـ تعالى ـ ليس في مكان ؛ وانما يضاف ذلك ويوصف بهِ على معان شتى : كقوله : ﴿ اني ذاهب الى ربي ﴾ ، ومنه قوله : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله﴾ ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿اليه يصعد الكلم الطيب﴾ ولا يصح الصعود على الكلم الطيب . واذا كان كذلك سقط تعلقهم بها . وبعد : فان قولهم : ان الرفع اليه انما هو رفع الى السماء ؛ فدعوى لا دليل عليه . فاما معناها : فقد بينا في الفصل الاول : انهم يعبرون عن المراد بالفاظ مختلفة فصاحةً ، وتحسيناً للكلام كقولهم للنادم : سقط في يده . وللشيء الهالك : وضع على يدي عدل ، ويعبرون عن وفاة الرجل : دعاه الله اليه فأجابه ، وتارةً نفد اكله ،

وتارةً بقولهم : قضى نحبه ، ويقولون : رفعه الله اليه ، واشباه ذلك مما يكثر وهو كقولهم : قبضه الله اليه . والذي يدل على ان المراد بهِ الموت كقوله : مخاطباً : ﴿اني متوفيك ورافعك اليَّ﴾ فجمع بين التوفي ، والرفع اليه ؛ ليعلم ان كليهما واحد ، وقد يجوز ان يجمع بين اللفظين المختلفين ، وان يعبر بهما عن معنى واحد كقوله : ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ ، ومعنى رءوف معنى رحيم .
واذا كان كذلك سقط تعلقهم (الآية) .

البـاب السـابع والثلاثـون

فيما يتعلق بهِ القائلون بالتناسخ

ومن كتاب ركن الدين : فيما يتعلق بهِ القائلون بالتناسخ على صحة مذهبهم . اعلم : ان اهل التناسخ وان اختلفت مذاهبهم ، وتباينوا في الأديان من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والثنوية ، والفلاسفة ، والمسلمين اتفقوا في القول بالتناسخ .

وأما هم قالوا : أن الأرواح ستنسخ في أربعة أجناس ، وهي نسوخ ، ومنسوخ ، وفسوخ ، ورسوخ ، فأما النسوخ : فان ينتقل روح آدمي من بدن انسان الى بدن انسان ؛ فهذا هو النسخ ، والمنسوخ ان ينتقل روح الآدميين الى ابدان البهائِم ، والسباع ، والطير ؛ فهذا هو المسخ ، والفسوخ ان ينتقل روح الآدمي الى بدن دواب الارض ، ودواب الماء : مثل الحيات ، والعقارب ، والدود ، والسراطين ، والسلاحف ؛ فهذا هو الفسخ ، والرسوخ ما يمسخ من انواع الشجر ، والنبات ، فهذا هـو الرسخ .

وزعموا : ان الناس يمسخون في هذه الاصناف على قدر مراتبهم ، ومقدار طبقاتهم ، فلا يزالون يسيرون في الأجساد ، من جسد الى جسد ؛ حتى يذوقوا وبال ما اكتسبوا في هذا البدن الآدمي ، ولا دار غير هذه الدار ، والقيامة عندهم : خروج الروح من بدن الى بدن آخر . والمنعمون في الأبدان الحسنة الانسية ، والمعذبون في الأجسام الردية المشوهة من الكلاب ، والقردة والخنازير ، والحيات والأجساد عندهم بمنزلة الثياب ، يلبسها الانسان تبلى وتطرح وتعلقوا في ذلك (بآيات) : فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ ، فهذا مسخ .

الجواب : انهُ لا تعلق لهم فيه ؛ لانهُ ـ تعالى ـ لم يقل اني مسخت ارواحهم ، وانما اخبر انهُ حول أجسامهم قردة وخنازير ، والجسم حول الى تلك الحالة على سبيل العقوبة ؛ وانما هذا هو مسخ الاعيان ، لا مسخ روح من جسد الى جسد ، وليس بمنكر ان يمسخ الله ـ تعالى ـ عين انسان الى صورة اخرى على سبيل العقوبة . وانما ينكر ما يقولونه : من تناسخ الأرواح على ان هؤلاء الذين مسخوا لم يبقوا بعد ثالثة ولم يكن لهم نسل ؛ وبذلك جاءَت الاخبار عن النبي ـ عليه السلام ـ فلا تعلق لهم في ذلك بوجه . ومنه : ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ، قالوا : فاخبر انهُ يصير بهذه الحالة ، وهذا لا يتأتى على مذهب اهل التناسخ .

الجواب : انهُ لا تعلق لهم : لانهُ ـ تعالى ـ لم يخبر بذلك على سبيل الحكم ، والاخبار أن يكون كذلك ؛ وانما هو نفي وتبعيد . وذلك ان من عادة العرب : اذا ارادوا التبعيد للشيء علقوه بما يستحيل كونه . وقال الشاعر :

اذا شاب الغراب اتيت أهلي   وصار القار كاللبن الحليب

ولم يرد الشاعر : ان الغراب يشيب ، وان القار يصير كاللبن ؛ وانما اراد نفي رجوعه اليهم ؛ فعلقه بما يستحيل كونه ، ويقال لا اتيك سن الحسل يعني حتى يسقط سنه ، ولا يسقط سنه ابدا . ويقال من دون ذلك خرط القتاد ، وهذا الباب معروف فيما بين اهل اللغة ، وهو اشهر واكثر في اشعارهم ، وخطبهم ، ورسائلهم ، من ان يحوج معها الى دلالة . واذا كان كذلك سقط تعلقهم . ومنه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾- قالوا : ولا يصح هذا الا على مذهب اهل التناسخ .

الجـواب : انه لا تعلق فيه ؛ لأنه لم يقل : قد علم الصلاة الواجبة عليه ؛ وانما قال : صلاته ، والصلاة اصلها الدعاء ، والدعاء انما يكون لطلب ما يحتاج اليه . والتسبيح هو التبعيد عما لا يستحقه ؛ فاراد ان كلا من

الطير قد علم ما يحتاج اليه ، ويطلبه ويدعوه وما يجب عليه الاجتناب منه من مضاره . وذلك : ان الله تعالى خلق السباع والطيور خلقة تعلم مصالحها ، ومضارها ، فهي تعلم مصالحها وتهرب من مضارها . وليس في ذلك دلالة على شيء من مذهب القوم ، ومن اين انها اذا علمت صلاتها وتسبيحها دلت على انها نقلت من بدن الى بدن على سبيل النسخ ؟ فهذا استدلال بعيد . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ واوحى ربك الى النحل ﴾ . فلو لم يكونوا عقلا ؛ لما جاز الوحي اليهم .

الجــواب : الظاهر لا تعلق فيه ؛ لأنه ليس في الوحي ما يدل ، او يوجب كونهم منسوخين من هيكل الى هيكل . ولا خلاف في ان الوحي يكون بمعنى الالهام والتسخير ؛ فالله تعالى سخر النحل لما ذكروا ، الهمها ذلك ، واخبر عن ذلك الأمر ، وان كل ذلك على سبيل التسخير . وقد بينا جواز ذلك ، وهم يجعلون الأمر تارة خبرا وتارة امرا . ويخبرون باحد اللفظين عن الأمر . وقد مر ذلك في الفصل الأول ؛ فسقط التعلق به . انتهى ما اردنا نقله من كتاب ركن الدين .

(**مسألة**) : ومن غيره من كتب اهل المذاهب الاربعة : قوله : والبعث حق : وهو ان يبعث الله الموتى من القبور بان يجمع اجزاءهم الاصلية ، ويعيد الارواح اليها لقوله تعالى : ﴿ثم انكم يوم القيامة تبعثون﴾ وقوله تعالى : ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ . وغير ذلك من النصوص القاطعة الناطقة بحشر الاجسام ، وانكره الفلاسفة ؛ بناء على امتناع اعادة المعدوم بعينه ، وهو مع انه لا دليل لهم يعتد به ؛ لأن مرادنا ان الله يجمع الاجزاء الاصلية للانسان ، ويعيد روحه اليه ، سواء سمي ذلك اعادة المعدوم بعينه ، او لم يسم . وبهذا سقط ما قالوا أي : الفلاسفة : انه لو اكل انسان انسانا بحيث صار جزءا منه ، فتلك الاجزاء اما ان تعاد فيهما اي : المأكول والآكل ، وهو محال او في احدهما ، فلا يكون الاخر معادا بجميع اجزائه ؛ وذلك ان المعاد انما هو الأجزاء الاصلية الباقية من اول العمر الى آخره ، والمأكولة فضلة في الأكل

الاصلية ، فان قالوا : هذا قول بالتناسخ ؛ لأن البدن الثاني ليس هو الأول ؛ لما ورد في الحديث : ان اهل الجنة جرد مرد ، وان الجهنمي ضرسه مثل احد ، ومن ها هنا قال من قال : ما من مذهب الا والتناسخ فيه راسخ . قلنا : انما يلزم التناسخ لو لم يكن البدن الثاني مخلوقا من الاجزاء الاصلية للبدن الأول ، وان سمي ذلك متناسخا كان مراعا في مجرد الاسم ، ولا دليل على استحالة الروح الى مثل البدن ، بل الادلة قائمة على حقيقة سواء سمي متناسخا او لا . قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان الاباضي : ان التناسخ هو مذهب المجوس . معهم ان كل روح في جسد اذا فارقت الروح الجسد صارت في جنس شيء من الحيوان ، ثم يولد ذلك بتلك الروح الطيبة الاخلاق ، والروح تنتقل فيها هو كذلك ، مما هو معروف انه يتولد منه طيبا في اخلاقه من الحيوانات : كروح الانسان الحسن الاخلاق في ولد انساني يكون كذلك ، وفي بقر روح لبقر اذا صارت في جسد ولد من الناس ، تكون حسن الاخلاق ، والشر في الشر ، وانه لا حشر ، ولا نشر ، ولا حساب ، ولا جنة ، ولا نار ، والدنيا باقية خالدة كذلك ، ولكن لم يزل يضعف حتى يكون مثل الطفل ، ثم يزداد قوة ، وكثرة ، فهي على مثل اسباب الانسان الى ان ينتهي الهرم ، هكذا اخبرنا بعضهم بحقيقة ما عندهم ، والتناسخ معنا باطل بنص الذكر ، فكم آية في القرآن ان الاجساد هي التي يحييها الله تعالى ؟ واوضح آية في ذلك انه احيا حمار النبي عزير ـ عليه السلام ـ .

واما الاحتجاج عن اكل انسان انسانا حتى صار جزءا منه . ومن احرق ناعما ورمى به في البحر فبمثل هذا التفكر كان نفي بعث الاجساد ؛ فرد الله عليهم ولا جواب في ذلك : الا ان يقال : ان الله قادر على تمييز اجزاء كل منهما او غير قادر فلو قال غير قادر كفر ، وان قال : قادر اثبت صحة ذلك ، وليس شيء من مخلوقاته يعجزه مما هو غير مستحيل حقيقة ، او غير ما هو واجب ، فيجعله مستحيلا ، ولا يكون ذلك الا في صفاته سبحانه وتعالى . مثلا ان يقال : ان الله تعالى مخلوق ويلزمه ان يحتاج الى خالق يخلقه الى ان ينتهي الى خالق غير مخلوق ، فيكون هو الله تعالى ولا يكون مخلوق مثل خالق ليس

بمخلوق ، فصح ان امكان ذلك لا يمكن استحالته ، واذا امكن وقد صح انه : من الممكن فالحق هو ما اخبر الباري عن نفسه انه : قادر على ذلك ، وصح بمعرفة العقل انه لا يمكن الا امكانه ، ولا مجال للعقل فيما لا وسع في معرفته به من علمه الخفي عن خلقه سبحانه وتعالى . ومن اجزاء الانسان المأكولة يخرج في حدث الاكل عند خروجه منه . واما ان كبر الاجساد للكفار يوجب ان تلك زيادة عن ابدانهم التي عصوه بها ؛ فيصح انه ردت ارواحهم الى اجساد غير اجسادها ، فليس كذلك ؛ لأن الزيادة على الاصل لا توجب غيرية . فلا يقال : ان جسد الصبي الصغير اذا كبر ، وضخم ان ذلك جسد هو غير جسده في حال صغره ، فان قيل : ان هذه الزيادة لم تعص الله تعالى كيف تعذب مع العاصي ؟

فجوابه : ان لو كان العذاب لا يصح الا على الاجزاء العاصية لله تعالى من الانسان ؛ فالمشرك لا يشرك الا بقلبه ، وبلسانه بترك الشهادة ، ولم تعص بقية اجزاء كل موضع منه من اليدين ، والظهر ، والرجلين ، وغير ذلك ؛ وانما العاصي غيرها ، وليس لها استطاعة على خلاف العاصي منه ، ولا على اداء الشهادة والخروج من الشرك ؛ فاتضح الحق في ذلك . والله قادر ان يجعل الشيء الصغير كبيرا من غير ان يزيده من غيره ما يريد به جرمه . والله اعلم .

البـاب الثامن والثلاثون

في يأجوج ومأجوج

ومن كتاب ركن الدين فيما ادعوه من خروج يأجوج ومأجوج قبل الساعة في كلام طويل ، تعلقوا في ذلك بقوله تعالى : ﴿ حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ﴾ قالوا : فاخبر بخروجهم قبل يوم القيامة بقوله ﴿واقترب الوعد الحق﴾ .

الجـــواب : انه لا خلاف في خروجهم من ذلك الدرب الا انه في يوم القيامة . الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ . فقد قرىء بالجيم والثاء وهو القبر . وكذلك الحدب بالحاء . وبعد . فقد قال ذو القرنين عند بناء السد : ﴿ فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا ﴾ يعني : يوم القيامة ؛ لانه في يوم القيامة يصير دكا ، وليس يوجب قوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ ان يكون ذلك قبله ؛ لأنه اراد بالوعد ما وعد الناس من الثواب والعقاب ، وذلك يكون بعد يوم القيامة . واذا كان كذلك سقط التعلق به .

(**مسألة**) : ومن جواب الشيخ جمعة بن علي الصايغي - رحمه الله - في يأجوج ومأجوج من المكلفين أم لا ؟ ومن جنس الجن او من الانس ؟

الجـــواب : وبالله التوفيق : هكذا عندي ووجدت هم من ولد آدم والله اعلم .

(**مسألة**) : بعض كتب اهل المذاهب الاربعة قال الشيخ ولعله (النسفي) : وما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة : من خروج الدجال ، ودابة الارض ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى - عليه

السلام - من السماء ، وطلوع الشمس من مغربها فهو الحق . الشرح قوله فهو حق ؛ لانها امور ممكنة ، اخبر بها الصادق . قال حذيفة بن الغفاري : طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال : ما تذكرون ؟ فقلنا نذكر الساعة . قال : « انها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسف وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب واخر ذلك نار تخرج من اليمن تطردهم الى محشرهم » والاحاديث الصحاح في هذه الاشراط جدا .

قال الشيخ ناصر بن ابي نبهان : اما ما ذكره في اشراط الساعة من طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدجال ، وغير ذلك ما خلا ما ذكره الله تعالى في كتابه من فتح يأجوج ومأجوج وخروج الدابة فلم يأت فيه تنزيل ، ولا قامت الحجة بصحته عن النبي ﷺ ؛ ولا ينعقد فيه اجماع يلزم قبوله الا بصحة الرواية ، او صحة تأويل التنزيل . ولم يصح اجماع بذلك ، واما باجماع اجتماع العلماء على صحة ذلك بغير دليل الهي ، ولا ثبوت صحة رواية نبوية ؛ فلا ينعقد اجماع ديني ؛ لأنه لا يخرج عن الظن الى اليقين . واما خروج يأجوج ومأجوج ، والدابة فقد نطق بهما القرآن ، ويحتمل ان يكون المعنى المقصود هو على ظاهر اللفظ ؛ ولكن معنى ظاهر اللفظ يخالفه قوله تعالى : ﴿ لا تأتيكم الا بغتة ﴾ والقرآن لا يخالف معنا بعضه بعضا فعلى هذا يحتمل ان يكون المعنى على تقدير لو ، اي : لو فتحنا عليهم يأجوج ومأجوج فهم من كل حدب ينسلون ، فيكون بقاء السد عليهم نعمة من الله تعالى لعباده ذكرها عباده المتقين ، فيكون بقاء السد عليهم نعمة من الله تعالى لعباده المتقين ذكرهم بها ليشكروه ، وكذلك خروج الدابة يحتمل ان يكون المعنى مقدرا بلو اخرجنا لهم دابة تذكرهم اذا حق عليهم القول بحكم الكفر عليهم ، وبهلاكهم لم ينفعهم ذلك ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون اخبار من الله عنهم ، لا اخبار عن كلام الدابة على هذا الوجه من التأويل ان صح . والله اعلم بتأويل كتابه وبالله التوفيق .

ومن ارجوزه الصايغي :

قلت لـه كيف تـرى يـأجـوجـا   من اين كـانوا وكـذا مأجـوجـا

قــال هم من آدم قــد قـيــلا   ليسـوا من الجن فع التـأصيـلا

البـاب التاسع والثلاثون

فيما قيل في أصحاب الاعراف

ومن جواب الشيخ خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي : وفي قوله تعالى : ﴿ وعلى الاعراف رجال ﴾ (الآية) ما تفسير الاعراف ؟ وما معناه ؟

الجـــواب : جاء في التفسير في قوله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ اي بين الجنة والنار حجاب . اي : حاجز وهو السور الذي ذكره الله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ، وعلى الاعراف : وهو السور الذي بين الجنة والنار : رجـال استوت حسناتهم ، وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هنالك حتى يقضي فيهما ما شاء ، ثم يدخلهم الجنة برحمته ، وهم اخر من يدخل الجنة ، وهم يعرفون اهل الجنة ، واهل النار . فيعرفون اهل الجنة ببياض وجوههم ، ونضرة النعيم عليهم ، ويعرفون اهل النار بسواد وجوههم وزرقة اعينهم . وقال ابن مسعود : يحاسب الله الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته اكثر من سيئاته بواحدة ادخل الجنة ، ومن كانت سيئاته اكثر من حسناته بواحدة ادخل النار ، ومن استوت حسناته ، وسيئاته كان من اصحاب الاعراف ، ولا ينزع النور الذي كان بين ايديهم ، وقيل : ان اصحاب الاعراف كانوا ملائكة فسموا باسم الرجال . والله اعلم بتأويل كتابه .

(**مسألة**) : ومن جواب الشيخ ناصر بن ابي نبهان الخروصي : وما عندك شيخي وسيدي فيما قيل في اصحاب الاعراف انهم بين الجنة والنار وما قال في ذلك أصحابنا ؟ بين لي ذلك .

الجـواب : ان جميع ما نظرته من تفسير اهل التفسير للقرآن العظيم ، لم يبن لي صحة ما قالوه : في تفسير الاعراف ، ولا في تفسير قوله تعالى : ﴿ اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ؛ لأن المؤمنين والكافرين اذا كان بينهم سور كيف يعرفون ما يؤ تى لاهل الجنة في الموقف من نعيمها ؛ حتى يكون قولهم : ﴿ أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ قال هل انتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ فان كان رآه في الموقف ؛ فالفهم اليه قريب ، وان كان رآه في الجنة ، فالفهم عنه ابعد ؛ لأن الجنة تكون على هذه ان النار معها وهي اسفل ، والجنة اعلى فلم يتصور معنى ذلك في عقلي . والله اعلم بتأويل كتابه . وليس معي شيء من تفاسير القرآن لاملك يمين ، ولا يحضرني لغيري في حين الجواب ، وما وجدته في التفاسير في معنى ذلك لم يتصور صحة معناه ، على معنى ما ذكروه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ ؛ فانه لو كان المعنى على ظاهره انه عند قرب الساعة ، يخرج الله دابة تكلم الناس ، ويفتح ليأجوج ومأجوج ؛ لم يكن اتيان الساعة بغتة . وقال تعالى : ﴿ ولا تأتيهم الا بغتة ﴾ وفي نفسي ان معنى هذه(الآيات) على غير ظاهرها . والمعنى لو فتح ليأجوج ومأجوج لفعلوا كما ذكره ؛ وانما سدهم عنهم رحمة لهم . والمراد بذلك ان يذكرهم بلطفه واحسانه لهم . وكذلك اخراج الدابة عسى ان يكون فيه تقدير .

وحاصل المعنى : ان لو اخرج الله لهم دابة تكلمهم لما كانوا باياته يوقنون . والله اعلم بتأويل كتابه .

(**مسألة**) : من كتاب بيان الشرع : في قوله الله تبارك وتعالى : ﴿ وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ كان ابن عباس - رحمه الله - يقول : الاعراف حائط بين الجنة ، والنار ، يعرفون اهل النار بسواد

وجوههم ، واهل الجنة ببياض وجوههم ، واهل الاعراف : قوم استوت حسناتهم ، وسيئاتهم . والله اعلم .

(مسألة) : الصبحي : ويقال : ان بين النار وبين الجنة مقدار ثلاثين الف سنة ، وان لهب النار يحملهم الى ان يطلعوا على اهل الجنة ، ونعيمها ؛ فيسألونهم ما شاء الله من ذلك . كما قال الله ، وربما سأل الولد والديه اللذين كانا اشفق به حالا فيجيبانه « ان الله حرم ذلك على الكافرين » والله اعلم .

ومن ارجوزة الصايغي :

قلت لـه ما صفـة الاعـراف فـقـال لي ذلـك غـير خـاف
فحـائط قـد قيـل بين النـار وجـنـة المـأوى فـلا تمـاري
وأهـله قـوم هـم الافـعـال منهم تـسـاوت هكـذا يـقـال
لـكنـه خـلاف قـول العـلماء ومـا بـه عن الصـواب حكـما

البــاب الاربعــون

في النجوم والرد على اصحاب النجوم

من كتاب النور تأليف عثمان بن عبدالله الاصم : فنقول ان النجوم : اجسام مؤلفة ، وصور مركبات تحركها القدرة ، وما كان هذا سبيله كان محدثا والمحدث : لا يجوز ان يكون محدثا للحوادث .

والدليل على حدث النجوم : انتقالها من برج الى برج ، فلا تخلو من ان يكون كونها في ذلك البرج لعينها ، او لمعنى . فان كان كونها في ذلك البرج لعينها ؛ وجب ألا تزول منه قط ؛ لان الحكم العيني لا يزول الا بزوال العين . وليس الأمر على ذلك ؛ لانا نعلم انتقالها من برج الى برج ، فلا يجوز ان يكون كونها في البرج لعينها ، ولا يجوز ان تكون بمعنى قديم ؛ لأنه لو كان ذلك المعنى قديما ؛ لوجب ألا تزول الا بزوال ذلك المعنى ، والمعنى القديم لا يعدم ؛ فوجب ألا يزول عن ذلك البرج ابدا ، فاذا بطل ان يكون كونها في البرج لعينها ، او بمعنى قديم ؛ لم يبق الا انها كانت فيها بمعنى حدوث ، وانتقلت بمعنى حادث ؛ فهي لا تخلو من ان تحلها الحوادث ، وما حلها الحوادث لم تخل منها ، واذا لم تخل منها لم تسبقها ، وكانت حادثة مثلها . فاذا صح ان النجوم محدثة لم يجز ان يكون لها افعال ؛ لان المحدث لا يفعل في غيره شيئا ، ولا يوجد عدما ولا يعدم وجودا ؛ فبطل ان يكون للنجوم تأثير في ايجاد ما يوجد ، واعدام ما يعدم . وبالله التوفيق .

فصــــل : ومن كتاب ركن الدين في تفسير متشابه القرآن الكريم . ينظر فيه . اعلم . انه متى ما لم يبن الكلام على اصل معلوم ، وحد معروف ، لم يتبين الحق من الباطل ؛ فمن اوجب الاشياء علينا في هذا الفصل : تبيين الخلاف بيننا ، وبين المنجمين ، لأنهم يموهون على الغفلة ؛ فيستدلون على

المتفق ، ويظهرون انه مختلف فيه ؛ كيما اذا اثبتوه اوجب ذلك اثبات اباطيلهم المختلف فيها . فنقول ان من مذهب اهل الاسلام : ان الله تعالى بحكمته ، ولطف تدبيره ، خلق السموات ، والارض ، وجعل السماء سقفا محفوظا مرفوعا ، والارض فراشا مبسوطا ، وركب في السماء الشمس ، والقمر والنجوم ، تركيبا عجيبا ، وجعلها سيارات ، تسير من المشرق الى المغرب ، يغيب بعضها اياما ، ويظهر احيانا ، وتغرب اوانا ، وتبعد زمانا ، وقدر القمر على منازل ينزل كل ليلة منزلة اخرى ، فيبتدىء هلالا الى ان يصير بدرا ، ثم يعود ضئيلا الى ان يسير ، ثم يهل فيه ؛ ليعرف عدد السنين ، والشهور ، كما قال الله تعالى : ﴿ قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ . وكذلك الشمس علق بها تغير الأزمنة من الفصول الاربعة ، على حسب قربها ، وبعدها منا ، وانقلابها وحلولها في البروج ؛ فجعل بعضها مختلف السير ، فيتدانى بعضها من بعض تارة ، ويتباعد بعضها عن بعض تارة ، وتكسف بعضها احيانا ، وجعل بعض النجوم لا يغيب ابدا كبنات نعش الكبرى والصغرى ، وما حواليهما يدوران على انفسهما ، وجعل بعضها يغيب اياما ، ثم يظهر كمنازل القمر ، وبعضها لا يظهر الا في السنين الكثيرة كالكوكب المسمى ذو الذنب . هذا كله متفق عليه ، مشاهد معلوم ضرورة .

وانما الخلاف بيننا وبينهم في موضعين : احدهما : في تركيب الافلاك ، والارض ، وما يتلو ذلك ، والاخر في الاحكام التي يدعونها ان جميع حوادث العالم من انواع الكائنات نشوا وتوالدا ، وفسادا وحدوثا وتغييرا من جهة الكواكب منها يتولد ، وبسببها يحدث ، حتى ادعوا ان جميع افعال الحيوانات منها وبسببها ، وان ارزاقهم واملاكهم ، وحياتهم ، وموتهم ، وتوالدهم ، وخيرهم ، وشرهم ، منوطة معلقة بقواها . وكذلك جميع ما يحدث في الجو من الصواعق ، والامطار ، والثلوج ، وغيرها ، وما يحدث في الارض ، من الزلازل ، والخسف ، وفي بطون المعادن ، وفي عمق البحار ، بها ومنها . ولو كان الامر على ما ادعوه ؛ لبطل الامر ، والنهي ، وارتفع الحمد ، والذم . وبارتفاع ذلك ؛ يرتفع الثواب ، والعقاب ، وببطلانه تبطل النبوات ،

والشرائع اجمع ؛ على انه يوجب ذلك بطلان اكثر العلوم بل جميعها ؛ لأن علم الطب وسائر العلوم لا فائدة في شيء منها ؛ لو كان جميع الحيوانات ، والكائنات ، والحوادث عن النجوم ، وبها يتعلق ، وعنها يحدث . ولو كان كذلك ؛ لبطل ايضا الفائدة في تعلم علم النجوم ؛ لأنه بتعلمه لا يستفاد شيء اذ لا يمكن لاحد ان يقدم شيئا ، او يؤخر الا ما يوجبه النجم ، فسواء علمه او لا يعلمه ان لم يكن اليه شيء من التقديم ، والتأخير ، والنقض ، والابرام وان كان لعارف علم النجوم تقديم شيء وتأخيره . من غير ان يكون ذلك موجبا عن النجوم ؛ فقد بطل قولهم : انه لا شيء من الكائنات الا ويحدث عنها ، ويكون بها . وكفى بعلم فساداً أدى الى طرحه ، وترك تعليمه وخلوه من الافادة ؛ اذ قد بينا ما بيننا وبينهم من الخلاف ، فنذكر آيات من القرآن ، واثار من قول الرسول ﷺ ما يدل على وهاء قولهم ، وفساد مذهبهم .

فنقول ـ وبالله التوفيق ـ : انه لا محال ان يمتن الله على عباده بما خلق لهم من صنوف مخلوقاته . فنذكر اليسير من الفائدة فيما خلق ، وندع ذكر ما هو اجل منه بكثير . واذا كان كذلك وذكر الله ما خلقه من النجوم ، والقمر ، والشمس ، وذكر انها يهتدي بها في ظلمات البر ، والبحر ، وانه جعل القمر لمعرفة الحساب واوقات الحج وغير ذلك ، وجعل الشمس ضياء والقمر نورا . وقال تعالى في وصف القمر : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وقال تعالى ايضا : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ﴾ . وقال تعالى في باب النجم : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ . وقال ايضا تعالى : ﴿ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ فلو كان جميع حوادث الدنيا كائنة منها ، متعلقة بها لوجب ذكرها والامتنان بها ؛ اذ النعمة فيها اجل .

ومما يدل على فساد قولهم قوله تعالى : ﴿ انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ . فبين ان الكواكب في سماء الدنيا وهذا خلاف قولهم ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ فبين : انها في فلك يسبحون . فلو كان كل واحد منها في

فلك غير الفلك الذي فيه الاخر ؛ لكان الواجب ان يقول : وكل واحد منهما في فلك يسبحون ، يدل على انه لو كان كل واحد منهما في فلك غير الفلك الذي فيه الاخر ؛ لما كان في نفي ادراك احدهما الاخر اعجوبة ؛ وانما يكون العجب في ان يسيرا في فلك واحد ثم لا يدرك احدهما الاخر ، والذي يدل ايضا على فساد قولهم من الاثر : ما روي عن النبي ﷺ انه قال : « اقتلوا الساحر والمنجم » وكذلك قوله عليه السلام : « من أتى ساحرا او كاهنا فصدقه فيما يقول فقد كفر بما انزل على محمد عليه السلام » وقد روي من أتى منجما او كاهنا ، وروي ايضا انه صلى الله عليه وآله وسلم قال في بعض اسفاره : « اتدرون ما يقول ربكم ؟ قالوا : لا . قال : «يقول الله اصبح طائفة من عبادي مؤمنون بي وكافرون بالطاغوت . وطائفة كافرون بي ومؤمنون بالطاغوت فاما المؤمنون بي الكافرون بالطاغوت فيقولون مطرنا بفضل الله وبرحمته . واما الكافرون بي المؤمنون بالطاغوت فيقولون مطرنا بنو كذا » . وقال ايضا عليه السلام : « ثلاث من امور الجاهلية النوح والانوا والطعن في الانساب لو ان الله تعالى حبس المطر سبعة اعوام ثم اغاثهم لقالوا مطرنا بنو المحدح » . وقال : « اياكم والنجوم فانها تدعو الى الكهانة » وقال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموٰات والارض الغيب الا الله ﴾ وقال : ﴿ ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير ﴾ ، والذي يتعلق به القوم في ذلك (آيات) . فمن ذلك قوله تعالى مخبرا عن ابراهيم عليه السلام : ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم ﴾ قالوا فقد عمل ابراهيم عليه السلام على الطالع ، وحكم بذلك وبنظره في النجوم فقال : ﴿ اني سقيم ﴾ وهذا ؛ يوجب صحة القول بالاحكام والاستدلال بها على تقدمة المعرفة .

الجـواب : التعلق بالظاهر فاسد ؛ لأنه تعالى لم يقل : انه نظر في احكام النجوم . فانما قال : ﴿ نظر نظرة في النجوم ﴾ والنظر في النجوم ليس يوجب شيئا مما يقول به الخصم . ولا انه اخذ الطالع ، ولا انه نظر الى

النجوم . فاما معناه فيحتمل وجوها : أحدها ما ذكره الخليل في كتاب العين . قال : يقال لمن تدبر في امره نظر نظرة في النجوم . وللعرب في امثال ذلك الفاظ يعبر بها عن معاني . على غير لفظ الظاهر فمن ذلك قولهم للنادم : سقط في يده وليس لليد في الندم سبب ، ولا فعل ، ويقال للشيء الهالك المأيوس منه : وضع على يدي عدل ، ويقال للباطل : هذا زين أو سعيد العين . وهذا كثير في اللغة ، وكذلك قوله : ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ وضع اخبارا عمن يدبر في امره ، ويجوز ان يكون الاصل نظرهم في الطالع واحكام النجوم ، والاختيارات ، فلما كان ذلك كالتدبير في ابتداء الاسباب ، واشتهر ذلك اطلق هذه اللفظة عن كل من يدبر في امره ، وان كان غير ناظر في شيء من النجوم ، ووجه اخر وهو : انه يجوز ان يكون ابراهيم عليه السلام كان تعتاده حمى ، وعلة ، فنظر الى النجوم فقال : ﴿ اني سقيم ﴾ اي قرب وقت علتي ؛ لأن الاوقات يعرفها بمجاريها وسيرها ، ووجه اخر : وهو انه جاز ان تكون عادة القوم النظر في احكام النجوم ، والعمل عليها واخذ الطالع للاختيارات ، فلما أراد ابراهيم عليه السلام التأخر عنهم لما عزم عليه من قطع ايدي الاصنام ، اخذ الطالع على عادتهم ، ورسمهم ، يريهم انه يختار بذلك فقال : ﴿ اني سقيم ﴾ لعذره في التأخر عنهم فلم يلزم بذلك شيء مما قالوه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر بحسبان ﴾ قالوا يجريان بحسبان . وهذا يصحح امر النجوم .

الجــواب : الظاهر لا تعلق لهم فيه ، وذلك انا بينا انا لا ننكر ان للنجوم سيرا وانها تجري بحسبان ، وعلى مقدار هيئت له ، وان سير كل واحد خلاف سير الاخر ، وان سير جميعها يجري على مقدار معلوم ، واذا كان كذلك فليس في (الآية) الا انها تجري بحسبان ، وعلى مقدار معلوم ، ليس في شيء مما اختلفا فيه من احكامها وتعلق حوادث الدنيا بها ، ولا دلالة عليها ، واذا كان كذلك . سقط التعلق (بالآية) ، ومنه : ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والنجم اذا هوى ﴾ قالوا هي الزهرة اذا طلعت .

الجــواب : ليس لهم في ذلك تعلق ؛ لانا لا ننكر طلوع الكواكب

وغروبها ، وليس ذلك فيما اختلفنا فيه بسبيل ؛ على ان النجم اذا اطلق ؛ انما يكون معناه الثريا وهويه سقوطه .

تم الجزء السادس في اثبات الوعد والوعيد وذكر معنى ثبوت الايمان بالتصديق بالجملة وتفصيل وجوه الشرك من النفاق وذكر القول في البعث والحساب وعذاب القبر وذنوب الانبياء وذكر شيء من احوال الجن والسحر وفي نطق الجمادات وتسبيحها والقول في المعراج واللوح المحفوظ ويأجوج ومأجوج والاعراف من كتاب قاموس الشريعة يتلوه ان شاء الله الجزء السابع فيما يسع جهله وما لا يسع جهله وما تقوم حجته من دين الله من جهة السمع والعقل من كتاب قاموس الشريعة تأليف الشيخ العالم النزيه جميل بن خميس بن لافي السعدي .

تم بحمد الله



طبع بمطابع
دار جريدة عُمان للصحافة والنشر
سـلطنة عُمـان
١٩٨٣







